محمد المنسي قنديل

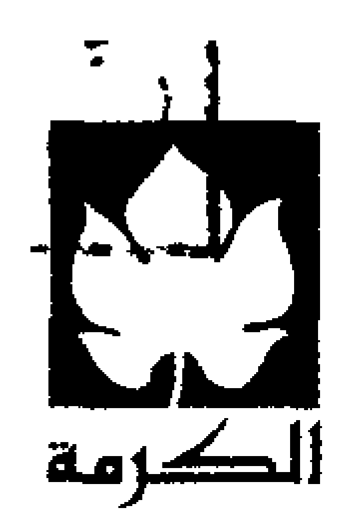


شخصيات حية من الأغاني

شخصيات حية من الأغاني

محمد المنسي قنديل







لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع: www.facebook.com/alkarmabooks

قنديل، محمد المنسي.
شخصيات حية من الأغاني / محمد المنسي قنديل ـ القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.
٤٤٨ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776467224
١ ـ القصص العربية القصيرة
أ ـ العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٢٧٦٣ / ٢٠١٤

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣

المحتويات

١

أبو الفرج الأصفهاني

عن الكتاب وعن الكاتب

لو وُجد أبو الفرج الأصفهاني في أيامنا، هل كان يستطيع أن يؤلِّف كتاب «الأغاني» في تلك الأجزاء التي تبلغ ستة وعشرين جزءًا؟ ناهيك عن ضيق الوقت، وكثرة المشاغل، واللهاث خلف لقمة العيش، وعدم ملاءمة هذا النوع من المؤلفات الموسوعية لعصرنا، هل كان يستطيع أن يجد بيننا مادته الحية؟ هل كان يمكن أن يصل إليه ذلك الكَمُّ الكبير من أخبار فرسان الصحراء، والخلفاء، والندامى، والشعراء، والجواري، وربات الخدور، والقيان المغنيات، وسلاطين الحيرة، والصعاليك، والشواذ، والظرفاء، والمتأدبين، وعلماء الكلام، ومثيري الفتن، والشُّعوبيين، والعُذريين، والهازلين، وقاطعي الطرق؟ هل كان يستطيع أن يُعيد أُنس الليالي الخوالي، ويبعث بالضوء إلى السماء الخابية، الخالية من النجوم.. أم أنه سوف يجدنا مُتعَبِين، نادمين على اليوم الذي نعيشه، خائفين من اليوم الآتي، سيجدنا في ذيل القائمة بعد أن كنا على رأسها؟

لن يجد أبو الفرج في ليالينا مادة الأسمار الحية، ولا في أشعارنا ذلك الوضوح والشهوة الصريحة والرغبة في الحياة، ولن يجد أيضًا في قصص العشق ذلك الهوى المستعر، وحس الفناء في المحبوب، حتى أغانينا سوف تؤذي أذنيه وهي تُكرر وتُعيد نفس المعاني الركيكة كأنها أسطوانة مشروخة.

ليبق إذن أبو الفرج بعيدًا، وليبق «الأغاني» كتابًا فوق الرَّف، فالأيام لم تعد هي الأيام، ونحن لم نعد نحن، فهذا الكتاب الموسوعة يحمل من الأسى أكثر مما يجلب من المتعة، كأن نوادره وأخباره وتراجم شعرائه مرثية طويلة لشمس حضارتنا الغاربة.

تقول حكاية الكتاب إنه في ذات ليلة أرق الخليفة هارون الرشيد، وظل يتقلب فوق فراشه دون سبب، لم يكن جسده مُتعَبًا، فهو لم يفعل أكثر من الجلوس على تخت الحكم، وكان زاهدًا في الجواري فلم يقربهن، ولم تكن أدوية المسكنات قد تقدَّمت لهذه الدرجة، لذا لم يجد بُدًّا من النهوض، وكالعادة إذا أرق الخليفة تستيقظ الدولة بأكملها. أمر حُجَّاب القصر أن يحضروا كل ما في بغداد من شعراء ومغنين وندماء. ولم يمر وقت حتى جاء جمعهم، بعضهم يعاني من أثر النوم وبعضهم من أثر السهر. وكان الخليفة صاحب الفكر طلب منهم ـ أعني أمرهم؛ فالخليفة لا بد أن يأمر ـ أن يختاروا أحسن مائة صوت ترنَّم بها المغنون على مدى السنوات. تنفَّس الجميع الصعداء، لم يكن الأمر جديًّا ولا مخيفًا، أخذوا يرتبون له الأصوات حسب جودة ألحانها وكلماتها، استأنس الخليفة قليلًا وأمرهم بالانصراف، لكنَّ النوم ظل جافيًا، فعاود النهوض وأمر بإحضارهم مرَّة أخرى.

جاءوا وهم يرجفون، يظنون أنهم قد أخطأوا الاختيار، لكنه أمرهم أن يختاروا من المائة صوت أحسن عشرة أصوات، اختاروا وانصرفوا. وللمرة الثالثة ظل النوم جافيًا، فاستدعاهم وكانوا عند الباب لم يغادروا القصر، أمرهم أن يختاروا أحسن ثلاثة أصوات، فاختاروا الصوت الأول من شعر أبي قطيفة، وهو ليس من الشعراء الفحول، وثانيهم عمر بن أبي ربيعة، وثالثهم الشاعر الأسود نصيب. هدأت نفس الخليفة وامتد حبل المجلس وهم يغنون الصوت الأول:

القَصرُ فالنخـل فالجَمَّاء بَينَهما   أشهى إلى القَلب من أبواب جَيرون

وظلوا يرددون هذه الأغنية حتى غارت النجوم وجاء الصباح.

هذا هو المنهج البدائي الذي وضعه أبو الفرج أمامه قبل أن يقضي خمسين عامًا يخط فيها موسوعته الضخمة «الأغاني»، يرتب الأصوات الثلاثة، ثم العشرة، فبقية المائة. أخذ يترجم للشعراء وللمغنين ويعقبها بفصول في غناء أولاد الخلفاء، ويتعرض من خلال ذلك لجوانب العصر السياسية والاجتماعية كافة. خمسون عامًا كاملة قضاها وهو يفند الأخبار، ويفاضل بين الروايات، ويجتهد في جمع الطريف والمفيد، حتى استطاع أن يتم نسخة واحدة ذهب بها إلى سيف الدولة الحمداني فأعطاه ألف دينار.

الأقدمون قالوا عن أبي الفرج إنه عبقري فذٌّ، صنع ما لم يصنعه أحد، وقالوا بل هو أكذب الناس، كان يذهب إلى سوق الورَّاقين فيحمل إلى بيته ما يمكن حمله، ويعكف في البيت على سرقة ما يجد من أخبار وينسبها لنفسه. وحكى الصاحب بن عباد أنه كان يصطحب معه إلى موسم الحج حمولة ثلاثين جملًا من الكتب، فلما ظهر كتاب

«الأغاني» استغنى به عن كل الكتب والجِمال. لكن ياقوت الحموي تساءل شامتًا: «أين هي هذه المائة صوت؟ إنها تسعة وتسعون فقط».
ولكن العميد طه حسين بذوقه الأدبي الراقي يؤكد أن أهم كتابين في التراث هما: «تاريخ الطبري» وهو المرجع في تاريخ الإسلام السياسي، وكتاب «الأغاني» وهو المرجع أيضًا في وصف الحياة الاجتماعية والأدبية والمزاج الحضاري الإسلامي.

على صفحات «الأغاني» يتراجع رجال السُّلطة قليلًا ليتقدم الشعراء، يخفّض الفرسان سيوفهم حتى يعلو همس العشاق، يتوقف صليل السيوف حتى يتواصل إيقاع اللحن والغناء، تصبح الواحة هي لقاء محبوبين، سهرة في الصحاري البعيدة حول عين ماء عندما يجلس أعرابي تائه وحوله مجموعة من الفتيات لا يعرفهن ولا يعرفنه يسامرهن ويروي لهن الأشعار، ثم يذبح ناقته إذا أقبل الفجر فيأكل ويأكلن ويمضي دونما وداع، عشاق معذبون يعيشون ما بين حرارة اللقيا ومرارة البين، وعندما يسمعون حداء القوافل يلفظون أنفاسهم الأخيرة. يؤرخ أبو الفرج لصفوة من الناس رفعهم جهدهم العقلي عن طبقتهم العادية، وزرع بداخلهم بذرة من الطموح القلق، يتأرجحون بين الأحلام التي يسطرونها في كلمات القصائد، وبين قوانين الأنساب القائمة والتي تشطر الصحراء بسكين لا يقطر دمًا.

ولد علي بن الحسن بن محمد القرشي، الكاتب المعروف بالأصفهاني، في أواخر القرن الثالث الهجري، وقضى شبابه وكهولته في بداية القرن الرابع الهجري، ولد عام ٢٨٣هـ، نفس العام الذي مات فيه البحتري الشاعر، وكان شاهدًا على عصر

مضطرب، مثل كل العصور التي تحمل مخاضًا كاذبًا يوهم بولادة التغير ولا شيء يتغير. كانت الدولة الإسلامية التي فتحها الراشدون والأُمويون وسلَّموها بأمجادها وفِتنها للعباسيين قد ذهبت شيعًا: في بغداد استولى أهل فارس على الحكم، وفي دمشق قامت دولة سيف الدولة الحمداني، وفي مصر تسيَّد الفاطميون، وفي المغرب والأندلس كانت هناك بقية من بني أُمية، كلهم ضعفاء، جاءوا للحكم بفعل الدسائس وتقلُّب الأزمان، وبرغم ذلك فكل فريق يدعي الشرعية وأحقيته بحكم المسلمين إما بنسب شريف مزعوم وإما بقوة السيف الصريح.

في بغداد كانت الخلافة العباسية قد هزلت وتحولت إلى صورة هشة كلما نفختها جماعة من العسكر سقطت، وتعكس أسماء الخلفاء في هذا العصر ما وصلوا إليه من هوان: الخليفة المطيع لله، المتوكل بالله، المستعين بالله، المهتدي بالله... أسماء وصفات حافلة بالخنوع والطاعة لله اسمًا ولقائد العسكر فعلًا، تكفي ليلة من النوم الغافل فوق سرير الخلافة، ويأتي الصباح فيجد الخليفة نفسه إما نائمًا في السجن وإما نائمًا في القبر.

في عام ٣٣٤هـ، أي في صدر شباب أبي الفرج، اقتحمت بغداد عائلة فارسية تُدعى «آل بويه» من أرومة الديلم، وتمكنت من الاستيلاء عليها، ووصل قائدهم أبو الحسن أحمد بن بويه واجتمع بالخليفة المستكفي بالله وبايعه فرضي الخليفة عنه، وهل كان يملك إلا أن يرضى؟! وخلع عليه لقب معز الدولة. واستقر آل بويه في المدينة، وامتلكوا أوصالها، واحتلوا ما أعجبهم من دور وقصور وسط بغداد،

ونهبوا ما نهبوا، وقتلوا منافسيهم أو وضعوهم في أقبية تحت الأرض، والخليفة راضٍ تمام الرضا، خصوصًا أن معز الدولة قد منحه راتبًا يبلغ خمسة آلاف درهم كل يوم، يتسلمها كاتبه دون مراجعة نفقاته.

كان أبو الفرج ابن عصره بحق؛ عرف أن هناك أكثر من مائدة، وأن عليه أن يجلس عليها مخلصًا لكل صنوف الطعام، منذ اللحظة التي اقتحم فيها آل بويه بغداد وهو يسير في ركابهم، ينادمهم ويؤلف الرسائل استجلابًا لرضاهم حتى حسبه معظم مؤرخي سيرته متشيعًا، وظل فترة طويلة من جلساء الوزير المهلبي وزير آل بويه، ولم يكتفِ بتدعيم مركزه في بغداد، لكن طموحه تعدى الحدود؛ فأقام الصلات الوثيقة مع سيف الدولة، وراسل بني أُمية في بلاد المغرب، وأرسل لهم أكثر من كتاب لم يبقَ منها شيء غير فصول متفرقة من كتابه «أدب الغرباء».

كان سؤال العصر الحائر: أين يمكن الولاء لأي دولة؟ ولأي حكام؟ أمة مفتتة ترقص رقصة الموت، تبني القصور الباذخة، وتغرق في الملذات، يزداد الإقطاعيون وحشية، ويزداد حرافيش مدنها فقرًا، تهب ريح الخطر من كل جانب، على الحدود الشرقية لدولة العباسيين تتخلق أقوام جديدة، جحافل من البشر الحفاة الجوعى كان مقدرًا لها أن تجتاح العالم المتحضِّر، وبغداد في مقدمتها، اجتياح الجراد، ولا تترك خلفها إلا الخراب، هؤلاء هم المغول الذين كانوا يتكونون وسط شرنقة السهوب الباردة.

وفي الشام كانت دولة بني حمدان وزعيمهم سيف الدولة تقيم نوعًا من التوازن الخطر بين الروم في الشمال والصليبيين في

الجنوب، وتدخل كل فترة من الزمن في غزوة قصيرة لا ينتصر فيها أحد ولا ينهزم فيها أحد، معارك هدفها الوحيد فقط هو حفظ التوازن في منطقة غير متوازنة.

وكانت بقايا بني أُمية الذين عاشوا حلم الأندلس الزاهي تترصدهم قبائل «القوط» التي تتأهب لطردهم عبر البحر ليذهب الأندلس إلى الأبد ويفقد العرب فردوسهم.

عن تلك البقية من الأمة اعتكف أبو الفرج خمسين عامًا، في بيت على ضفة دجلة، وهو يجمع الأخبار الغابرة، يسمع غناء الصيادين والموالي وهم يرددون المواويل عما حل بالبرامكة من نكبات، عن عز الرشيد وذل شارلمان، ويشهد راية العباسيين السوداء تخالطها نقوش الديلم السلاجقة. ظل وحيدًا كالسيف المفرد، يبعث ليالي الأسمار على الورق، ويُحيي ريح الصحراء الدافئة، تتحرك حوله القطط الكثيرة التي كان يهوى اقتناءها وتربيتها، حتى إن رائحة البيت لم تكن تُطاق، ولم يكن أحد يُقبل لزيارته، وغير ذلك من صفات منفرة كما ذكرها معاصروه. كان وسخًا إلى حد مقزز، لم يعرف الاستحمام قَطُّ برغم معرفة العرب بالصابون، كان يفصل الثوب ويلبسه فلا يخلعه من فوق جسده إلا وقد بلي وتقطَّع، يخرج من بيته يتبعه سرب من القطط حتى إذا وصل إلى مجلس الوزير المهلبي أمسك الجالسون أنوفهم، ونثر الغلمان العطر في أرجاء المكان، والوزير المهلبي يتحمل منه هذه الفظاظة لأدبه وغزارة معلوماته. وكان أكولًا نهمًا، يظل يغمس أصابعه في الأطباق التي أمامه حتى يأتي عليها، في الوقت الذي كان فيه الوزير المهلبي رجلًا شديد الأناقة، يقف غلام

عن يمينه يحمل صينية عليها حوالي مائة ملعقة نظيفة، فيتناول الوزير الواحدة ويأخذ بها الصنف الذي أمامه، ثم يعطي الملعقة لغلام آخر عن يساره ويتناول واحدة أخرى، ويظل يبدل الملاعق بعدد المرَّات التي تدخل فيها فمه، وأبو الفرج يأكل ويتجشأ ثم ينهي طعامه بأن يزدرد مقدار خمسة دراهم من الفلفل الأسود ليساعد على الهضم دون أن يبدو على وجهه أي تعبير.

خمسون عامًا وهو يسود الصفحات دون كلل، يساعده على ذلك وحدته الممضة، وغروره الشخصي، وفقره الذي لا يوازي طموحه، ويساعده أيضًا تقدم صناعة الورق؛ حيث استطاع علماء بغداد أن يطوروا البادرة التي أخذوها من الصين، وأنتجوا أنواعًا جيدة لا تتشرب الحبر. وعندما انتهى أخيرًا لحمل الكتاب إلى سيف الدولة الحمداني أعطاه ألف دينار وهو يعتذر؛ لأن نفقات الحرب ـ كالعادة ـ لم تُبقِ للكُتاب شيئًا. وظل فرحًا بالمبلغ حتى قابله أحد الأمراء ممن سمعوا بخبر الكتاب وقال له متأثرًا إنه لو أعطاه الكتاب بدلًا من سيف الدولة لنقده ألفين من الدنانير في الحال. وصُدم أبو الفرج؛ إذ لم يكن في مقدوره أن يخط الكتاب مرة أخرى، وأيامه الأخيرة تمضي حثيثًا، فأصاب عقله الوهن، وامتلأ البيت بالفئران بعد أن هجرته القطط، وأخذت تقرض خشب السقف، وطوال الليل يحلم أن هذه خيول المهدي المنتظر جاءت ترفع رايات الخلاص، وأصابه الفالج في أيامه الأخيرة فلم يعد يقوى على السير أو الحركة، أخذ يداوم على الجلوس في نافذة بيته، يُطل على نهر دجلة، ويسب الصيادين، ويبشر بدمار شامل مثل دمار سدوم وعمورة. وذات يوم

اكتشف الجيران أن سبابه قد انقطع، وأن رائحة العفونة التي تشع من البيت قد ازدادت، فاقتحموا البيت، كانت جثته ملقاة إلى جنب السرير والفئران تلعب فوقها، شيَّعوه في جنازة بسيطة لم يحضرها إلا نفر قليل؛ أقل من عدد مجلدات «الأغاني»، ودُفن في مقابر الصدقة على أطراف بغداد.

كان حديثه عن العصر الجاهلي يُغلفه طابع الخرافة، برغم محاولته الإيهام بتحري صدق الأخبار، وإيراده سلاسل من الأسانيد الطويلة دون أن يتحرَّج في أن يتسلسل نسب بعض الشخصيات حتى يصل بها إلى سيدنا آدم! ولكن الطابع الأسطوري لا يفارق روح الخبر. وكان يحب الأُمويين، لأن أخبارهم كانت تحمل له، مثلما تحمل لنا الآن، بعضًا من الكبرياء. كانت ريح الصبا إذ تهب، تهب من دمشق، وسنابك الخيل إذ تنطلق وتفتح الأمصار تنطلق من دمشق. صحيح أن دولتهم كانت حافلة بالفتن، ووقائع قتل أحفاد الأنبياء والصحابة الأجلاء، وانتزاع عروش واغتصاب بيعات، وكان فيهم ذلك الصنف من الأعمام الذي يأكل حق أولاد أخيه قبل أن تبرد جثته، وفيهم كل جنون المآسي التي نعرفها، لكن أبا الفرج نفذ إلى روح هذه الدولة الغريبة، شيء من رومانسية الانتصار والزهو، وبكارة اكتشاف العالم، كان القواد ينتصرون والشعراء يمدحون ويعشقون، وتتسع مساحة العالم الأُموي، ويزداد تلاصقه. وتقترب كتابته عن الدولة العباسية إلى درجة سرد التأريخ اليومي، فالأخبار تصبح عادية، والأقوال باهتة خالية من الحكمة، حتى إن نوازعه الشخصية تغلَّبت عليه فلم يذكر تراجم لشعراء مهمين مثل الحسن بن هانئ الشهير بأبي نواس، وابن

الرومي، في الوقت الذي أفرد فيه الصفحات الطوال لأولاد الخلفاء وأغانيهم وأشعارهم الركيكة.

لا تخلو أخبار الأصفهاني من فكاهة، حتى لو كان الحدث سياسيًّا مهمًّا: «دخل أهل المدينة المسجد وأتوا المنبر وأعلنوا خلعهم يزيد بن معاوية، فقال عبد الله بن عمرو: خلعت يزيد كما خلعت عمامتي، ونزعها عن رأسه. وقال آخر: خلعته كما خلعت نعلي. وقال آخر: خلعته كما خلعت ثوبي. وقال آخر: خلعته كما خلعت خفي. حتى كثرت العمائم والنعال والخفاف».

ولا يخلو من بعض الرومانسية، مثل حديثه عن عذاب المحبين العُذريين، برغم أنه يقابل ذلك بنوع خفي من السخرية، كان حسيًّا بدرجة ما، لذا لم يَسلَم عاشق دنف معذب مثل مجنون ليلى قيس بن الملوح من لمزاته، يقول: «سألت بني عامر بطنًا بطنًا عن مجنون بني عامر فما وجدت أحدًا يعرفه».

ويتحدث باحترام عن الأذكياء، فيروي عن ابن عباس الصحابي ذي الذاكرة الحديدية أنه كان يسد أذنيه عن صوت النائحات حتى لا يحفظه، وأقبل عليه عمر بن أبي ربيعة، فقال:

ـ أنشد.

فأنشده:

تَشُطُّ غدًا دارُ جِيرانِنا...

وسكت، فقال له ابن عباس:

وَللدَّارُ بَعدَ غَدٍ أبعدُ

فقال له عمر:

ـ كذلك أصلحك الله، أفسمعته من قبل؟

قال ابن عباس:

ـ لا.. ولكن كذلك ينبغي أن يكون.

خلف كل هذه الأخبار يموج عالم حي بالحركة والفعل والقدرة على الكسب والخسارة، لكن السؤال يطرح نفسه: هل أضاف جديدًا أكثر من أنه ألَّف كتابًا ممتعًا؟ لا شك أنه فند الكثير من الروايات والأخبار، ولا شك أنه كان أكثر صدقًا ومنطقية من الكثير من الكتب، لكنه اشترك في نفس العيب الذي يغلب على معظم كتب التراث العربي، وهو ما يمكن تسميته بالكتابة «اليقينية» أو بتعبير أدونيس: «أن يتحدث الكاتب عما يعرف وأن يبتعد عما لا يعرف». من ذلك نشأ ذلك الاهتمام البالغ برواية الأخبار، ورصد تلك السلسلة الطويلة من الأسانيد والعنعنات السخيفة، محاولة للإيهام أن ما قيل حقيقة. لذا لا تكسب الكتابة طابعًا وجدانيًّا بقدر ما تغلب عليها الصفة الموسوعية وعدم التخصص، وتتبدل الرغبة في الكتابة الحقيقية إلى محاولة محاصرة العالم بدلًا من الغوص خلف ظواهره المرئية واكتشافه.

ولكن تبقى شخصيات «الأغاني»، واقعية كانت أو خيالية، خليطًا من الحب والجنون والرغبة، تحلق عاليًا قبل أن يهبط بها مدار الوهم، ولعل هذا أحد أسرار إمتاع هذا الكتاب الفريد.



امرؤ القيس

أحزان الملك الضليل

قرر أبو الفرج الأصفهاني أن يبحث عن امرئ القيس.

كانت تحيط ببلاد الروم غيمة رمادية ممطرة، وامرؤ القيس يموت، منذ أن تظاهر قيصر الروم بالرضا عنه وأرسل له هديته، ثوبًا ثمينًا ولكنه مسموم، وجلد الشاعر يتساقط قطعًا صغيرة، لا تترك خلفها إلا قروحًا مليئة بالصديد. كان الصدأ يأكل شمس العرب المعطلة عندما بدأ أبو الفرج بحثه الدؤوب، قالوا له: «لا أثر له في الصحراء، لقد رحل إلى الشمال، ثلج وضباب ونسيان، فما جدوى تذكر المنسيين». ولكن امرأ القيس كان يهذي ويتذكر، لا يفصل بينه وبين الموت إلا قطعة صغيرة من الجلد، جده «آكل المرار» كان ملك العرب الأعظم، قبل أن يموت قسَّم القبائل بين أبنائه وجعلهم جميعًا ملوكًا عليها، وأصبح أبوه ملكًا على كندة وبني أسد وتغلب وبكرًا، وأصبح هو أميرًا على كل مضارب الصحراء ونسائها، خصوصًا نساءها.. عشق وصيد ورمل وشمس لا تغيب، هذيان وسط الجليد، وملاك الموت

الضئيل الحجم متدثر في عباءة سوداء، رابض كطفل شقي على حافة نافذة القصر، يمسك امرؤ القيس قطعة من الجلد المتساقط: «هذه هي النياشين التي أنعم عليَّ بها قيصر».

وعندما يصل أبو الفرج إلى بلاط الروم يؤكد له الحرس أن امرأ القيس هو موضع تكريم القيصر، حتى إنه وافق على أن يزوجه ابنته، فيتساءل أبو الفرج في سخرية: «منذ متى هذا الوفاق بين الروم والعرب؟ بين الرمل والثلج؟».

يعترف امرؤ القيس للندامى، قبل أن تجف مياه النبع، وقبل أن يتحلل دم الثأر: «عندما قسَّم جدي قبائل العرب بين أبنائه، قسَّم بيننا ميراث الكراهية، وهذا هو ما بقي من ميراثي: أب مقتول، وعرش لا أريده، وثأر ثقيل الوطأة على روحي».

عنكبوت تنسج خيوطها بين الدرع والسيف، وجواد يتقيأ العشب الرخو، وطائر الصدى تائه عبر الفيافي المغطاة يصيح: اسقني.. اسقني.
يجتاز أبو الفرج الأروقة، فيجد امرأ القيس منزويًا في حجرة حقيرة، وملاك الموت متربصًا على النافذة. يمسك امرؤ القيس بيده ويتوسل:

ـ خذني إلى الصحراء، عُد بي إلى الشمس.

لكن أبا الفرج ينفض يده في حنق وهو يهتف:

ـ لماذا لم تأخذ ثأر أبيك؟ أي عار حملته لنفسك؟! ألا تسمع طائر الصدى وهو يصرخ من العطش؟!

تغيم الذكريات في عقله كومضة خاطفة، كأحلام الموتى، يجتاز الصحراء وحيدًا، مغضوبًا عليه من أبيه ومن قومه ومن حبيبة قلبه فاطمة. يهدده أبوه: «أنت تقول الشعر وهذه صفة يأنف منها الملوك»،

ويهتف قومه في امتعاض: «كيف نرضى بمن يصاحب الخلعاء والسكارى ملكًا علينا»، وتهتف به فاطمة: «لا صلاح لك، تهوى صيد الجيف وبغايا النساء». كلهم لفظوه، نزعوا منه صفة الإمارة، نبذوه فنبذهم وتركهم دون أسف. كان الأب عملاقًا قاسيًا، يهوي بسوطه فلا يفرق بين حليف أو عبد، يمتهن شيوخ القبائل عندما يتأخرون في دفع الأعشار، ويغدر بالندامى، ويدخل بالنساء قبل أزواجهن، ليلة الزفاف الأولى كانت دائمًا من نصيبه، لا يفض بكارتهن إلا هو، نطفته هي الرطبة الأولى. وعلى الجانب الآخر تنتظر فاطمة، زهرة شقائق النعمان، في صمت وحزن، وهو عاجز عن أن يكون مخلصًا لها، وكان قومه كالماشية، ينهضون من تحت العصا، ويخرون تحت السوط، وامرؤ القيس يهرب من الجميع، يحاول أن يوهم نفسه أنه ليس نبتًا شيطانيًّا، لا ظل له ولا جذور.

ثم قُتل الأب، قُتل حجر بن عمرو، ابن آكل المرار، حدث الشيء الطبيعي والمنطقي، فعلها بنو أسد، عبيد العصي، الذين نهضوا من ذل الأسر وفداحة الإتاوات المفروضة، كانوا قد حاولوا العصيان وعدم دفع الأموال المفروضة عليهم للملك، لكن حجرًا لم يمهلهم، وضع رقاب رجالهم تحت السيف، وساق نساءهم سبايا إلى مخادع الأسر، وقتئذٍ لم يستطع بنو أسد إلا أن يحنوا رؤوسهم للعاصفة ويظهروا الخنوع. رفع حجر كأس انتصاره وهو يُمنِّي نفسه بيوم يملك فيه كل العرب كما ملكها آكل المرار، لكن خيول بني أسد حاصرت خيمته، هاجموه بكل مرارة العبودية، «ذُل شهر ومُلك دهر»، هكذا صرخوا والسيوف تهوي كالنسور الجائعة، تركوه يحتضر وحيدًا مثخنًا

بالجراح لتزداد درجة عذابه، لم يبقَ بجانبه إلا تابع قديم، فأوصى له وصيته الأخيرة: «احمل سلاحي وخيلي وقدوري ووصيتي واذهب إلى أولادي، اذهب إلى ابني الأكبر وأخبره بموتي، إن بكى وجزع فاتركه إلى غيره، لا تعطِ أشيائي إلا لمن لم يجزع عليَّ».

وأسبل الرجل عيني الملك، وأقام بنو أسد الأفراح عشر ليالٍ، وبعث لهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة وفودًا تهنئهم. وسار الرجل إلى «نافع» أكبر الأبناء وأحقهم بثأر أبيه، قال له: «مات الملك». صرخ متفجعًا، أهال التراب على رأسه وانخرط في البكاء، تركه الرجل ممتعضًا إلى الابن الثاني فلطم خديه بالنعال، وشق الثالث ثوبه وناح كالنساء، ووقع الرابع مغشيًّا عليه، ولم يبقَ منهم إلا امرؤ القيس أصغرهم وأبعدهم عن الثأر، وأحس الرجل بالأسف وهو يؤكد لنفسه أن كل ما سيفعله امرؤ القيس هو ارتجاله لمرثية طويلة مليئة بالمواجع، ولكنه لم يجد بُدًّا من حمل السلاح والقدور والوصية والسير إليه.

كان امرؤ القيس جالسًا يلعب النرد مع أحد رفاقه، حولهما كؤوس الخمر وبقايا قصف الليلة الماضية. ألقى امرؤ القيس النرد، وقال الرجل: «مات الملك». أمسك الرفيق عن اللعب مترددًا، قال امرؤ القيس دون أن يلتفت: «ألقِ نردك». ألقى الرفيق النرد حتى أتم اللعبة، فقال امرؤ القيس: «ما كنت لأفسد عليك دورك». ألقى الرجل ما يحمل من أشياء بين يديه، وعاد يردد: «مات الملك». قال امرؤ القيس: «ضيَّعني صغيرًا، وحمَّلني دمه كبيرًا، لا صحو اليوم ولا خمر غدًا، اليوم خمر، وغدًا أمر».

ولكنه لم يكن يعني ذلك. هتف أبو الفرج في حنق:

ـ ماذا؟ لم تكن تعني ذلك؟ ألم تكن تعرف قدسية الثأر؟ ألم تكن تعرف ماذا يعني إهدار دم ملك؟

تمتم امرؤ القيس:

ـ ملك فاسد مغرور، كنت أنا أيضًا أتمنى أن أقتله، لقد حقق بنو أسد ما كنت أتمناه، إذا قاتلتهم فقد قاتلت بعضًا مني!

كانت الصحراء ما زالت بعيدة، وبلاد الروم تزداد ظلمة وبرودة، والناقة تحمل جسد امرئ القيس النازف، وأبو الفرج فوق الناقة الأخرى، يشم رائحة القروح وقد أصابها التعفن، حتى إنه فكر أن كل شموس الصحراء لن تُطهر هذه الرائحة، هتف متضايقًا:

ـ كان يجب أن تقاتلهم، هكذا حمَّلتك وصية الملك الأخيرة.

عندما أفاق امرؤ القيس من سكرته قرر ألا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا، ولا يتطيَّب بطيب، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه حتى يُدرك ثأره. اللعنة على أيام الصيد وصبابات العشق ونزوات الشعر، ما جدواها وطيور الثأر عطشى، وقبائل تغلب وبكر لا تزال على وفائها الأبله للموتى، وبنو أسد يشدون الصف للصف، ويستصرخون العصبيات ضد بني كندة، والمنذر ابن ماء السماء دخل في لعبة الصراع، فاستعان بجيش من الفرس؛ ليصفي حسابات قديمة بينه وبين الملك المقتول، وأعلن أن كل مَن يُعادي أسدًا فهو عدو له. يا امرأ القيس، هذا ثأرك، وهذا عارك، اصرخ: «يا لثارات الملك».

نهضت كندة وبكر وتغلب وساروا خلفه، لم يكونوا يحبونه،

وكان يكرههم، لكنها نواميس الصحراء والعقل الجماعي عندما يصيبه العجز فلا يرى الخلاص إلا في الحرب. كلهم اتفقوا على طلب الثأر، واتفقوا أيضًا على كراهية الملك المقتول. كان غائبًا عن نفسه الحقيقية وهو يستحث الخيل ويُطلق صيحات القتال الوحشية، يحاول دفع مشاعر التخاذل التي يحس بها في أعماقه، فكَّر، سوف تكون مفاجأة عندما يكتشف أن بني أسد يحملون ملامح وجهه، هل يقتل الإنسان ظله؟ قال له أحد الأتباع: «يا مولاي، نرسل مَن يرصد خيامهم؟». صرخ فيه: «ما جدوى أن نرصد العدو وهو أمامنا، وهو في داخلنا؟ هذه هضابهم، وهذا نخيلهم»، وكانت الطيور الجارحة تتبع الفرسان وتنتظر الرمم.

وصلوا إلى التلال فوجدوا القبيلة هاجعة كأنها ليست مطالَبة بدم، أقل عددًا، ولا يشبهون ملامحه. صرخ: «يا لثارات الملك!»، وانقض عليهم في فرح شرس، تفجَّرت نوافير الدم، وتقوَّضت الخيام، وفرَّت النساء مذعورات، وهو يقتل ويقتل، يُطهِّر نفسه في بحر من دم، يُبدي الندم على كل بيت شعر قاله، وعلى كل امرأة عشقها، والدم البشري يرسم على درعه حروفًا غامضة، كلما غيَّره بدرع آخر ارتسمت نفس الحروف، لكن عجوزًا وقفت في مواجهته، شهر سيفه وحمحم الجواد، فلم تهتز العجوز، وصرخت فيه: «أبيت اللعن، لسنا لك بثأر، نحن من كنانة!». شهق، أخفض الفرسان سيوفهم، وواصلت المرأة القول: «بنو أسد كانوا خلف هذا التل ثم رحلوا، نحن من كنانة ودماؤنا حرام عليكم». سقط السيف من يده، وكفَّت الجياد عن الحمحمة، وانقضت الطيور على الموتى والجرحى... ما أكثر القتلى! وأثقل رائحة الدم!

وما أشد فداحة الخطأ! تحوَّل الثأر إلى جريمة، سار الفرسان خلفه منكسي الرؤوس، وتركوا أرامل بني كنانة يندبن موتاهن، الطيور هي الظافر الوحيد.

تزايد حنقه على بني أسد، فقرر أن يقاتلهم ولو في أقصى الأرض، وساروا وقد زادت خيبة الأمل من ضراوتهم؛ ما أهمية الخطأ إذا كان القتلى هم الآخرين؟

وفي اليوم الثالث عثروا على بني أسد، كانوا يستسقون، وقد حطوا الرحال وفكوا أعنة الخيول. صرخ كالبلهاء: «يا لثارات الملك!»، واندفعوا خلفه، ولكن بني أسد لم يكونوا فريسة سهلة، وقفوا، وقاتلوا، واختلطت مياه النبع بدماء الجميع، وظلت الطيور الجارحة واقفة تراقب نتيجة المعركة في تكاسل. بحث عن قتلة أبيه، عن الأسماء التي ذكرها في وصيته والملامح التي تُشبه ملامحه، ولم تهدأ السيوف، ولم تقل ضراوة المقاومة حتى حل الليل، واضطر فرسان كندة وبكر وتغلب إلى التراجع بعد أن أقنعوا أنفسهم أنهم قد انتظروا وظفروا بثأر الملك الهُمام، وتراجع بنو أسد، وبقيت الجثث ملتحمة، والطيور شبعى، والنبع ينبثق بالدم.

وفي الصباح أبوا أن يتبعوا بني أسد، كانت رائحة القتلى تعبق بالمكان، وآلاف الطيور تُكوِّن غيمة كثيفة. صرخ يستحثهم، فقالوا: «قد أصبت ثأرك». «كلا، لم أفعل، لم أقتل أحدًا ممن قتله، لا من بني كاهل ولا غيرهم!». قالوا فجأة، وقد نسوا أنه ملكهم المُقبل: «نعم، ولكنك رجل مشؤوم!»، وتركوه وحيدًا مع الجثث والطيور.

قال أبو الفرج في تهكُّم:

ـ تريد أن تُلقي اللوم عليهم وتُصوِّر نفسك بطلًا أوحدًا؟

قال امرؤ القيس:

ـ ليس هذا أوان اللوم، ولكنه وقت الموت، أسمع وقع دبيب أقدامه وهي تتبعني.

وكان ملاك الموت بالفعل يتبعهم متخفيًا خلف الهضاب والكثبان، مضت أيام الهرب، لم يعد هناك مكان يلجأ إليه هو وفرسه الشقراء، ودروعه الخمسة. توقف عند أحد الأصنام التي كان العرب يقدسونها، تمهل ليضرب أقداحه ويعرف ما قُسم له (كانت للصنم أقداح ثلاثة: الآمر والناهي والمتربص)، ضرب قدحه فخرج الناهي، ضربه ثانية فكان الناهي، وثالثة كان الناهي، قذف بالقدح في وجه الصنم وهو يدمدم: «لو أن أباك قد مات ما نهيتني!».

ولكنه كان يعرف أن الصنم قد قسم له ما في داخله، ومضى.

بدأت رحلة التردي، وتحوَّل الأمير الشاعر إلى الملك الضليل، ما أضيق الصحراء في وجه المطارد! كل قبيلة تسلمه إلى أول قافلة عابرة، وكل جبل إلى مغارة، وكل منحدر إلى فخ جديد. ما أسهل التنصل من الوعود، والخوف وقت الاستجارة! خصوصًا إذا كان العدو قويًّا، مثل المنذر ابن ماء السماء، كان قد آل على نفسه أن ينتقم لحلفائه من بني أسد، وشن على امرئ القيس مطاردة لا تهدأ، وجَّه إليه جيوشًا من أباء وبهراء وتنوخ، وأمده «أنوشروان» بجيش من الأساورة خير مقاتلي الفرس، كلها تطلب امرأ القيس حيًّا أو ميتًا.

وكان هو وسط زمرة من بني آكل المرار وكندة يبحثون عن نصير، وساقتهم الدروب الوعرة إلى بني يربوع، وقبِل زعيمهم

الحارث بن شهاب أن يجيرهم في شهامة مطلقة، وأعطى لهم الأمان ألا يغدر بهم تحت أي ظرف، لكن المنذر أرسل إليه مائة جندي فقط، طافوا حول المضارب، فأسرع الحارث بنفس الهمة وسلَّمهم كل بني آكل المرار، ولم ينجُ سوى امرئ القيس وزوجته وابنته هند.

ثم بدأ يفقد دروعه، كانت خمسة دروع، يتوارثها ملوك كندة ملكًا بعد ملك، لكنه فقد درعًا في بني يربوع، وثانيًا في أرض طيء، وثالثًا عند بني جديلة، وكان يجلس في خيمته تاركًا خيوله ورواحله مقيدة ومجهزة حتى يهرع إليها عندما يباغته أي هجوم، وذات مرة سُرقت الرواحل والخيول. وعندما حل بأرض بني نبهان لم يجد أمامه سوى رعاية الإبل حتى سُرقت الإبل وأعطوا بدلًا منها قطيعًا من الماعز. ونزل بأرض عامر عند أحد الخلعاء ويُدعى «عامر بن جوين الطائي»، فطمع في ابنته هند وقال فيها أشعارًا بذيئة، واضطر الفارس المهان للرحيل عاجزًا حتى عن رد كرامته. وفي منتصف المسافة بين قبيلة وأخرى، بين هرب وهرب، شعر بالاشمئزاز من نفسه، شعر بحدة المهانة، كل الناس تموت مرة واحدة وهو يموت قطعة قطعة، يغوص في بئر عميقة، يفقد ما يحمل، يبتعد عن كل النجوم التي ترشد طريقه في الليل، وكل الطيور التي تحمل بشارة النجاة.

ثم نزل في بني فزارة عند عمرو بن جابر بن مازن، وكان حكيمًا، فأبلغه حقيقة مهمة، أنه لا قدرة له على مقاومة الذين يطلبون دمه، وأنهم حالما يصلون فهو حِل من كل وعوده، قال: «إني أراك في خلل من قومك، وأنا أضن بك أن تحتال هكذا، وقد كدت بالأمس

تؤكل في أرض طيء، وأهل البادية أهل بِر لا أهل حصون تمنعهم، هل أدلك على حصن لم أرَ مثله عند قيصر أو كسرى؟». قال امرؤ القيس مستسلمًا: «مَن هو.. وأين منزله؟». قال: «حصن السموأل ببلدة تيماء، هو الذي يمنع ضعفك حتى تصلح شأنك، وهو حصن حصين وحسب كبير». قال: «كيف لي به؟»، قال الرجل: «أوصلك إلى مَن يوصلك إليه».

وهكذا سار امرؤ القيس وامرأته وابنته إلى تيماء حيث حصن السموأل، والدليل يلح عليه: «قُل قصيدة تمدح فيها السموأل، تزلَّف إليه حتى يرضى عنك». لكن معين الشعر قد نضب، والإلحاح يزيد من شرود القوافي. وأخذ الدليل يرتجل أبياتًا وهو يحاول إكمالها، والجرح يزداد غورًا واتساعًا. وعندما لاح له الحصن الشاهق أدرك أن عالمه قد أصبح ضيقًا خانقًا، وأن أحلامه القديمة قد ماتت، وضاع دم الأب هدرًا، وكان يجب أن يضيع. وأصغى السموأل راضيًا للقصيدة الرديئة وسمح له بالإقامة.

توقف ركب أبي الفرج وامرئ القيس. سألَا:

ـ أين نحن؟

قالوا لهما:

ـ أنتما في إحدى بلاد الروم تُدعى أنقرة.

هتف امرؤ القيس يائسًا:

ـ لا زلنا في الشمال وسط الثلج والبرد.

وفكر ملاك الموت: إنه يحاول أن يسابقني، ما زال يحلم بالشمس.

أشار امرؤ القيس إلى شاهد قبر:

ـ دعنا نسترح قليلًا بجانب هذا القبر.

قال أبو الفرج:

ـ وسوف تكون فرصة لكي تقول لي لماذا تركت حصن السموأل.

كان الحصن عالمًا متكاملًا مكتوم الأنفاس، جدرانه صماء، وآباره آسنة لا تروي العطشى، وأشجاره لا تثمر إلا حنظلًا، وهو ساكن تمامًا، يختنق بالشعر، والليل يتطاول، وتخبو نجومه أسرع من أي موضع آخر. ثم جاء قادم جديد للحصن هو «علقمة الفحل»، شاعر مغمور، جلسا يتناشدان الأشعار فاختلفا، مَن منهما أصدق تعبيرًا وأدق وصفًا للخيل، وكان امرؤ القيس غبيًّا كعهده في المدة الأخيرة، فقال: «سوف تكون زوجتي حكمًا بيننا».

ورضي علقمة الفحل على الفور، ولا ريب أن له من اسمه نصيبًا، فمن ذا الذي يذكره الآن كأحد الشعراء، ومع ذلك جاء حكم الزوجة لصالحه؛ حكمت أنه أشعر من زوجها وأصدق منه تعبيرًا، ولم يكن هذا الحكم خالصًا لوجه الشعر، وفطن امرؤ القيس أنها لم تبت في فراشه ليلة الأمس، وعندما مسها بعد ذلك كان جسدها لزجًا وقدماها باردتين، طلَّقها في اليوم الثاني وحملها علقمة على راحلته في اليوم الثالث.

كان يجب أن يفارق الحصن، خصوصًا أن احترام السموأل قد تحول إلى سخرية. ولكن إلى أين يذهب؟ لم يكن يعد من المدى أمامه إلا السير شمالًا إلى الغساسنة ومن خلفهم الروم، عالم آخر تحكمه قوانين جديدة، هناك سوف تجمد البرودة دم الثأر الحاد ويتراكم الثلج على شبح أبيه.

وبدأ الرحيل إلى أرض الغساسنة، وجدهم يتحدثون عنه أحاديث خرافية، يتبادلون أشعاره، كان ما زال يتنفس خلال الأبيات المروية، لقد فقد حقًّا عرش آكل المرار، لكنه اكتسب وهج الكلمة وسحرها الذي لا يفنى. قال له الملك الغساني: «إن قيصرًا قد أعد جيشًا من أبناء الملوك، إذا ذهبت إليه سوف يضمك إلى صفوفه، هذا هو مكانك الطبيعي». قال مستسلمًا ويائسًا: «خذوني إلى قيصر».

لكنه كان ممرورًا؛ مكانه الطبيعي حيث لم يعد في مقدوره أن يكون. وسافر إلى بلاد الروم، ولم يفهم قيصر شيئًا من أشعاره وإن هز رأسه وهو يتظاهر بالرضا، ولم يستطع المترجم أن ينقل إليه أي صورة شعرية.

وتثاقلت ليالي الشمال الحزينة، وامتدت ثلوج الشتاء، محت الدروب وغطت وجه الشمس، وبدأ يسعل، قالوا: «هذا مرض مألوف في الشمال»، وبدأت ذاكرته في الكلل، قالوا: «هذه أعراض عادية في الشمال»، وبدأ يدمن الخمر ويقضي الليل في المواخير، قالوا: «هذا سلوك شائع في الشمال»، وبدأ يموت...

قال أبو الفرج:

ـ سأقول لك أنا ما حدث بعد ذلك.

كانا ما زالا مستندين إلى شاهد قبر المرأة الوحيدة، وجاء ملاك الموت واستند إلى الجانب الآخر من الشاهد، وأخذ يشحذ منجله في بطء، وسمع امرؤ القيس صرير الشحذ الحاد، صدى المقدر والمكتوب.

واصل أبو الفرج القول:

ـ إنه «الطماح»، شخص من بني أسد، قتلت أنت أباه وتبعك هو إلى بلاد الروم، تقابل مع قيصر وقال له إنك غوي عاهر، تراسل ابنته سرًّا، بل أخرج له رسائل مكتوبة بخطك.

تذكر امرؤ القيس ابنة قيصر وهي تطل عليه في الحديقة، تعرض صدرها العاري أمامه، وتخرج لسانًا أحمر كالجمر. قال أبو الفرج:

ـ من أجل هذا أرسل لك ثوبه المسموم، ومن أجل هذا يتساقط جلدك.

تأوه امرؤ القيس:

ـ حتى في الموت، فلو أنها تموت سوية، ولكنها نفس تساقط أنفسًا.

أغمض عينيه:

ـ كم مرة أموت؟ كم نفسًا بداخلي؟

التفت إلى أبي الفرج:

ـ إذا مت هل ستدفنني بجانب المرأة الوحيدة؟

قال:

ـ إذا أردت.

قال:

ـ لقد أحببت النساء وكرهت الملوك، أدمنت الخمر وتعبت من الثأر، عشقت كل الكائنات وأبغضت أبي.

والتفت فرأى ظهر ملاك الموت وهو يشحذ منجله، رآه ينهض ويستدير ويقف أمامه ويبتسم في لطف. قال امرؤ القيس آخر بيت شعر للمرأة الوحيدة الراقدة في قبرها:

أجارتَنـا إنَّـا غَريبـانِ هـا هنـا وكلُّ غَريـبٍ للغَريب نَسـيبُ

وهز أبو الفرج وملاك الموت رأسيهما طربًا من بلاغة الكلمات، وتقدم الملاك ببطء وخجل ولكن دون تردد، ومس جبين امرئ القيس بطرف منجله.



شهود حرب البسوس

الشاهد الأول: جليلة بنت مرة

بدأت الحكاية بالدَّم، واستمرت الحرب أربعين عامًا، فلم تُنبت بحور الدم زهرة واحدة. امتلأت القبور بالجثث، والخيام بالأرامل، والجماجم بالديدان، فلم يُبعث كليب، ولم تهدأ وائل.

أنا جليلة بنت مرة، زوجي كليب، وصهري المهلهل، وأخي جسَّاس، وابني الهجرس، القتلة والمقتولون، طالِبو الثأر والمغدورون، وأنا في وسطهم، الحق في جانبي، والباطل في جانبي، كل ثأر يطيب جزءًا من قلبي ويفتح جرحًا آخر.

يقولون إن جليلة هي سبب هذه الحرب الضروس، هؤلاء الرجال الأقوياء، ضعاف النفوس، يعلقون أسبابهم بنا، يضعون طموحاتهم القاتلة في موازاة نزواتنا الصغيرة، يقسمون بشواربهم المبرومة، إنني وخالتي البسوس وابنتي اليمامة، أشعلنا كل هذا الضرام، ودفعنا بآلاف الرجال الحمقى إلى حرب أتت عليهم جميعًا؛ فرسان بكر، وشجعان تغلب، تصادموا في الفيافي وفي قيعان الوديان، ونحن جالسات في خيامنا، نغزل الأكفان، ونردد المراثي وقصائد العديد.

منذ ولادتي وكليب بن ربيعة بن وائل هو قدري، من لحظة الطفولة حتى الموت، جاء أبوه لأبي خاطبًا، قال أغرب الكلمات:

ـ ابني ضبع جائع، ولن يسلس قياده إلا امرأة عاقلة كجليلة.

وأعجبت الكلمات أبي، فوافق دون أن يبالي بسؤالي! وهبوه مستقبل أيامي، ولكن هل أحببته حقًّا، أم أن الخوف منه اختلط بالانبهار به فوجدتني مشدودة إليه، أصبح رجلي وحده، أستمد منه حمايتي، رغمًا عن إخوتي العشرة الأقوياء. كان الزمان رخيًّا، والمواسم مواتية، ورمال الصحراء شاحبة قليلًا، وساجية كالحلم.

كبرت كالظباء، واستدار جسدي كهضاب مسحورة، مفعمة برغبات خفية. شاع أمر جمالي، وعشقني الشعراء، فأخذوا يهرفون بالقصائد. أحببت شقائق النعمان فلم ينثروا على دربي إلا زهور الصبار! جاء كليب لزيارتي فلم يُحضر لي قارورة عطر، ولكني شممت على ثوبه دم الأيائل والظباء. كنت في حاجة إلى هبَّة من المودة تساعدني على التآلف معه، بدلًا من إحساس هذه الغربة الحارقة وهو بجواري، لم يُجِد كليب العشق إجادته للصيد.

ثم جاء فرسان «تبع»؛ ملك ملوك اليمن العتيد، فانطفأت نجوم الحب قبل أن تُضاء. جاءوا تحت ريح عاصف، وفوق رمال متوفزة، ووقف أبي وأعمامي يرتعدون، ورسول الملك يُعدد مطالبه: الإتاوة المفروضة، وهدايا الطاعة والنوق والأغنام وأنسجة الصوف، ثم قال بشكل عابر كأنه لا يُعير هذا الطلب أي أهمية:

ـ وبالمناسبة، تفضَّل مولانا «تبع» واختار جليلة بنت مُرة لتكون واحدة من محظياته.

صاحوا في دهشة:

ـ ماذا؟! لا يجوز أن تُصبح المرأة الحرة وبنت سيد القبيلة محظية!

واصل الرسول قوله دون مبالاة برد فعلهم:

ـ عليكم بتجهيزها للسفر إلى بلاد اليمن خلال عشرة أيام.

أداروا أعنَّة جيادهم وانصرفوا، ألقوا أمرًا لا يُرد. كانت أمي تُعد طعامًا فاحترق، وكنت أغزل فتداخلت الخيوط مثل متاهة، وعاد أبي مرخي الشارب، وإخوتي العشرة يثغون كالأغنام، ولم يأتِ كليب؛ واصل صيده كأن الأمر لا يعنيه. مد «تبع» أظافره من بلاد اليمن البعيدة ليغرسها في قلبي، كان كل ليلة يتخذ فتاة جميلة كمحظية له وسرعان ما يختفي أمرها، لا أحد يعلم ماذا يفعل بجسدها بعد أن ينهشه، ولا أحد يجرؤ على السؤال، قصره واسع مليء بالأقبية السرية والتوابيت المفتوحة، وها هو دوري قد حان، وعليَّ أن أعد المضجع والتابوت. اكتشفت فجأة أن أبي كان ضعيفًا، وَإخوتي بلهاء، حقيقة قاسية عصفت بروحي وأنا أستمع إلى كلماتهم الحماسية عن العرض المُصان والشرف الرفيع، ثم صمتوا جميعًا، جسَّاس وهمَّام وسُلطان، حلم طفولتي وعز المضارب، ظلوا جالسين عاجزين حتى جاء كليب وعلم بالأمر، فخلع قوسه وألقى رمحه، وقال:

ـ لن يحدث هذا ولو كان الثمن موتنا جميعًا!

ونهضوا في عصبية، لم يتحملوا قدرته على الاستهانة، قال أبي في خفوت:

ـ وكيف نتحدى «تبع»؟!

قال كليب وهو يدير ظهره:

ـ هذا ما يجب أن تفكر فيه بدلًا من الجلوس ورعي الماشية.

عاد في صباح اليوم التالي، استيقظت غريزة الصياد، أصبحت متوثبة في أعماقه، فأخذ يعد الشِّراك المناسبة، أمر النجارين أن يعدوا صناديق العرس في سرية، صنعوا عشر صناديق كاملة، كل صندوق منها مكون من طابقين، طابق أصغر علوي توضع فيه ثياب العروس وهداياها، وفي الطابق السفلي يرقد أحد الإخوة ومعه سيفه، ثم تحملهم الجمال ويمضي موكب العرس إلى بلاد «تبع»، هكذا كان قرار كليب، أن يذهب إلى الطريدة في عرينها، وحين رأى دهشة أبي وبلاهة إخوتي، هتف:

ـ مقامرة.. هكذا الصيد دائمًا.

كنت أنا مذهولة، لا أصدق أن هذه الفكرة السخيفة يمكن أن تنجح، وأن تحدد مصيري، تكفي مصادفة واحدة في ذلك الطريق الطويل، يكفي اكتشاف صندوق واحد فقط حتى ينتهي أمر الجميع دون رحمة من «تبع»، وأنا، سوف أُغتصب وأُقتل، دون أمل في ثأر. ولكننا أطعنا الأوامر كالنيام، حين تحدثت معه قليلًا اكتشفت أنه يعرف جيدًا مدى سخافة الفكرة وحماقتها، ولكنه كان يجب أن يقوم بها، لم أعتقد لحظة أن قيامه بهذه المجازفات سببه حرصه عليَّ، كل ما في الأمر أن غريزة الصياد اللعينة استيقظت في داخله كالرغبة والجوع، ليته كان شاعرًا حالمًا رقيقًا عاجزًا، ربما أحببته قليلًا.

لبست ثوب العُرس، وارتفع الجمل بهودجي، وأُغلقت الصناديق على إخوتي، وسار صندوق كليب في المقدمة، وسار أبي وقومي خلفنا، وامتدت الصحراء حتى أحسست برمالها في عروقي.

خرج «تبع» وجنوده لاستقبالنا، وأنا في هودجي واجفة القلب أشار إليَّ أحد الحرس، اقترب من أحد الصناديق الموجودة في الوسط وغرس فيها نصل رمحه، أوشكت على الصراخ؛ أين كانت الطعنة، في الطابق السفلي أم في العلوي؟ كتمت صرختي بصعوبة، ولم يصدر من الصندوق أي صوت، أو أي حركة، أو أي مظاهر للألم. همهم تبع في ارتياح ورضا، تقدم أبي مرتجفًا يشير إلى هودجي وينحني، يشير إلى الصناديق وينحني أكثر، ويشير إلى نفسه وينحني أكثر وأكثر، أيها الملك القاسي المعظَّم، كم ليلة بقيت لي؟ كم ساعة؟

كان «تبع» قصيرًا، لحيته مدببة، وعيناه مستديرتان كالعقاب، تاجه ضخم، لا بد أنه مجوف من الداخل حتى يستطيع رأسه الصغير أن يتحمله، اتجه ببصره إلى هودجي يريد اختراقه. أنزلني الخدم، أدخلوني إلى قصره المرصع البارد، أوصلوني إلى حجرتي، ورصُّوا الصناديق العشرة أمامي.

وضعوا على وجهي قناعًا كثيفًا من المساحيق، ورسموا على وجهي ابتسامة كاذبة. أصبح الملك على وشك الوصول. انصرفت الجواري وأصبحت وحدي أخيرًا، أسرعت إلى الصندوق الذي طعنه الحارس، كان خيط من الدم ينساب منه إلى الأرض، كنت أعرفه جيدًا، صندوق زياد، أخي الأصغر، خرجت مني صرختي الحبيسة المؤجلة، وفُتح الباب ودخل «تبع»، تراجعت إلى الجانب الآخر من الغرفة، حاولت ألا أنظر إلى خيط الدم، كان يتأملني في نهم، لم يسألني عن سبب صرختي، لعله تعوَّد أن يصرخ الجميع في وجهه؛ تستيقظ رغباته من خلال فزع الآخرين.

اقترب، مد يده يجذب ثيابي، صرخت في صوت عالٍ أن ثيابي تتمزق، وكان «تبع» مدرَّبًا على كل فنون الهجوم، مُصرًّا وصبورًا، هل تخلوا عني؟! صرخت في لحظة اليأس، وصرخ كليب:

ـ لبيك يا جليلة!

تكسَّرت الصناديق، دارت الغرفة، اقتحم الحرس الباب، برزت السيوف وتقاطعت بعضها مع بعض، وخيط الدم الرفيع ينثال من الصندوق الوحيد الذي ظل صامتًا وسط بقع الدم والأعضاء المبتورة. صرخ كليب في وحشية، ورفع سيفه وطعن «تبع»، جز رأسه الصغير ورفعه على طرف سيفه حتى يراه الحرس واليمنيون وبنو وائل وكل العرب، وزعق:

ـ مات «تبع».

جريت إلى الصندوق، كان زياد راقدًا في الطابق السفلي وأظافره تحفر في الخشب أربعة خطوط من الدم، وصاحت وفود القبائل تهتف بحياة كليب، كل الذين اصطلوا بظلم «تبع» نالوا ثأرهم، وبكيت زيادًا وحدي. انشغلوا بالغنائم، بالجواري والذهب، ثم رفعوا سيوفهم يعلنون الولاء لكليب، وكان زياد صغيرًا فحفروا له حفرة صغيرة، وفي ليلة عرسي الكئيبة قلت لكليب:

ـ ألم تفطن ولو للحظة واحدة أن زيادًا قد مات؟!

فقال وهو يخلع سيفه وعباءته وعمامته:

ـ المهم أن «تبع» قد مات.

أصبح كليب ملكًا، وأصبحت أنا ملكة العرب، ورحل جسَّاس وهمَّام وبقية الإخوة. انتقلت من بكر إلى تغلب، إلى قصر كليب، وفي كل لحظة يتضاعف شعوري أنني سبيَّة ولست زوجة. لم يأتِ

المهلهل أخو كليب لزيارتي مرة واحدة، لم يحمل لي هدية، لم يُلقِ عليَّ تحية، كان دائم الرحيل، ينصب خيمته على حافة الأفق، وجاء أبي (مرة) لزيارتي، قال لي في كآبة:

ـ فتحنا الرمل، ورأينا طالع الأيام، هذا المهلهل أخو كليب سوف يكون سببًا في هلاك قومنا.

طالِعٌ مضحِك، ولكنه زاد من كراهيتي للمهلهل. اكتشفت أني لم أحب كليبًا، كان قد أصبح ملكًا مغرورًا قاسيًا، تغلغل زهو التملك في داخله واختلط مع عطشه للدم، وساق قومي وكل بني وائل كالغنم، كان يحمي مواقع السحب فلا يُرعى حماه، إذا جلس لا يمر أحد من بين يديه إجلالًا له، ولا تُورد إبل مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، ولا يجرؤ رجل من بكر أو تغلب أن يجير رجلًا أو بعيرًا أو يحمي حمى إلا بأمره. تمر السنون وكليب زوجي وأبو بناتي يزهو كالطاووس، وفوجئت به يسألني ذات يوم:

ـ هل تعلمين على الأرض مَن هو أمنع مني ذمة؟

سؤال أحمق لم أشأ الإجابة عنه، حسب أنني عاجزة عن الإجابة فازداد زهوًا، وكرر السؤال للمرة الثانية وهو يتشدد في طلب الإجابة، فقلت له:

ـ نعم، أخواي.. جسَّاس وهمَّام.

حدق في دهشة غاضبة، لم يتوقع جوابي، ألقى عليَّ نظرة حادة لعلِّي أتراجع فلم أتراجع، لم أعتذر، تشاغلت بأشياء أخرى ولم أدرِ أي خطأ قاتل ارتكبت، وعاد سؤالي في الأيام التالية، وكل مرة كانت إجابتي صدمة جديدة له، كانت تحدياته لي قد بذرت بذورها، ولم أكن بالتي تتراجع، مهما غضب. ومن هذه الشرارة بدأ الكابوس الذي استمر أربعين عامًا.

(شهادة اعتراضية من أقوال جسَّاس بن مرة)

جاءت خالتي البسوس من قبيلة تميم ونزلت في جواري، كان معها ناقة غريبة؛ هجين من نوق الملك النعمان التي ترعى في الشمال ونوق اليمن القادمة من الجنوب، جلدها مشرَب بحُمرة، وقوائمها طويلة صلبة، وصوت اجترارها عالٍ، ناقة نادرة كما يبدو من شكلها، وكذا فصيلها الصغير، خرجَا يرعيان مع إبلي، ولم أكن موجودًا بالمضارب، ومر كليب على الإبل، ورأى الفصيل الصغير بلونه المميز، سأل الراعي:

ـ ما هذا؟

انحنى الراعي قائلًا:

ـ هذه لخالة سيدي جسَّاس.

وفوجئ العبد، كما فوجئت أنا فيما بعد، بكليب وهو يدمدم في ضيق:

ـ أوَبلغ من أمر ابن السعدية أن يجير عليَّ بغير إذني؟!

وأخرج قوسه وسهمه ورمى الفصيل الصغير رمية قاتلة، وهرع العبد نحو مجلسي وهو يصرخ، وخالتي البسوس تُوَلول، وأمرت الجميع بالصمت، كل ما حدث أن فصيلًا صغيرًا قد مات، ويمكن أن أعوض خالتي بأفضل منه. لست أفهم السبب المباشر الذي دفع كليبًا لفعل ذلك، لكنه تحذير خطر لا أدري ما دوافعه، لذا اخترت الصمت والتجاهل، ومرت أيام قليلة ولم يَدَع لي كليب فرصة على الأقل حتى أفهم ما يدور حولي.

مرت الإبل وفيها ناقة البسوس الأم بعيدًا عن أرضه ومرعاه، لكنه جاء مسرعًا وأعاد السؤال على العبد، ولم يتنازل هذه المرَّة وأصر على أن يقتلها، قال كلمات أكثر إهانة ثم أمر غلامه:

ـ ارمِ ضرعها يا غلام.

ورمى الغلام الضرع بسهمه فاختلط الدم باللبن، وجرت الناقة تحتضر وتُصدر عجيجًا هائلًا، وخالتي البسوس تلطم وتصرخ:

ـ واذلاه!

وجئت مهرولًا على صوت النعيب وصحت فيها:

ـ اسكتي، فلك بناقتك ألف ناقة.

لم ترضَ، ظلت تصرخ وأنا أزيد في عدد النوق عوضًا لها، لكنها أخذت تهيل التراب على رأسها وتواصل هجائي أنا وقومي:

ولَكنَّني أَصبحتُ في دَارِ مَعْشَرٍ مَتى يَعدُ فيها الذئبُ يَعدُ عَلى شاتي

التقطت أنفاسي بصعوبة وأنا أنتفض من الغضب والخجل والإهانة، وأصيح من بين أسناني:

ـ اسكتي، لا تُراعي، سوف أقتل مَن هو أعظم من هذه الناقة.

وسرت، أرى في كل عين نظرات الازدراء، وأسمع في كل كلمة إهانة خفية، لقد استفزني كليب بما فيه الكفاية، ولكن لماذا؟ لست أدري!

ثم ارتحلت بكر بإبلها ورعيانها، مروا على غدير «شبيب»، لكن كليبًا أصدر أوامره القاطعة:

ـ لا يذوقوا منه قطرة واحدة.

وارتحلت بكر، ذهبوا إلى «الأحص»، ونفاهم كليب عنه أيضًا، ارتحلوا إلى «الجريب»، إلى «الذنائب»، وجدوا على رأسه كليبًا وبضعة غلمان وجروًا صغيرًا ظل يلاحقهم ويطردهم، يقف شامخًا مثل إله صخري قاس، وبنو بكر يتضاءلون أمامه، وكنت أنا وابن عمي

عمرو بن الحارث، فلم نجد بُدًّا من الذهاب إليه، قلت له محاولًا أن أتمالك نفسي:

ـ طردت أهلنا عن الماء حتى كدت تقتلهم عطشًا!

رد عليَّ بصلف مبالغ فيه:

ـ ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون.

قلت:

ـ هذا كفعلك بناقة خالتي.

ضحك في سخرية قائلًا:

ـ أوَقد ذكرتها، أما إني لو وجدتها في غير إبلك لاستحللت الإبل كلها. احمد آلهتك أن بقيت لك الإبل.

كان هو كليبًا الذي لن يتغير، متعاظمًا ومريضًا بداء الملوك، يتوقع أن يتضاءل الجميع أمام كلماته وأن يخروا أمامه. وجدت نفسي كأن هناك مَن يرفع يدي ويوجه رمحي. استدار كليب ليرمقني بنظرة احتقار أخرى، طعنته تحت إبطه، لم يصرخ من الألم، صرخ من الدهشة وقوة المباغتة، ظل ثابتًا فوق جواده يقاوم السقوط، ثم هوى على الأرض، نزعت الرمح من جسده وظللت ممسكًا به في يدي حتى يراه الجميع، تحشرجت أنفاسه وتمتم:

ـ يا جسَّاس، اسقني شربة ماء!

قلت:

ـ ما أدركت أهمية استسقائك للماء منذ ولدتك أمك حتى لحظتك هذه.

التفت كليب إلى عمرو بن الحارث وكرر استغاثته:

ـ يا عمرو.. أغثني بشربة ماء!

وهبط عمرو من فوق جواده، اقترب منه وطعنه طعنة أخيرة قصمت ظهره.

(انتهت أقوال جسَّاس بن مرة وعودة إلى أقوال جليلة)

ارتديت السَّواد قبل أن أصدق أن كليبًا قد مات، وأن قاتله هو جسَّاس أخي، أنا زوجة المقتول وأخت القاتل، دخلت دائرة الثأر، وأحاطتني نسوة تغلب، أخوات زوجي وبناتي الثلاث، غربان سود تود أن تقتلني بنظراتها. جلست بينهن وأنا أسأل نفسي: هل أبادر وحدي بالرحيل، أم أنتظر حتى يقُمن بطردي؟

وبكيت؛ لا كليبًا ولا جسَّاسًا، إنما بكيت نفسي، أصبح جسدي غير صالح لسكنى الروح، شقية بغربتي، خدعت نفسي طويلًا بأنني في بيتي، وسط أسرتي وبناتي، لم تقل لي واحدة من النسوة كلمة عزاء واحدة. جلست في خيمتي وقد لفظني الجميع، سمعتهن وهن يلححن على ضباع أخت كليب قائلات:

ـ رحلي جليلة عن مأتمك، قيامها بيننا فيه شماتة وعار علينا وسط العرب.

كانت بناتي جالسات بجوارهن، لم تتحرك واحدة منهن للدفاع عني بكلمة، نهضت ضباع وانتصبت على باب خبائي، ضبع يقف على قدمين، هتفت بي:

ـ يا هذه، ارحلي عن مَأتمنا!

التفتُّ إلى بناتي، واجهنني بنظراتهن الصلبة الباردة، وافقن صامتات على طردي وإهدار حقي في الحزن. جمعت ثيابي في

صرة صغيرة، حملتها على ظهري وسرت وسط صرخات كالنعيب.

وجدت أبي في انتظاري، منكسر الرأس، شاعرًا بفداحة المصاب، هتف بي:

ـ ما وراءك يا جليلة؟

قلت:

ـ ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد خليل، وقتل أخ عن قليل، وبين هذين غرس الأحقاد وتفتت الأكباد!

نكس رأسه خانعًا وقال:

ـ أوَيكفى ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟

قلت:

ـ أمنية مخدوع ورب الكعبة، لن تبيع لك تغلب دم ملكها لقاء دِيَة مهما علت قيمتها، كل ترضية حقيرة، وكل دم مهدر، وليس أمامنا إلا أن نتحمل فداحة الثمن!

اجتمعوا حولي، شهود الجريمة ووقود الحرب، جسَّاس أخي الراشد.. وأنا، أيعرف أنني رفعت رمحه وشحذت نفسه، وأنه يحمل ثأري على كتفيه وينوء به؟ أيعرف أنني أحمل في أحشائي مَن سوف يذيقه الموت سمًّا زعافًا؟ يا جسَّاس عذرًا، يا كليب عفوًا، إذا حم القضاء فما جدوى الاعتذار، لبئس ما فعلنا معًا، فرقنا جمعنا، وأطلقنا حربنا، والله لا تجتمع وائل بعدها أبدًا ولا تقوم لها قيامة، يا جسَّاس قتلك كليب قبل أن تقتله، وضع بذرته في بطني حتى يدور الزمن ويتحقق الوعد!

(انتهت أقوال جليلة بنت مرة)

الشاهد الثاني: المهلهل بن ربيعة

كنا جالسين، همَّام بن مرة وأنا، وبيننا شراب وندامى ودم ومصير مجهول، كنت ثملًا، والسماء ملبدة بسحب وحشية، والأرض يكسوها رماد كهشيم العظام، وهمَّام نديمي وصنو روحي، تعاهدنا ألا يكتم أحدنا سرًّا عن الآخر، ومر جسَّاس على خيمتنا مفزعًا فوق جواد مفزوع، مكشوف الركبتين، لم يلتفت ناحيتنا، وانحدر مع التل إلى ديار بكر، قال همَّام وهو يتابعه:

- إن وراءه لأمرًا، والله ما رأيته كاشفًا فخذيه هكذا وهو يركض كأن جنيات «عبقر» في أعقابه.

قلت ضاحكًا:

- أمران لا ثالث لهما، لعله فشل كعادته في صيد الظباء، أو أن إحدى الجواري لفظته قبل أن يطأها.

ضحك همَّام، حاول أن يشاركني الشراب، لكن منظر ركبتَي أخيه العاريتين لم يفارقه. شربت كثيرًا، والقيان تغني من أشعاري، وخيول النشوة تركض في عروقي، هذا هو عالمي الآمن ما دام فيه كليب، من خلال باب الخيمة لمحت جارية تقود جوادًا، صاعدة به من ناحية بكر، ورأيت همَّامًا وهو يتسلل خارجًا من الخيمة، توقف ليتحدث مع الجارية، لم يكن حديث حب ولا مراودة عن النفس، هذا ما لاحظته، كان كلامها مرتعبًا، شديد العصبية، أشار إلى مجلسي، وأشارت إلى مكان بعيد، ثم انصرفت هابطة على المنحدر، وربط همَّام الجواد بجانب الخيمة قبل أن يعود ليجلس أمامي صامتًا، ينتزع أنفاسه الثقيلة بصعوبة، لقد تلقى رسالة قاسية بلا شك، وبعثت حالته

في نفسي نوعًا من الترقب الخبيث، كان حائرًا مثل غريق، قلت له دون مواربة:

ـ ما شأن الجارية والفرس؟ وما بال نفسك وقد اضطربت؟

تردد برهة، ثم مد يده مرتعدة إلى كأسه وهو يقول:

ـ اشرب ودع عنك الباطل.

قلت:

ـ وما ذلك؟

قال:

ـ زعمت هذه الجارية أن جسَّاسًا قتل كليبًا.

ولم أتمالك نفسي، ضحكت في صوت عالٍ وأنا أقول:

ـ هيهات، همة أخيك أضعف من ذلك.

ملأت كأسًا وأشرت للقيان أن يواصلن الغناء، شربت في نهم وأنا أرقب وجه همَّام، إذا كان كليبٌ قد قُتل حقًّا فلماذا لم تتقوض الصحراء، ولم تنطفئ الشمس، ولم تتناثر النجوم؟ رفعت كأسي وشربت نخب كل الأمنيات المستحيلة، واصلت الشرب والعالم يدور بي، غرقت في قبوي المظلم الذي أغيب فيه كل مساء، وجاء كليب، صاح بي:

ـ مضى زمن الندامى، وجاء زمن الموت.

أفقت فلم أجد أحدًا، لا همَّامًا ولا الجواري، سرت وحيدًا، فرأيت جوادًا شاحبًا يرعى عند حافة الأفق، يحمل جثة أبي مذبوحًا، هكذا أراه منذ عشرين عامًا، منذ أن ذبحه «التبع» اليماني بعد أن رفض أن يدفع الإتاوة، استسلمت ربيعة، واستسلمت بكر، ولم يبقَ إلا كليب، الجبل الذي يأويني ويعدني بالثأر، أصبح هو أبي وحدود عالمي

وحلمي المتكرر، أنطلق منه وإليه، لكن الجواد الشاحب يقترب، يمسح مقدمة رأسه في صدري، لا يحمل جثة أبي، ولا جثة كليب، بل يحمل جثتي، هناك ضباب أصفر، وأنا أسير داخل حلم غريب، أدخل تغلب غريبًا، ضائعًا، ميتًا، الفرسان يعقرون خيولهم، ويكسرون سيوفهم، وتحوم فوقهم نسور سود، غربان تضاعفت عشرات المرَّات، بنات كليب الثلاث يصرخن في وجهي:

ـ عماه! مات أبونا يا عماه! مات كليب الملك!

يلححن عليَّ بالصراخ، يُردنَني أن أصدق هذا الهراء الذي لا يُصدَّق، يَقُدنني إلى تل الذئاب ويُشرن إلى جثة غريبة، الرمل تحتها أحمر، والطيور فوقها سوداء، يُلملمن أعضاء مرخاة، ويلففن جسدًا ساكنًا، ويصحن فيَّ:

ـ ابكِ أخاك، ابكِ قتيل ربيعة وتغلب، آخر ملوك العرب.

لكنني لا أبكي، أعرف جيدًا أن هذا ليس أخي، كليب المفعم برغبة الحياة وقوتها ونزقها ومرحها الصاخب، لا يُقتل جزاء ناقة، ولا من أجل كنوز الأرض، لا يقتله راعي ضأن مثل جسَّاس بن مرة، هناك نوع من سوء التفاهم القاسي، إن كان ثمة أحد قد مات فهو أنا، أما هذا الجسد الدامي الأشعث الأزرق، فاغر الفم، زجاجي النظرة، الراقد وسط الروث والبعر، مخلوع النعل، مقصوم الظهر، هذا ليس كليبًا! هذه خدعة، سوف يُرد حيًّا، على بكر أن تنشره حيًّا، اليوم أو غدًا، أو حتى آخر الزمان، صرخت في الجميع:

ـ ويحكم! ماذا دهاكم؟ أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها، وتكسرون سيوفكم حين افتقرتم إليها؟

والتفتُّ إلى النساء الباكيات صائحًا:

ـ استبقين للبكاء عيونًا تبكي حتى آخر الدهر.

وفي الصباح دفنَّا الجثة الغريبة التي وجدناها على التل، وصرخت في البيد الواسعة أدعو كليبًا فلم يجبني، وكيف يجيبني البلد القفار، سقاك الغيث إنك كنت غيثًا، ويُسرًا حين يُلتمس اليسار، ولست بخالع درعي وسيفي إلى أن يخلع الليل النهار. لم يبقَ من أيامي إلا أيام الحرب أو يعود كليب، أجز شعري وأقصر ثوبي، لا أشم طيبًا، ولا أشرب خمرًا، ولا أدهن بدهن، ولا أقرب النساء، حتى أقتل بكل عضو من كليب رجلًا من بكر، رجلًا لذراعه، ورجلًا لكل إصبع من يده، ورجلًا لكل شعرة من رأسه. جاء إليَّ شيوخ بني تغلب وقالوا:

ـ بنو مرة أولاد عمنا، نرى ألا نعاجلهم بالحرب حتى نعذر إلى إخواننا من بني مرة، فبالله ما تجدع بحرب الأهل إلا أنفك، ولا تقطع إلا كفك.

صحت فيهم:

ـ جدعه الله أنفًا، وقطعها كفًّا، والله لا تحدثت نساء تغلب أنني أكلت لكليب ثمنًا، ولا أخذت له دية.

لكنهم أصروا، كنت أكره ترددهم، ولكني أكره أكثر أن ينفضوا من حولي، ووافقت مرغمًا.

(شهادة اعتراضية من أقوال وفد تغلب إلى بني بكر)

سرنا إلى بكر، إلى بطون بني مرة، محاولة أخيرة ندفع بها شبح الحرب، قلنا لهم بوضوح:

ـ لقد أتيتم أمرًا عظيمًا بقتلكم كليبًا مقابل ناب من الإبل، قطعتم

ما بيننا من صلات الرَّحم، ونحن نكره أن نعاجلكم بالحرب دون الإعذار، لذا نعرض عليكم واحدة من ثلاث خصال، لكم فيها مخرج ولنا فيها مرضاة: إما أن تدفعوا إلينا جسَّاسًا فنقتله بصاحبنا فلم يظلم مَن قاتله، وإما أن تدفعوا إلينا همَّامًا فإنه ندٌّ لكليب، وإما أن تفيدنا من نفسك يا مرة فإن فيك رضا القوم.

وسمع مُرة هذه الكلمات فنظر إلى قومه من بني بكر، كأنه يطلب تأييدهم غير المشروط، قالوا له:

ـ تكلم غير مخذول.

قال الشيخ المراوغ:

ـ أما جسَّاس فغلام حديث السن ركب رأسه فهرب حين خاف، فوالله ما أدري أي البلاد انطوت عليه. وأما همَّام فأبو عشرة، وأخو عشرة، ولو دفعته إليكم لصاح بنوه في وجهي وقالوا دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره. وأما أنا فلا أتعجل الموت، وهل تزيد الخيل على أن تجول من الحرب فأكون أول قتيل؟ ولكن هل لكم في غير ذلك؟ إن شئتم لكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل.

هتفنا في غضب ونحن نسحب أذيالنا:

ـ والله ما كان كليب بجزور نأكل له ثمنًا.

(تمت أقوال وفد تغلب، وعودة إلى أقوال المهلهل)

الحرب قدري، منذ أن وُلدت، وجالست النساء، وقلت الشعر، وأصبح كليب مثالي ونبراسي. تأهبت تغلب وبكر، لم يعتزل حربنا غيرُ شيخ عجوز يدعي الحكمة، هو الحارث بن عباد. تدق طبول الحرب في الصباح، وتنعب الناعيات في المساء الموتى الذين لا يكفون عن الرحيل.

يمتد حبل الدم، يصل بين عيون الماء وفوهات القبور، وما بينهما ينبت زهر بري غريب، أشم فيه رائحة جسد كليب. تحوَّلت الآبار والينابيع وأماكن السُّقيا والعشق إلى مواقع للقتال. تشرق الشمس فيستيقظ جوعي فأشهر سيفي وأقتل كل من أصادفه. رُدوا كليبًا إلى الحياة، انشروا جسده من ذرات الرمل، من رماد الحرائق. لا أعرف عدد القتلى، ولا من أي جانب يسقطون، كم يومًا مر؟ كم هجمة مباغتة وحركة غادرة؟

ثم جاء همَّام من الجانب الآخر، رأيته أمامي ملطخًا بالدم والرماد، تبددت صداقتنا القديمة وأصبح بيننا دهر من العداوات، تحاذرنا طويلًا قبل أن نلتقي، كان يتقدم نحوي كاسرًا سيفه، وحاسرًا رأسه، يقول:

ـ أُقدِّم نفسي فداء لهذه الحرب الضروس، اقتلني ولأكن آخر القتلى.

ابتسمت وبكيت واحتضنته وأبعدته. يا نديمي وصنو روحي، ما الفائدة؟ أنا أريد كليبًا حيًّا، حتى قَتل جسَّاس لن يشفي حرقتي، أنا بحاجة إلى معجزة! همَّام يبكي، ويستصرخني، يتوسل إليَّ أن أقتله. تكاثرت الأرامل واليتامى، وتلوثت الآبار بالدم، وامتدت الحرب مثل جسد خرافي بعرض الأيام والشهور والسنين. يا همَّام، يا نديمي وصنو روحي، لا يزيد اليتم إلا اليتم، ولا يوقف الدم إلا الدم، فاحفظ روحك ومت بيد غيري. كان جسَّاس يحلم بأن يكون ملكًا، هو الذي دفع بناقة البسوس إلى بستان كليب، وجعل العبيد يتطاولون عليه، وأغراه على المبارزة بالعصي ثم طعنه غدرًا بالرمح، استفزه ليقتله فأحياه في قلبي كالظمأ، انصرف همَّام، أدرك كلانا أن الحرب قدر يجب أن تتواصل.

أشرقت الشمس على يوم جديد من الحرب، كنا في مكان يُدعى «القصيبات»، والقتال في أشد ضراوته، ثم قُتل همَّام، حان الوقت

الذي حدده له القدر، قتله الغلام «ناشرة»؛ لم يكن أكثر من لقيط، أنقذه همَّام من الموت جوعًا في الصحراء ورباه في بيته، وعندما كبر الغلام عرف أنه من بني تغلب، وأنه يقاتل في الجانب الخطأ، وهكذا تحين الفرصة عند «القصيبات»، كان همَّام يقاتل فإذا عطش رجع إلى قربته فشرب منها ووضع سلاحه، ووجد «ناشرة» من همَّام غفلة فشد عليه حتى قتله ولحق بقومنا. وفي المساء، كنت أمرُّ بصف الجثث فوجدت همَّامًا مقتولًا، منطرحًا وسط الدماء والرغام، جثة عادية وسط عشرات الجثث، لا تفرق الطيور الجارحة بينها، وكانت دموعي العسيرة تهمي:

ـ والله ما قُتل بعد كليب أعز عليَّ فقدًا منك!

ها هو دم الساذج الطيب يسيل دون أن تهدأ الحرب، للدم رائحة تغلِب كل ما عداها، أشمها في الطعام والشراب وفي مجلس القوم. حين أستند لبرهة وأغفو أحلم، تستيقظ داخلي شهوات غامضة، أن تذهب عن جلدي رائحة الدم وتستقبلني امرأة بين ذراعيها، تطبع جسدي بطابعها وتعطيني رائحتها، ولكن أغوار عميقة تفتح داخلي، أرى كواكب مطفأة ونجومًا مندثرة وزهورًا ذابلة وشرايين من ملح، وينهض كليب غاضبًا، يصرخ من حرقة العطش، وتأتي اليمامة وعنيزة وبديلة يبكين، يرددن المراثي، فتتحول أظافري إلى مخالب، وتصبح أسناني أنيابًا قاطعة. الحرب هي الذروة التي أفتقدها في جسد أي امرأة، جوعي الذي لا يشبع، أضرب سيفي فلا أعرف قتلاي، من بكر أم من تغلب؟ أبحث عن جسَّاس فلا أراه، وهذا يعني أن هناك يومًا آخر وحربًا أخرى.

ثم تخلى الحارث بن عباد عن عُزلته، أرسل ابنه بجيرًا يرجوني أن أقتله فداء لهذه الحرب، وفداء لكليب. غلام صغير لم يتعد الثامنة عشرة، يبعثه إليَّ شيخ أحمق يعتقد أنه كفء لكليب، كأني خضت هذه السنين من الدم لأظفر بهذا الغلام. صرخت غاضبًا شاعرًا بالإهانة، رفعت سيفي لأهوي عليه، وصرخ فيَّ امرؤ القيس بن أبان؛ أشجع رفاق حربي:

ـ لا تفعل، فوالله لئن قتلته ليُقتلن به عزيز علينا، وقد اعتزلنا أبوه وعمه وأهل بيته.

كنت غاضبًا ممرورًا، مسعورًا للقتل، والغلام أصغر من أن يقنعني منطقه، هويت عليه بسيفي الأعمى وأنا أصرخ:

ـ مت فداء شسع نعل كليب.

(شهادة اعتراضية من أقوال الحارث بن عباد)

علم الله، لم أكن من جناة الحرب، ولكني صليت نارها اليوم، اعتزلت بكرًا حتى تفيق فأبتْ عليَّ تغلب اعتزالي، قودوني إلى فرسي النعامة، قرِّبا مربط النعامة مني، إنَّ قتل الكريم بالشسع غالٍ. ولدي، قرة عيني، يموت لقاء أحد سيور نعل كليب؟! أنا الحارث بن عباد، أشد أهل ذمتي حلمًا وصبرًا، الوحيد الذي لم تلوث الحرب يديه؟! جاء قومي من بكر يطلبون وساطتي، أحسست حيالهم بنوع من الذنب الغامض، ربما لأنني كنت الوحيد الذي لم يتحمل نصيبه من القتل، أرسلت ابني إلى المهلهل فداءً لهذه الحرب الضروس، لم أنسَ النظرة التي رأيتها في عيني بجير وهو يستعد للسفر، يسألني في صمت عن مبرر لهذا التصرف الأحمق!

ثم جاء إليَّ مَن يقول، إن المهلهل قد قتل بجيرًا، قلت في هدوء وأنا أحاول التماسك:

ـ نعم القتل ما دام قد أصلح بين تغلب وبكر.

صرخوا في وجهي:

ـ وإنما قتله بشسع نعل كليب.

لم أشأ أن أُصدِّق في أول الأمر، اعتزلت الحرب طويلًا فلم أعد أعرف سعارها، أرسلت إلى المهلهل: إن كنت قد قتلت بجيرًا بكليب وانقطعت الحرب فقد طابت نفسي. ولكنه رد عليَّ في قسوة:

ـ إنما قتلته بشسع نعل كليب.

عفوًا يا بجير، أهدرت دمك دون جدوى، لم يعد أمامي إلا حربٌ أنا الخاسر فيها مُقدمًا، أحضرت فرسي النعامة، جزرت ناصيتها، ونتفت ذيلها، وخرج قومي خلفي، كل الذين اعتزلوا وعفوا عن الاشتراك في حرب عبثية، رأيت ديار بكر، قتلى وأرامل ونعيبًا لا ينقطع، شممت رائحة الدم، وسمعت أصوات بكائهن، ولم يمنعني حزني الشخصي من التفكير، الحرب مكيدة، جمعت حولي من معي، قلت لهم:

ـ كل امرأة تمسك قربة من الماء في يد، وهراوة في اليد الأخرى، وليقف جمعهن خلف الرجال، علموا أنفسكم بعلامات يعرفنها، فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسَقَتْه من الماء وأنعشته، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة.

اشتركت النساء في الحرب، من حقهن أن يظفرن بثأرهن، حلق الرجال رؤوسهم جميعًا استبسالًا للموت، وجعلوا ذلك علامتهم، واشتد القتال ضاريًا، والنعامة تزفر تحتي، ورأيت فارسًا منهم يقاتل

بوحشية، فأمرت فرساني أن يتكاثفوا حوله وأن يضيقوا عليه الخناق، ظل يقاوم حتى كلَّ ساعداه، انهزمت تغلب ووقع الفارس أسيرًا، اقتربت وأنا أصيح فيه:

ـ دلني على المهلهل.

حدق فيَّ باستغراب ثم قال في تردد:

ـ ولي دمي؟

قلت بغباء واندفاع:

ـ ولك دمك.

قال:

ـ ولي ذمتك وذمة أبيك؟

قلت:

ـ ذلك لك.

ابتسم وهو يقول:

ـ أنا المهلهل، خدعتك عن نفسي والحرب خدعة.

خدعني قاتل ابني، انتزع من بين أسناني الوعد بالأمان، أخفضت سيفي، وأصبحت فارسًا مسكينًا أسيرَ وعده الأحمق. قلت:

ـ كافئني بما صنعت بك بعد جُرمك، ودلني على كفء لبجير.

دار بعينيه يفكر، ثم أشار إلى أحسن قواده؛ امرئ القيس بن أبان، لم يكن ليتورع عن شيء لينجو بنفسه، وهكذا جززت ناصية شعره كما هي العادة عندما يُنعم السيد الشريف ويُطلق أسيره، فتكت بابن أبان، ولكن نار بجير لم تهدأ في أعماقي، وكذا الحرب.

(تمت أقوال ابن عباد ونعود إلى أقوال المهلهل)

عدت مهزومًا، كسيرًا، مجزوز الناصية، دخلت في مصيدة الوجوه المكلومة، يسألونني عن الأب والابن والزوج، كيف انكشفت الحرب وتناثرت جثث الأهل؟ كنت عاجزًا، كأني كنت مهزومًا طوال هذه السنين الماضية، وناصيتي المجزوزة تشهد على ذلك، قتلت كثيرًا فلم يُبعث كليب، أمرُّ على قبره كل مساء فلا أظفر بعلامة رضا أو غضب، لا الآلهة تجيب، ولا الآبار ترجع الصدى، أصبحت قاتلًا مطالبًا بثأر المئات، وثأري لم أبلغه، لعبة الحرب المميتة تركت بصماتها على قلبي، تحولت إلى وغد جبان، قتلت صبيًّا اسمه بجير وصديقًا اسمه امرؤ القيس بن أبان، وقبل ذلك، قتلت نديمي وصنو روحي همَّام بن مرة، وعدت مجزوز الناصية، يسألني الجميع عن قتلاهم، صرخت فيهم:

ـ مثلي لا يُسأل عن القتلى وهو مقتول، سنوات الحرب طويلة وقاسية، لو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها، فكيف وقد فني الحيان، وثكلت الأمهات، ويُتم الأولاد، ورب نائحة ما زالت تصرخ، ودموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن، وسيوف مشهورة، ورماح مشرعة،، وإن القوم سيرجعون إليكم بمودتهم، وتتعاطف الأرحام من جديد، أما أنا، فما تطيب نفسي أن أقيم فيكم وما زال ثأري معلقًا، وأنا من اللحظة سائر عنكم إلى بلاد اليمن.

لم يعارضني أحد، لم يطالب أحد ببقائي، لم يتمسك أحد بيوم آخر من القتال، همهموا جميعًا في ارتياح. وسرت مبتعدًا عن دياري وقبيلتي، رأيت غرابًا أسود ينقر قبر كليب فواصلت سيري، يحاول الغراب أن يصل إلى عظام كليب، فكيف أستعيد من كان طعامًا للغربان؟

ذهبت إلى بلاد اليمن البعيدة، غربت شمسي وتبعني الجواد

الشاحب، بدأت الحرب بالأطفال، وانتهت بالشيوخ، كل شيء أصابه الهرم، وبدأ الصدأ يزحف على سيفي وروحي، جاءت أخبار بكر وتغلب، الصلح الذي عُقد، والسلام الذي استتب، لم أكن رافضًا ولا مؤيدًا، كنت فارسًا هاربًا، استدار الزمن دون أن أدرك ثأري، جاءت ابنتي سلمى، ألحت عليَّ أن نعود إلى أرضنا، كانت مشوقة وكنت أكثر منها شوقًا، ولكن العودة من المنفى حزن جديد.

كبرت سلمى وحان وقت زواجها، لعلها تركت نصف قلبها هناك وتبعتني بالنصف الآخر، ولكني تركت قلبي كله هناك، والملل كالقتاد الذي أرقد فوقه كل مساء، وافقت على العودة، عدنا من نفس الطرق القديمة، المسارب الخادعة وأحراش الصبار، وأول شيء بدَا من تغلب هو قبر كليب، لعله ترك موضعه القديم وتحرك ليسد الطريق أمامي، يذكرني بكل ما حسبت أنني نسيته، خنقتني العبرات، إنها لحظة إعلان الندم: عفوًا يا كليب، لم أغتسل، لم أشرب، لم أقرب امرأة، ولم أدرك ثأرك! صرخ في وجهي طائر مجهول، لعله طائر الصدى الذي خرج من رأسه يوم قُتل، ينعتني طالبًا ومطلوبًا، وروحه القلقة تنعي عجزي وشيخوختي.

انحدرت إلى تغلب، استقبلتني وجوه مستغربة، لم يتصور أحد أنني ما زلت على قيد الحياة، وصرخت فيهم:

ـ هيا إلى القتال، ما زالت بكر ترعى، وجسَّاس يحكم!

هل كان صوتي واهنًا، أم هم الذين أصموا آذانهم؟! تركوني وسط البنات الثلاث، اليمامة وعنيزة وبديلة؛ هتفن:

ـ سوف نحارب معك يا عماه!

وسخر منا الجميع؛ أربعون عامًا من حرب مضت أحاول بعثها من جديد، لم يتجمع حولي أحد!

كوَّنت جيشًا من حثالة العبيد والمرتزقة والمتعطلين واللصوص، أيُّ جيش لأخذ أي ثأر؟ أهو جنون الشيخوخة، أم حرقة الثأر القديم؟ سرت إلى تغلب، صرخت أطلب دم جسَّاس فضحكوا مني، هددتهم بالقتل فأشاحوا عني، هجمت وما هي إلا جولة حتى تفرَّق لصوص جيشي واستخزى عبيدي، ووجدت نفسي أسيرًا عند عمرو بن مالك أحد أسافل بني ثعلبة.

شيخ عجوز أسير هو المهلهل، يضحك منه الصبية، ويسخر منه الجميع، حتى رثائي في كليب يُثير الضحك، وبدأت أهجو آسري، فصرخ في وجهي، هددني، ولكني بالغت في هجائه، أقسَم ألا أذوق الماء سبعة أيام كاملة.

كانت هذه النهاية، أعرف ذلك، ووهج الصحراء يتمدد في عروقي، والآبار الجافة تتشقق في أخاديد قلبي، والسراب الخادع يحمل لي كليبًا شابًّا جميلًا قويًّا، كما رأيته دائمًا، كنت أنعي نهايتي، كنت أصنع من الرمل والدم والطين مفردات وأحولها إلى أطفال لم أنجبهم، ونجوم لم أرها، وأردد في النزع الأخير:

يـا خَليلـيَّ ناديَـا لـي كُليبًـا ثُـمَّ قُـولَا لـه نَعِمـتَ صباحَـا

يـا خَليلـيَّ ناديَـا لـي كُليبًـا قَبلَ أن تُبصرَ العيونُ الصَّباحَا

يــا.. خليــ.. لـــيَّ...

(تمت أقوال المهلهل بن ربيعة)

الشاهد الثالث: هجرس بن كليب

مثل جرادة صغيرة مقصوصة الأجنحة جاءوا بي إلى ديار بكر، لم أتعلم شيئًا سوى الذي أرادوا أن يعلموني إياه، أن أكون طيعًا مثل عود الخيزران، ومرت عليَّ أربعون عامًا طويلة: عشرة قضيتها جاهلًا، وعشرة سألت خلالها كل الأسئلة دون جدوى، وعشرة لم أتلق إلا الإجابات الخادعة، وعشرة تجمعت فيها كل عذاباتي وأصبح الفضاء سجني الخانق، ثم رأيت الشيخ العجوز أسيرًا، كان هناك مطر في غير موسمه، وكآبة غامضة تلف الصحراء، ودق المنادي الطبلة وهو ينادي:

ـ يا بني بكر.. أُسر المهلهل بن ربيعة رأس الفتنة وانتهت الحرب.

تعالت صيحات الفرح، عالية، خالية من الحياة، تدافع الأطفال اليتامى، والنسوة الثكالى، وعجزة الحرب، والشيوخ الذين قُدر لهم أن يشاهدوا بداية التكوين وفساد النهاية، وكان خالي جسَّاس بعيدًا، وأمي تعاني من كوابيس غامضة، وأنا وحيد في دياري مع الموتى، يمر الموكب من أمامي، يمر من خلالي، وأشباح الآدميين تضطرم من حولي، أرواح قلقة معذبة، أصوات الدفوف والمزامير ونباح الكلاب تتكاثف حولي مثل رائحة ثقيلة، أو لحن مليء بالشجن، مجرد إثباتات باهتة خارج نفسي، صرت منفصلًا عن الأشياء، عالمًا تدب فيه حياة صاخبة ولكنه خامل كالرماد، والشيخ الأسير مقيدًا، منزوع العمامة، فوق بغل هزيل، ووجهه العجوز في مواجهة الذيل، يلكزني أحدهم، يدفعني بعيدًا:

ـ تراجع يا راعي الغنم، لا شأن لك بما يحدث.

أبتعد عن طريق الموكب، أسير خلف ظهورهم، وهم يلوحون ويهللون، يملكون وحدهم حق الفرح والغضب، وفي يدي عصا الرعي الغليظة، أربعون عامًا رأيتهم يتحاربون، ويعودون بالجرحى والغنائم، ورأيت الأغنام تتناسل، والعشب يذبل ويرتعد وينقصف تحت الريح الباردة، لم أجرؤ في لحظة واحدة على أن أُلقي عصا الرعي الغليظة وأمسك سيفًا.

لست أدري ما الذي حدث بالضبط، لكن الموكب استدار ناحيتي، والشيخ العجوز يمضي بحماره نحوي، يقف بجانبي فأرى تجاعيد وجهه كالأرض العطشى، ارتعدت عيناه وهو يتأملني، انتفضت ملامحه وأشرقت عن ابتسامة طفولية وهتف في حنان بالغ:

ـ أهو أنت يا كليب؟

تراجعت من أمامه، طوال عمري لم أشترك في الحرب، كنت معذبًا بالفوضى التي تسود دروب القبيلة، والخوف المنبعث من أعماقي، وواصل الشيخ التساؤل:

ـ كم تبدو صغيرًا يا كليب، كم تبدو رائعًا!

لوحت في وجهه بعصا الرعي فاختلج وجهه، لم يخف، بدت عليه خيبة أمل غريبة، لم يرفع عينيه عن وجهي، تمتم كأنه يحلم:

ـ لعلي جُننت، أنت هو، ولست هو!

تواصل سير الموكب، والسماء الملبدة بالغيوم لا تحمل وعدًا ولا تبعث على السلوى. عادوا يدفعونني بعيدًا. استيقظت أفكاري أخيرًا، تحوَّل كل ما أراه وأسمعه إلى نبضات متواصلة من الألم، إلى رغبات مقهورة وعاجزة. كانت خلايا جسدي تمتص هذه النبضات

وتحاول أن تعيد اتصالي بالعالم، كليب هو القتيل، وهو ليس أبي، وجسَّاس القاتل، وهو خالي، وجليلة أمي، وأنا ابنها من تاجر ضائع، مر بالقبيلة ووضع بذرتي ومضى، لم يترك نسبًا ولا ثروة ولا ذكرى، وعندما بدأت ألعب ألعاب القتال مع الفتيان، صرخت أمي، حبستني في خيمة سوداء، لم يعطوني إلا عصا الرعي، ترهل جلدي، وتضاءلت روحي، وتشابهت صورتي مع الأغنام.

اختفى الشيخ الأسير، وعدت إلى بيتنا، إلى جليلة أمي، وسعدى زوجتي وابنة خالي، أصر جسَّاس أن يزوجني بها، وحسبت أن هذا سيرفعني إلى مرتبة الفرسان، ولكني اكتشفت أنها الوحيدة التي تشبهني، بلهاء، طيِّعة، يكفيها من الأرض الجزء الذي تقف عليه، ومن الجبل الصخرة التي تقبض عليها بيدها، ومن الليل الطويل مجرد حلم عابر، لم يكن لنا معًا إلا الخداع وكنا نتشبث به في قوة.

قالت أمي وهي ترمقني في ريبة:

ـ ماذا بك؟

قلت بلامبالاة:

ـ ذلك الشيخ الذي أسروه اليوم، وقف في مواجهتي وأخذ يدعوني كليب بن وائل.

هوى وعاء اللبن من بين يدي أمي، تناثرت قطع الفخار وسال اللبن على الأرض، التفتت سعدى ثم عادت إلى شرودها، جلست أمي على ركبتيها تجمع قطع الفخار واللبن والطين، رفعت وجهها وقالت في ذلة:

ـ هل أسروا المهلهل بن ربيعة، هل قال لك شيئًا آخر؟

ـ يا أمي، يا جليلة بنت مرة، أربعون عامًا وأنا جائع بالأسئلة، عطشان إلى قطرة من المعرفة، أموت في الشتاء، وأتجدد في الربيع، وأسكن في الخريف، وأنتظر البداية، من الخير يا جليلة أن يبدأ كل شيء من البداية.

لكنها تصرخ فيَّ:

ـ أنت ابن التاجر شريدان. لست ابن أحد غيره. أتفهم؟

حنيت رأسي طائعًا، فكرت أنه لا يجب أن أُكثر من الأسئلة الحمقاء، أن خيبة الأمل الكامنة في المجهول لا يمكن تجنبها. وفي المساء سرت إلى دار عمرو بن مالك من بني ثعلبة، تسترت بالظلام لأراقب الأسير، كان جالسًا وسط جمع من بكر، يتحدث عن أيام الحرب، ويبكي كليبًا. كليب كان زوج أمي، لكنه لم يكن أبي، ليست هناك من مناسبة لأمتَّ بصلة القرابة لملك ميت، كان الشيخ يقول الشعر بصوت متهدج باكٍ:

إنَّ في الصَّدر من كُلَيْب شُجونًا   هَاجِسَاتٍ نَكَأْنَ مِنْهُ الجِرَاحَا

ونهض عمرو بن مالك صارخًا فيه:

ـ أتبكي كليبًا وتأكل طعامي وتشرب شرابي؟! إن لله عليَّ نذرًا إن شربتَ عندي قطرة ماء أو خمرًا حتى يورد «الخضير».

وضحك الشيخ العجوز في سخرية، لم يكن يعرف ماذا يعني «الخضير»، ذلك الجمل الصبور الذي يخرج إلى عرض الصحراء ولا يقرب الماء إلا في اليوم السابع. ضحك الشيخ وانصرف إلى داخل سجنه، وبقيت وحدي، لا تربطني به أي صلة قرابة، قد يكون عم أخواتي، ولكنه ليس عمي، من المؤكد أن أبي هو ذلك التاجر

الذي مر على بكر والحرب في أوج ضراوتها، ومع ذلك وجد الفرصة ليتزوج وينجب ثم يمضي.

كنت أعرف أن جسد العجوز لن يتحمل أيام العطش، قلت في نفسي: وماذا يهمني؟ القضية أنني أقف وسط قبيلة لا تربطني بها سوى صلة الدم وقرابة غامضة، وأنا أحاول جاهدًا أن أنتزع طفولتي من بين التراب.

صعدت الجبل فلم أرَ القمر، ونزلت فرأيت أمي عائدة من خباء خالي جسَّاس، كنت أسبح في زمن غير زمني؛ هجرس المسكين وقد تغير تمامًا؛ يضرب رمحه في الأرض، ويثقف سيفه، ويغشي الحانات، ويمتطي الخيل، ويتحدث عن النساء بكلمات مكشوفة وبذيئة، كل هذا يستلزم أن أولد من جديد، ألا تنجبني جليلة من تاجر عابر، وألا يعلمني جسَّاس الطاعة ثم يزوجني من سعدى.

جاء صباح أول أيام العطش، قلت لنفسي سوف أنسحب بعيدًا، لم أشهد جريمة من قبل، ولن أشهدها اليوم، واجهتني الأغنام بالثغاء وعشرات الأسئلة وأنا صامت، كانت الشمس في مواجهتي فأغمضت عيني، لبرهة خاطفة حلمت بالشيخ ووجهه مغطى بقناع من الملح، فتحت عيني فرأيت خالي جسَّاسًا يحدق فيَّ غاضبًا:

ـ ماذا قال لك الشيخ الأسير؟

قلت في هدوء:

ـ قال إني كليب بن وائل.

اقترب مني حيث شممت رائحة أنفاسه، وهتف في تأكيد:

ـ ولكنك لست كذلك!

قلت في هدوء:

ـ ولكني لست كذلك؟!

حاول جاهدًا، للمرة الأولى كما أعتقد، أن يستكشفني، لم يقل شيئًا، ولم أرد عليه، لم يكن بيننا أي اتصال، كان يبحث عن الضعف المعهود الذي سوف يهبه اليقين الكاذب، استندت إلى شجرة كانت بجواري، كنت أسمع فوران العصارة في داخلها، لو أنني أمد يدي فسيجري في عروقي دمها الذي لا لون له، فأنمو دون خجل، وأزدهر بلا ألم، ثم أذبل دون حسرة. تراجع خالي عني، لعله اكتشف بعد هذه الأربعين أنني بالفعل أشبه كليب بن وائل، هتف بي من بين أسنانه:

ـ يا راعيٍ الغنم، يا راعي الغنم.

كنت حقًّا راعي غنم، ولكن لا بد أن جثث الحرب قد أنبتت هذا العشب، ومنه تأكل الأغنام التي أرعاها، لا بد أن لي صلة ما بهذه الحرب، صرخ جسَّاس في وجهي:

ـ أمنعك من الذهاب إلى هذا الشيخ، أتفهم!

كان الشيخ يموت في هذه اللحظة، يمد يده ويتوسل، وجسَّاس يستدير لينصرف، لم يقتنع بعلامات البلاهة فوق وجهي، هبطت، كانت جليلة ساهرة في انتظاري، شاهدت النظرة التي استقبلتني بها، أدركت أنها عرفت أنني اكتشفت كل شيء.

وفي اليوم الثالث، دقت الطبول تعلن موت الشيخ العجوز، كان بعض الفرسان وقد هالهم قسم عمرو بن مالك قد خرجوا في الصحراء لكي يأتوا بالخضير، ولم يأتِ الخضير، لم يكن في تغلب من يأبه بالسعي من أجل ثأر جديد، أخرجوا جثته، وضعوها فوق

البغل الذي جاء به، تدلت قدماه من جانب ويداه من الجانب الآخر، ولكزوا مؤخرته فسار إلى ديار تغلب، رسالة صامته، متواطئة، هذه هي النهاية، وهذا هو ثمن الصلح.

مات عمي، إن كان ما أحسه حقًّا، وهذه حقيقة أخرى غريبة، حاولت وحاولت أمي وخالي أن نقنع أنفسنا أنها غير موجودة، لم أحس بالحزن بقدر ما أحسست بالخجل، استسلمت بسرعة لهذا الإقناع الساذج، سار البغل فتتبعته، تذكرت كل نظرات السخرية وضحكات الاستهزاء، لقد اخترت الطريق السهل وهربت من الحقائق كأنها أفاعٍ سامة، هربت داخل نفسي.

سرت وراء البغل، يربطني بالجسد الميت خيط عنكبوت جارح، أخرج من الدروب إلى فجاج التلال، ومن الفجاج إلى الصحراء الواسعة، والجسد الميت يكتسب حركته من حركة البغل، كان الأمر يتطلب شخصًا غيري لكي يدرك منذ مدة طويلة، وأنا أصعد، أهبط، وديار تغلب بعيدة مثل سراب، كأن هذه الرحلة لن تنتهي، أبدًا، ثم فوجئت بالصيحة، كأنما تفجرت من داخل الصخور ومن ذرات الرمل:

ـ قتلوك يا عماه!

تلفَّت حولي في رعب، من خلف الأفق برزت امرأة طويلة نحيفة ترتدي السواد، تُقبل سريعة نحو البغل الذي يسير في ثبات بالغ، كان الصدى يحمل الصوت ويفتته ثم يعيده. وقفت أمام البغل، جاءت في موازاة الرأس المتدلي، وأخذت تهيل الرمل على رأسها، وأنا أقترب كأني منوَّم، تسوقني ريح مجهولة، وقفت أمامها، كانت الشمس في

ظهري وسقط ظلي على وجهها، رفعت رأسها إليَّ، وكالبرق الخاطف مر في عينيها ظل من الكراهية، أمسكت خطام البغل، وساعدتها في إنزال الجثة، تأملت وجهي قليلًا، ثم هتفت:

ـ يا له من جنون! كليب راعي غنم!

كانت طويلة، نحيفة، شاحبة، كانت امرأة غير حقيقية بصورة من الصور، لم يعد يجديني الهرب، كانت هي اليمامة، أختي، أشد هرمًا مني، انغرست عيناها كالحدأة في قلبي، تسألني مَن أنا، عن حقيقتي التي أجهلها، استخزيت أمامها، وأخذت أسرد اعترافاتي، ختموا على قلبي بالرصاص، زرعوني في بكر دون جذور، سرقوا شمسي اليومية، وعمَّدني الكهنة بماء الآبار المسمومة، عشت دون ندم، وتقبلت سوءاتي بلا خجل، وتزوجت دون أي رغبة في مواصلة الحياة، وهأنذا أيتها اليمامة اليتيمة، أدركت ذات لحظة أن الأرض مكان غير صالح للسكن، وظللت عاجزًا عن الانتقال إلى مكان آخر.

هتفت اليمامة في وجهي باحتقار بالغ:

ـ أنت أخي إذن، منذ متى عرفت ذلك؟!

سوف أكون كاذبًا لو قلتُ إن ذلك منذ أيام قليلة، صرختْ:

ـ وتركته يموت؟! لقد شاركتهم في قتله!

من العبث أن أنكر، ومن البلاهة أن أبكي، وأربعون عامًا مدة طويلة لأصدق كذبة واحدة، قلت:

ـ سوف أعود إليهم!

قالت في حدة:

ـ لترعى الغنم؟!

لم تكن بيننا أي مشاعر، لا حنين ولا حنق، أخذنا نحفر معًا في الرمل، جهزنا قبرًا واسعًا وضعنا فيه الجسد المتهالك الجاف، كنت أريد أن أضع له شاهدًا لكنها رفضت، ساوته بالأرض كأن لم يكن. قلت لها إنني سأعود، فلم تبالِ بي، استدارت إلى ديارها، وسرت مبتعدًا والبغل واقف بجانب القبر، سرت طويلًا، وبدت نيران بكر مثل عيون الليل ترقبني. وصلت إلى خبائي وسمعت تأوه جليلة، كابوس آخر، وكانت سعدى تنتظر بروز القمر من خلف الجبل، بدونه تحس أنها طفلة يتيمة ضائعة.

كنت بحاجة للمسة من الحب، وكان جسد سعدى صامتًا، محايدًا بين ذراعي، كنت أفكر في حنق: هل يكون ثمنًا عادلًا أن أقتلها الآن وهي عارية؟ كانت هي صورتي، انعكاس وجهي الأبله الصامت، تفتح شفتيها وتغلقهما في حركة متتابعة، تردد تعويذة قديمة لم أسمعها، لعلنا عجزنا عن أن ننجب طفلًا بسبب هذه التعويذة، مَن الذي يحدق في جسدينا العاريين، جليلة المتواطئة، أم كليب المقتول، أم جسَّاس القاتل؟ أصابعي على عنق سعدى، أضغط وأدمدم، وعيونها تبحلق فيَّ باستغراب يخالطه الرضا، وجليلة تصرخ:

ـ ابتعد أيها القاتل، سوف تقتل زوجتك!

أزاحتني بعيدًا، كنت ألهث، ونهضت سعدى، ارتدت ملابسها في صمت وانصرفت هادئة، اتجهتْ إلى منزل أبيها، واجهتني جليلة، رفعت عصاها لتهوي بها فوق رأسي، ولكني بادرتها قائلًا:

ـ لقد قابلت اليمامة!

تراجعت من أمامي وهي ترتجف، وخرج القمر من وراء جبل «المثنى»، ولكن سعدى لم تكن هناك.

لم أتصور أن يجيء الصباح، أن ترتفع الشمس وتعريني، قضيت الليل بلا نوم، وبلا رغبة في فعل أي شيء، كان يجب عليَّ أن أسعى في الظلام لقتل جسَّاس، كل ما فعلته أنني غرست أصابعي في عنق سعدى.

وجاء جسَّاس يسعى إلى خيمتي، حدق فيَّ قليلًا ثم جلس مقهورًا وهو يقول:

ـ أنت ولدي، وزوج ابنتي، وبالمكان الذي عرفت، وهذه الحرب طالت حتى كدنا أن نفنى، والآن وقد اصطلحنا وتحاجزنا فلا تدع نهر الدم يجري من جديد.

أمسكت عصا الرعي، كانت سعدى وجليلة واقفتين، كنت قد خسرت كل شيء تقريبًا:

ـ ما جدوى الصُّلح حين أبديه ومثلي يمسك عصا الرعي ولا يسمع سوى غثاء الأغنام ويلبس البرد الخشن!

بدَا على وجه خالي بعض من الأمل، لعله حسب أنني فقط أريد المساومة، قال وهو يتأملني:

ـ فماذا تريد؟

هتفت بالأمنية التي عذَّبتني طويلًا:

ـ أريد أن أكون فارسًا، أعطني جوادًا ورمحًا وسيفًا، أعطني اسمًا ونسبًا، ألبسني درعًا، وازرع جذوري، ثم اسألني ودعني أختر.

كان جسَّاس مدهوشًا، وأمي حائرة، ولكنني واصلت القول:

ـ مثلي لا يصالَح وهو في ثوب الرعيان!

إن كان كليب أبي حقًّا فقد مات فارسًا، وإن كان دمه قد برد وثأره قد تبدَّد فلا بد أن أفعل ما أفعل في نبل الفرسان، لا في ذل الرعيان، وهتف جسَّاس بي:

ـ لا عليك يا ابن أختي، سوف تصير فارسًا.

كأن خوفه القاتل من شبح خالي المهلهل قد تحول بشكل غامض إلى محبة لي، ورغبة في إرضائي، أسرع يُقدِّم لي فرسه، وتخلت سعدى عن عزلتها، وتقدَّمت حتى تلبسني درعي، أعطوني سيفًا ثالمًا، ورمحًا قصيرًا، ولكني أصبحت فارسًا في الأربعين من عمره، أول معاركه هي المصالحة في دم أبيه، وعطش عمه، ويُتْم أخواته.

سار جسَّاس بي وسط جموع وفود بكر وتغلب من أجل الصُّلح، كنت أُقتلع من جذوري ولا أترك خلفي إلا قطرات من الدم، أسمع دمدمات الآبار تدعوني للغرق، لعلي أتطهر، أولد من جديد، جموعهم تتلاصق وقد ملكها مس من الجنون، يدورون بي كدوامات الماء، كريح الصحراء العاصفة، مات كليب من زمن، وكان المهلهل أحمق، أربعون عامًا من الدمع فيها الكفاية والكفارة، يقف جسَّاس خطيبًا:

ـ هذا الفتى أبوه كليب، وخاله جسَّاس، وعمه المهلهل، وقد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه، ويعقد ما عقدتم عليه.

كان هناك إناء فخاري مليء بقطرات الدم، خليط من دم البكريين والتغالبة، يريدون أن يكتبوا به عقدًا، ويوقعوه، لكزني جسَّاس حتى أتقدم، وهمس:

ـ هيا، اجرح يدك واقطر دمك.

أنا راعي الغنم القديم، يأمرني قاتل أبي بالصُّلح، تحاصرني وجوه خائفة مترقبة، تعاني جميعها من المظالم الصغيرة، والثارات المبتورة، ومن ضياع الأيام والليالي دون جدوى، بين أعمار تنهكها الشيخوخة، بين ذل الصلح وفداحة الحرب، من كل التعاملات التي تشكل تفاصيل الحياة:

ـ هيا، ضع رمحك وصالح.

أمسكت رمحي وصرخت، أخيرًا صرخت، حتى إنني لم أكن أصدق أنني الذي يصرخ:

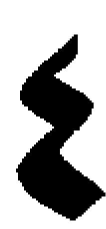
ـ وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه!

وأنفذت رمحي في صدره.

كانوا يصرخون من حولي، يحضرون لحظات الزمن الميت، يحاصرونني في ثورة وغضب، كُفي عن الصياح أيتها الأغنام البائسة، إنني أرتعد فوق جوادي وأحاول الانطلاق إلى رحب الفضاء، حولي السهام، وفي جسدي الرماح، وساعة القدر قد أزفت، إن الأحياء لا يعرفون شيئًا فعلميني يا روح كليب، يا أرواح وائل وتغلب، الوداع يا بكر، والسلام على نفسي التي انتظرت طويلًا وتعذَّبت بما فيه الكفاية.

(تمت أقوال هجرس بن كليب)

وانتهت الحرب، وحُفظت القضية.



الحارث بن ظالم المري

طائر الصدى يدرك ثأره

في صدر الحارث طائر غريب، هو طائر الصدى، منذ أن خرج من رؤوس قتلى قبيلته وهو يتلظى من العطش ومن الإحساس بالخزي، يطوف الفيافي والمقابر لعله يدرك ثأره، لم يفارق صدر الحارث قَطُّ، حتى عندما تخلوا عنه جميعًا وتركوه نهبًا لريح السموم وخدعه الملك النعمان وباعوا سيفه وعباءته في سوق عكاظ واستحلوا دمه وعرضه، والطائر يلطم صدره بجناحيه، يحرقه بالعطش وجوع الرماد.

قبل أن يولد كانت كل المصائر قد أعدت، سمع باسم خالد بن جعفر وظل يسمعه حتى التصق به كوجهه الآخر. في الصبح تبكي النساء، وفي المساء لا تأخذه أمه في حضنها، تبقيه ساهرًا أمامها حتى يسمع صوتها، ويرى تعابير الأسى على وجهها. ابن جعفر هو قاتل الحياة، أغار على قبيلته وقتل كل مَن فيها من الرجال وبينهم أبو الحارث وعمه وخاله وأولادهما، لم يترك من القبيلة إلا نساء ثكلى، عاجزات عن القتال وطلب الثأر، لا يُجدن غير لبس السواد وترديد العديد وذكر

المراثي. فتح الحارث عينيه ليجد أمه وأخواته وخالاته وعماته، ملامحهن واحدة كأنهن وجه واحد، بائس وكئيب، صرخن فيه قبل أن يبدأ هو في الصراخ، رددن على مسامعه اسم خالد بن جعفر حتى انحفر على جدران روحه، حفظه قبل أن يعرف اسم أبيه أو أمه، كان هو قدره.

نما وسط نسوة القبيلة كنبات بري، يمد جذوره إلى كل مكان، تطلبه أمه ليشد عصاب الناقة حتى تستطيع حلبها، وتنتظره خالاته ليحضر لهن الحطب، وتبقى عماته عطشى إلى أن يُخرج لهن الماء من البئر، تميمة صغيرة لحفظ مادة الحياة في صحراء لا ترحم، ولا تكف أصوات البكاء عن ملاحقته، يصحن كلهن في وجهه مطالبات بالثأر، كأنه رجل العالم الوحيد الذي يحمل على كتفه كل الأنواء، وشبح خالد بن جعفر بن كلاب بن عامر، يطارد لحظات صباه. وفي الليل عندما تخبو النيران ويفرش القمر ضوءه على المقابر، لا تتركه أمه يغرق في النوم قبل أن تقص عليه كيف مزق خالد جسد أبيه وتركه مشاعًا للضواري، وعندما يغرق في السباب تدمدم الريح باسم خالد، لم يقتل عمه وخاله فقط، ولكنه قتل زهير بن جذيمة سيد غطفان، وورقاء العبسي، وغيرهم من سادات العرب، فارس غادر لا يتوقف سيفه ولا تتراجع خيله، فكيف قُدِّر للحارث وحده أن يتحمل ثأر هؤلاء؟

وعندما كان لا يزال صغيرًا، هبط أحد الصعاليك على القبيلة، أخذ يجوس في الخيام الخالية من الرجال، يكسر الأواني، ويشد شعور النساء ويمزق ثيابهن ويعبث بنهودهن، وحين حاول الحارث

الوقوف في وجهه أطاح به في ضربة واحدة، وجرت النسوة فزعات يلملمن لحمهن العاري، وانصرف الصعلوك وهو يتوعدهن بالعودة وقضاء الليل بأكمله وسطهن.

وعندما اشتد عوده قليلًا واستطاع أن يهبط إلى إحدى الأسواق، أشار له رجال القبائل وهم يقولون بصوت عالٍ:

ـ هذا هو الحارث بن ظالم المري، من قبيلة النساء، لم يعد أحد يذكر اسم قبيلته «هوازن» من بني قيس، وليس له قوم يعتد بهم، تداخلت أسماء النسوة في نسبه، وركبه خزي النواح، وامتلأ قلبه بأحزان الأرامل.

أخذ سيف أبيه وخرج إلى الصحراء، أقام من كل أشكال الصخور صورًا لابن جعفر وأخذ يضرب، ويرمي السهام لعل هذا يخفف من إحساسه بالمهانة، من الخجل من عيون العابرين الجائعة، كلما سمعوا عن قبيلة بلا رجال تحركت شهيتهم، وود الحارث لو يخرج من جلده، من وشم أصابعهن على جسده، تحول إلى حيوان بري، مفرد، معزول، لا يضنيه غير أمرين: أن يكون ثأره معلقًا بكف خالد بن جعفر، وأن تكون قبيلته من النساء. ولا يتوقف عن سؤال نفسه: ماذا أفعل حين أقابل خالدًا؟ هل أبادره بالقتل، أم أميته ببطء بعدد كل لحظات عذابي ومهانة طفولتي؟ ثم تقابلا.

رحل الحارث إلى الشمال، إلى مدينة الحيرة عاصمة الملك النعمان، الزيارة السنوية التي تقوم بها كل وفود العرب لتقديم فروض الطاعة والهدايا السنوية للملك، وقدر للحارث أن يترك همومه خلف ظهره ويعبر الصحراء بعيدًا عن كل أصداء النواح، كان قد أصبح شابًّا

قويًّا، أكسبته العزلة نوعًا من الصلادة، وصبغت تصرفاته بشراسة حيوانية، أخذ بعض الخيول التي بقيت في قبيلته بعد أن سلبها الغزاة كل شيء، فشبت ضعيفة مثل نساء القبيلة، رحل بلا سيف، فمن المُحرم على أي فارس أن يدخل الحيرة بسيفه، فالجميع يخضعون لحماية الملك، وتتوقف كل الضغائن والثارات خارج أسوار المدينة، وهناك رأى خالد بن جعفر للمرة الأولى.

ـ أهذا أنت؟

تساءل الحارث في حرقة وخالد واقف بجانب العرش، قريب من الملك، منتصب القامة، تمثال صخري قاس، والساحة واسعة والعرش عالٍ، وأعلن الحرس اسمه واسم قبيلته، وتقدم الحارث ممسكًا بأعنة الخيول الهزيلة، وتعالت أصوات أنفاس ابن جعفر كأنه يتوعده: «أهذا أنت؟»، لم يكن أيٌّ منهما متقلدًا سيفه، كانا في حماية الملك النعمان الأبرص الأحمر الشعر، ووفد القبائل من مضر واليمن وربيعة، تحصي أنفاسه اللاهثة، وهو وسطهن ضئيل، حانق، ممرور، وهذه البسمة الساخرة على وجه ابن جعفر تجعل كل قطرة من دمه تتوفز، وضع أعنة الخيل عند قاعدة العرش وهتف بالكلمات التي لقنتها له نسوة قبيلته:

ـ أبيت اللعن، نِعم صباحك، وأهلي فداؤك، هذه أفراس من خيل بني مُرة لا يُشق لها غبار.

وقاطعت الضحكات كلماته، انفجر ابن جعفر في ضحكة مدوية، نزل من جانب العرش، أخذ يدور حول الحارث، أشار للخيول في سخرية وهو يقول:

ـ أتقدر هذه على شق غبار؟ ستختنق به قبل أن تخطو خطوة واحدة!

وانفجرت الوفود في ضحكات متصلة، نظر الحارث إلى الملك النعمان يستنجد به، لكن وجهه كان خاليًا من أي تعبير. وصعد خالد وأخذ يهمس في أذنيه، وتحولت هذه الهمسات إلى تقلصات غاضبة على وجه الملك حتى نهض وهو يصرخ في الحارث:

ـ يا حارث، أرى خيلك أشباهًا هزالًا، أين اللواتي كأن أذنابها شقاق أعلام، وكأن مناخيرها وجار الضباع، وكأن عيونها بغايا النساء؟!

وصاح خالد:

ـ زعم الحارث أن تلك الخيل خيله وخيل آبائه.

وزفر الملك، وأحس الجميع أن الحارث سوف يرد خائبًا، مغضوبًا عليه، لكن وزير الملك تشفَّع له لجهله وحداثة سنه، وأشار الملك للجميع بالانصراف، وابتلع الحارث أولى الإهانات.

في المساء ذهب الحارث إلى إحدى الحانات في الحيرة، لعل الشراب ينسيه مرارة النهار، ولكن ازدادت المرارة عندما دخل ابن جعفر وحوله قومه من بني عامر، وجلجلت الدفوف بالتحية، وخرجت «بنت عفزر» المغنية من مؤخرة الحانة، شبه عارية، لا يغطي جسدها الفارع إلا مزق من دمقس شفاف، وقفت أمامهم تغني، ولكنها لم تلفت نظر الحارث، لم يكد يراها، ظل مسلطًا أنظاره على خالد، فوجئ به يلتفت ويتأمله، ثم يشير إلى بنت عفزر يلقي لها كيسًا من النقود وهو يهمس في أذنها، ودقت الدفوف والصاجات، وانتصبت المغنية، وغنت:

دارٌ لهنـدٍ والرَّبَـابِ وفَرتَنـي ولَمِيـس قَبـلَ حـوادثِ الأَيَّامِ

بدأت طقوس المهانة، استدارت الوجوه لتتطلع إليه، وبنت عفزر تواصل الغناء، هذه أسماء أمه وخالاته، تعرض بهن، وتكشف بالكلمات عن مفاتن أجسادهن، انكسرت الكأس الفخارية بين أصابعه، والتفتت بنت عفزر إليه، فوجئت بوجهه الصلد، وبنيانه البري الغريب، وهو يحدق فيها، يتأهب لقتلها بعينيه، أخذت به، ارتعدت تحت وطأة نظراته الغاضبة، اقتربت منه، لكنه نهض غاضبًا مجنونًا، دفعها بعنف ووقف أمام خالد، وتأهب حرس الملك، وتأهب بنو عامر، تأهبت الحيرة كلها، والحارث وحيد أعزل، ولم يكن أمامه إلا أن ينسحب ويبتلع الإهانة الثانية، وظلت ملامحه الصلدة أمام عين بنت عفزر، وآثار أصابعه على كتفها، ولم تعد قادرة على الغناء.

وفي الصباح توجهت وفود القبائل إلى مائدة الملك النعمان، جلس الملك في المقدمة، وجلست بقية الوفود على الجانبين، واختار خالد أن يكون في مواجهة الحارث. أحضر الخدم أواني التمر الذي تشتهر الحيرة به ووضعوها أمامهم، وظل خالد يأكل ويُلقي النوى بين يدي الحارث، وهو يأكل في صمت كظيم وكومة النوى تكبر بين يديه وبنو عامر لا يكفون عن الضحك، وعندما فرغ خالد توجه بالحديث إلى الملك:

ـ أبيت اللعن، انظر إلى ما بين يدي الحارث من النوى، ما ترك لنا تمرًا إلا وأكله.

لم يبتلع الحارث الإهانة الثالثة، فرد عليه:

ـ أما أنا فأكلت التمر وألقيت النوى، وأما أنت فأكلته بنواه!

وجم الجميع، كان خالد لا ينازع ولا ترد له كلمة سواء بين قومه أو في أي قبيلة، صاح غاضبًا:

ـ أتنازعني يا حارث وقد قتلت عشيرتك وتركت يتيمًا في حجور النساء؟

قال الحارث:

ـ ذاك يوم لم أشهده، وأنا مُغن اليوم بمكاني.

ضحك خالد ضحكة جافة وقال مهددًا:

ـ تركت في أرحام نساء قبيلتك من المني ما يكفي قبيلة بأكملها، فلماذا تقف وحيدًا كنخلة جرداء؟

واستدار الحارث خارجًا دون أن يأبه حتى باستئذان الملك.

وفي الحانة عندما بدأت بنت عفزر في الغناء رأت الوجه الصلد يتطلع إليها، أحست بآثار أصابعه التي أنشبها في كتفها كلسع النار، ألقى إليها كيسًا من النقود وطلب منها أن تغني من أشعاره:

تَعَلَّـمْ أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ أَنِّـي فاتـكٌ مِنَ اليومِ أو مِنْ بعدِه بابن جَعْفر

أدركت أن ما حدث بالأمس كان مجرد بداية لصراع لن ينتهي سوى بالدم، لم تأخذ النقود، لكنها غنت من أجله لعله يلين قليلًا، جلست أمامه وهي تهتف به:

ـ ألك حاجة؟

لم يرد عليها، ولكنها لمحت في عينيه جوعًا لا يشبع، ورغبة لا تنطفئ. أمسكت يده وعبرت شوارع الحيرة المظلمة التي تتخللها أقنية الماء، كان بيتها يطل على نهر. وانساب جسدها تحته كانسياب

الموج، لفت ذراعيها حول عنقه تتشبث به، وتتلقى ضرباته التي لا تهدأ، في البداية لم يكن يُجيد توجيه ضرباته، ثم ظلت توجهه حتى انتظم إيقاعهما معًا، اكتشف هو في عُريها نعومة ودفئًا ككثبان الرمال، منزلقة وخادعة، تقوده إلى فتحاتها السرية، رطبة وحارة وراغبة، واكتشفت هي مدى قوته وعنفوان رغبته، تلاقيا معًا في ذروة واحدة برغم أن هذه كانت مرَّته الأولى، وكانت مرَّتها الألف، توقفت حقًّا عن إحصاء الزبائن، ولكن عددهم لم يكن يقل عن ذلك بأي حال، هذا الزبون الغر كان مختلفًا، يترك علامته على جسدها، ويعطيها نشوة عفوية هي مزيج من اللهفة والخشونة، دفقة صحراوية تُدخل الدفء إلى خلايا جسدها، تُبقيها ساهرة طوال الليل، تتمنى يقظته حتى تذوق طعمه من جديد، ولكنه يستيقظ في الصباح، ويقول لها بصوت بارد:

ـ أريد سيفًا.

وظلت بنت عفزر تحدق في عُريه، للحظة وجيزة حسبت أنها قد امتلكته، أنسته حنقه، ولكن جسده أصبح صلدًا وجامدًا لا يستجيب. سارت معه للمرة الثانية إلى الطرف الثاني من الحيرة، قفرٌ وفراغ ومستنقعات آسنة، كوخ خشبي على حافة الأفق ينبعث الشرر من نوافذه، استقبله الحداد في شك، ولكن أساريره لانت عندما رأى بنت عفزر، رفض طلبه لأن أوامر الملك كانت مشددة: لا تُباع السيوف للغرباء داخل الحيرة، خصوصًا في موسم قدوم الوفود، ولكن بنت عفزر وعدته بأن تكون له بعد أن يرحل الجميع. وضع الحارث أمامه كل ما معه من قطع ذهبية، واقتنع الحداد أخيرًا.

أخرج سيفًا من جراب مخبَّأ، وعندما انعكس الضوء على صفحته في وميض خاطف كالبرق أدرك الحارث أنه لم يشهد ما هو أروع من هذا النصل اللامع المصقول، وأقسم الحداد أن هذا السيف جاء خامًا من الهند، وظل يجلوه شهرًا كاملًا ثم نقعه في سم الأفاعي ثلاث ليالٍ قمرية، وتحسس الحارث بأصابعه نقوش الحيات المرسومة على مقبضه وتمتم:

ـ سوف يعرف الجميع هذا السيف بـ«ذي الحيات».

وانصرفا والحداد يلح عليهما في كتمان السر، ويحاول التأكد من عودتها إليه.

نظرت بنت عفزر إلى الحارث، بدا كأنه رجل جديد امتلك إهاب مصيره، توسلت إليه:

ـ لا تعاجل الدم، هذه الليلة لي، ولتؤجل ثأرك للغد!

التفت إليها مستغربًا يكتشف وجودها فجأة، تحركت في صدره رغبات أخرى، استيقظ طائر الصدى وأخذ يلطم صدره بجناحيه، وأحس بأشواك المهانة وهي تنغرس في رأسه، دفعها بعيدًا عنه وانطلق إلى حيث ينزل بنو عامر.

كانت أخبار الحانة والشعر الذي قيل قد وصلت إلى خالد فاستقبلها باستهزاء؛ لم يبقَ إلا هذا الغلام الذي يهدده، وهتف به أخوه الأحوص أن يخفف مبيته الليلة لأن الحارث رجل مَوتُور قد يغلبه الشراب وتعميه الإهانة، فضحك خالد مستخفًّا بقدرة ربيب النساء على فعل أي شيء، لكن الأحوص ظل يُلح عليه حتى قبل أن ينام معه «ابن عتبة» ابن خاله.

وفي منتصف الليل والجميع نيام، والنيران خامدة، جاء الحارث، رأى خيمة ابن جعفر المصنوعة من الجلد الأحمر المدبوغ، تحرَّك في خفة القط، ورفع الستر فرأى ابن عتبة نائمًا، تخطاه فرأى خالدًا، تنتفخ أوداجه مع صوت تنفسه، رفع سيفه، لو أنه يملك أن يوجه له نصف الإهانات التي لاقاها بسببه، هوى بالسيف على الوداج، شخر خالد كالذبيحة، انتفض جسده في رجة عنيفة، ولم يفتح عينيه، ابن عتبة هو الذي فتح عينيه مذعورًا، قفز الحارث نحوه، وأمسك عنقه وهو يرفع السيف الذي يقطر دمًا، وهتف به:

ـ أخبر الناس أنني قتلت خالدًا.

وضرب رأسه بمقبض السيف، ثم فر خارجًا من الخيمة، ومن الحيرة، ومن كل بلاد المناذرة.

الصحراء من جديد يا قلبي الطليق، يا أمي، يا خالاتي، يا عماتي، يا كل نساء الصحراء، لقد أدركت ثأري، قتلت خالدًا، ذلك الجزء القلق المعذب من نفسي، تزيَّنتْ عباءتي بقطرات دمه، وبللتُ ظمأ طائري، يا غطفان، يا عبس، يا كل ذرات الرمل، لقد قتلت وجهي الآخر، فهل أنعم بلحظة من الحياة دون إحساس بالعار؟

ومع أول خيوط الضوء سأل نفسه في حيرة: أين أذهب؟ سوف يطلبه بنو عامر لأقصى الأرض، ولن تهبه نساء قبيلته إلا أغاريد الفرح والأسرَّة الوثيرة، إنه في حاجة إلى رجال حقيقيين، يقفون معه، لم يبق أمامه إلا أن يتوجه إلى غطفان، أبناء عمومته، لقد قتل خالد كبيرهم أيضًا ولم يجرؤ واحد منهم على الخروج طلبًا للثأر، وها هو قد ظفر بثأرهم جميعًا، لو أنهم تبعوه فسيصبح بهم سيد الصحراء.

لم يُصدِّق الملك النعمان أن الحارث جرؤ على فِعلها، وحين رأى رأس خالد المقطوع أدرك مدى الإهانة التي وُجهت إليه؛ لقد اعتدى الحارث على حُرمته وحُرمة مدينته، فصرخ في وفود العرب:

ـ الحارث طريدي، وثأر خالد ثأري، ومن أجاره من العرب عدوي.

وجهزت بنو عامر خيولها، وأعطى الملك أوامره المشددة لـ«الملحاء»؛ أقوى كتائب جيشه، حتى تبدأ عملية المطاردة، وطار الخبر مع القوافل المسافرة، ومع الرواة والصعاليك، دم الحارث مباح، ودم من يجرؤ على أن يجيره مهدور.

وكان الحارث وقتها يقف أمام خيام غطفان يرتعد، خباؤها ترتعد إذ تمسها ريح الصحراء. اعترض طريقه شيخ القبيلة عمه سنان بن أبي حارثة المري، لم يسمح له بالنزول، ولا بالتزوُّد بأي ماء أو طعام، هتف الحارث مذهولًا:

ـ أترفضونني وقد نلت ثأري وثأركم؟

كانوا يعرفون فداحة الخطأ الذي ارتكبه، قال عمه:

ـ لقد جررت علينا عداوة الملك النعمان، ولا طاقة لنا بمحاربته ولا الوقوف أمام الملحاء.

واختبأوا مرتعدين في خيامهم المرتعدة، لم يجد بُدًّا من أن يدير عنان جواده ويعود لنهب الأرض، ما أقسى طرق الصحراء حين تمتلئ بالفخاخ! وما أمرَّ المصادفة العمياء حين تقودك للنجاة أو للموت!

وصل إلى تميم، لم يدرك رئيسهم حاجب بن زرارة خطورته أو ربما لم تصله الأخبار، استضافه وقدَّم له اللبن والتمر وجلس يستمع

إلى قصته، ولم يلبث أن علت وجهه علامات القلق، وانسحبت بقية وجوه القبيلة، وأخذ حاجب يبحث في داخله عن مخرج من هذه الورطة.

وصل بنو عامر، أسروا امرأة من بني تميم كانت تجمع الحطب، وظلوا يضغطون عليها ويهددونها حتى أخبرتهم بمكان الحارث من بني تميم، شرعوا سيوفهم للثأر، كان الأحوص على رأسهم، يعاني من ارتخاء جفنيه، فإذا استعد للحرب عصبوا رأسه ليرفعهما، وإذا رأى لا يرحم. استطاعت المرأة الهرب إلى قومها، وأن تخبر حاجبًا بأوصاف بني عامر الذين يُقبلون بوجوه الظباء ويُدبرون بأعجاز النساء، واستدعى حاجب الحارث وسأله:

ـ هؤلاء بنو عامر قد أتوك فما أنت صانع؟

أدرك الحارث إلى ماذا يرمي السؤال، لو أنه عازم على نُصرته لما سأله، أجاب في حذر:

ـ ذاك إليك، إن شئت أقمت فقاتلت القوم، وإن شئت تنحيت.

وكما توقع، قال حاجب في ارتياح:

ـ تنحَّ عني غير ملوم.

وغضب الحارث فانطلق يهجوه شعرًا، ورد حاجب الهجاء، وأوشكَا على التشاجر وخيول بني عامر تقترب، ولم يكن أمام الحارث إلا أن يهرب، ولم يبقَ أمام حاجب إلا أن يخرج لهم ويرشدهم للطريق الذي هرب منه.

وصلت كتيبة الملحاء إلى غطفان وأوشكت على الهجوم عليها، لكن شيخهم سنان هرع متوسلًا ليدرأ الشر عن قبيلته قائلًا:

ـ أبيت اللعن، والله ما ذمة الحارث لنا بذمة، ولا جاره لنا بجار، ولو أمنته ما أمناه.

وظل الحارث يمرق عبر الصحراء والفلوات الخالية، ينام ليلة واحدة ويسير أيامًا متواصلة. وانتشرت الملحاء كالرعب الأسود بعرض الصحراء، تهجم لمجرد الشك، وتقتل عند أي شبهة، تابعت طريق مطاردته بخط من الموتى والمقابر، كل النجوم غادرة، وكل علامات الطريق مضللة، وطائر الصدى يغرس منقاره في الرمل، لعل هناك مكانًا وحيدًا آمنًا، ليلة واحدة بعيدًا عن كوابيس المطاردة. ذهب إلى كندة، فقالوا له: «لا نجاة لك إلا في حضرموت». ذهب إليها قالوا: «عليك بأرض بكر بن وائل». سار جوعًا، وسار عطشًا، ووقف أمام رئيسهم زبان يحكي مرارة ثأره، وعسر مطاردته، ويمتدح كرمه ووفاءه في قصيدة طويلة، وأجاره الرجل، لكن قومه اجتمعوا إليه، صاحوا على مسمع من الحارث:

ـ أخرج هذا المشؤوم من بين أظهرنا حتى لا يعرضنا بشر، لا طاقة لنا بالملحاء.

ورفض زبان أن يتخلى عنه، خصوصًا بعد هذه القصيدة الجيدة، واشتعلت نار الخلافات بين بطون القبيلة ذاتها، وجنود الملك يقتربون، وعاد يهرب من جديد، يواصل الليل بالنهار، لا راحة، ولا سكينة، واستطاعوا محاصرته في أحد الجبال، لكن سهامه ظلت تنهال عليهم، فكلما هجموا على مكان اكتشفوا أن السهام تقنصهم من مكان آخر، وفي النهاية استطاع أن يفلت منهم وتركهم يرصون قتلاهم.

مع كل هرب جديد، كان غضب الملك يزداد، كل انتصار يحققه الحارث يهز عرشه، والأنباء تنتشر وسط قبائل العرب، والحكايات والأشعار، والملحاء تحولت إلى حفنة من الجنود البُلهاء يطاردون السَّراب، وبدلًا من أن يترصدوا للحارث، أصبح هو الذي يترصد لهم، من طيء إلى بكر، ومن بكر إلى تميم، ومن حضرموت إلى عروض اليمامة، وبدأ شعراء الغساسنة يتندرون على عجز الملك النعمان، وأرسل كسرى ملك الفرس يتساءل، والحارث يسجل بالشعر كل لحظة يمر بها، حتى إن الرواة نقلوا إلى الملك آخر ما قاله من أبيات الشعر:

بـدأتُ بهـذي ثم أثنـي بِمثلِها   وثالثـةٍ تَبيـضُّ منهـا المَقَـادِمُ

وصرخ الملك في غضب:

- ما يعني بالثالثة غيري!

أصبح الحارث هو الذي يُهدد، وزفر الملك في غيظ، لكن وزيره انحنى وهو يقول:

- أبيت اللعن، لا أراك تنال منه شيئًا أغيظ له من الهجوم على نساء قبيلته وسلب أموالهن وسبي فتياتهن.

هدأ غضب الملك، وأمر جزءًا آخر من فرسان جيشه بالهجوم على هوازن، قبيلة النساء، وهدم الخيام على رؤوسهن، وقتل العجائز، وأسر الصبايا. وفوجئ الحارث بأحد الصعاليك وهو يبرز أمامه ويهتف به:

- ماتت أمك يا حارث، قتلها جنود الملك النعمان!

بوغت الحارث؛ لم يتصور أن ينحدر الملك إلى هذه الدرجة

من الانتقام، الثأر هو علاقة دموية بين الرجال، فلماذا تدفع النساء الثمن؟ لم يحزن، تكفي كل أحزانه الماضية، عليه فقط أن يرد الضربة، سيذهب إلى الحيرة ليواجه الملك في عقر داره، ولن يساعده على ذلك إلا بنت عفزر.

عاد إليها، كان جسده قد ازداد صلابة، ورغبته أكثر اشتعالًا، لكنها ظلت ترتجف تحته في نشوة يشوبها الشك، أدركت أنه يسعى خلف مقتلة أخرى، لكنها لم تناقشه، لم تكن الكلمات لتجدي معه، وأخفته في حجرتها أيامًا وليالي وهي تدرك أنه يتحين فرصة.

هبط متنكرًا إلى أسواق الحيرة، كانت نظرات الحرس المتشككة تفحص الغرباء وتحيط سياج القصر، لم يستطع الاقتراب، وخرج الملك النعمان من القصر، سار في موكبه الأسبوعي عبر المدينة إلى قصره على النهر، بلحيته الحمراء ووجهه الأبرص، ظل الحارث واقفًا يحدق فيه، كان الأمر محتاجًا لنوبة مجنونة من الشجاعة ليقفز عليه ويأخذ ثأر نسائه، لكنه توقف عندما شاهد شرحبيل بن النعمان، ولده الصغير الذي يُعده ليكون أقوى ملوك العرب، كان يسير خلف أبيه، يتطلع إلى الجميع بوجهه الغافل وهو يمص أصابعه، وأدرك الحارث إلى أين سيوجه ضربته.

وظل يترصد القصر، يرقب الداخلين والخارجين، حتى شاهد الصبي خارجًا بصحبة أحد العبيد، ذهبَا إلى حافة النهر، وظل الحارث رابضًا حتى تلهَّى العبد قليلًا، هجم الحارث وقبض على رقبة الولد الصغير في يده، كان يشبه أباه، نسخة صغيرة من وجهه الأبرص، كانت أنفاسه تتحشرج، وعيناه تبرزان دهشة ورعبًا، وظل يطعنه،

طعنة لأبيه وطعنة لأمه وطعنة لأيام الطراد. صرخ العبد، وأخذ يهيل التراب على رأسه ويستنجد بالناس، ألقى بجثة الصبي وقفز عليه، وهتف فيه بشراسة:

ـ أخبر الملك، أن الحارث قد أدرك ثأره.

وانطلق هاربًا إلى الصحراء.

يا ملك الحيرة، قتلت أمي فقتلت ابنك، لا يلد الدم سوى الدم، قتلت أيامي الماضية وقضيت أنا على أيامك القادمة، دون أسف أو ندم، وبيننا الصحراء، فرصة النجاة، أو مقبرة الرمل، زهور الصبار جافة مثل قلب وحيد، والطائر العطشان مل طعم الدم وتاقَ للحظةٍ من السلام، لم تعد هناك جدوى، فما بقي بيننا من لحظات سوف نقضيها في الهرب حتى يوقع أحدنا بالآخر!

يمرق الحارث بن ظالم عبر الصحراء، الملوك لا يرحمون، والسادة خائفون، والقبائل متشابهة، تتمسك بأهداب التقاليد وتتفاخر بالأكاذيب، حتى يأتي وقت الخطر، فتدفن رأسها في الرمل، والحارث شجرة بلا جذور، يلاحقه هلاك بني عامر، وثأر الملك المضاعف، و«ذو الحيات» هو صديقه الوحيد، قُضي على قبيلته، وتبرأت منه غطفان، وتنصلت تميم، وأُغلقت في وجهه عروض اليمامة، وتطاول عليه أنصاف الرجال.

عمرو بن الأطانبة الخزرجي ملك الحجاز، حين عرف أن خالدًا قد قُتل، هتف فيمن حوله:

ـ والله لو لقي الحارث خالدًا وهو يقظان لما نظر إليه، ولكنه قتله نائمًا، ولو أتاني لعرف قدر نفسه.

ألقى هذا التحدي في وجه الصحراء، ولبس تاجه، ودعا بقيانه يغنينه الأشعار الحماسية، وبلغ الحارث هذا التحدي ولم يكن أمامه ما يخسره فسار إليه، وصل إلى بني الخزرج ووقف على باب خيمته وهتف به:

ـ أيها الملك أغثني فإنني جار مغلوب على أمري.

استجاب له عمرو بصوت حماسي وخرج من خيمته شاهرًا سيفه، وهجم عليه الحارث وهو يهتف به:

ـ أنا الحارث بن ظالم، جئتك وأنت يقظان!

فوجئ الرجل، واعتركا مليًّا من الليل حتى خشي عمرو أن يُقتل فهتف:

ـ يا حارث، إني شيخ كبير، وإني تعتريني سِنة من النوم، فهل لك في تأخير هذا الأمر إلى الغد؟

قال الحارث:

ـ هيهات، ومَن لي بك في الغد!

وتجاولَا ساعة أخرى، ثم ألقى عمرو الرمح من يده وهتف:

ـ يا حارث، ألم أخبرك أن النعاس يغلبني، قد سقط رمحي فاكفف!

كف الحارث، فقال عمرو:

ـ أنظرني إلى الغد!

قال:

ـ لا أحفل.

قال:

ـ فدعني آخذ رمحي!

قال:

ـ خذه.

قال عمرو:

ـ أخشى أن تُعاجلني أو تفتك بي إذا أردت أخذه!

قال الحارث:

ـ وذمة آل ظالم لا أعاجلك ولا أفتك بك!

فقال عمرو على الفور:

ـ وذمة الأطانبة لا آخذه ولا أقاتلك!

توقف الحارث، لم يجد بُدًّا من الانصراف تاركًا الشيخ الأحمق يبتلع تحدياته الجوفاء.

يمرق الحارث عبر الصحراء، كم مرة عبر ذات المكان واستغاث بنفس القبائل، كم مرة أثار رعب الأطفال والنساء وحنق المطاردين. كان النعمان غاضبًا لمقتل ابنه، فظل يدفع الجيوش إلى الصحراء حتى امتلأت بهم كل الطرق والربوع. ذهب الحارث إلى بني دارم، وكان قد قابل رئيسهم «معبد» في إحدى الأسواق وتوثقت بينهما أواصر الصداقة، وأجاره معبد برغم أنف قومه، فقد كانوا متشائمين من مقدم الحارث ومن جرِّهم إلى حرب لا نفع فيها، وصمم معبد على رأيه، وجاء بنو عامر والأحوص على رأسهم، ولم يخرج مع معبد إلا القليل من قومه، وكان الأمر الطبيعي هو أن يُهزم ويُؤخذ أسيرًا، وأرسله بنو عامر إلى رجل في الطائف متخصص في تعذيب الأسرى؛ ظل يُقطعه إربًا حتى مات، وعاود الحارث الهرب.

وصل إلى بلاد ربيعة، أصبح قريبًا من اليمن حيث يمكن أن يضيع

في جبالها المتشابكة، أو أن يعبر البحر إلى الجانب الآخر من العالم، لعله يجد هناك سلامًا أكثر وقبورًا أقل، كان متعَبًا، مليئًا بالجروح الصغيرة والأحلام الخائبة، يسير في أرض ليس بها أثر الحياة، رمل، وصخور، وأشجار شوكية قصيرة، ربط جواده ونام، حلم بوجه أمه، وود لو يستطيع استحضار وجه أبيه في الحلم، أحس بآلام شديدة تخز ذراعيه، ومد الملك النعمان يده ليقبض على عنقه، ضاق صدره حتى عجز عن التنفس، استيقظ مفزعًا فوجد نفسه مقيدًا، محاصرًا بالوجوه الغريبة، لقد وقع في الفخ، لم تمر لحظة ضعفه الوحيد بسلام، صرخوا فيه:

ـ مَن أنت؟

أدهشه السؤال، إنهم لا يعرفونه، ليسوا من بني عامر إذن، أو من أتباع الملك. صمت، ذكروا أنهم من بني قيس، رأوه نائمًا فأخذوه أسيرًا، لو تعرَّفوا عليه لطاروا به إلى الحيرة وأخذوا مكافأة النعمان الضخمة، وهتف رئيسهم في حنق:

ـ ألا تريد أن تتكلم أيها الصعلوك؟

وهوى عليه بلطمة هائلة. زمجر الحارث، جاءت اللحظة التي يُلطم فيها ولا يجرؤ على الرد، لقد رد لطمة خالد، ولطمة الملك، ولكنه يعجز أمام هذا الصعلوك من بني قيس، واجتمع عليه القوم، يضربونه ويغزونه بأطراف الأسنة، وكلما أصر على صمته، أدركوا أهمية ما يُخفيه.

هبط الليل فأوقدوا نارهم، وجلسوا يتسامرون ويقطعون الوقت بتعذيبه، ومحاولة حمله على الاعتراف باسمه ونسبه، وزاد من غيظهم

أنه لم يكن يحمل مالًا، ولا شيئًا يؤكل. ظل صامتًا، فشجُّوا رأسه وسال الدم حتى أوشك أن يغلق عينيه، وأصابهم الملل منه أخيرًا، وتظاهر بأنه قد فقد وعيه فتركوه حتى انطفأت نارهم وعلا صوت شخيرهم، فأخذ يتحرك في حذر بالغ، يحرك ذراعيه وعضلاته المشدودة حتى استطاع التخلص من القيد، كانت كل قطعة من جسده تؤلمه، لكنه أخذ سيفه وجواده وود لو يستطيع أن يرد عليهم ما تلقاه من إهانات، لكنه كان متعَبًا وحيدًا.

جرى مبتعدًا، ودقت سنابك الخيل لتعلن خلاصه، ولتوقظ أعداءه، نهضوا وأسرعوا إلى جيادهم، وانضموا إلى قائمة المطاردين، وأشرق الصبح وهو يعدو، وانحدر مع الوادي إلى مدينة هائلة، يحوطها حصن كبير، شهق فرحًا، إنها اليمامة أخيرًا، لو يستطيع الوصول إلى خلف هذا السور، كان هناك عدد من الأطفال يلعبون، هبط من فوق جواده وأمسك الغلام الأول، نظر إليه في رعب وسأله عن اسمه، فقال الغلام:

ـ أنا بجير بن أبجر العجلي.

أمسكه الحارث وهتف به:

ـ أنا لك جار.

شعر الغلام بالزهو فاقتاده إلى داخل الحصن وخلفهما بقية الصبيان، وذهبوا إلى الأب أبجر العجلي، وقال الغلام:

ـ يا أبي، لقد أجرت هذا الفارس.

ووافق الأب على طلب ابنه الوحيد، أعلن أن الفارس الذي لا يعرف اسمه ولا نسبه في حماه، وهتف الحارث:

ـ إنهم يطاردونني.

أمر الرجل فأغلقوا باب الحصن، ولم تمضِ دقائق إلا وأقبل القيسيون وأخذوا يزمجرون خارج السور وينادون على العجلي أن يرد لهم أسيرهم، لكنه هتف:

ـ لو أخذتموه قبل دخوله الحصن لأسلمته لكم، أما وقد استجار بي فلا سبيل إليه.

صاحوا في غضب:

ـ أسيرنا وما هو لك بجار ولا تعرفه، إنما أتاك هاربًا من أيدينا ونحن قومك وجيرتك.

صمت العجلي، كان موزعًا بين الوعد الذي قطعه للغريب، وحقوق جيرانه عليه، قال:

ـ أما أن أسلمه إليكم فلا يكون ذلك، إن شئتم أعطيته سلاحًا كاملًا وحملته على فرس وتركته حتى يقطع الوادي بيني وبينكم وعليكم أن تطاردوه بعد ذلك.

وافق القوم ووافق الحارث أيضًا، كان قد ألِف الطراد والهرب، وعرف أنه لا أمان له عندما يكون في حماية الآخرين وتحت رحمتهم، حمد الله لأنهم حتى الآن لم يعرفوا اسمه وإلا استماتوا على جثته، لبس سلاحه، وفتح باب الحصن، وتطلع القيسيون إليه في حنق، شاعرين بالإهانة، هذا الفارس الوحيد قد وضعهم جميعًا في موضع الاختبار، وانطلق يعدو، من العبث أن تطارده القبائل والملوك ثم يقع في قبضة حفنة من لصوص الخيل، وحث جواده، واقترب خط الوادي، ثم سمع أصوات جيادهم وهي تعدو خلفه، رأى السهام

تتطاير فاستدار بحركة مباغتة ورشقهم بدفعة من سهامه، ترنح اثنان منهم وسقطَا على الأرض، واستدار يعدو، ووقفوا هم وقد باغتتهم المفاجأة، نظروا إلى قتلاهم، وبدا لهم أن المطاردة هي نوع من أنواع الحماقة، فتركوه يلقى مصيره في الصحراء.

مرة أخرى يترك نفسه للصدفة العمياء، يعدو فتبرز إحدى القبائل فلا يعرف ماذا تحمل له، السيف أم سعف النخل، ها هي بيوت أخرى، ونخيل وناس، أين أنا من أرض الله؟ جرى أحد الرعاة وهتف به:

ـ هل أنت مطارد؟

أومأ الحارث وسأله عن مكانه، فرد الراعي وهو يتأمل وجهه:

ـ أنت في بلاد بني قشير.

ثم هتف وهو يقفز من الفرح:

ـ إنه أنت، نفس الأوصاف التي ذكرها الرواة، أنت الحارث بن ظالم المري.

أنكر الحارث ذلك بشدة، ولكن الأرض انشقت عن عشرات الرجال والأطفال، جاءوا يعدون إليه بسعف النخل، وراعي الغنم يواصل الحديث اللاهث:

ـ كنا نعرف أنك هارب في عروض اليمامة، وقد توقعنا أن تمر ببلادنا.

استمع إلى كلماتهم، ورأى سعف النخل ومظاهر الترحيب، وتساءل: أهو فخ جديد؟ يؤكد له شيخ القبيلة أنهم أهله، وأنهم سوف يدافعون أعداءه، فكَّر: هل زاد الملك النعمان من المكافأة المرصودة من أجل رأسه؟ أنزلوه في خيمة كبيرة، وذبحوا الذبائح تحت قدميه،

ورقصوا بالسيوف تحية له، وهو جالس يفكر في مرارة، حين يأتي جنود الملك هل ستتبدد هذه الفرحة كالفقاعات، هتفوا به:

ـ احك لنا، ارو أشعارك.

حكى، وروى الشعر، أكل وشرب واستكان في خيمته، وتسللت إليه جارية صغيرة، اختلس لحظات المتعة المتاحة، ما دام لا مفر من الموت فليأخذ نصيبه من الراحة، كان هروبه قد قاد العرب إلى حربين كبيرتين، ثم قاد هذا إلى يوم وقعت فيه كل القبائل في بعضها، أصبح ثأره الفردي عامًّا وشاملًا، يخص كل البطون والعشائر، كان متعَبًا فأكل وشرب ونام. تأمل وجوههم، وفكَّر: متى سوف يهمون بالتخلص منه؟ واسترد جسده صحته، وبرئ من كل جروحه الخارجية وبقيت الجروح التي لا براء منها، ثم إن بني عامر جاءوا وحاصروا القبيلة، فاجتمع بنو قشير إليه وصاحوا:

ـ سوف نحارب معك.

ودهش الحارث، لقد كانوا صادقين ولم يتراجعوا، إنهم يريدون الحرب التي تخاذلت عنها تميم وغطفان برغم أنهم أقل قوة، حرب بني عامر بالنسبة إليهم نوع من الانتحار، لكنه خرج فخرجوا خلفه، جهز سيفه ذا الحيات، فأخرجوا سيوفهم، ودمدم بنو عامر في غضب حين واجهوا الحارث أخيرًا. شاهد الأحوص وهو يرفع جفنيه ويتأمله، ما أشبهه بخالد، ما أشبه الجميع بخالد، صاح به:

ـ يا أحوص، هذا ثأرٌ بيني وبينك، فلنتقاتل، وليتراجع القومان إذا مات أحدنا ولا يتقاتلا بغير طائل.

وكان الأحوص يكره الحارث، فوافق على الفور، وتقدم اثنان من

الفرسان فعصَّبا رأسه حتى لا يرتخي جفناه في أثناء القتال، وهتف الأحوص:

ـ ثأري ولن يُدركه غيري!

كان كلٌّ منهما يحمل للآخر حقدًا لا يهدأ، لأن الحارث قد أطار بضربة واحدة كل مجد بني عامر، ولأن الأحوص جد في المطاردة حتى لم تعد للحارث قبيلة أو أرض، ولأن كل ما بينهما تحوَّل إلى أطلال، ومقابر، ورماد. كانا يضربان، ويتواجهان، وحين سقطت الخيول من التعب واصلا القتال على أقدامهما، وأخيرًا استطاع الحارث أن يمد ذؤابة السيف ويمس العصابة التي ترفع جفني الأحوص، فلم يعد يرى غير الظلام الدامس، خسر معركته الأخيرة، واخترق السيف جنبه، وشعر بوطأة الخزي أقسى من الألم. انهزمت بنو عامر من جديد، ظلوا مترددين: هل يهاجمون دون زعيم، أم ينسحبون؟

ولم يتحدَّ الحارث مشاعرهم، انسحب في هدوء وتوارى بين صفوف بني قشير وانتظر قرارهم. وعندما تقدم عدد من فرسانهم وحملوا جثة الأحوص عرف أنهم قد قرروا الانسحاب مؤقتًا على الأقل. هلل بنو قشير، أحس كل واحد منهم كأنه قد خاض معركة، وكأنه انتصر بالفعل، لقد أصبحوا فجأة قبيلة قوية يُردِّد رواة الأنساب أخبارها. كان الحارث حزينًا؛ انصرف بنو عامر وغدًا سوف يأتي جنود الملك، وسوف تتحول سعادة الأطفال التي يشعر بها الجميع إلى مأساة، لن يتندَّر الرواة بأي شيء من خصالهم لأن الملحاء لن تُبقي لهم أثرًا، لذا حسم أمره قائلًا:

ـ يجب أن أرحل عنكم!

دهش شيخ القبيلة وهو يرفع على خيمته رايات النصر الملونة:

ـ ولكن، لماذا تتركنا؟ مَن ينصرك غيرنا؟

كان الحارث يفكر في مكة، في الحرم الذي لا يُهدر فيه دم، هل يمكن أن يصل إليه، أن يعيش في ظله وينجو، دون ذلك كل الطرق المراقبة وعيون الجواسيس وبطون القبائل المتحالفة، والملحاء، لكن الاختيار كان قد حُسم في داخله: إما أن يصل إلى مكة، وإما أن يموت على أبوابها.

خرجوا يودعونه على دقات الدفوف، وحرص الرواة على ترديد أشعاره أمامه ليتأكدوا من درجة الحفظ، ودست الجواري قوارير العطر في متاعه، ها هي الصحراء الواسعة مرة أخرى، ترك كل الطرق المألوفة، أصبح يحفظ الصحراء مثل كف يده، وأحس جنود الملك بما يحاول أن يفعله، فأخذوا يضيقون عليه الخناق، يحاولون محاصرته عند منافذ الجبال وفي بطون الوديان، وكل يوم تتواتر أخباره: شُوهد الحارث بالقرب من غفار، بالقرب من الطائف، بالقرب من يثرب، ثم بالقرب من جبل مكة، يمرق في الليل كحلم، وفي النهار كحافة سكين، يكتشف فجاجًا لا يعرفها أحد، ومكة راقدة بين جبالها العالية كحدقة العين، وكلما سقط الحارث خرج مَن يمد له يد المعاونة، يعطيه طعامًا، أو سهامًا، أو حتى جودًا، كانوا يريدونه أن يصل، أن يحقق حلمهم في أن يتغلَّب فرد واحد على هذه القوى المجتمِعة، يريدون أن يجتازوا به خوفهم، والملك النعمان يصرخ من فوق عرشه:

ـ لا يجب أن يصل إلى مكة، يجب ألا يفلت!

والحارث يكتسب كل يوم شبرًا من أرضه المحرَّمة، من حياته ورغبته في الأمان، يتقدم، ويناور، وتنهمر عليه السهام كالمطر، وتُنصب له الفخاخ. وأخيرًا، استطاع ذات ليلة مقمرة أن يستدير وأن يهبط من منحدر وعر إلى مكة بعد أن تمزَّقت يداه، وسار يترنح إلى الحرم، وأصبح بعيدًا عن مخالب الملك.

وفي الصباح فوجئ أهل مكة بالحارث جريحًا متعَبًا متشبثًا بأستار الكعبة. لقد انتصر، الآن يستطيع النوم والزواج والحياة، يستطيع أن يُنجب ولدًا، وأن يمد جذوره في الأرض، ولكن هل ينساه الملك؟ وهل تهدأ بنو عامر؟ مرت عليه أيام كان يحسبها كثيرة، ولكنه أحس أنه من الغريب أن يعود ليكون إنسانًا عاديًّا، يمارس حياته وسط أناس عاديين. انحصر الحارث في وادي القرى الضيق، لا يخرج منه ولا يتخطَّاه، لا يمضي مع قافلة ولا يشترك في سوق، ولا يعرض نفسه لمواسم الحجيج، هل يمكن أن يطوع نفسه لهذا الأمان الخانق؟ يبقى في نفس المخبأ، يأكل ويسمن وترتخي عضلاته، ويتساقط الريش من أجنحة طائر الصدى، وعندما زوَّجوه اكتشف أنه لم يكن يريد هذه الزوجة، ولا هذه الحياة، مرت بنت عفزر بذاكرته كلسع اللهب، كان فراش الزوجية باردًا قاحلًا، والحارث يمضغ طعام الملل اليومي.

ومن الشمال جاءت أنباء غريبة: لقد عفا عنه الملك النعمان! مَن يصدق هذا؟ ارتدت جيوشه خائبة، واستكان بنو عامر، وأصبح الحارث أسطورة، ولم يكن النعمان ليجرؤ على معاداة الأسطورة.

وجاء شيوخ القبائل ووجوه العرب من ربيعة ومضر واليمن، كلهم يحملون نفس الأنباء وتأكيدات الملك، لقد أصبح آمنًا، بطلًا، أهذا فخ جديد؟

وجاء سنان بن أبي حارثة المري، عمه الذي تخلى عنه، جاء يسعى قائلًا:

ـ ها هو كتاب الملك بالعفو عنك، لقد نلت ثأرك ورفعت رؤوسنا.

واستمع الحارث إلى كلماته في هدوء، كيف تبدَّلت الأقدار إلى هذه الدرجة؟ فتح كتاب الملك، كانت كلماته تحمل عفوًا صريحًا وتعهدًا بالأمان ودعوة لزيارة الحيرة. حدق الحارث في عمه طويلًا، وهو يتمتم حائرًا:

ـ هل الملك صادق؟

هتف كل شيوخ القبائل:

ـ لقد وعد، والملك لا يغدر، ونحن ضامنون لك صدق وعده.

وصمت الحارث ثم سأل عمه في صوت خافت:

ـ هناك مغنية في الحيرة اسمها بنت عفزر، هل هي موجودة؟

قال العم:

ـ أجل، إنها ما زالت تغني.

التفت الحارث حول نفسه وعاود الصمت: هل تصدق وعود الملك؟ هذا ختمه وشارته، وهذه كلماته. تأمل لحى شيوخ القبائل، والتجاعيد في وجه عمه، أحس بشوق الرحيل الممض في أعماقه، وشوقه إلى بنت عفزر، كل هذا جعله لا ينام ليلًا ولا يأكل نهارًا.

وعندما قرر الرحيل امتدت الصحراء مثل جسد رخو لم يعد فيه

ما يثير الرعشة. مر على القبائل التي تبرَّأت منه قديمًا، أصبحت الآن ترفع له الرايات وسعف النخل. ذهب إلى قبيلته فوجد الحياة قد عادت، النساء خلعن السواد، وزواجات جديدة قد عُقدت، والأطفال يجاهدون لإخراج الماء من الآبار، وواصل السير فرأى الطيور الجارحة في السماء، والآبار المسمومة في الأرض، لكن وعد الأمان المكتوب كان في جيبه.

وعلى باب الحيرة تأمله الحرس قليلًا ثم سمحوا له بالدخول، كان سيفه ذو الحيات حول وسطه، ولم يره أحد، أو لعلهم تجاهلوه، بدت الشوارع ضيقة، مليئة بالمتسولين والأطفال الهزالى، والبيوت منخفضة تشبه الزنازين، وفي الليل سار إلى حانة بنت عفزر، حيث يختلط العطر والدخان وصوتها:

فاسْقِي الحارثَ مِن رَحِيقٍ مُدَامةٍ واجْلي سَيفَه وطَهِّري أثوابَهْ

كانت تغني من أجله، وحين التفتت وجدته جالسًا أمامها، مثل أمنية عزيزة المنال، اقتربت ولمسته، تأكدت أنها لا تحلم، كان هو أيضًا لا يحلم، قال لها:

ـ في الغد سوف أذهب لمقابلة الملك النعمان، ثم أعود لنبقى معًا.

هتفت في لوعة:

ـ سوف يغدر بك، لا تذهب!

قال في اقتناع:

ـ الملك لا يرحم، لكنه لا يغدر، لقد عفا عني وكتابه في جيبي.

توسلت إليه من خلال دموعها:

ـ لا تذهب، لنهرب معًا إلى أرض الغساسنة!

أحس الحارث أنه قد هرب كفايته، وحزن كفايته، وامتلأ جسده بكل أنواع الجروح، قال في إصرار:

ـ يجب أن أذهب إليه، لن أعيش خائفًا بعد الآن، سأعود وأتزوج بك ونعيش معًا في أي مكان!

وجاء الصباح، طائر أبيض الجناحين كسيح، سار الحارث إلى القصر، قال للحاجب:

ـ استأذن لي.

والناس عند النعمان متوفرون، كل شيوخ القبائل الذين حملوا وعد الأمان، قال النعمان للحارس:

ـ ائذن له وخذ سيفه.

قال له الحارس:

ـ ضع سيفك وادخل.

قال الحارث في بلاهة:

ـ ولِمَ أضعه؟

قال الحارس:

ـ ضعه فلا بأس عليك.

وظل يُلح عليه حتى وضعه ودخل ومعه الأمان. انحنى أمام الملك انحناءة خفيفة وهو يقول:

ـ أنعم صباحًا أبيت اللعن.

قال النعمان:

ـ لا أنعم الله صباحك!

قال الحارث:

ـ هذا كتابك!

قال:

ـ كتابي والله ما أُنكره، لكنك غدرت بي مرارًا فلا ضير إن غدرت بك مرة.

ساد الصمت، وارتجف شيوخ القبائل، وظل الحارث واقفًا، وحيدًا كما تعود أن يكون، وأحضر الحارس سيفه ذا الحيات ووضعه تحت قدمي الملك، وهتف النعمان:

ـ مَن يقتل هذا؟

فقام ابن خمس التغلبي، وكان الحارث قد قتل أباه فقال:

ـ أنا أقتله!

والتفت الحارث إليه يسأله:

ـ مَن أنت؟

قال:

ـ ابن خمس التغلبي.

همهم الحارث متهكمًا:

ـ أنت تقتلني يا ابن شر الأظماء؟!

رد ابن الخمس:

ـ أجل، يا ابن شر الأسماء!

وتدحرج رأس الحارث، ببساطة آسرة ومفزعة تحت قدمي الملك، بنفس السيف الذي دافع طويلًا عنه، وكانت يده لا تزال ممسكة برقعة الأمان، ونقلوا جثته ليُمثِّلوا بها، لكن بنت عفزر أعطت الحارس كيسًا من الذهب وأخذتها، حيث دفنتها في مقبرة

لا يعرف طريقها إلا هي والذئاب، ووقف ابن خمس في سوق عكاظ وهو يهتف:

ـ هذا سيف الحارث بن ظالم المري، مَن يشتريه؟

وتأمل الجميع السيف في يده، والحيات المرسومة على مقبضه، وانكسروا في حزن: كيف جرؤ على فعل هذا بنفسه؟! أي حماقة جعلته يستسلم ويُقدِّم رقبته دون ثمن.. دون أي ثمن؟!

٥

تأبط شرًّا

الذين يموتون وهم وقوف

اسمه الحقيقي ثابت، اسم عادي يتشابه مع بقية الأسماء ويغيب بينها، لا يوجد له نسب معروف، الأرض الصحراوية القاسية لا ترفض جذوره فقط، ولكن جابر بن سفيان، الرجل الذي ادعت أنه أبوه، يُنكر بنوته أيضًا، وقبيلته من بني العقيق لم تحسبه يومًا عليها، لكنه كان يستمد نسبه من جذور بعيدة، من كل الذين لفظتهم قبائلهم والمطرودين والمنفيين والباحثين عن العدل المستحيل، ومن المجرمين الشرفاء الذين يقيمون قوانينهم الخاصة ولا يأبهون بأعراف القبائل ولا بقدسية أنسابها، رفاقه الحقيقيون هم أوباش الصحراء، وصعاليكها، والهاربون من فداحة الثأر، والحيوانات الضارية، ونسور القمم، والجمال المبعدة المطلية بالقار، يضمهم جميعًا حضن الفيافي الوعرة ولحظات الهرب الدائمة.

حدثتني الكائنات:

قالت الثعابين الرقطاء: طلبتْ منه أمه العجوز هديةً، مثلما يفعل

بقية الأبناء في كل مكان، حمل طبقًا من الخوص المجدول، وخرج إلى الخلاء حيث توجد جحورنا تحت الصخور، وأخذ يقبض على أعناقنا في قسوة وحزم، لا يبدو أنه يهاب اللدغ أو السم، يضعنا في طبق الخوص ويحملنا تحت إبطه، يذهب إلى أمه ويُلقي بنا تحت قدميها، فزعت المرأة وهرعت إلى الخارج تستنجد بالجيران، وقال لها الجميع: لقد تأبط ابنك شرًّا، وظل الاسم يلاحقه.

وقالت غول الفلاة: هذا الوغد الكالح الوجه طلب أن يعاشرني، تقابلنا في وادي رحى بطان بأرض هذيل، ودار الصراع بيننا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ولم يهزم أحدنا الآخر، تنكرت في هيئة خروف صغير فحملني تحت إبطه، جعلت أركله طوال الطريق حتى ألقاني، وقال مَن شاهده: لقد تأبط شرًّا.

وقال الشيطان: كان ثابت رفيقي وصاحبي، كنا لا نمل من السير معًا، نتحدث عن النساء الجميلات، والتجار اللصوص الذين يعجبونني، وذات يوم وصلنا إلى مكان قفر تضع الطيور فيه بيضها على الأرض، قال ثابت: «لقد هلكنا، هذا المكان لم يمر به بشر من قبل، لو كان البشر يعرفون طريقه ما وضعت الطيور بيضها على الأرض». وصعدنا كل واحد منا على جبل، رأيت الموت فألحتُ إلى ثابت بالسيف، ورأى هو الحياة فألاح إليَّ بالثوب، وافترقنا، لكنني تركت شرِّي معه، كلما نضح عرق إبطيه، نضح شرِّي.

وقالت الرمال: كنا نرتجف تحت وقع أقدامه.

وقالت الخيول: كنا نلهث خلف عَدْوه.

وقالت الطيور: كنا نخشى حدة سهامه.

وقالت الظباء: كنا نتقي لحظة جوعه؛ كان إذا جاع يجول بعينيه حتى ينتقي أسمن ظبية فينا ثم ينطلق خلفها، حينئذٍ ندرك أنه لا مهرب، أنه لا بد لاحق بها، وسرعان ما نشاهد رفيقتنا وقد سقطت تعبًا بينما ينقضُّ هو عليها كأن لم يجرِ قَطُّ، وعندما تحمل الريح رائحة الشواء الرهيبة نتساءل في حسرة: متى يأتي دورنا؟ ليتنا لا نسمن أبدًا!

وقالت الينابيع العذبة: مياهي تتقزز من ملمس جسده الخشن.

وقالت الفراشات: أنفاسه تحرق أجنحتنا.

وقال النمل: نحاذر أن نمشي وهو نائم لئلا يسمع دبيب أقدامنا.

وقالت بنت آوى: نام تأبط شرًّا ذات ليلة فوق جحري فتجمدت رُعبًا حتى الصباح.

وحدثتني كائنات كثيرة لكنني وجدت الخرافة تسود معظم الأحاديث فاستبعدتها.

حدثني تأبط شرًّا، قال:

ماذا أفعل؟ الصخور قبيلتي، والرمل منفاي، حلمت مرة بالأفق فأخذت أعدو إليه، اجتزت القوافل والخيول وكل صنوف الحيوانات، لكنني سقطت لاهثًا وظل الأفق بعيدًا، ماذا أفعل؟ مات أخي وحُمِّلت بالثأر، ولم أكن ثريًّا فيخشون مالي أو ذا عشيرة فيهابون سطوتي، عرفت مبكرًا أن زهر الصبار موحش، والذئاب جائعة، والآبار جافة، ظللت أهيم على وجهي، كل القبائل قبائلي، وكلها أعدائي، حين يمضني الجوع أغِير عليهم لأنهم قبائلي، ويطاردونني بالسهام والرماح يبغون قتلي لأنهم أعدائي، يكمنون لي وراء الأكمة وحواف العيون، يسكنون عن الحركة ويكتمون أنفاسهم، ولكني أضع أذني على الرمل

فأسمع وجيب قلوبهم، والخفقات المترددة ترصدني، لا أملك إلا الفرار وأنا أتساءل: لماذا لا أسمع وجيب قلبي كأنه لم يخفق قَطُّ؟ نسيت قبر أخي، دفنت أمي وأنا في الطراد، وقلت للنسور رافقيني فازدرتني ونأت مرتفعة.

ماذا أفعل؟ أحلت القبائل دمي وأباحت شعري، كنت أنا الشر وشعري هو التعويذة، كنت الأذى والرقية. عشقتني النساء ووضعن وجهي في أحلامهن، لكن ما من واحدة منهن تحمَّلت لمستي.

قابلني أعرابي، قال:

ـ كيف تخيف الناس؟

قلت:

ـ عندما أذكر اسمي أمامهم.

قال:

ـ فقط؟

قلت:

ـ فقط.

قال:

ـ هل تبيعني اسمك وتأخذ طيلساني؟

وقد كان، أخذت الطيلسان الفاخر ومضيت، وأخذ الأعرابي يصيح في وجوه الناس: «أنا تأبط شرًّا»، ولم تمهله السهام المترصدة حتى يتم صيحة ثانية!

ماذا أفعل؟ الأصدقاء حمقى والأعداء أذكياء، وهذا يضاعف من وحدتي ومن حدة المطاردة. مَن قال إنني لا أتمنى بيتًا أو أسرة، لكنها

الأنساب التي لا ترحم، والتجار الذين يتاجرون في الأجساد الحية، والجوع الذي لا مأوى له ولا وطن.

حدثتني جثث الأصدقاء القتلى:

الآن ننهض من قبورنا، ننزع الكفن وخيوط العنكبوت، هذا تأبط شرًّا يعدو فوق ثرى أجسادنا، وقع أقدامه لها وقع لهجته نفسها وهو يحدثنا ويغرينا، كنا أصدقاءه ورفاق شدته، نعاني جميعًا من الأحلام المجهضة، وعندما تبعناه إلى مرابض الخيول وأوتاد الجمال لم نكن نسرق، كنا نقتنص حقنا الطبيعي في الحياة، لكن الفخاخ كانت منصوبة والرماح مشرعة، والخيول متوفزة، صاح:

ـ اهربوا، فروا!

وحاصرتنا الخيل، كان هو أكثرنا سرعة، وأمهرنا حيلة، اجتاز التل والشعاب المتوحشة وتساقطنا نحن صرعى. كنا رفاق أحلامه وغاراته، لكنه فر وحيدًا، أهو العدل حلم فردي؟ ألا يوجد حلم جماعي بالمساواة؟ هل كان يحبنا، أم يحب نفسه، أم يحب العدل؟ يا رفاق الموت انهضوا، الشمس لا تشرق من القبور، والصبار غير مُستساغ الطَّعم، والماء آسِن، والعظام نخرة، والعناكب موحشة، والديدان شرهة، وشواهد القبور صلبة، وأنت تعدو وحيدًا، نقولها لك: يا تأبط شرًّا، لا أمل! لا أمل!

حدثتني إحدى الجواري، قالت:

قالت صاحباتي، وقالت كل جواري الحي، إنه يهواني، إنني الشعر الذي يقوله في اليقظة، والحلم الذي يراوده في النوم. قلن لي: «إن له قلب طفل وعين نسر وساقي غزال، ولا أحد يقدر على صرعه

إلا عيون الحسان». خشيت على نفسي من غرام هذا الرجل المفرد، وفرحت لأن غرامه بي جعلني أنا أيضًا متفردة. قالوا لي: «قابليه». فرفضت، وظللت أرفض ذلك بشدة حتى قابلته.

كانت عين الماء ساكنة ولا أحد يرانا، نظرت إلى وجهه الداكن ولحيته الشعثاء ونظرة عينيه المتألقة، فزاد وجيب قلبي، هذا الآدمي الغريب يهواني، تمنيت أن يتكلم، يخدش السكون بأي حرف، ظل صامتًا، تساءلت: هل سيغدر بي؟ هل سيفضحني؟ كان واضحًا أنه يعاني حتى يتكلم، فحل الشعراء عقد لسانه وأصابه الخرس. رأيت حمرة خفيفة تتسلل خلال وجهه الداكن وتغمره كله، فهمت كل شيء، كان خجلًا، والخجل أعجزه عن الكلام، كدت أضحك بصوت عالٍ، لم يكن هذا أول من عرفت من الرجال، لكنه الوحيد الذي صعق بمرآي هكذا، لو ضحكت لزاد خجله وفر هاربًا، كان كالحيوان الحرون، وعليَّ أن أحاول ترويضه، قلت:

ـ أنشدني شيئًا من الشعر الذي قلته فيَّ.

لم يتكلم. قلت:

ـ ماذا تريد مني؟

فعلتُ ذلك في صوت ذائب النبرات، لكن صوتي لطمه، فظل يحلق فيَّ مذهولًا، أمسكت يده فوجدتها ترتجف، لا فائدة، البطل الذي دوخ كل القبائل داخ من نظرة واحدة، تركته ومضيت، مهما كان الأمر فإننا نحتاج من الرجل إلى شيء من الجرأة.

حوار فوق الرمال:

ـ يا تأبط شرًّا، هل أنت مجرم؟

ـ ولِمَ لا يسأل أحد لماذا تبدو شمس الصحراء بهذه القسوة، والأرض بمثل هذا الجفاف، والعصبيات بهذا الوثوق؟ أنا جزء من طبيعة هذه البيئة الشرسة، أمارس قوانين العُرف السائد، يأتي الليل علينا إما أن نَقتل، وإما أن نُقتل، لا نستند لقانون مكتوب، الأقوى هو الأكثر تنافسًا، والأضعف هو الاستثناء، وسرعان ما يلفظ دون رحمة.

ـ لكنك مجرد فرد، بصورة أخرى مجرد إرهابي، إن القبائل حين تتصارع تحكمها قوانين الحرب، لكنك لست من قبيلة وليست لك أرض.

ـ أنا وحدي قبيلة، أعدو أسرع من خيولهم مجتمعة، وسمعي أرهف من كل آذانهم، وساعدي أمهر في رمي السهام من كل رُماتهم، وحيث أحل تكون أرضي وعليهم أن يغيروا عليها، أنا لا أخرج عن قوانين النِّزال، لو شاهدوني نائمًا لباغتوني، لكنني أنام كالذئاب مفتوح العينين، وهم يغمضون عيونهم ويطفئون نارهم، وبذا يحل عليهم عقاب الظلام.

ـ لكنك بالغ القسوة، أنت تقتل حتى الأطفال؟!

ـ أنا أحب الأطفال، إنهم النبت الأخضر الوحيد وسط هذا القفر. أحب أن يكون لي أسرة، لكنني وجدت الأزواج طيعين، والآباء خائفين. الأطفال هَمٌّ ثقيل، يجعلوننا لا نتمادى في المغامرة، ولا نلحف في الرفض، إننا نتشكل من أجلهم مع العرف السائد، ونفقد فرديتنا وتمايزنا، لكنني أحبهم، ذات مرة رأيت غلامًا بارعًا يصطاد الأرانب، أردت مداعبته فضربني بالقوس على ظهر يدي

فأدماها، اغتظت منه وقتلته، لكنني ندمت بعد ذلك، أدركت أنني دنست الصحراء وأن نهايتي قد حانت، حلمت به كثيرًا، ورأيت صورته تلاحق عدْوي، كنت موقنًا أن ما فعلته لا يُغتفر وأن عليَّ أن أتحمل العقاب.

ـ برغم ذلك فأنت شاعر؟

ـ الشعر هو درعي، وهو خيمتي أحتفظ بها في صدري، أفرشها على الرمل فتكون أرضي، أرتجل القصيدة فتنفجر عيون المياه ويعشوشب الرمل، القوافي قبيلتي، حروفي منحوتة من الشظف، وصوري ملأى بالرعب والخشونة، إنه الثمن الطبيعي لارتفاعي فوق قوانينهم، إن جلوسهم في البيوت المريحة جعل منهم مجرد رواة يرددون الكلام الطيب ويهزون رؤوسهم في بلاهة، إنهم أمام شعري يتحولون إلى عشب مهمل ينتظر الحصاد، أو رؤوس ماشية تنتظر الوباء.

ـ إذا قبضوا عليك هل تعتقد أن القتل هو الجزاء المناسب؟

ـ لو أنهم تركوني دون قتل لعاقبتهم جزاء غفلتهم، لا يجب أن يرحم أحدنا الآخر، قد تكون حياتي قصيرة لكنني سأعيش، لا أحد يستطيع أن يقتل حلمًا أو يغتال قطعة من السحاب، إن آلاف المعذبين يحفظون أخباري ويتسقَّطون شِعري، ولو مت فسوف يخرج من بينهم واحد جديد.

ـ كيف ستموت يا تأبط شرًّا؟

ـ إن ميتتي غريبة، بل ومثيرة للسخرية، لعل هناك ضعفًا كان كامنًا فيَّ لم أفطن إليه إلا مؤخرًا، وأنا في القبر.

حدثني أحد الغلمان، قال:

اختبأت وراء سياج من العُشب وأنا أشاهد تأبط شرًّا يغير على قومي، كنا أشبه بالعُزَّل وهو كالريح الهوجاء، وأنا غلام لم تتعدَّ سني الخمس عشرة سنة، لا أرمي السهام إلا على الأرانب، أصيب واحدًا، وأخطِئ عشرة، لكنني أخذت قومي وسهمي واختبأت.

كان الرجل الداكن يشد وتره فيشق قلب قومي من الرعب، أبي وأمي وإخوتي ورفاقي، كل الرجال الذين أعرفهم يتدافعون كالمجانين، يبحثون عبثًا عن خيولهم أو سيوفهم، والرجل الداكن يجذب الوتر ويقيم بينه وبينهم حاجزًا من الجثث.

رأيت واحدًا من أصحابي يموت، صرخت، سمع صرختي، التفت، رآني، تفحصني بعينيه النافذتين، أدركت أنه سوف يقتلني هذه اللحظة، لكنه بدا مدهوشًا وهو يتأملني، أنزل يده المشرعة بالقوس، خُيل إليَّ أنه يبتسم، كنت أكره هذه الابتسامة، وضعت السهم في قوسي وهو ما زال يتأملني، أطلقته عليه وهو مدهوش، خُيل إليَّ أن السهم يرتد إذ يلامسه، لكنه نفذ في كتفه اليسرى، بوغت، لم يتوقع أن أفعل هذا، فكرتُ: سوف يرد عليَّ، لم يفعل، وضعت سهمي الثاني وأرسلته فغاص في كتفه اليمنى، ظل واقفًا، حاول رفع ذراعيه للرد عليَّ لكنه كان قد تأخر، والابتسامة على وجهه كما هي، أرسلت السهم الثالث فغاص في صدره، كنت مندهشًا من دقة تصويبي، رأيت قومي يُقبلون من الخلف في حذر، وهو واقف أمامي حتى ظننته يلعب لعبة ما، وأن سهامي وهمٌ، أطلقت السهم الرابع فغاص في بطنه، ظل واقفًا، قلت: سوف يُقبِل ويقتلني، أطلقت الخامس

على فخذه اليسرى والسادس على فخذه اليمنى وظل واقفًا، أطلقت سهامي على وجهه وعلى عضديه وعلى حوضه وعلى قدميه وظل واقفًا، قال لي أبي قديمًا إن أحد العرَّافين المهرة شاهد أثره وقال: «هذا لا يقدر عليه أحد»، أيعرف أنني ما زلت طفلًا، وأن اللعبة أكبر مني، أنني أُطلق سهامي بعناد وهو لا يأبه بذلك؟ فرغت جعبتي، أصبحت بلا حول، بدأ يتحرك، يُقبل عليَّ، بطيئًا، بطيئًا، يمد ذراعيه المرشقتين بالسهام، وقفت أنا متصلبًا، مشلولًا، لا أستطيع الفرار، وفجأة هوى على الأرض، وأدركت أن البريق الذي كان يتوهج في عينيه قد انطفأ.

٦

عروة بن الورد

مَن يملك الكون الرحب؟

وقف عروة بن الورد على حافة الصحراء، رأى التلال كحيوانات رابضة، والنخل أذرعًا متوسلة، ومضارب الخيام مثل حبب الماء ومثل السراب، مد قبضته وألقى آخر ما في جُعبته من سهام، وآخر ما في كيسه من نقود، وآخر ما في قربته من قطرات الماء، فانبثق الرمل عن زهور برية رائعة الألوان، ونباتات شيطانية وعشب نضر الخضرة، وقال أبو الفرج الأصفهاني متوسلًا:

ـ تمهل قليلًا يا عروة بن الورد، حتى أكتب قصة أخبارك.

لكنها سنوات الجوع، وأشعار الفخر والانتساب لا تُشبع جائعًا ولا تشفي مريضًا، وغطفان مثل كل القبائل، ومثل كل البشر، فيها الجوعى وفيها المتخمون، ولكي تكون القسمة عادلة لا بد من جراحة بالسيف، تقسم الثروة، وتبتر الأنساب، وتمحو عصبية القبيلة، لا يبقى سوى الشعر، دم القلب وشجن الروح، تحمل أبياته كل العذابات

والتوق الإنساني للحب والتواصل، أخرج أبو الفرج أوراقه، ووضع ريشته في المحبرة، وقال:

ـ اجلس قليلًا، اذكر نسبك، وقص عليَّ أخبارك، أنت لست مسؤولًا عن كل هموم الصحراء.

الصحراء في الصدر، ذنب وموطن وتعويذة، الصعاليك هم نباتات الصبار بين فجاجها، يسقون من ماء المطر وندى الليل، عندما يظهرون ويلتفون حوله يصبحون قبيلته، وتصبح أنسابهم المختلفة نسبه، ويصبح هو مجرد عروة الصعاليك.

تمهل بالجواد قليلًا، أخذ يتكلم بينما أبو الفرج يدون بسرعة:

ـ أنا عروة بن الورد بن عمرو بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن غطفان بن مضر بن نزار...

وقبل أن يُتم سلسلة الأنساب، تعالت من خلف التلال المحيطة بهما أصوات الاستغاثة، خرجت جموع من الناس، فقراء ومرضى وشيوخ وأرامل وأطفال يتامى، ثيابهم أثمال رثة، وعيونهم حدقات غائرة، زعقوا بصوت واحد:

ـ يا عروة، يا أبا الصعاليك، أغثنا.

لم يسألهم ماذا ألمَّ بهم. كان يعرف رائحة الجوع حين تتكاثف وتختلط بالعرق الإنساني والرمل وشمس الصحراء القاسية، حين تصبح سحابة قاحلة، يعرف التوهج الأخير في بريق العيون قبل الانطفاء، والأطفال يزمون أفواههم وقد عجزوا عن ترف البكاء والإلحاح، هذه نذر سنوات الجوع والصحراء لا ترحم الضعيف، قال لهم:

ـ تعالوا معي.

تحركت قبيلته البائسة خلفه، ذهبوا لوادٍ منعزل، أحضروا سعف النخل والجريد وأقاموا أكواخًا صغيرة للمرضى والنساء، تفرَّس عروة في الباقين الذين لم يهدهم الجوع، كان عليهم أن يواجهوا معًا مصيرهم، أصدر لهم أوامره:

ـ هيا معي، سنغزو معًا.

والصحراء ممتدة تحمل نذر الموت، ولا يوجد بين التلال المتراصة إلا طريق واحد لا تجتازه الضباع الجائعة، حتى إن عروة يحس بنفس حدة الجوع التي يحسون بها، ينزع قشرة السادة ويرتعد الصعلوك الرابض في داخله من نشوة السعي للقنص، إن ثمة خطأ في تقسيم الأرزاق، وعليه في كل حين من الزمن أن يُعيد الأمور إلى نصابها، وفق قانون المباغتة الذي لا تعترف الصحراء إلا به.

ومثلما يشم رائحة الجوع، يشم أيضًا رائحة التُّخمة، خلف التلال هناك قبيلة نائمة، ونار مطفأة، وإبل تجتر شمس النهار الفائت. زعق في الصعاليك:

ـ اهجموا يا كل فقراء البادية.

وبكل شراسة الجوع، بكل غريزة البقاء هجموا، فوجئ سادة الإبل الذين كانوا يعانون من كوابيس سوء الهضم، بالهجوم، استيقظوا فزعين، هربوا وهم يهزون كروشهم، وتركوا الإبل غنيمة سهلة، لمحوا عروة، بريق سيفه وشارة عمامته وهو يصول فوق جواده، يصرع مَن يتعرَّض له، سألوه نفس السؤال:

ـ يا عروة، أنت سيد مثلنا، كيف تقود الصعاليك وتساعدهم على نهبنا؟

لم يرد عروة عليهم، لن يفهموا الإجابة أبدًا، لن يدركوا أن سيوف الجوعى لا تنتظر. عاد الصعاليك بالغنائم، حيث المرضى والشيوخ والنساء، أوقدوا نار الفرح العظيمة، وعروة يقسم الغنائم، كل واحد له نصيبه حتى الشيوخ والمرضى، انقشعت رائحة الجوع الثقيلة، وتلوَّنت ألسنة اللهيب بقطرات الدهن المتساقط من الشواء، وانتعش الليل بأغنيات الحب، وهز عروة رأسه في سعادة وهو يقول لأبي الفرج:

ـ عندما أشاهد نارهم أرحل في الليل، أغانيهم البسيطة توقد داخلي كل جذوات الشعر والصبابات القديمة.

هتف أبو الفرج معترضًا:

ـ لكن ما أكثر الفقراء يا عروة، وما أكثر ما فيهم من أوغاد! شرور العالم ثقيلة ولن تُنهيها غزواتك المفاجئة، ولا انتصاراتك الصغيرة.

ـ علينا فقط أن نحاول، دون يأس أو استسلام، هكذا تُحتم علينا شهوة الحياة العارمة، نيرانها التي تتقد بداخلنا أشد سطوعًا من نيران القبائل الكبيرة، تمتص وحشية الصحراء وضراوتها وتحولها إلى شعر متألق، وتزرع شوقًا لا يهدأ في صدور النساء. الصعلوك لا يمتلك شيئًا، لذا لا تستأثر به شهوات التملُّك، ولا تؤرق ليله أحلام الأنانية، تُوحده الصعلكة مع ريح الفجر وحداء القوافل وهمسات العشاق على حواف العيون، حتى

إنه يهب كل ما يملك، يهب، يهب، ولا يظفر إلا بشهوة الحياة المتدفقة.

يبلل أبو الفرج أطراف ريشته ويكتب: «مَن قال إن حاتم الطائي أكرم الناس فقد ظلم عروة بن الورد».

لكنه ذات مرة حاول أن يمتلك شيئًا، أمنية كقطعة من سحاب راحل، يمتلك زوجة وبيتًا وأطفالًا. في إحدى المرَّات أغار على قبيلة «مزينة»، فاجأهم بصعاليكه، وكان الليل غادرًا، تركوا إبلهم ونساءهم وفروا، أقبل الصعاليك على الغنائم، وقف عروة أمام امرأة وحيدة في خيمة منفردة، رأى عينيها الواسعتين، عيني المها الشاردة، ووجهها الوديع، وانسدال شعرها تحت الخمار، فقال:

ـ ما اسمك؟

قالت:

ـ سلمى.

سارت خلفه أسيرة، لم تقاومه، لكنها ظلت مترفعة، لم تنحدر إلى مستوى السَّبي، وكلما التفت إليها رمقته بنفس العينين المتوثبتين دون أن توليه أي اهتمام، وعندما جلسوا يقتسمون الغنائم، قسَّموا الإبل والثياب والجواهر، قال عروة:

ـ هذه المرأة لي.

وفوجئ بالصعاليك يقولون:

ـ كلا، بل تقسم مثل غيرها من المتاع ومن شاء أخذها فليأخذها.

ذهل عروة.

هتف أبو الفرج في حنق مبالغ:

ـ ألم أقل لك، إنهم أوغاد، لماذا لم تهوِ عليهم بسيفك؟

مد عروة يده وأمسك سيفه، تأمل وجوههم التي كانت تتقلص من الجوع وأصبحت الآن تتقلص من الطمع، تذكر أنهم صنيعته، هو الذي جمعهم وصنع منهم قبيلته الصغيرة، أدرك فيما يشبه لمحة البرق أنه قد وقع في خطئه الأول، أن رغبة التملك قادته إلى ذلك، إما أن تمتلك وإما أن تكون صعلوكًا، قال:

ـ هأنذا أتركها لمن يريد وإن شئتم أفديتها بناقتي.

وتسربت المرارة خلال نبرات صوته، ولا بد أن الصعاليك قد شعروا بهذا أيضًا، أخذوا الناقة وتركوه والمرأة وحيدين في الصحراء، مد يده ولمس شعرها فانتفضت، قال:

ـ لا تخافي، لن تكوني آثمة، ستكونين زوجتي، لا أستطيع أو لا أريد أن أمتلك شيئًا.

وساروا معًا، توالت أيام، جفت آبار، وتفجرت عيون، وطمر الرمل واحات نائية، وعاش عروة بن الورد بين ذراعي سلمى، مهما تباعدت الغزوات وطالت مشقة السفر، فهو يعود إليها.

لا يكف عروة عن الركض على صدر الصحراء، الرمل حضنه الدافئ الرحب، والسماء زمردة بعيدة المنال، يستغيث به الصعاليك من حدة الشتاء ومن قيظ الصيف، كان معه ناقتان، ذبح واحدة وحمل مرضاهم على الأخرى وسار إلى مضاجع المتخمين. كان ينفض عن نفسه رماد الحياة الزوجية الراغدة. في الخلاء قابله أحد الضعفاء يشكو ظلم قبيلته، أعطاه سيفه وخلع عليه طيلسانه. ورأى امرأة طاعنة في العمر، مقطوعة الولد، أعطاها آخر ناقة يملكها.

وكانت الشمس رغيفًا ساخنًا تتطلع للفقراء من فوق قمم الجبال، وتدفع داخله الشعور بأنها، هي أيضًا، يجب أن تقسم بالعدل. شكا عاشق مُوَلَّه من أن حبيبته لا تأبه به، ألَّف له قصيدة وطلب منه أن ينسبها لنفسه ويلقيها على أسماعها. رأى القبائل تتأهب للحرب من أجل ثأر قديم فدفع دية القتل. وظل وقع سنابكه يدق صدر الصحراء مثل وجيب القلب. يضع زهورًا على حافة الآبار، ويرثي موتى الصعاليك، ويُنبت العشب الأخضر في رماد النيران المطفأة، ويطير الحب قبلًا على وجنات الصبايا، يرقص رقصة الشبع والدفء، يشعر بصفاء في روحه لا تعكره جروح الأعداء وآثار أظافر الأصدقاء، لا تحده أسوار الأنانية، ورغبات التملك الشرسة، والتخمة والجشع. كان صدره سمحًا كامتداد الصحراء، معتدًّا كالقمم، صبورًا كزهر الصخر، فرحًا بكل الأطفال لحظة الولادة، وبالبراعم لحظة التفتق، وبكل العشاق حين يتبادلون قبلة مختلسة، وبالجوعى حين يقدحون نيران الشواء ويصعدون ريح الشبع. كان عاشقًا لكل أنواع البهجة، وكانت عينا سلمى سوداوين وعيون المها حوراء وريح الصبا عذبة.

قال أبو الفرج وهو يزفر غضبًا ويُلقي ريشته:

- هذا جنون، لقد ترجمت للكثيرين، صعاليك، ملوك، فرسان، شعراء، لم أرَ من هو أضعف من نفوس المخلوقات، لأنها مفعمة بالشهوات مثل مستنقع مليء بالديدان، أعرف هذا جيدًا.

لكن عروة ألقى زهرة لسحابة عابرة فأمطرت، حمل زوجته على راحلته وسارا. قالت:

ـ إلى أين تأخذني يا عروة؟
قال:
ـ إلى حيث شئت، كل البلاد بلادي.
قالت:
ـ لو أخذتني إلى أهلي فأراهم ويرونني؟
قال:
ـ أما هذا فلا أستطيع.
قالت:
ـ خذني إذن إلى بلاد بني النضير.
قهقه ضاحكًا:
ـ هؤلاء اليهود بقلانسهم السوداء الطويلة وضحكاتهم الخافتة الماكرة، ما أشد شوقي إليهم!

كانت سلمى تضمر أمرًا، والناقة تحث الخطى عبر الوديان والبوادي إلى بلاد بني النضير، ثم تجوس خلال بيوتهم الواطئة، وطرقاتهم الضيقة الملتوية، وأصوات المزامير تتعالى من المعابد، والقلانس السوداء تكشف عن الوجوه الشاحبة، واللحى الرفيعة المسترسلة. أخذوا عروة بالأحضان، لم يكن ثمة مَن يجهله، أنزلوا سلمى من هودجها، ذهب هو مع الرجال، وبقيت هي في خيام النساء. كانت سلمى تعرف ما بين أهلها وبني النضير من صلات وثيقة، تجارة وزيجات وتحالف، طلبت من النساء أن يستدعين أزواجهن وبعض وجوه القوم، وقالت لهم:

ـ أنتم تعرفون نسبي، وأن عروة خارج بي قبل أن يخرج الشهر

الحرام، أخبروه أنكم تستَحون أن تكون امرأة معروفة النسب منكم سبيَّة، وافتدوني منه فإنه يحسب أنني لا أفارقه ولا أختار عليه أحدًا.

قالوا:

ـ لكنه سيرفض، لقد عشتما معًا عشر سنين ولكِ منه أولاد.

قالت:

ـ إنه أكرم الناس، وهو يهب أي شيء حين يكون متيقظًا، فما بالكم لو كان مخمورًا؟

وفي حانة بني النضير كان عروة يشرب ويضحك ويتحدث: كيف يمتطي الخيول ويسوق الإبل، يتحدث عن السُّحب والزهور والنجوم الصغيرة الملونة التي يعثر عليها مطمورة في الرمل، ويهود بني النضير يتضاحكون في خفوت ويراقبونه وهو يشرب الكأس الأولى، قالوا:

ـ أنت شريف قومك، ونسبُك ينتمي لمعد ابن إسماعيل، وهو أشرف العرب، فلماذا تصاحب الصعاليك؟

قال:

ـ عندما تجرح السيوف الصعاليك فإن دمهم الذي يسيل يشبه دمي، ونشعر معًا بدرجة الألم نفسها، وفي الليل تتشابه أحلامنا!

راقبوه وهو يشرب الكأس الثانية، وقالوا:

ـ يا عروة، أنت لا تحصل على أي فائدة من ورائهم، أنت فقط تثير عداء أشراف القبائل ضدك!

قال:

ـ أنا لست يهوديًّا مثلكم، كل مساء لا آوي إلى فراشي إلا بعد أن أحصي أرباحي وخسائري، ولست صيرفيًّا في طريق القوافل، إنني أحط ترحالي حيث تكون الحياة حقًّا يتمتع به الجميع.

ضحكوا في صوت خافت وهو يشرب الكأس الثالثة والرابعة، وقالوا:

ـ يا عروة، لكنك ستموت ذات يوم ولن تخلف لأولادك شيئًا!

قال:

ـ بل أترك لهم هذا الكون الواسع الممتد، لم أملك شيئًا ولم يتملكني شيء، فتحت لي الريح صدرها، ودثرتني الصحراء بعباءتها، ووهبني الليل أجمل الأحلام، إنني أترك لهم شعري، إرثًا دائمًا لا يُستهلك.

كان قد شرب حتى انتشى، واتسع قلبه ليشمل الكون، وحانت لحظة المساومة الخاسرة، تقدَّم كبير بني النضير، كان شيخًا مهيبًا لولا تلك القلنسوة الطويلة المضحكة التي يلبسها، قال:

ـ يا عروة، هل تهب أي شيء؟

قال عروة:

ـ أي شيء ما دمت أملك.

قال الرجل:

ـ أعطنا زوجتك.

قال عروة في دهشة:

ـ ماذا؟!

قال الرجل بهدوء ومكر:

ـ إن زوجتك معروفة النسب فينا، نحن نخالط قبيلتها ولهم علينا حق الجوار، وبيننا أصهار وأقارب، وإن علينا الآن سُبة لأنها سبية عندك، فإذا صارت إلينا وأردت أن تخطبها زوجناك إياها.

قال وهو يشعر برأسه يدور:

ـ لكنها زوجتي، أم أطفالي، لا أستطيع!

قالوا:

ـ أنت الذي يتباهى بسماحته تتراجع في نفس اللحظة التي تَعِد فيها؟

تذكَّر سلمى، تذكَّر رفاقه الصعاليك، قال:

ـ لي شرط واحد، أن تُخيروها، إن اختارتني وولدها ذهبت معي، وإن اختارتكم ذهبت إلى أهلها.

قال الرجل بسرعة:

ـ ذاك لك.

وفي الغد ساروا إليها، وقفت سلمى وسط جمع الرجال من ناحية وعروة بن الورد من الناحية الأخرى، وبدت وجوه بني النضير مثل غربان تتحفز للانقضاض، تقدم كبيرهم، وقال:

ـ يا سلمى، لقد وهبك زوجك لنا على شرط.

قالت بهدوء وهي تتحاشى النظر إليه:

ـ أي شرط؟

ـ أن يكون لك الخيار؛ أن تختاري عروة وولدك فتذهبي معه، أو تختاري أهلك فتمضي إليهم.

صمتت المرأة برهة، وفكر عروة بغتة أنها لن تختاره، قالت:

ـ فأنا أختار أهلي.

وبرغم سابق توقعه فقد أذهلته الكلمات وهي تخرج من بين شفتيها، وأذهلته أيضًا تلك الابتسامة المتواطئة على وجوه بني النضير.

صاح أبو الفرج ثائرًا:

ـ ألم أقل لك، كل النساء خائنات، لا أمان لهن وإن طالت عشرتهن.

فكر عروة: حتى هي تخدعني بعد عشر سنين كاملة! وقفت المرأة أمامه، قالت بصوت سمعه الجميع:

ـ يا عروة، والله ما أعلم امرأة من العرب ألفت سترها على بعلٍ أفضل منك، أغض طرفًا، وأقل فحشًا، وأجود يدًا، ولكن ما مر عليَّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت أحب إليَّ من الحياة بين قومك، لأني لم أكن أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول: «قالت أم عروة كذا وكذا»، إلا وسمعته، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبدًا، فارجع راشدًا إلى والديك وأحسن إليهما، وترقب حتى تنسيك الأيام ما كان من أمرنا.

تأوه عروة كالمطعون، سار عبر الدروب الملتوية والبيد الموحشة، يهذي بالشعر والندم، كان يتذكر بني النضير، يرى أطراف أنوفهم المدببة، يسمع المزامير ويحس بوطأة الخديعة، سلمى، والسنوات الخائنة، هل كنت مخطئًا في كل ما فعلت، في كل ما عشت؟ كل أشعاري هباء، والصحراء ضيقة كطرقات بني النضير، والشمس سوداء بلون القلانس، الآبار مُرة، وسلمى بعيدة، كأنها لم تكن ذات يوم، والصعاليك يغرزون أظافرهم في جلده، والعشاق يذبحون على حواف العيون وسط الفلاة! صرخ كالحيوان الجريح:

ـ سلمى، لماذا فعلت بي هذا؟

وتبدد الصدى دون إجابة. قال أبو الفرج:

ـ لعلك قد تعلَّمت من قسوة الدرس، فإذا جاءت سنوات الجوع واستغاث الصعاليك فلا تُجب، أنت شريف وهم صعاليك.

ترك عروة ناقته وضرب كفلها، ظلت تخبُّ حتى اختفت، كان فيها بعض من رائحتها، وهو يتمنى أن يولد من جديد، لعل هناك أرضًا لم يطأها بشر، وظل يركب الجواد ويضرب صدر الصحراء. وتوقف أبو الفرج في ظل صخرة يبلل أطراف ريشته ويكتب حتى أقبل عروة فصاح به:

ـ توقف يا عروة، لقد أنهيت مهمتي.

قال عروة:

ـ أي مهمة؟

أشار أبو الفرج إلى كومة من الأوراق كان يحفظها بحرص واضح:

ـ لقد دونت نسبك، وكتبت تاريخك وأخبارك وكل الأسانيد الصحيحة، سجلت أشعارك ومآثرك، وبهذه الأوراق سوف يحفظ لك التاريخ أجمل الصور، يا عروة إن عمرك كله في هذه الأوراق، خذها وكن حريصًا عليها.

تناول عروة لفة الأوراق، احتضنها كأنما استعاد نفسه أخيرًا، لكز الجواد وابتعد، وحفيف الأوراق يحتك بصدره كأنه همس امرأة، وفي منتصف الطريق رأى شخصًا ما، صعلوكًا بائسًا، لا يرتدي من الثياب إلا ما يستر عورته، وقف في طريق الجواد وهو يهتف:

ـ يا عروة، يا أبا الصعاليك، أغثنا.

لوى عروة عنان الجواد وتوقف، قال:

ـ ماذا بك؟

قال الصعلوك:

ـ بردان يا عروة، بردان حتى النخاع.

ودون أن يفكر عروة ألقى إليه بلفافة الأوراق وهو يقول:

ـ خذها، أشعلها وتدفأ على نارها.

وانطلق عروة بن الورد بجواده.

٧

المنخل، المتجردة، النابغة

الصداقة، الحب، الموت

بينما كان أبو الفرج الأصفهاني تائهًا في عرض الصحراء، مر به فارسان لم يرَ أجمل من وجهيهما، برغم أنه تجول طويلًا ورأى كثيرًا، وكانت هناك نقطة ضعف عند أبي الفرج، كعادة كل الفنانين، أمام الوجه الحسن، فقد أوقفهما وهو يتساءل:

ـ أيها الفارسان الجميلان، انتسبا.

توقفا أمامه، قال الأول:

ـ أنا النابغة الذبياني، واسمي زياد بن معاوية بن غيظ من بني ذبيان.

قال أبو الفرج:

ـ فأنت أشعر أهل زمانك.

وقال الفارس الآخر:

ـ أنا المنخل بن عبيد بن عامر اليشكري.

قال أبو الفرج:

ـ فأنت أجمل أهل زمانك، إلى أين تمضيان؟

قالا:

ـ إلى بلاط النعمان بن المنذر ملك الحيرة.

قال أبو الفرج:

ـ إن الشعر يكتسب روحه من الصحراء اللافحة، تشرد قوافيه كالجياد البرية، ويتآلف إيقاعه من عصف الريح، وعندما تمسه رياح بلاط الملوك يصبح رخوًا متزلفًا، أما الصداقة فهي نبض ليالي الخوف والخطر المشترك، وعندما تحيطها الدعة وتحف بها الأطماع يصبح الود وقيعة، وإسداء النصح دسيسة.

قالا له معًا:

ـ أنت لست من أهل زماننا ولا تعرف شيئًا عن معادن الرجال.

ومضيا مسرعين، قالا لبعضهما البعض: «إنه مجرد عجوز مخرف وكريه الرائحة أيضًا، أينا له العلم بأسرار القصور؟». وظلا يطويان الصحراء سعيًا إلى الشمال، إذا نام أحدهما أقام الآخر ساهرًا الليل يحرسه، وإذا وصلا لبئر أصر كل منهما على أن يشرب قبل الآخر خشية أن تكون مسمومة، وإذا رددا بيتًا من الشعر لم يدريا مَن منهما قائله. كيف جئت يا منخل من بني يشكُر، وجئت يا نابغة من بني ذبيان، وتجمعتما تحت عباءة الريح عبر كل هذه الفيافي؟ رجلان حقيقيان إذا سارا وإذا غزوا وإذا عشقا، وعندما مستهما ريح الطموح، رحلا معًا، ولكن أبا الفرج كان يؤكد لنفسه: لكنهما غران مخطئان، أخطآ اختيار المكان الذي يقصدانه، النعمان بن المنذر، أحمر، أبرص، قصير، دميم، وهما كنصفي القمر، كيف يمكن أن يطيقهما في مجلسه؟!

وعندما وصلا إلى مدينة الحيرة، أدركا أنهما وصلا إلى أرض

غريبة فتعاهدا بالدم، وتناولا لقيمات الخبز وجرعات النبيذ، وذهبا إلى قصر الملك، ووقف النابغة منشدًا:

أتيتُـك عاريًـا خَلَقًـا ثِيَابـي   على خَوْفٍ تُظَنُّ بِيَ الظُّنونُ

ورأيا النعمان على عرشه، دميمًا كما لا يتصور أحد، وشعره الأحمر يضفي قبحًا مضاعفًا على التاج، يغافل الحاشية حتى يحك جلده الأبرص، ولم يقل المنخل شعرًا، ولكنه همس في أذن صديقه:

ـ لم أرَ في عمري كله ضفدعة تتحلى بكل هذا القدر من الذهب والجواهر!

ولكن النعمان كان يصفق طربًا، وهتف:

ـ هذان صديقان من الصحراء، شاعران يُسبِّحان بحمدي، دقوا الدفوف ومدوا الموائد.

وكان أبو الفرج قادمًا من الصحراء فرأى القصر مزدانًا بالأنوار والموائد ممدودة، حاول الدخول فأوقفه الحرس، قالوا:

ـ الملك مشغول، عُد بعد عام أو عامين على الأقل.

سأل عن سر هذه الأنوار، قالوا:

ـ شاعران يقولان مدحًا في الملك، وقد رفعاه إلى مقام النجوم المضيئة.

قال أبو الفرج مدهوشًا:

ـ يا إلهي، لقد هويا سريعًا!

ونهضت المتجردة زوجة الملك النعمان من حمَّامها المعطر، اضطرت أن تضع غلالة تخفي بعضًا من جسدها، كانت تهوى التجوال

عارية، ترتعد عندما تمسها الريح أو تدفئها أشعة الشمس، تبعث داخلها نشوات متعددة، سألت جواريها عن سبب دوي الدفوف، قلن:

ـ انضم شاعران لبلاط الملك.

قالت بسأم:

ـ عجوزان أبلهان آخران انضما لبقية عجائز الحاشية.

والتفَّت في غلالتها وسارت، كانت تكره القصر والجواري والخدم والعبيد وتجهُّم الحرس ونعومة الحرير وبذخ العطور، عصفورة مقرورة في قفص من ذهب، جاء إليها العرش هدية ملوثة لم تسعَ إليها، كانت زوجة لابن عمها «حلم»؛ أحد أقارب المنذر بن ماء السماء، لا تطمح إلا لحياة بسيطة، وذات يوم زار الملك المنذر منزلها، رآها، وسألها منبهرًا:

ـ من أنت؟

قالت:

ـ أنا المتجردة، زوجة «حلم».

ولم يهبط بعينيه عنها، وعندما جاء زوجها جلس إليه، ظل يقربه منه حتى يجعله كاتم سره، وعلى مائدة الشراب أخذ المنذر يمزج شرابه بالماء ويقدم الشراب صرفًا لـ«حلم»، ثم قال له:

ـ يا «حلم»، إنه لقبيح بالرجل أن يقيم على المرأة زمانًا طويلًا حتى لا يبقى في رأسه ولا لحيته شعرة بيضاء إلا وعرفتها، فهل لك أن تُطلق امرأتك (المتجردة) وأطلق أنا امرأتي (سلمى) ونبحث لنفسينا عن جسدين جديدين؟

ولأن كل الآراء في رأس المخمور تكون صائبة، فقد وافق، وأخذ

كل منهما عهدًا على صاحبه، وفي الصباح طلق «حلم» المتجردة، وطلق المنذر زوجته سلمى وأم ابنه النعمان، ثم أسرع بالزواج بالمتجردة بينما حرَّم على سلمى الزواج من غيره، انتقلت المتجردة إلى بيت المنذر وهي تعاني من مرارة الخدعة.

وكان المنذر عجوزًا، عاش أكثر مما ينبغي، لذا لم يكن غريبًا أن تستيقظ ذات صباح لتجده ميتًا، لم تشعر بأي حزن ولم ترتدِ أي سواد، ودعتها أنسام الانعتاق، لكن النعمان بن المنذر وقف على بابها. كانت قد نسيت أنها قد أصبحت جزءًا من إرث والده بجانب القصر والعرش والحيرة، لم يكن هناك أمل في الخلاص، حتى «حلم» فقدَ عقله وتاه في الصحراء، وأصبحت دروب القصر شبكة متداخلة، وفراشها باردًا حتى في أكثر الليالي قيظًا، وكلما حاولت الاعتراض تذكَّرت أن سيوف الحرس باترة.

في أنحاء القصر تجوَّلت عينا المنخل القلقتان، وجد آثار الرطوبة وهي تأكل كل النقوش، ورجال الحاشية كالبوم العجوز، يقفون طوال اليوم منحنين، وسيموتون وهم على الانحناءة نفسها. ابتعدت شمس الصحراء بما تشعله من رغبة وجنون، لكن أروقة القصر الطويلة الخالية لا تحمل سوى الكآبة برغم بريق الذهب والموائد الحافلة والدفوف العالية، وكل الأشياء التي تعلن للجميع أن ندامى الملك غاية في السعادة.

استكملت المتجردة زينتها، تساءلت في حسرة: ما جدوى العطر ما دام لا يُشعل رغبة ولا يجذب اهتمامًا؟ دخلت وصيفتها وهي تقول:

ـ الحاشية كلها مجتمعة.

قالت بملل:

- أعرف كل عجائز الحيرة.

قالت الوصيفة:

- إنهما ليسا عجوزين يا مولاتي، وليسا من الحيرة أيضًا.

نهضت في تثاقل لمجرد أن تُغير من كآبة الحجرة، تطلَّعت من خلف الستر، من نافذة علوية فوق العرش، ألقت نظرة سريعة، لكنها توقفت، لم يكونا عجوزين حقًّا، لم يكونا من الحيرة، لم يكونا أحمرين، قصيرين، دميمين، أبرصين، كانا رجلين، فيهما سمرة الصحراء وكل صبوات الشباب، همست الجارية فزعة:

- لا تُحركي الستر يا مولاتي حتى لا يراك أحد!

قال المنخل:

- انظر يا ذبياني، هذا الستر يتحرك، لقد رأيت خلفه عينين، كأنهما نجمتان بعيدتان.

ارتعد النابغة وهتف محذرًا:

- لو نظرت هناك مرة أخرى لكانت نهايتنا!

هلل النعمان، انسحبت الراقصات، طلب منهما أن يقولا شعرًا في مجده وجاهه، أخذ النابغة يرتجل والمنخل يرقب حركة الستر. شعرت المتجردة بالاشمئزاز وهي تسمع ضحكات النعمان، لكن عينيها ظلتا عالقتين بعيني المنخل، توسلت إليها الجارية ألا ترفع الستر أكثر مما ينبغي، وألا تُظهر شيئًا من مفاتن جسدها، وأن ينصرفا. وأعلن الملك:

- منذ الآن أنتما ندمائي وخير خلصائي، غدًا نخرج معًا للصيد.

خلع عليهما الذهب والثياب، وللمرة الأولى فكر المنخل: لقد أعطى النابغة أكثر مما أعطاني، لقد حباه من أجل شعره ومديحه، ورفع أبو الفرج كأسه تحية لكل ندامى الحيرة وهو يصيح:

- يا أصدقائي، أيها السكارى الصادقين، رمل الصحراء هو مقياس الصدق الوحيد، إنه لا يساوي شيئًا ولا يُثير طمع أحد، الخمر الرديئة فقط هي التي تُثير الصراع!

وباتوا يحلمون: النابغة يحلم بسوق عكاظ، وقد غدا أعظم شعراء العرب، يجلس في صدر موكب التحكيم، وشعراء القبائل يسعون إليه، يضعون قصائدهم على أعتابه وينتظرون حكمه، كلمته تعني مولد شاعر، أو موت شاعر. والمنخل يحلم بحركة الستر، والعينان النجمتان تشعان في صدره، يرفع الستر فيغوص في بحر من عطر الشام. والمتجردة تحلم بالصحراء، أغلقت باب حجرتها، قالت إنها متعبة، وأطفأت كل الشموع، ورأت القمر مثل امرأة وحيدة تشكو الهجر. والنعمان يحلم بالقبائل وهي تردد القصائد التي قيلت فيه بالكلمات وهي تطرق أسماع كسرى ملك الفرس فتولد داخله الحسرة.

ولم يستطع أبو الفرج أن يحلم لأنه قضى الليل في الشارع، صاحب الحان سلبه كل نقوده وألقى به للرصيف، فقط تمنى أن يؤلف كتابًا ضخمًا يبيعه بثمن غالٍ.

وفي الصباح رأتهما المتجردة يستعدان للصيد. وعند الظهر رأتهما حول مأدبة الغداء. وفي المساء رأتهما في مجلس الطرب. أصابها ما يشبه الهوس، وعينا المنخل تلاحقها، تتمنى أنها مجرد جارية صغيرة تلاعبه وتغريه وتظفر به بعيدًا عن الحرس والوشاة.

ثم كشفت له عن وجهها وجزء من صدرها لمدة وجيزة، كانت خلف الستر، ورأت عيني المنخل تتطلعان نحوها فمدت يدها ببطء وكشفت له عن جزء من فتنتها، أعطته نظرة طويلة متألقة مليئة بالرغبة، وركض قلب المنخل خوفًا وهو يهمس لنفسه: «إنها هي».

وقررت المتجردة أن تبعث إليه برسالة، فهتفت وصيفتها:

ـ مولاتي، هذا جنون!

قالت:

ـ الذبح أفضل.

توسلت الوصيفة إليها كثيرًا، ثم حملت الرسالة كأنها تحمل جمر النار، وعندما عادت إليها سألتها في لهفة بالغة:

ـ هل أعطيته الرسالة؟

قالت:

ـ أجل يا مولاتي.

قالت:

ـ هل رآكما أحد؟

نفت الجارية ذلك، لم يرها أحدًا بالفعل، لكنها لم تُعطِ الرسالة للرجل الصحيح، الرجل الذي استلم الرسالة كان النابغة.

فتح الرسالة وحيدًا، وشهق؛ المتجردة تدعوه خفية، أهي خدعة، أم اختبار للثقة؟ ماذا يفعل؟ هل يقول للمنخل؟ إنه صديقه الوحيد في هذه المدينة، صحيح أنه تغيَّر في الآونة الأخيرة لكنه ما زال رفيق الصحراء وبينهما عهد الدم، هل يذهب إلى المتجردة، أم يتناسى الأمر؟ كان وحيدًا، يستطيع أن يُلبي الدعوة.

وجد الملك النعمان قد خرج للصيد، والأروقة خالية والستائر مرخية، وأحس أنه كالمنوَّم يجتاز الأجنحة ويدخل حجرتها، بحر من عطر وحرير، وألوان ناعمة تسلبه إرادته، يجتاز بابًا خلف باب، الحجرات خالية والأسرَّة شاغرة، دفع الباب الأخير فوجد المتجردة أمامه، عارية تمامًا كما تعوَّدت، جسدها الأبيض يشع وهجًا كحد السيف وحرقة الرغبة، التفت في فزع، مدت يديها تُخفي نصفها السفلي تحاول أن تتقي عينيه، همهم:

ـ أنا النابغة، أتذكرين الرسالة؟

تمتمت في حنق وغضب:

ـ اخرج سريعًا، أنت غير مرغوب فيك، لو رآك الحرس لقطعوا رأسك!

ردد نفس الكلمات وهو غير فاهم، بدلًا من أن يبتعد حاول الاقتراب، مد يده يلمسها، يتأكد أنه لا يحلم، تمتمت من بين أسنانها:

ـ اخرج يا كلب الصحراء!

جاءت الجواري مسرعات، ودثَّرنها، دفعن النابغة خارجًا وهو يتساءل: لماذا أرسلت الرسالة إذن؟! لم يكن قد رأى امرأة بهذا الجمال، ولا جسدًا بهذا البهاء حتى وهي تسبه وتطرده من أمامها.

عاد النعمان من الصيد، لم تقل المتجردة شيئًا، فقط أدركت أن الرسالة قد أخطأت طريقها، وظل طيف المنخل أمامها، تتحين الفرص للاتصال به. وعندما طلب النعمان من النابغة أن يقول شعرًا لم ينبس ببيت واحد، ورأى الستر يتحرك، ورأى وجه المنخل يشرئب، والعينين النجمتين اللتين أصبح يعرفهما، والاختلاجات السريعة

على وجه المنخل، شعر بالحسرة تأكل قلبه، تمنى: لو أنني لم أغادر الصحراء!

وفي اليوم التالي، رأى نفس الوصيفة تسير بحذر كقطة ناعمة، أصبحت الآن تعرف طريقها، ورأى كيف غاب المنخل عن مجلس النعمان، وعندما عاد مرتبكًا، وفكر فيما يشبه الومضة: ترى هل كنت غير مقصود بالرسالة؟ تأمل وجه المنخل يبتسم شاردًا كأنه يحلم، والستر يهتز، وديدان البرص تسير على الأبسطة وتهبط درج العرش.

وبينما هما عائدان وقف في مواجهة المنخل فجأة، وقال:

ـ يا منخل، هل تعشق المتجردة؟ هل صعدت إلى فراشها؟ هل سترت نفسها حين رأتك أم ظلت على عُريها؟

بوغت المنخل:

ـ أنت مجنون وستقتلنا معًا!

وتركا بعضهما، أدركا أن كلًّا منهما قد فضح سر الآخر، وأن ما بينهما قد أفسدته برودة القصر، وعطايا الملك، والرغبة في جسد امرأة عارية دومًا ولكنها بعيدة المنال. فكر النابغة: يجب أن نفترق! وفكر المنخل: لا أستطيع أن أترك القصر! وفكرا معًا: سوف يكون القتل أهون عقاب يوقعه النعمان بهما!

وعندما هطلت الأمطار وتماسكت الغيوم فوق الحيرة، استطاع المنخل أن يلتقي بها، كانت ترتدي القليل ولكنها تكلَّمت كثيرًا، أخبرته كيف تزوجت المنذر بسبب خدعة، وكيف ورثها النعمان ليزيد من جوعها، ثم كيف أحبته هو من اللحظة الأولى، وكيف أخطأت رسالتها الأولى طريقها إليه، وفسد ما بين المنخل والنابغة

تمامًا وأصبح وجودهما في القصر معًا مستحيلًا، ثم في النهاية كفَّا عن الكلام، وكتمت المتجردة تأوهاتها حتى لا يسمعها الحرس، وأدرك المنخل أنه امتلك جسدًا لا يشبع ولا تهدأ رغباته.

ظل المنخل يواصل التردد على القصر ومنادمة الملك، وحاول النابغة أن يتباعد، أقر بهزيمته برغم أن جسدها لم يبرح خياله. وفي أحد المجالس، لا يدري أحد أي شيطان جعل المنخل يهمس في أذن الملك:

ـ دع النابغة يقول شعرًا في المتجردة، ربما حرَّك فيها هذا الشعر شيئًا ناحيتك.

كان ينصب فخًّا، استجاب له النعمان على الفور وأمر النابغة بصوت حازم:

ـ قل شعرًا في المتجردة.

نظر النابغة حوله كالمستغيث:

ـ لا أستطيع الآن يا مولاي، فأنا أعاني من نضوب قريحتي.

لكن النعمان كرر بنفس الحدة:

ـ قل شعرًا في المتجردة.

وصمت النابغة، ثم بدأ يقول الشعر مترددًا:

أَمِن آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مُغْتَدِي...

ثم توقف يستجمع نفسه ويستحث قريحته، يوقظ كل ما بداخله من صبوات وأمنيات مكتومة، استولى على ذهنه جسد المتجردة وهي تقف أمامه عارية، دون غضب هذه المرة، ودون محاولة لمداراة نفسها، تشع من تحت جلدها شمسٌ خاصة، لم يعد يرى

المنخل ولا النعمان ولا الحاشية، وعندما أفاق وجد العيون تحدق فيه شذرًا، والنعمان يتنفس في غضب، والمنخل يبتسم في خبث، والحاشية مبهوتة، وظل الصمت ثقيلًا، كان قد قال أكثر مما ينبغي أن يقوله.

انتفض النعمان، ضرب الأرض بصولجانه، أمر بفض المجلس، وسار النابغة مرتعشًا، كشف نفسه وفضحه الشعر، وانصرف المنخل وقد حقق انتصاره وأبعد الشُّبهة عن نفسه، وهمس «عكب» جلاد الملك في أذن النابغة:

ـ إنني أعرف نظرة الملك عندما ينوي القتل، ولن يمر الليل عليك وأنت في هذا المكان.

قال النابغة في عجز:

ـ وماذا أفعل؟

قال الحاجب:

ـ اهرب، الأرض واسعة.

وعندما داهم حرس الملك بيت النابغة لم يجدوا إلا بقايا من متاعه، وتلقفته الصحراء التي جاءت به لتحمله وتلقيه بعيدًا، لعله يفلت من أظافر النعمان الطويلة. وأصبح المنخل وحيدًا، ودروب القصر مفتوحة أمامه. وعندما كان النعمان يفارق القصر لم يكن المنخل يفارق المتجردة، كانت تزداد جمالًا، وتغدو أكثر مرحًا وإشراقًا، وتتمنى وهي بين ذراعي المنخل:

ـ ليتنا نصبح نخلتين وحيدتين في مكان ناء بالصحراء، لماذا لا نهرب؟

قال المنخل:

ـ ما أقسى الصحراء في وجه هاربين، خصوصًا لو كانت أظافر النعمان بهذه الحدة!

تمنت لو أن النعمان يموت فجأة كما مات أبوه. وكانت الحيرة تنتبه لهمساتهما قليلًا، وعجائز الحاشية الذين أصابتهم البرودة بالصمم بدأت تلفحهم نيران الهوى الجديد، ثم حانت اللحظة الأخيرة، خرج النعمان للصيد، وتسلل المنخل إلى حجرة المتجردة، كانا يريدان أن يصلا معًا إلى درجة من الامتزاج ليُصبحا جسدًا واحدًا، أخذت قيدًا وجعلت إحدى حلقتيه في رجله، والحلقة الأخرى في رجلها، كانا يريدان أي رباط لا فصام له، لكن المسافة بين القصر والصحراء بعيدة، حتى حرارة الرغبة لم تكن تقدر على اجتيازها.

كانت هذه المرة هي الأخيرة، النابغة يتخفى مرعوبًا، والقبائل ترفض أن تجيره وتهدر دمه. وعاد النعمان إلى الحيرة في صمت، كان قد فشل في الصيد، وفرت كل الغزلان، دخل القصر دون أن يشعر به الحرس، وعندما تنبهت الوصيفة أخيرًا نهضت مفزوعة لتُنذر سيدتها، والنعمان يجتاز الأروقة في حذر الصياد الماهر، وصرخت الوصيفة في اللحظة الأخيرة:

ـ الملك قادم.

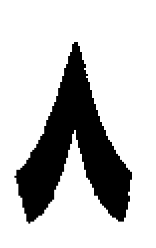
نهضا في رعب، حاولا أن يُخلصا قدميها من القيد، ولكن بلا فائدة، هل كانت هناك وشاية؟ مَن الذي وشى؟ لم يكن هناك وقت للتساؤل، لأن الثلاثة، المنخل والمتجردة والوصيفة، سمعوا النعمان وهو يهتف:

ـ دع «عكب» يساعدهم على الخلاص من هذا القيد اللعين.

وحملقت العيون الست رُعبًا، أشار الملك فرفع «عكب» سيفه، هوى به في حركة ماهرة على ساق المنخل، بترها، صرخ المنخل من الألم الرهيب، انفجرت نافورة من الدم القاني، وأمرهم الملك:

ـ احملوه واقتلوه بعيدًا، لا أريد لدمه أن يلوث القصر!

حمله الحرس وهو يصرخ، وسيال الدم يتدفق، يرسم خطًّا بطول الرواق والقصر، والمتجردة فاقدة الوعي.



عمارة بن الوليد

بيد عمرو لا بيدي

كانت أجنحته قوية، وسماؤه منخفضة، كيف يستطيع أن يُحلِّق والفضاء يشبه جحر الفأر؟ لا توجد مرآة يمكن أن تعكس صورته، ليس أمام عمارة إلا أن يعشق صورته في الماء، والماء يعشق الطحالب العطنة، والطحالب تعشق صدى البحر البعيد، فأين البحر من الصحراء؟!

كان عمارة ضحية المقايضة، آخر حل اختارته قريش كي تسكت صوت النبي الجديد، كانوا كلهم، جميعًا، الرجال والنساء وحتى الأصنام متلهفين لإتمام الصفقة، ولكنها ظلت صفقة غريبة، لأن الموت كان رابضًا عند أحد طرفيها، وعمارة يسير وسط رجالات قريش وهم يستحثونه ويشجعونه، وهناك بجوار الكعبة أجساد تنزف، وصراخ يحمل كل العذابات الإنسانية، كل الذين آمنوا بالنبي الجديد يتلقون جزاءهم، وعمارة يمضي ناعمًا، نعومة عطر الشام ورقة الديباج الفارسي، حتى الأصنام الضخمة ترمقه في حسد، والموكب الذي يحتوي عمارة ويسير في منتصفه يكبر كل لحظة، عمرو بن العاص

يسير عن يمينه، يؤكد له أن الطرف الآخر سوف تغريه الصفقة، عمرو ليس صديقه فقط، إنه أستاذه، ومخزن تجاربه الأولى في هذا العالم، وعندما يؤكد له هذا فإن إحساسه بالفخر يتضاعف.

وصل الجمع إلى بيت أبي طالب في شعاب مكة، جلسوا، وجلس أبو طالب في مواجهتهم، أحاطت به كل الوجوه المراوغة، ونهض كبير القوم يبحث عن أكثر الكلمات نعومة:

- يا أبا طالب، أنت سيدنا، وأشرفنا نسبًا، ونحن أحرص أهلك عليك برغم ما فعل ابن أخيك بنا وبآلهتنا، لذا جئنا نعرض عليك أمرًا صالحًا: تدَع لنا محمدًا نفعل به ما نشاء، ونعطيك بدلًا منه هذا الفتى.

والتفت في حركة سريعة مشيرًا بيده قائلًا:

- هذا هو، عمارة بن الوليد المخزومي، أجمل فتيان قريش، بل أجمل فتيان العرب.

وتعالت همهمات الإعجاب، وحنى عمارة رأسه متواضعًا، حتى عمرو ابتسم، وأبو طالب صامت، لم تظهر على وجهه أي بادرة من السرور التي توقعوها، تبددت الضجة الزائفة وساد الصمت، ورفع عمارة رأسه فوجد أبا طالب يحدق فيه، نظرة هي مزيج من الغضب والاحتقار، عاد الرجل يقول مترددًا:

- ما قولك يا أبا طالب؟ هل توافق؟

وزأر أبو طالب في غضب:

- يا لها من صفقة! آخذ ابنكم فأربيه وأعطيكم ابني فتقتلونه! خذوا غلامكم واذهبوا عني!

ارتفعت أصوات من التذمر والتهديد الأجوف، شعر عمارة بخزي مفاجئ، شعر فجأة بأنهم يريدون استبداله برجل قد يكون نبيًّا حقًّا، كان ساذجًا عندما أغراه ابن العاص بأنه سينسب لبني هاشم، ويختلط بنساء بني هاشم، يتظاهر أنه منهن وهو ليس كذلك، حيلة رخيصة لم تمر على الشيخ العجوز، رفضها وترك كل واحد منهم يصرخ ويلوح بيده، وعمارة هو الهادئ الوحيد، أبوه الوليد بن المغيرة يهتف في عصبية، وأمية بن خلف يعاني من نوبة تشنج، حتى عمرو بن هشام يشعر أن الأمر كله إهانة شخصية موجهة إليه.

لم يكن أمام عمارة إلا أن يتسلل، أحس من الخزي بما يكفي، خرج من شِعب أبي طالب، عبر الحارات الضيقة في ظهر البيوت، يخشى أن يقابل محمدًا فتزداد درجة خزيه، وصل إلى الكعبة، هناك بالقرب من تمثالي «إساف» و«نائلة» كانت امرأة واقفة، ترقب عبيدَ أبي لهب وهم يقومون بتعذيب أحد الرجال، يربطونه في أحد الخيول ثم يدفعونه ليعدو حول صنم «هُبل» الضخم، كانت المرأة تتشرب المشهد، ترتعش وتتأوه في خفوت، كلما تناثرت قطرة من دم أو تهشمت قطعة من عظم، وقف عمارة أمامها يراقبها، الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة، وتأوهات الموت تتحول إلى لمسات من النشوة تهز جسدها، امرأة لم يرها عمارة من قبل، لم يحلم بها، توقفت الخيول وهدأت المرأة، دارت بعينيها فشاهدت عمارة، اكتشف كل منهما الآخر، دار حوارهما دون صوت، سارت فسار خلفها، كان محبطًا، مسلوب القوى، شاعرًا باليُتم، وهي تعرف أنه خلفها ولا تلتفت، وصلا إلى تل منعزل، اقترب منها، أعطته جسدها في

صمت فغاص في عطره، حلت خصلات شعرها وتركته يحل عقد ثوبها، كانت هناك بقايا من نيران الرعيان، جذوات لم تخمد بعد، هل مست جبينه بأصابعها؟ هل كان هذا جسدها أم أنها بقية من جذوة النار؟ هل يشبعه بهاء هذا العُري أم يزيد من جوعه؟ كان صغيرًا، وأبوه الوليد يهوي بالسياط على ظهور الجواري، لعل أمه واحدة منهن، وأخوه خالد يهرب إلى الجبال يقتل كل ما يقابله من حيوانات لعله يقتل فيها صورة الأب، والمرأة أمامه، يده مغروسة في الجذوات المتأججة، والنار هادئة هدوء الخزي، قال لها:

ـ أريدك أن تكوني لي أبدًا!

تضاحكت، ونثرت الرماد بينهما، تقلبت على الرمل كالسراب، وقالت:

ـ أتقدر عليَّ؟ أتقدر على زوجي؟

هتف في دهشة:

ـ ماذا؟ أنت متزوجة؟

ضحكت في نعومة وغطت ثدييها العاريين، تهيأت حتى تمضي، وتركت جوابها خلفها:

ـ زوجي عمرو بن العاص.

أحسن لسعة النار.. ماذا؟ ألا يوجد غيره في هذه الصحراء؟! من بين كل الأزواج البلهاء لا يعشق غير زوجة ابن العاص! منذ أن انتشله وهو طفل غرير وعلَّمه كيف يواجه شظف البادية، كان يشد القوس إلى نهايته فقال له: «لا توتر قوسك وإلا ارتد إليك». وعندما كان يسعى خلف الصيد، قال عمرو: «أجهد صيدك ثم ارمه». وعندما

كان يشعر بالضآلة أمام أخيه خالد، قال عمرو: «كل لحظة من المتعة تجعلك أكثر منه قوة». ترك ابن العاص بصماته على كل ذكرياته، الرفيق، والصديق. والمرأة تنهض وهو غارق في ذهوله، قال لها:

ـ ما اسمك؟

قالت:

ـ اسمي الرباب، هل يفيدك هذا في شيء؟

تركت آثار الحريق في وجهه وأصابعه، وتركت الرماد في قلبه، خِزيان في يوم واحد، هذا كثير.

في الفجر هزته ريح الفجر فاستيقظ، وكانت الأحلام مليئة بالكآبة، والليل يمضي سريعًا، والشمس تشرق على خزيه ولا تغيب، ابن العاص يضحك من آثار النار التي على وجهه ويهتف:

ـ تبدو كأنك أحد العبيد الذين أسلموا، ثم عُذبوا.

خبز النسيان مرير وجاف، أرض ليس فيها إلا صديق واحد، ورغبة واحدة، حتى أبوه الوليد بن المغيرة أصابه من جنونه، أصنام عجوز لم تشبع من تعْذيب الآخرين بالسياط، وأفكار النبي تمضي كالسيف، قابله عمارة مرة فابتسم له ابتسامته العذبة الفريدة، فكر: وكنت أظن نفسي مجنونًا حين أقايض به، ولكن عمرو بن العاص قال له، «لقد رحلت كثيرًا وأعرف أن أعذب الكلام أكذبه»، وفي اليوم التالي قال له عمرو:

ـ هذا يوم وداعنا، إنني راحل من غدي إلى الحبشة.

أنزل عمارة كأسه وترقب بقية كلماته، وقال عمرو:

ـ هؤلاء المسلمون، أمرهم نبيهم محمد بالهجرة إلى الحبشة حتى

يفلتوا من أيدينا، ولأنني أعرف النجاشي معرفة وطيدة فسوف أطلب منه أن يرد كل مَن هاجر إلى بلاده.

هتف عمارة:

ـ خذني معك.

تردد عمرو:

ـ رحلة طويلة وشاقة، ما شأنك بها؟

ألح عمارة:

ـ أنت تعرف ما حل بي، تخلى أبي عني وعرضني على الآخرين الذين قاموا هم أيضًا برفضي، أي خزي أكثر من هذا؟

وافقه عمرو مجبرًا، لم يلاحظ عمارة ذلك، قضى بقية الليل وهو يجهز للرحلة، سيرحل عن مكة ولن يعود إليها إلا بعد أن تبرأ كل جراحه، وسينسى رغبته في الرباب، وسوف يعود أكثر حرصًا على صداقته.

في الصباح خرج كبراء قريش لوداع ابن العاص، يوصونه أن يستخدم دهاءه وكل بلاغته من أجل إقناع النجاشي، كانت النوق كثيرة، والخلق أكثر، والأصنام شامخة، والصحراء ممتدة بلا أفق، ودون سلوى أو عزاء، يلاحظ أن هناك ناقة أخرى بجوار جمل عمرو، عليها هودج مغلق، هل يمكن أن تكون هي؟! هل من أجل هذا تردد ابن العاص في الموافقة على صحبته بالأمس؟ تأمل الهودج المغلق الغامض، رأى عمرًا يتطلع نحوه كأنه يقرأ ما يدور في ذهنه، قال بابتسامة غريبة:

ـ إنها زوجتي، لم أكن لأفارقها في مثل هذه الرحلة الطويلة.

لم يَرد عمارة، وحاول فقط بقدر الإمكان أن يُخفي رعدته، إنها هي، عليه أن يجاهد حتى يخرجها من ذهنه، يحول ذكرياته معها إلى قبضة من رماد، وجود عدمي، وعمرو يبتسم، ابتسامة لا يعرفها أحد من العرب كما يعرفها عمارة، لماذا لم تخبر زوجها؟ لقد فضَّلت أن تحتفظ بخزيه الخاص سرًّا لها.

طوال الرحلة وهو يبتعد عن الهودج بقدر استطاعته، ينزوي بعيدًا، وجاء الليل واختلى ابن العاص بزوجته، وطير الهواء ضحكاتها، راغبة وصافية، فقدت الصحراء ألفتها، يرتفع خوار ابن العاص الخشن، ويظل عمارة يرتجف حتى الصباح، يبتعد كل يوم عن القافلة ويدخل في ذاته.

ظهر البحر أخيرًا، حيوان أخضر لا يكف عن الالتواء واللغط، وقف عمارة أمامه كطفل يتيم، يشعر بنسيمه البارد كيدٍ تحنو عليه. التفت فوجد الرباب تتطلع إليه من الهودج، كان زوجها مشغولًا بالجدال مع ربان السفينة، تحدثا بعيونهما، تبادلا رغبتهما الحارة المكبوتة دون صوت كما حدث في المرة الأولى. قالت عيناها بوضوح: أنا أريدك يا عمارة، زوجي مجرد بديل مؤقت. وقال هو: لقد زرعت داخلي جوعًا لا يشبع. كان هذا كافيًا ليعيد إليه توازنه الداخلي، مدت أصابعها ترخي ستر الهودج، فيظهر جزء من وجهها، وجزء من صدرها، وجزء من الحلم الذي أضناه طويلًا يقترب. يهتف عمرو ويضع يده على كتفه:

ـ هيا يا ابن العم، توصلت لاتفاق مع هذا الربان، سيأخذ أحمال التمر وأثواب الصوف التي نحملها وسيقودنا إلى بلاد النجاشي.

وأناخ جملها، شاهدها تغادر الهودج بجسدها الفارع وحشي الجمال، تركوا النوق مع القافلة التي صحبتهم، وحمل عمارة متاعه وذهب إلى أقصى السفينة، وعند الفجر بدأت الرحلة، وابتعد خط الصحراء الأصفر.

تعوَّد فقط أن يراها من بعيد، واقفة عند حاجز السفينة تتطلع، لعل هناك أفقًا ما، ويتسلل في الليل ليسمع خليط أصواتهما، هي وابن العاص، وفي ليلة جاء عمرو إليه، قال:

ـ انضم إلينا يا ابن العم.

تأمله عمارة في دهشة، دعوة غريبة، أهي التي حرضته عليها، سار معه، كانت في انتظارهما سافرة بلا نقاب وبلا هودج، تتطلع إليه بثبات، تماوَج البحر واهتزت السفينة، وأعطته الرباب كأس الخمر فتناولها جرعة واحدة، وضحكت الرباب وقالت بنعومة:

ـ رفقًا بنفسك، الخمر أقوى من الرأس الصلب.

ضحك عمرو، وعلق:

ـ الفتى مصاب بدوار البحر والحنين إلى الديار، رفقًا أنت به.

ـ ليس دوار البحر يا عمرو، ولا حنين الطيور المهاجرة، ما جدوى التمهل واللهب يستعر في دمائي، كأس أخرى أيتها الرباب واجعليها صرفًا بلا ماء.

شرب كثيرًا حتى هدأ، ثم انتشى، وعاد يخرج من نفسه ليكون عمارة المخزومي فتى قريش كما كان دائمًا، لا يبالي بابتسامة عمرو، وأصبحت النظرات بينه وبين الرباب أكثر حرارة، واقترحت هي أن يعقدا منافسة في الشرب: مَن يستطيع أن يشرب أكثر من الآخر قبل

أن تلعب الخمر برأسه؟ وكان القمر يفرش ضوءه على صفحة البحر وعمارة يشرب ويغوص في عينيها، كأنه يحلم، يدور رأس عمرو، تسقط على صدره ويصدر عنه شخير كرغاء الإبل، ويمد عمارة يده فتُحذِّره، ولكنه لا يأبه بالتحذير، جسد يتفتح تحت أصابعه، يحاذر أن يصدر صوتًا، يغرق القمر وتبرز شمس حارة، حمراء كالدم، ويمتلئ بريح الصحراء اللافحة، تختلط بريح الحبشة المحملة برائحة البخور والفلفل والصندل، وترف الطيور البيضاء فوق رأسيهما بعنف.

إلى أي مدى ذهب الأمر؟ سأل ابن العاص نفسه في الصباح ولم يظفر بجواب، الصداع يفتك برأسه، والرباب نائمة، قطة وديعة دافئة، لا يوجد على جسدها علامات واضحة، فقط نظرة لعينة من الرضا على وجهها، والبحر هادئ بالغ البراءة، نهض كالمجنون، ذهب إلى حيث ينام عمارة، كلب وديع دافئ، هو الوحيد المستيقظ المغدور به، وحتى بعد أن استيقظا واجتمع ثلاثتهم، ظل عمرو هو الذي يتكلم، وهما صامتان، على وجه كل منهما ابتسامة تنطق بالشبع، يحدقان في موج البحر ويحلمان نفس الحلم، ماذا حدث أيها الوغدان؟ اللعنة على الخمر الفاسدة!

وفي الليل استدارت الحلقة رغمًا عنه، ابتسمت وهي تُعطيه كأسًا كبيرة، لكنه أخذ يُقلُّ من الخمر ويُكثر من الماء، وهما يشربان خمرتهما صرفًا، ينتظران لحظة الأمس، ولن يطلبا الإذن منه، تساءل عمارة:

ـ هل الخمر جيدة يا عمرو؟

أيها الصغير الفاسد، ذكرياتك من صنعي، وأشعارك نفايات قولي،

ها هي أغنيات الأحباش مختلطة بطبولهم الوحشية، كانا يراقبان لحظة ضعفي، كن شاهدي أيها الليل لقد أرقت لهما خمري، ومددت لهما حبلي، ولكنهما معًا خانَا عهدي، فكيف أغمض عيني عنهما؟

ينسحب عمارة محبطًا إلى مكانه، وتنظر الرباب إلى زوجها المستيقظ في غيظ، تعطيه ظهرها وتضم ساقيها، ويمضي الليل بطيئًا دون أن ينام أحد من الثلاثة، وجاء اليوم الثاني وعمرو ما زال منتبهًا، لكن عمارة تقابل معها خلف دفة السفينة للحظة، هتف بها:

ـ ولكن، ماذا نفعل؟ إنه كالضبع لا يعرف النوم طريقًا إليه.

قالت في هدوء مَن فكَّر وقرر:

ـ إن كنت تريدني لك وحدك تخلص منه.

قريش بعيدة، لا أحد يلوم أو ينهى أو يعذل، والرباب هي حدود عالمه، وحتى بعد أن يعودوا ستُحدد كل عشيرة؛ بنو العاص ضعفاء لن يجرؤوا على الثأر، وبنو المغيرة أقوياء سيفرضون ما يريدون، أخوه خالد وحده بكل آل العاص مجتمعين، والبحر غاضب، والسماء مثل خيمة متربة، وأصوات طبول يدقها البحارة الأحباش وقد أصابها مس من الجنون، تهتف به أن يقدم، عمرو واقف على حافة السفينة يرقب الموج، ظهره إليه، الرجل الذي لم يأمن لأحد ظهره مكشوف، يتيح له فرصة نادرة، ليكن جريئًا، ليقضي عليه، وهناك جسد جائع في انتظاره، يقترب من ظهر ابن العاص دون صوت، يمد يده ويدفعه، يزيحه من أمامه، من فوق ظهر السفينة، من فوق وجه العالم، يصرخ عمرو، لكن دقات الطبول تطغى على الصرخة، يلتهم الموج جسده سريعًا، يذهب الغريم وتصبح الرباب أخيرًا له. القتل هو أعظم

شهوات الدنيا، فأنت تهب الموت وتحتفظ لنفسك بحق الحياة، ولكن رعدة القتل لا يمكن أن تنطفئ إلا في جسد امرأة مثل الرباب. كان محمومًا وهو يصرخ بها:

ـ لقد فعلتها، قذفت بجسده الذي كان يعتليك إلى البحر.

كان في يدها سوار من الذهب المرصع، ظل يخمشه في ظهره طوال الوقت وهي تتشبث به، أصبح قدره أن يبقى بين فخذيها، وأن تكون تحته بقية حياتهما، لا سبيل للعودة إلى قريش، أن تضيق حدود العالم لتنطبق على جسديهما فقط، برغم أن الفراش كان لا يزال يحمل رائحة ابن العاص، وفي الركن صنم يخصه، اصطحبه معه من مكة، صنم أبله صغير لا يكف عن التحديق فيهما بعينيه الحَجريتين. ويرفع الموج السفينة ويخفضها كما تفعل الرباب، موج أفريقي دافئ، مليء بالحيتان وكلاب البحر والأسماك والجثث، تتوالد كلها من جثة عمرو. كانت الحركة عنيفة، وقع المصباح الزيتي الذي كان يضيء المكان، اشتبك لسان من اللهب في الفراش، خلص عمارة نفسه من جسدها ليطفئه، وحين استدار رأى ابن العاص واقفًا على الباب والماء يقطر من لحيته وثيابه.

تراجع عمارة مذهولًا، لا يدري إن كان هو حقًّا أم جثة تتحرك. أفاق ليبحث عن شيء يستر به عُريه فلم يجد، ظل عمرو يقترب منه حتى أحس بلمس الماء المالح، قال متوسلًا:

ـ لو أنني فقط علمت أنك تُحسن السباحة ما فعلتها.

يهذي ويرتجف، ويواصل التراجع حتى يلتصق بخشب السفينة:

ـ ما فعلتها، ما فعلتها.

قال ابن العاص هادئًا:

ـ إني أُصدِّقك يا عمارة.

وظلت النار تأكل الفراش المحشو بريش الغربان.

جاءت الحبشة بعد أن هجرتهم كل النجوم، وهبت الريح ساخنة، كانوا ثلاثة، استقبلتهم «مصوع» بلا أي ترحيب، مطر عنيف، وشمس لزجة ليس فيها شيء من جفاف الصحراء، تحط على جسد عمارة مثل عشرات الأيدي القذرة. وابن العاص يتصرف بشكل عملي، يعرف جيدًا مدى ضعف آل العاص وقوة بني المغيرة، توازنات دقيقة لا يدركها إلا رجل مثله، مهما قال فلن يفضح إلا نفسه، سوف تجف الدماء، ويبقى العار. وفي الطريق قابلتهم إحدى القوافل العربية العائدة إلى الصحراء، وضع عمرو الرباب معهم لتعود إلى مكة، وأعطى رئيس القافلة رسالة ليوصلها إلى أبيه، كانت هي الخطوة الأولى في طريق انتقامه الطويل.

وبعيدًا في مكة تلقى العاص رسالة ابنه، وفهمها على الفور. كان يوصيه أن يعلن أمام الناس جميعًا، وبالأخص أمام بني مخزوم والمغيرة، أنه قد خلع عمرًا وتبرأ منه ومن جريرة ثأره. وأسرع الأب إلى بني المغيرة وهو يصيح:

ـ إني بريء من عمرو، ومن جريرة ثأره.

والتف حوله بنو مخزوم، سألوه عما يعني، قال:

ـ خرج ابني مع عمارة بن الوليد، وكلاهما شاعر، فاتك، فلا آمن من أحدهما على الآخر، لذا برئت نفسي من عمرو، ومن جريرته.

وتناقش بنو المغيرة، وكان الوليد بن المغيرة يعاني من حالة مزمنة

من البلاهة منذ أن أسلم وارتد، وتذكَّر أن العاص يلجأ للخديعة، وعليه أن يلجأ لها هو أيضًا، وهكذا طاف منادي المغيرة وهو يقول:

ـ نحن أبرياء من دم عمارة، ومن جريرته.

وتقاطعت النداءات حول الكعبة، وسمعها رجل أعمى، دق الأرض بعصاه وواصل سيره وهو يقول:

ـ ضاع والله دم عمارة إلى الأبد.

في الحبشة كانوا يواصلون الصعود إلى «أقسوم» الشبيهة بوكر العقاب، لا يصعد إليها الضحايا إلا خائري القوى، وكان الصمت ثقيلًا مشبعًا برذاذ الماء، وكان خزي عمارة ثقيلًا، حتى إنه تبع ابن العاص دون أن يجرؤ على الهرب. بدت الحبشة كالمصير المجهول، أكواخًا من القش، وأناسًا سودًا نحافًا، وطيورًا مفزعة، أجنحتها مدببة تندفع في طيرانها خلال قوس قزح الهائل الذي كان يمتد من أول الجبل إلى نهايته، كانوا يصعدون، وشعور التوجس يزداد داخل عمارة: إن عمرًا يريد قتلي، ولكنه يخاف من قومي، ومن خالد أخي، إنني ضعيف حقًّا، ولكنه أضعف مني.

وأخيرًا بعد أيام من الصعود الشاق، أشار عمرو إلى القمة الخضراء المزدحمة بالأكواخ وهو يقول:

ـ هذه «أقسوم» حاضرة النجاشي.

وقطع الصمت دقات النواقيس ترن في البرية، فيضاعف الصدى من صوت الدقات كأنها تنعي إلى عمارة نفسه، والقافلة تقترب. لا تختلف «أقسوم» كثيرًا عن كل القرى التي شاهدوها في صعودهم، لا تزيد عنها إلا في الكنيسة العالية والبرج الضخم والجرس الذي

يتلوى فوق الغابات والوديان الصامتة. كان الدليل يسير في المقدمة، ولكنه توقف حين شاهد حالة الذعر التي تسود المدينة، الأكواخ المهدمة، والأشجار المقتلعة، وجثث الأطفال المهروسة. نظر عمارة إلى ابن العاص فوجده مذهولًا، كان الناقوس يستغيث، وقال الدليل:

ـ بحق المسيح، لقد هاجمت الأفيال «أقسوم».

ساروا في الدروب الخالية. كان عمرو يعرف طريقه إلى قصر النجاشي، ويرى آثار الفيلة مطبوعة بوضوح على التربة الحمراء، وتساءل عمارة:

ـ هل من اللائق أن نزور النجاشي الآن؟

قال ابن العاص:

ـ يجب أن نستأذنه، هذه هي الطريقة الوحيدة ليسمح لنا بالبقاء في «أقسوم».

يقع قصر النجاشي على حافة بحيرة هائلة منها تتفرع كل أنهار الحبشة العظيمة، ومنها نهر النيل العظيم، حيث لا أثر لملوحة الصحراء، في الأرض البحيرة وفي السماء السحب وفي الهواء الرذاذ، وعمارة يتطلع إلى قوس قزح المليء بالأسرار، يبدو قريبًا منه لكنه لا يترك في قلبه أي بهجة، يقف صف من القساوسة، أرديتهم سوداء، ولحاهم شعثاء، وفي اليد اليمنى لكل واحد منهم عصا طويلة تنتهي بصليب من الذهب، وفي اليسرى مبخرة تتصاعد منها أدخنة ملونة، يرتلون أدعية بلغة غريبة. قصر واسع، مفروش بالحصير المجدول، وعلى جدرانه رسوم قبطية تمثل الملائكة والقديسين، كلهم بيض الوجوه ما عدا إبليس فهو الوحيد ذو اللون الأسود. كل

شيء يبدو غريبًا وغامضًا، فوجئ عمارة أن هناك أيضًا من يراقبه من خلف الستر، عيون واسعة لامرأة، ولولا أنه متأكد من أن الرباب عادت من «مصوع» لأقسم أن هاتين العينين الواسعتين الجائعتين هما للرباب، ودفعه عمرو في حدة:

ـ أيها الأحمق، لا تتلفت وإلا ضعنا.

يسترد عمارة ثقته بنفسه، وهذه العيون تتابعه أينما تحرك، والنجاشي جالس في بهو القصر الواسع، عرشه مغطى بجلد أسد تحيط برقبته اللبدة الكثيفة، وعلى رأسه تاج من العاج. انحنى ابن العاص حتى قبل الأرض، وصنع عمارة مثله، وحوله رجال القبائل بملابسهم الزاهية والقساوسة والسحرة. كان وجه النجاشي كئيبًا، وعندما تكلم عمرو وترجم له الدليل الكلمات، لم يفهم أي شيء، الأمر كان معقدًا؛ يحدثه عمرو عن أناس آخرين تركوا دين قريش الذي لا يؤمن به النجاشي، واعتنقوا دينًا آخر لا يعرف عنه النجاشي شيئًا، ولأجل هذا تركوا أهلهم وديارهم وهاجروا إلى بلد آخر، فماذا يُراد منهم أكثر من ذلك. وتلفت النجاشي إلى القساوسة ورجال القبائل والسحرة، وحاول الدليل قدر طاقته أن يُترجم، لكن شِعر ابن العاص كان بالغ الصعوبة والركاكة بحيث لم يعد الدليل نفسه يفهم شيئًا. وتلفت عمارة فرأى عيني الرباب، كلا، ليست إلا امرأة بُنية اللون تطل من كوة فوق العرش وتبتسم له وحده، وظل النجاشي يتساءل حتى أحس بالملل، ثم أمر ابن العاص أن يبقى في ضيافته على الأقل حتى يفهم ماذا يريد منه بالضبط.

وذهبا إلى الأكواخ التي أُعدت لهما. وفكَّر عمارة: يا لها من

امرأة! هل يمكن أن تنسيه الرباب؟ سمع صوت الاستغاثة، والأهالي يصيحون مع دقات الطبول، هجوم آخر للفيلة؟ خرج عمارة، جرى وسط أناس «أقسوم»، كانوا يطلقون صيحات الفرح، إنه عيد ولا شك، حتى الدليل يصيح فرحًا، كان عمارة سعيدًا، استيقظ الطفل النائم في داخله، سمع صوت هزيم هائل، هزيم متحشرج، يشبه خوار عشرات الأبقار. اندس عمارة في زحام الساحة، كان هناك على الأرض فيل ضخم يخور في وحشية وعشرات الرماح غائرة في جسده، يتقلب ويضرب الأرض بخرطومه، والرجال السود يقفزون كالقرود، كل واحد يستعرض براعته ويرشقه في أكثر الأماكن حساسية، والأصوات تهدر بالتحية، ودم الفيل يفرش تحت أقدامهم ملاءة حمراء لزجة، وهتف الدليل في عمارة:

ـ اهتف معنا، صيد الفيل أو فرس النهر هو أهم الأعياد التي نحتفل بها في «أقسوم».

دقت الطبول، وأوسع الجميع مكانًا في صدر الحلقة، أقبل النجاشي بنفس هيئته، ضخمًا مهيبًا مثل شجرة باسقة، ورأس الأسد الذي يرتدي جلده يتأرجح بين ساقيه. وذهل عمارة عندما شاهد المرأة بجانبه، عارية حتى وسطها، وكل هذا الجزء الظاهر من جسدها مغطى بالوشم. هتف الجميع في صوت واحد، واصلوا القفز ليُجهِزوا على الفيل، تشنجت قوائمه الأربع المتجهة إلى السماء. ارتجف عمارة، نفس الرجفة التي أحس بها بالقرب من الكعبة، وكانت الرباب، وكان هناك رجل يموت.

ملأوا إناء من الدم وألقوه تحت أقدام النجاشي، هبط بقدميه

الحافيتين وأخذ يدور في حركة راقصة، وصرخت المرأة في وحشية، غمست يدها في الدم ولطخت جسدها العاري وعيناها معلقتان بعمارة، وأحس عمارة بهذه النظرات تغوص في دمه، قال للدليل:

ـ هذه المرأة، مَن هي؟

رد الدليل في غضب حقيقي:

ـ أيها الأحمق الملعون، إنها زوجة النجاشي.

ازداد إيقاع الرقص، وضاع رنين الناقوس وسط الطبول، ورفع النجاشي دنًّا كبيرًا من الشراب إلى فمه، وأخذ الجميع يشربون في شراهة، ويرقصون وينقضون على جسد الفيل قتلًا وتمزيقًا، وعيناها تشيران إليه حتى يتحرك، لم يلحظ أحد أنها تبتعد، ولم يلحظ الدليل أن عمارة قد تبعها.

قوس قزح، تام الاستدارة، يمتد من أول العالم إلى نهايته، وجسدها خشن من الوشم، لم يكونا في حاجة إلى مفردات اللغة العاجزة، كان النهر ينصبُّ من البحيرة كأنه صفحة واحدة، وطيور «الزرزور» تحط على الصخور وعلى جسديهما، وقوس قزح يطبع ألوانه عليهما، يمتزج كل شيء، رائحة الكافور، وسرخس الماء، وزهور اللوتس. لماذا يبدأ كل شيء بهذا التدفق وينتهي بهذا الخزي، فكَّر عمارة بين ذراعيها، هل ينسيه هذا الكائن الأسود الموشوم الرباب؟ هل تُجدي حرارته اللافحة في اقتلاع جذور ذكراها؟ رائحة النهر، رائحة الدم، عطر غريب، لم يفهم كلماتها، كانت تصف له كيف يمكن أن يتسلل إلى القصر عبر البحيرة ويدخل مخدعها الخاص بعيدًا عن عين النجاشي.

تذكر نفسه الآن، يمد يده فترجع خائبة بلا نجوم، بعيدًا عن عيني عمرو، يتشرب عطرها، لقد كسب ملكة الأحباش فهل كسب جولته أمام ابن العاص؟ عاد إلى الكوخ، عمرو في انتظاره يتظاهر بالقلق عليه:

ـ لقد تأخرت كثيرًا، والقوم هنا ينتابهم الجنون بعد الشراب.

همس عمارة في نشوة:

ـ لقد حصلت عليها.

قال عمرو:

ـ مَن؟

ـ زوجة النجاشي.

ـ أيها المجنون!

أوشك أن يهب صارخًا في وجهه، أن يمسكه ويهز كتفيه حتى يفيق، لكنه سكت، كتم كل انفعالاته، وقال في هدوء:

ـ أعني أن هذا مستحيل، لا بد أنها امرأة أخرى تزعم ذلك، تزعم أنها زوجة النجاشي لترغبك فيها.

ولكن عمارة أكد ما حدث، قص كل تفاصيل اللقاء بينهما، وعمرو يبتسم، يسأله إن كانا سيلتقيان مرة أخرى، قال عمارة:

ـ غدًا سأدخل القصر، سأركب قاربًا عبر البحيرة وأدخل مخدعها رغمًا عن أنف النجاشي.

ضربه عمرو على ظهره في حماس مبالغ فيه:

ـ يا لك من فارس شاعر، لقد غزونا الأحباش في عُقر دارهم.

تركه، وأدرك أن لحظة انتقامه قد حانت أخيرًا، كان يعرف منذ

البداية أن عمارة سوف يقع في مثل هذا الخطأ القاتل، من هذه اللحظة سيضع لمسات انتقامه ببطء ودِقة، وسيمد له حبال النشوة حتى يأتي الموت مباغتًا. وفي الغد ذهب إليه، سأله باهتمام:

ـ هل ذهبت إليها؟

ـ قضيت الليل بأكمله معها.

ـ لا أصدق، كلا يا عمارة، لا بد أنها امرأة عادية من عامة الأحباش.

ظل عمارة يتسلل كل ليلة عبر البحيرة، والنجاشي يستدعي ابن العاص، يسأله عما يطلب بالضبط، والدليل عاجز عن أن يوصل ما بينهما، وعمارة يعود حاملًا عقود الزبرجد، وأيقونات العاج، والخناجر المرصعة بالجواهر، يسبح في الوشم المتشابك على جسدها، لعله يخفف من درجة خزيه أمام ابن العاص، لكنه لا يصدق، ويصر ألا يصدق، ويهتف عمارة:

ـ كيف أثبت لك صدقي؟

سكت عمرو قليلًا، ثم قال:

ـ ائتني بعطر النجاشي، إنه عطر خاص يعده السحرة من عنبر الحيتان ومن الأعشاب السرية، ولا يستعمله أحد غيره، ائتني به فأصدقك.

ضحك عمارة من تفاهة الطلب. كانت الأنشوطة تضيق حول عنقه وهو يقوم برقصته الأخيرة، يعبر البحيرة، وترف طيور اللقلق البيضاء كأنها تحذره، لكنه يلوح لها في جذل، ويسبح في البخور، والوشم ينطبع على جسده، على روحه، لكنه لا ينسى الرباب، حفرت وشمها الخاص ومضت، دون أن يلتئم أي جرح، يستنزف

النسيان قطرات دمه فلا ينسى، اكتشف متأخرًا أنه يحاول الانتحار في جسدها.

عاد إلى عمرو وفي يده قارورة كاملة، مختومة، وهتف ابن العاص معلنًا أنه يصدقه، لكنه انزوى في كوخه صامتًا؛ لقد عزم ألا يذهب مرة أخرى، وأن يرحل بعيدًا عن الحبشة، لن يعود إلى قريش، ولا إلى أي مكان، سوف يرحل وكفى، وضاقت الأنشوطة لآخر مداها.

في الصباح طلب ابن العاص الإذن بالدخول إلى النجاشي، كان قد مل من مطالبه غير المفهومة، ولكن عمرًا لم يلجأ للدليل يترجم أقواله هذه المرة، استعمل كل مهارته في العربية، والأمهرية ولغة الإشارة التي لا يخطئها أحد:

ـ عندي خبر مهم يا مولاي، ابن عمي سفيه خوان، يختلق الأكاذيب ويبالغ فيها، لقد جاء بقارورة العطر هذه، وزعم أنه دخل على بعض نسائك وجاء بها.

فهم النجاشي وتظاهر بالهدوء، ولكن عمرًا رأى نظرة الجنون تطل من عينيه، ورأى أصابعه وهي تتشنج على مقبض العرش، يشير إلى ابن العاص أن يضع القارورة وينصرف، غسل عمرو يده إلى الأبد من دم هذا المدعو عمارة، لقد حاول أن يلقيه في جوف البحر فألقاه هو في غياهب الحبشة السوداء.

كان عمارة يجمع متاعه ويستعد لهبوط الجبل، عندما انفتح باب الكوخ بعنف ووجد عشرات الأحباش يوجهون الرماح إلى صدره، ألقى المتاع ووقف جامدًا، أدرك أنه قد اكتُشف أمره، قادوه عبر

الأكواخ والأجساد السوداء إلى قصر النجاشي، مثل جرذ سيِّئ الحظ، دفعوه حتى انكفأ تحت قدميه، حاول أن ينهض ولكن النجاشي ركله بقسوة. كان سقف القصر بعيدًا والوجوه الغاضبة شديدة القرب، القساوسة والسحرة يرتدون الأقنعة الملونة وأثوابهم من ريش الطيور، يدقون العصي التي تنتهي بالجماجم. صاح النجاشي، توجه وأشار إلى الحرس، اقتربوا من عمارة، شقوا ثوبه ونزعوه عن بدنه، صرخ، دار وسط حلقة السحرة وهم يدورون ويدقون الأرض بالعصي فتهتز كل الجماجم، انبعثت أدخنة البخور من أماكن مجهولة، كانوا يصرخون في وجهه بالتمائم والتعاويذ، ارتمى على الأرض فأنهضوه، حاول أن يستر عُريه، ولكن أحدهم أمسك دهانًا أسود وألقاه على جسده فصرخ، وتحولت صرخاته إلى عواء عندما اقترب منه شيء مفاجئ ولمس الجزء السفلي من جسده، يحرقه، يشل رجولته إلى الأبد، ألقى ساحر على رأسه سائلًا جديدًا، مثل آلاف الجمرات الملتهبة، تلوَّى والبقع الحمراء تتسع فوق وجهه وجسده، ومن بعيد بدت أشباح النجاشي، وعمرو، والرباب، وشخص ما، يشير إلى جسده المشوه، ويصيح: «هذا أجمل فتيان قريش»، لكن آلاف الحيوانات تركض في داخله، وتمزق أحشاءه، تدفعه حتى يعوي مثلها، ويركض ويغرس أسنانه في أي شيء يقابله، يقف محنيًّا وسط السحرة، يقفز مثل قرد شرس جائع أبيض اللون يشاركهم رقصة الألم.

تركه السحرة وسط القاعة، أشار النجاشي للحرس ففتحوا أبواب القصر، وكانت الغابات مفتوحة، قوس قزح تام الاستدارة، جرى

عمارة إلى حياته الجديدة، أو قبره الأخير، كانت كل الحيوانات في انتظاره، كي ينتظم معها في عوائها الطويل.

أعوام طويلة مرت منذ أن عاد ابن العاص إلى قريش يشكو ظلم النجاشي وخيانة عمارة وفعل السحرة، حتى جاءت خلافة عمر بن الخطاب، خرج من بني مخزوم بعضٌ من أبناء عمومته ليبحثوا عنه، صعدوا الجبل، سلكوا نفس الطريق الذي سلكه من قبلهم نحو المجهول، يقودهم بجير بن أبي ربيعة، اجتازوا «أقسوم»، كان النجاشي قد مات، ربضوا على حافة الغابة، سألوا الأهالي، وسمعوا الروايات المتناثرة عن الوحش الأبيض الذي يظهر بغتة ويختفي سريعًا، وظلوا يتتبعون أي أثر له، وصلوا إلى نبع ماء جارٍ في وسط الغابة، شاهدوا آثار الحيوانات ومن بينها آثار قدميه، اختبأوا فوق الأشجار، راقبوا الوحوش وهي تأتي وتشم الهواء ثم تنصرف في ذعر واضح، حتى جاء عمارة، غريبًا، لم يتعرفوا عليه، جسده مغطى بالشعر الغزير، وأظافره تحولت إلى مخالب، وحين وصل إلى النبع ارتمى على بطنه وأخذ ينهل من الماء، قفزوا عليه، نهض في فزع، حاول أن يفلت ولكنهم أمسكوه، شدوا عليه وهو يصرخ، يريد أن يعاود انطلاقه، أن يهرب إلى حضن الغابة، تعرف على وجوههم، لكن صراخه الوحشي ازداد حدة، هتف يخاطب بجيرًا:

ـ اتركني يا بجير، لا أستطيع أن أبعد عن هنا، لا أستطيع العودة إليكم.

لم يتركوه، كان يرتعد، يمور في داخله ألم غامض، آلاف الأنياب

والأظافر تنضب في أعماقه، يصرخ فتجاوبه كل حيوانات الغابة وحنينها للعتق والانطلاق، دوت الأجراس تبلغ رسالتها العاجزة، تنساب قطرات عرقه، وينزف الدم من عروقه، شعروا بالفزع فتركوه، ليذهب إلى حيث يشاء، نهض في إعياء، وسار بضع خطوات متجهًا إلى الغابة، ولكنه سقط، والجرس يرن، والحيوانات تعوي.

٩

الخنساء

من أين تأتي الدموع؟

وأخيرًا، قال صخر لأخته:

ـ سنذهب لموسم الحج هذا العام، لعل المصادفة تكون في صفنا ونتعقب مَن قتل أخانا.

كان هذا مبررًا كافيًا حتى تنهض الخنساء وتمسح دموعها، وتستعد للرحيل إلى البلد الحرام في الأشهر الحُرم، هناك يتجاور القتلة وطالبو الثأر، دون أن يجرؤ أي واحد منهما على رفع سيفه، لا مجال للوعيد والتهديد، لا يُسمع سوى أصوات الشعراء والابتهالات إلى الآلهة لتكون أقل قسوة، ولكن الرحيل بالنسبة للخنساء هو جوع جديد، فرأسها حليق، وجسدها لم يمسه طيب أو دهان، وطائر الصدى يلح عليها أن تأخذ بدم معاوية، يا ديار سليم، يا آل الشريد، يا أذل العرب، ثأركم ما زال ضائعًا، كوني حنونة يا نجوم السماء، وتلوني بلون الدم، لعل نار المراثي تخبو قليلًا.

كانت الخنساء صغيرة عندما دق الموت بابهم، اسمها الأصلي

كان تماضر، وكانت تشبه الظبي الصغير، الخنساء هو أحد أسماء الظبي، لم يلتفت أحد إلى جمالها ولم تشعر هي بأنوثتها، كانت قبيلتها «سليم» في ذيل القبائل، حتى جاء أخواها، معاوية وصخر، فارسان قويان، مرهوبا الجانب، منذ ذلك اليوم أصبح من حق أبيها أن يسير إلى عكاظ ليفاخر بقية العرب، لا بماله، ولا بنسبه، إنما بولديه، يقف وسطهما ويهتف:

ـ أنا أبو خيري مضر، ومَن نكر، فليعتبر.

وحفظت الخنساء هذا التفاخر، تقبلته كأحد حقائق الطبيعة، واستجمعت القبيلة المهزوزة شخصيتها، وبدأت تغزو ما حولها من قبائل وتفرض كلمتها عليهم، ماذا يفعل بنو مرة أو أسد أو غطفان، وليس فيهم صخر أو معاوية، ومع الحرب والغارات تدفقت الأسلاب على القبيلة، وامتلأ البيت حول الخنساء بالغنائم الملوثة بالدم، وكانت رائحتها أطيب من أي عطر!

معاوية هو الأخ الأكبر، الفارس، الشمس الساطعة التي تُبهر عينيها، سماحته لا يفوقها إلا جوده، وعطاؤه لا يوازيه إلا قوته، لا يدانيهِ في الفروسية إلا دريد بن الصمَّة فارس بني جشم، لذلك تصادقا وتحالفا، ولكن نهاية معاوية مثل صعوده كانت سريعة، امرأة كانت هي السبب، امرأة متاحة، يملكها الأقوى والأقدر على دفع الثمن، أسماء المريَّة، بغيٌّ سوق عكاظ، دعاها معاوية إلى نفسه فامتنعت، تدللت عليه قائلة إنها تحت هاشم بن حرملة، عدوه اللدود من بني مُرة، ولكن معاوية صمم على أن ينالها، ألح عليها بماله وفحولته، جذبها إلى فراشه، وحرَّم عليها أن تزور فراش الآخرين،

ولم يغفر له هاشم هذه الإهانة، ظل يترصده ويراقب تحركاته، حتى تخلى معاوية ذات مرة عن حذره وسار وسط جمع قليل من رجاله، وإذا بجيش بني مُرة يحاصرهم، وحاول معاوية أن يشق طريقًا بالسيف، لكن هاشمًا وأخاه تصديا له، تظاهر أحدهما بالهزيمة وحين همَّ معاوية بالإجهاز عليه طعنه الآخر في ظهره، منذ تلك اللحظة خرج طائر الصدى من رأسه يجوب الفضاء ويزعق من العطش، ولبست الخنساء ثوب الحداد، وبدأت أيام المراثي، ولكن.. من أين جاءت الخنساءَ كل هذه الدموع؟

سافرت وأخوها إلى مكة، طافا بالكعبة والأصنام، وزارا سوق عكاظ، يسألان عن مكان بني مُرة، كان صخر هادئًا، والخنساء ترتعد، رأت عباءة معاوية مُعلَّقة فوق إحدى الخيام، ممزقة من أثر الطعن، ملوثة بالدم، وولدَا حرملة وأسماء المرية يشربان، ويتفاخران بما حدث، وهتفت الخنساء في كراهية:

ـ اقتلهما، الآن!

وتمنى صخر بصوت عالٍ:

ـ ليتني أستطيع، لولا هذا البلد الحرام!

وتقدمت هي، لم تكن تملك سوى سلاح الشعر، أخذت تفخر بأخيها، ترثيه وتهدد القتلة وسط ذهول الجالسين. انتزعت عباءة معاوية، والتفَّت بها، بدت مثل شجرة صبار ملوثة بالدم الجاف، لم تزل صغيرة لكن صوتها ممتلئ بريح السموم، وصخر صامت، وجهه مثل قناع كثيف لا يُظهر أي انفعال!

وعادا إلى ديار سليم، وبدأ صخر يستعد للثأر، والخنساء تستعد

للزواج دون حب أو رغبة، تؤدي ما تفرضه عليها التقاليد القبلية، قبل أن يموت معاوية كانت تملك القدرة على الحكم على من يتقدمون لها والاختيار من بينهم، وحتى عندما تقدَّم لها دريد بن الصمة، فارس بني جشم وحليف أخيها، عرَّضته لاختبار قاسٍ من طرفها؛ أرسلت خلفه واحدة من جواريها، طلبت منها أن تراقبه وهو يبول، تريد أن ترى إن كان بوله يسيح على سطح الرمل، أم يحفر طريقًا فيه، وبالفعل راقبته الجارية من خلف إحدى الصخور، رأت العجوز والبول ينبعث من عضوه العجوز واهنًا، ينساب على وجه الرمل لا يترك عليه أثرًا، وذهبت الخنساء وقالت لأبيها:

- أوَأترك أولاد عمي مثل عوالي الرماح وأتزوج شيخًا عجوزًا من بني جشم؟!

كانت تدافع عن جسدها وما فيه من رغبات محتدمة، وانصرف دريد مخذولًا، لم يستطع أحد أن يفرض رأيه عليها، وأخذ دريد يهجوها بأقذع الألفاظ، لكنها كانت من القوة بحيث ردت عليه وذكرت شهادة الجارية الحاسمة، ولكن معاوية مات، وجاء ابن عمها رواحة، مثل عوالي الرماح، ولكنها رماح مثلوم، تطلعت إلى وجه صخر فوجدته جامدًا، لا رَفْض ولا قبول، على أي حال، كان يجب أن تتزوج!

في ليلة الزفاف لم تخلع ثوب الحداد، زُفت وهي حليقة الرأس، وظلت ساهرة تنتظر عودة صخر من أولى غزواته! نسيت أنها ورواحة قد أصبحا في بيت واحد، وعندما وضع يده عليها ارتعدت، نظرت إليه في اندهاش، ورفضت أن تخلع ثوبًا من أثوابها الكثيرة، وسمعت

الخيل وهي عائدة فهرعت إليها، كان صخر وكأنه سيف ملوث بالدم، فهتفت به:

ـ هل أدركت ثأرك؟

قال:

ـ كلا، لم أشفِ غليلي بعد!

وعادت للخيمة لتقول أكبر مراثيها. جلست أمام رواحة تجتر أحزان عمرها الذي لم يبدأ بعد، واستيقظت في الصباح فلم تجده بجانبها!

أي قوة خفية تشدها لصخر؟ رغبة الثأر الحارة؟ عجزها عن أن تعيش في ظل غير ظله؟ هل هو مجرد أخ، رجل، فارس منتقم، رمز لأشياء مجهولة، أم هو رغبة محرمة كان عليها أن تكبتها؟ لا توجد إجابة محددة، لأنها حملت من السنين أكثر من عمرها، وأهدرت من الدموع ما لم تقدر عليه عين، وارتدت ثياب الحداد حتى بلي جلدها، وتشربت كآبة المقابر حتى النخاع، حتى كلمات شعرها تحولت إلى سهام مسمومة.

لم يكن رواحة هو الزوج المناسب، ولا هي بالزوجة المريحة، هجر منزلها إلى أطراف القبيلة، حيث يجتمع السادة والصعاليك واللصوص والتجار الشرفاء في حلقات المقامرة، وحيث ينهض الجميع خاسرين، ولا يدري أحد أين يذهب المكسب! في اليوم الأول، خسر رواحة كل نقوده، وفي الثاني خسر «خواتمه» وكل ما كان يزينه من قلائد ذهبية، ثم عاد دون سيفه وخنجره، ثم بدأ يسلب الأشياء ذات القيمة الموجودة في البيت، ولم تكن الخنساء تريد أن

تنجب منه، لكنها حملت منه في ليلة من ليالي الجوع، أنجبت رغمًا عن أنفها طفلها الأول عبد الله، ذهبت تشكو إلى صخر، أعطاها نصف ما في بيته من أموال، فأتى رواحة وسلبها، ولو أن المراثي تُباع لقامر بها أيضًا، وحاول صخر أن يصطحبه معه إلى الغزو فرفض رواحة، وتطور الأمر بينهما إلى التهاجي والتحدي.

وأخيرًا عاد صخر سعيدًا من الغزو، لقد روى طائر الصدى وبلل منقاره بالدم الصافي، أباد بني مُرة، وقتل ولدي حرملة، ظفر بثأره بطريقة وحشية، وستظل الجثث عارية، تأكل منها الجوارح حتى التخمة، ثم تذروها العواصف، لعل روح معاوية تهدأ، ولعل أشعار الخنساء تصفو قليلًا، اندفع إلى خيمتها يحمل البشرى، فوجدها باكية، ممزقة الثياب، شعثاء الشعر، والولد الصغير ملقى في زاوية الخيمة، قالت:

ـ إنه رواحة، لقد أخذ كل ما يمكن بيعه، وذهب!

ودمدم صخر، سيفه لا زال دافئًا، لكن رواحة هو ابن العم، وزوج الأخت، وأشرق وجه الخنساء وهي ترى علامات القتال على ثيابه، هتفت بسؤالها التقليدي:

ـ هل أدركت ثأرك؟

قال:

ـ أجل، وأفنيت بني مرة عن بكرة أبيهم!

كان يحسب أنها سوف تهدأ، لكنها تساءلت في مرارة:

ـ وحلفاء بني مرة، أسد، وغطفان، ما زالا بخير، أليس كذلك؟

وافقها صخر، كأن الصحراء كانت مقبرة واسعة، وعلى الجميع أن يكونوا فيها موتى!

وفي الصباح عثروا على جثة رواحة، قالوا إنه تعثر في الصخور وسقط، لكن آثار الطعان كانت واضحة في جسمه، نقلوه إلى بيته، ثم إلى قبره، ولم تكن الخنساء قد خلعت ثوب الحداد بعد، لكنها لم تَنُحْ عليه بكلمة، لم تَرْثِه ببيت، ولم تفكر لحظة أن تزور قبره، وظلت ترثي معاوية كأنه هو الذي مات بالأمس، لم يبقَ إلا عبد الله، الشاهد الوحيد لهذه الزيجة!

وتفرغت لصخر، وتفرغ صخر للثأر المطلق، ثأر يقع على كل من شاهد القتلة أو سمع عنهم، ثلاث قبائل كاملة من أجل فرد واحد، لكن القبيلتين الباقيتين لم تكونا فريسة سهلة، توثقتا، وتعاهدتا، وأحضرتا ربيعة بن ثور، أبرع من رمى الرمح في بلاد العرب، استضافوه، وجهزوا له الأموال والجواري حتى يأتي وقته. وركب صخر فرسه «الشماء»، وقال لأخته:

ـ أخشى أن يعرفوني ويعرفوا غرة الشماء فيتأهبوا.

وسودتها الخنساء بتراب الفحم، وودعها صخر، تخلى وجهه للمرة الأولى عن جموده، وحمحمت الخيل إلى ديار غطفان، وهتفت فتاة من فوق مكان عالٍ:

ـ هذه والله الشماء.

لكن قومها ردوا عليها في بلاهة:

ـ يا حمقاء، الشماء غراء وهذه بهيم.

وظلوا ينكرونها حتى دهمتهم الخيل، ونفذ سيف صخر في أجسادهم، هرعوا إلى ربيعة بن ثور، لقد حانت لحظته، ولم تكن سليم تتوقع هذه المقاومة الشرسة، ولا هذا العدد الكبير من الفرسان،

وجهز ربيعة رمحه، ثم أطلقه كالوميض إلى الجانب الأيمن من صدر صخر، حافظ ربيعة على مستواه ولم يخطئ هذه المرة أيضًا، وانتزع صخر الرمح، وظل يقاتل ويتراجع وينزف.

تناثرت قطرات دمه على غرة الشماء فتحولت إلى اللون الأحمر، وارتمى صخر ـ أشد فرسان الصحراء قوة وضراوة ـ عاجزًا، فوق فراش داخل بيته، وهرعت الخنساء إليه، دفعت زوجته بعيدًا، وجلست بجانبه ورأت جرحه، كان يمتد من أسفل الجانب الأيمن من الصدر واسعًا وعميقًا، تبرز منه كتلة حمراء دامية بحجم قبضة اليد، حاولت الخنساء أن تلمسها، أن تعيدها إلى مكانها، لكن صخرًا، صخرًا القوي الصلب، يصرخ من ألم مميت، انتفض جسده كله كأنه براكين العذاب تفور في داخله، جاء كاهن القبيلة، اكتشف أن كبد صخر قد خرجت عن موضعها، ولن تعود مرة أخرى.

مات معاوية مرة واحدة في لحظة واحدة، لكن صخرًا يموت كل لحظة عشرات المرات، والكاهن يحضر الجمر والأسياخ المحماة، ويكوي شفرتي الجرح، وصخر يتوسل إليهم أن يجهِزوا عليه، أن يريحوه من عذاباته، أعطوه كل الأعشاب المداوية، ولم يكن هناك من يجرؤ على الإجهاز عليه، والخنساء تتأمله، فارسها ورجلها الحقيقي عاجز مثل جواد نافق. يومًا وراء يوم وشهرًا وراء شهر، وكل من يسأل عنه لا يتغير الجواب:

ـ لا هو ميت فيُنعى، ولا هو صحيح فيرجى!

وظل الجرح مفتوحًا، في البداية كان ممتلئًا بالدم، ثم أصبح ممتلئًا بماء أصفر عكر، ثم لم يعد ينزف غير الصديد، والرجفة تغمر

جسده، تلهبه بالحمى والهذيان، والخنساء عند قدميه، تتوسل لكل قوى الصحراء الخفية أن تنقذه، أن تعود الكبد ويلتئم الجرح، وينهض صخر، لم تكن تتصوره ميتًا قَطُّ، وفي اليوم الأخير من عام المرض والعجز، همس وهو يهذي:

ـ أنا الذي فعلتها.

لم تفهم، كان قد فعل الكثير، قالت حتى ترضيه:

ـ أنت قاتلت كل القبائل من أجل ثأرنا.

هز رأسه بالنفي، وأضاف وهو يشهق:

ـ رواحة.

وكف عن الحمى والهذيان والصراخ، أخذ نصيبه من الألم كاملًا، لم يبقَ للخنساء من يأخذ بالثأر، إن ثأر الكون كله لا يكفيها، لقد تدفق الشعر كالسيل، لم تعد امرأة، أصبحت فقط نفسًا غاضبة، وكلما بلي ثوب الحزن ارتدت غيره، وكلما جفت الدموع، ألهبت بالقصائد عيون الآخرين، أشعار جافة، مباشرة، لا تأبه بصورة أو تشبيه، تكشف عن أغوار هذه النفس الإنسانية عندما يضنيها الإحساس بالغبن.

قيل للخنساء: «صفي لنا أخويك صخرًا ومعاوية». قالت:

ـ كان صخر جنة الزمان الأغبر، وزعاف الخميس الأحمر، وكان معاوية القائل الفاعل.

قيل لها: «فأيهما كان أسنى وأفخر؟». قالت:

ـ أما صخر فحر الشتاء، وأما معاوية فبرد الهواء.

قيل لها: «فأيهما أوجع وأفجع؟». قالت:

ـ أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فقيام الجسد.

ركبت جملها إلى عكاظ، تذكرت المرة الأولى التي جاءت فيها مع صخر، وقفت تنشد المراثي، وتساءل العرب: «هل هناك مَن هي أعظم مصيبة منها؟». ولكن امرأة أخرى وقفت في محاذاتها وهتفت في الموجودين مفاخرة:

ـ أنا أعظم العرب مصيبة!

نظرت الخنساء إلى البكَّاءة المنافسة، وسألتها:

ـ مَن أنت؟

قالت:

ـ أنا هند بنت عتبة، أعظم العرب مصيبة، أبكي أبي عتبة بن ربيعة وعمي شيبة وأخي الوليد، وكلهم قُتلوا في موقعة بدر، قتلهم جيش النبي الجديد.

وانطلقت تنشد الأشعار، تحكي عن يوم بدر، وتُحرِّض الجميع على النبي الذي أوقع العرب في العرب. وانطلقت الخنساء أيضًا، كلٌّ منهما تتباهى بقتلاها، وتفصل مصيبتها. تحول الحزن الإنساني إلى منافسة كلامية، وتفوقت الخنساء بحكم الخبرة، وانصرفت هند مخذولة، لكنها ما لبثت أن أطفأت حرقتها حين مضغت كبد حمزة بن عبد المطلب في يوم أُحد، وبقيت الخنساء في حاجة إلى عدد هائل من الأكباد.

أفاقت سليم وقد عادت إلى مكانتها الأولى، ضعيفة، مكسورة الناب، لا تقدر على رد اللدغة، ذهب فارسا آل الشريد، وبقيت أسد وغطفان، خطرًا دائمًا متجددًا، اجتمعوا، تناقشوا، وكان الاتفاق على الانضمام إلى أكبر القوى الصاعدة، والتي تعاديها أسد وغطفان في

الوقت ذاته، أن ينضموا إلى الإسلام، وتألف وفد منهم، ظهرت عليهم أمارات الاقتناع المفاجئ بالدعوة الجديدة، والخنساء بينهم، تسير بثوب الغراب الذي لم تخلعه، كان النبي في مسجده، وأحست سليم أن الأمر مختلف عما تصورت، ليس تحالفًا أو سعيًا للحماية، إنه التزام صارم، يتطلب العطاء قبل الأخذ، إنها رسالة، وليست فرصة تُنتهز، لكن أحدًا منهم لم يتحرك، انسابت كلمات النبي إليهم، تشرَّبتها نفوسهم كالأراضي العطشى، وابتسم النبي في وجه الخنساء، وهو يقول:

- هيه، يا خناس.

استمع إلى أشعارها في حزنها، أخبرها أن في الإسلام العزاء لكل القلوب الحزينة.

تزوجت للمرة الثانية من مرداس بن أبي عامر السلمي، شيخ كبير يلائم مزاجها النفسي، ولم يكن صخر موجودًا فتفرغت لحياتها الزوجية، وتوالت إنجاب الأطفال، تحاول تعويض أيام العقم والرثاء، لكنها تجردت من كل عواطفها، ومارست الطبيعة دورها خلال جسدها دون أي إحساس حقيقي، ماتت داخلها رغبة الاستمتاع بالنزوات الصغيرة، وأصبحت أمًّا، صارمة، عكرة المزاج.

ولم يمنعها هذا من أن تنجب بنتًا جميلة هي «عمرة»، ظبية صغيرة، تملك قلبًا متوثبًا، يتوق للحب والمرح وأشعار الغزل وهمس العشق، عوضت كل ما حرمت منه أمها، وأخذت تصنع من الخطايا اليومية ذكريات جميلة.

ومات النبي عليه السلام، وانقسمت القبائل، واعتبروا الزكاة كأنها كانت نوعًا من الإتاوة تؤدى لرجل قوي، وانتشر مدعو النبوة الكذَّابون

يدعون أحقيتهم بالنبوة، وتذكَّرت الخنساء أن لها ابنًا اسمه عبد الله من زوجها الأول، تذكرت ذلك حين امتشق حسامه مع المرتدين، وقف خلف طليحة أحد المدعين الكاذبين، يواجه جيوش المسلمين، وتبلدت مشاعر الخنساء إلى حد الموت، لم تبال إن كان مسلمًا أو مرتدًّا، نجح في المقاومة أو لقي حتفه.

لم تهتز إلا عندما اكتشفت وجود علاقة غرامية بين ابنتها عمرة وشداد بن مرداس ابن زوجها من امرأة أخرى، ذهلت من أن تُقدِم ابنتها على مثل هذه العلاقة المحرَّمة، ولم تبالِ عمرة، لقد وقعت في غرام عشرات الفرسان فلماذا لا تقع في غرام شداد وليكن ما يكون! لكن الخنساء وقفت أمامها في حزم، وعندما مات مرداس قطعت كل ما كان يمتُّ إليه بصلة، ورَثته بأبيات باردة هشة، لكنها كانت خيرًا من اللاشيء الذي كان من نصيب رواحة، وأنهت العلاقة، وهزت عمرة كتفها، فهي لا تزال قادرة على الحب، والعالم مليء بالفرسان الذين لا يمتُّون لها بصلات محرمة.

لم ترحم الأيام الخنساء، حولت كل ذكرياتها إلى قبور، ولم ترحم هي نفسها فتحولت أيضًا إلى مقبرة، أمدت روحها بعشق دم الآخرين، وكانت أكثر عطشًا من طائر الصدى، ولا أحد يدري كيف استقام هذا الشعر الجيد مع هذه المشاعر المريضة.

حين أقبلت على المدينة ومعها أناس من قومها التقوا مع عمر بن الخطاب وقالوا: «هذه الخنساء نزلت المدينة بزي الجاهلية، فلو وعظتها يا أمير المؤمنين فقد طال بكاؤها في الجاهلية والإسلام».
وقام عمر وذهب إليها، وقال:

ـ يا خنساء ما الذي قرح عينيك؟
رفعت رأسها وقالت:
ـ البكاء على السادة من مضر.
قال:
ـ إنهم هلكوا في الجاهلية وهم وقود اللهب وحشو جهنم.
قالت:
ـ فذاك الذي زادني وجعًا.

لم تغير ثوب الحِداد، لعلها ماتت به، مرة واحدة في زفاف ابنتها عمرة، التفت في شال أحمر، وجلست في ركن لا تشارك في الرقص ولا الغناء، تاركة النساء الغريبات يزينَّ ابنتها. كانت تحاول أن تتذكر ما حدث في زفافها الأول، هل غنى أحد أغنية من أجلها؟ فوجئت بعمرة تدوس على قدمها، كانت قد نهضت لقضاء حاجتها وهي ترتدي ثوب العرس، كانت جميلة بحق، لكنها هتفت فيها بغيظ:

ـ يا حمقاء، إنني كنت أحسن منك عرسًا، وأطيب درسًا، وأبسط منك عرفًا، وأرق منك، وأكرم منك بعلًا، لا أذيب الشحم، ولا أرعى البُهم، كالمهرة الصنيع، لا مضاعة، ولا عندي مضيع!

وقفت عمرة ذاهلة، وذهل بقية المدعوِّين، والأم تسلط لسانها الحاد، لقد اكتشفت أنها لم تكن عروسًا في يوم من الأيام، لم تحب، لم تستمتعَ.

عاشت أيامها كلها في الشيخوخة، وفقدت بصرها قربانًا لأيام البكاء الحارة، وحين جاءتها الأخبار أن أولادها الأربعة قد استُشهدوا

في معركة القادسية كانت قد استنفدت كل الدموع، وكل أبيات الشعر، لقد زاد عدد القبور أربعة، وأدركت بشكل غامض أن كل ما يمت إليها بصلة مقضيٌّ عليه، لم يبق إلا هي، وحيدة كئيبة، تنتظر وقع دبيب الموت الذي تأخر عن موعده!

١٠

أمية بن أبي الصلت
المتوهم والمنتظر الأعظم

كان يهذي من الحمى، لكنه رأى طائرين يمرقان من خلال النافذة، دارا حول فراشه عدة دورات، ملآ الغرفة برفيف أجنحتهما قبل أن ينفذا للفضاء الخارجي، زعق:

ـ لبيكما، لبيكما، هأنذا لديكما.

لا بريء فأعتذر، ولا ذو عشيرة فأنتصر.

هتفت ابنته وهي تضع يدها على جبهته:

ـ اهدأ يا أبي، أنت تهذي.

دفع يدها وهو يحاول النهوض، قال:

ـ هذان طائرا النبوة، يحملان لي الخاتم والرسالة.

قالت وهي تكاد تبكي:

ـ أنت تتوهم يا أبي، لا توجد طيور، والرسالة مجرد حلم.

لكن صدره كان يعلو وينخفض، يسمع صراخ الطيور، وصدى أصواتها يتردد من فوق حواف الصخور المسنونة ومن قيعان الأودية

المحترقة، وعند الآبار والينابيع حيث تموت الأوهام في وهج الظهيرة، يلاحقه الصوت الغريب في النهار كالنذير، وفي الليل كالحلم: انهض يا أُمية، جاءت بشائر الزمن الجديد. راياته تلوح أمامه، يتفصد جبينه بالعرق ويصرخ: «من ذا الذي يرفع الرايات؟ ومن أي الجهات تهب الريح؟ هذه ريح الصبا، وهذه ريح الموت، ولكن أين ريح النبوة؟».

مرة أخرى مرق الطائران من خلال النافذة، هتف:

ـ لبيكما، لبيكما، هأنذا لديكما.

لا مال يغنيني، ولا عشيرة تحميني.

نهض من الفراش، دفع ابنته بعيدًا، خرج من البيت واجتاز الحي وابتعد عن المضارب، والطائران في السماء يقودانه نحو آفاق بعيدة، رآه قومه من ثقيف، هتفوا به:

ـ إلى أين تمضي يا أُمية؟

لم يرد عليهم، هو نفسه لم يكن يعرف، رآه رعاة الماشية وحداة الإبل وعشاق الآبار الجافة، وكان الطريق الذي يسلكه غامضًا، لا يمضي جنوبًا إلى اليمن، ولا شمالًا إلى الشام، مسارب غريبة مجهولة لا تني تتفتح وتتشابك كالفخ، كأنك الطراد والصيد في ذات الوقت، والقلب الذي أضنته الحمى وطول الانتظار يصرخ:

ـ يا طيور السماء، يا كل الموجودات، مَن آخر أنبياء الزمن الآتي؟

يهتفون به جميعًا:

ـ أُمية بن أبي الصلت.

أهو سراب خادع مرة أخرى؟ أيتها الطيور تمهلي قليلًا فما أجمل هذا الصدى! ولكن اصدقيني الجواب، إذا أنا كنت حقًّا آخر أنبياء

الزمن الآتي، فمَن هو ذلك النبي الذي ظهر في قريش، فقيرًا يأكل القديد، أتراه قد سلب حقي وسرق مني رسالتي؟

ولا تتوقف الطيور، تخترق قطع السحب المتناثرة، وتقوده خلفها، يشعر بأنفاسه كأنها الحشرجات الأخيرة، صدره مثقل، وقدماه تغوصان في رمال متحركة، وأخيرًا تتوقف فوق تل مرتفع، ترمقانه بعيونهما المستديرة الحادة، هتف:

ـ لبيكما، لبيكما، هأنذا لديكما.

محفوف بالنعم، محوط من الريب.

وظل يتسلق التل حتى تجرحت راحتاه، أصبحت الأحجار تشبه الجماجم، والرمل دم جاف، والطائران خفاشان كبيران يلغان في القاذورات ويرقبانه في تحفز، توقف مشدوهًا ثم هتف في يأس مطبق:

ـ لقد خدعتني السماء.

وأغمي عليه، ظل كذلك حتى عثر عليه بعض الرعاة من قومه، وشاهدوا طائرين أسودين يجثمان على صدره وينقران لحيته.

لم يزل أُمية بن أبي الصلت في الانتظار، منذ أن شب ووعى، رأى الصحراء المترامية تسكنها بطون وقبائل متفرقة لا يحكمها غير قانون الثأر، والأصنام الضخمة تنتصب حول الكعبة، والتجار يستخدمون كل الوسائل من أجل الكسب، والعبيد يذوون تحت شمس الصحراء القاسية تعبًا وعرقًا، وبيوت اللهو تمتلئ بالحالمين التعساء. سافر أُمية شمالًا وجنوبًا، باع وكسب وخسر وعرف، اتسعت حدود العالم وانبسطت اليابسة، شاهد الرهبان في أديرتهم المتناثرة، واليهود في معابدهم، ورأى الأحباش، أتباع سيف بن ذي يزن، يمضون عمرهم

في مضغ القات بعد أن تخلت عنهم هالات المجد القديم، وأحس بنظرات الاحتقار التي يلقيها الفرس والروم على كل جنس العرب، وكبر قليلًا فبدأ يقرأ، قرأ كتبًا لم تقرأها العرب، وعرف نبوءات لم يسمع عنها أحد من قومه، وهيأ نفسه من أجل رسالة كانت جنينًا في بطن الغيب، أدرك أن الأصنام باطلة، والخمر فاسدة، والكون زائل، فلبس السواد وتمسَّح بالزيت، وانتظر.

قال أُمية بن أبي الصلت يحدث صاحبه:

- إن ها هنا راهبًا عالمًا أخبرني أنه تكون بعد عيسى عليه السلام ست رجعات، وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة وأنا أطمع في النبوة وأخاف أن تخطئني.

لم تكن قبيلته من ثقيف إلا حملًا تنوء به أكتافه، يحمل لعنتها وإثمها المتكرر وسط عالم يقيم كل شيء وفقًا لسلسلة طويلة وقاسية من الأنساب، تنحدر ثقيف من إياد، وإياد من ثمود، الذين قتلوا نبي الله صالح وعقروا ناقته، هنالك حديث نبوي يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يحب ثقيفًا، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يبغض الأنصار».

ما من مكان يذهب إليه ثقفي إلا وخرج له من يعايره بثمود، وكلما فاخر العرب بعضهم بعضًا، والمفاخرة هي عدة الأمة العاجزة، عدوا ثقيفًا من غير العرب، وظل رمز عارهم ممثلًا في قبر «أبو رغال» كلما مرت به قافلة أو جماعة رجمته بالحجارة كأنما ترجم ثقيفًا كلها، كان هو جدهم الأكبر وأول ملوكهم، كان ظالمًا، حتى إنه ذبح الماشية التي كانت تمد الأطفال الرُّضع باللبن، وكان دليلًا لجيش أبرهة، بعد

أن رفضت كل القبائل أن تدله على الطريق للكعبة، تطوع أبو رغال ليكون هو دليلهم خلال مسارب الرمال، وكان هلاكه محتمًا فيمن هلك منهم، ودفن في مكان بين مكة والطائف، ومر الرسول بقبره فأمر برجمه فرُجم، فكانت تلك سُنة.

يحس أُمية بوطأة هذه اللعنة في أعماقه، تسرب إليه لاشعوريًّا إحساس الذنب الذي يثقل أفراد قبيلته بالعار، تحولت اللعنة إلى وضع اجتماعي ثابت، لكن تميز عنهم جميعًا بأن رغبة التطهر الحارة كانت تؤرقه، كانت في أعماقه عاطفة جياشة، توق عارم إلى أن يحمل رغبة الخلاص، خلاصه وخلاص قومه، وكان يؤمن أن الرسالة إذا جاءت طائعة إليه سترفع قومه من مرتبة القتلة إلى مرتبة المبشرين. تحول شعوره بالذنب إلى رغبة متطرفة في التفوق، يقولون عن قبيلته: «اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل ثقيف، وأشعر أهل ثقيف أُمية بن أبي الصلت». وبسبب وطأة هذا الشعور ولد الأنبياء المتوهمون مثل أُمية، وخرج القادة القساة المتعطشون للدم مثل الحجاج بن يوسف الثقفي.

بدأ الأمر مثلما تبدأ الأحلام، كان نائمًا وانشق السقف عن طائرين، وقف أحدهما على صدره فشقه، وأخرج قلبه فشقه. قال الطائر الأعلى: «أوعى؟»، فرد الطائر على صدره: «وعى». قال: «أقبل؟»، قال: «أبى». وأسرعا بالتحليق مبتعدين، وجلس أُمية يمسح صدره، قالت ابنته:

ـ يا أبي، هل تجد شيئًا؟

قال:

ـ لا، ولكني أجد حرًّا في صدري.

وفي السماء هوى شهاب قرمزي أمام عينيه فاعتقد أنه النداء الذي ينتظره، وثغت شاة صغيرة فعرف لغتها، وعرف أنها تشم رائحة الذئب، وتنبأ غراب أسحم بموته. سافر مع القوافل شهورًا وسنين، باع الكثير وربح الكثير، لكن النبوة ظلت حلم خلاصه، انتشر شعره الجذل المليء بالألفاظ الغريبة والصور الأشد غرابة، لكن معانيه كانت تدور عن الآخرة والبعث، وتساءل عندما تثاقلت الأيام: متى تجيء الساعة، ويهبط الوحي؟

حدثوه عن راهب يعرف علوم الأولين، ويعرف ميقات نبي الزمان الآتي. وفي إحدى رحلاته ترك القافلة وظل يخب بناقته عبر فيافي موحشة حتى رأى الصومعة الوحيدة والراهب الوحيد، هبط إليه، كأنما كان الراهب ينتظر قدومه، قال له:

ـ يا أُمية إن لك تابعًا لا تراه ولا يفارقك، يسعى دائمًا خلفك.

قال أُمية بفرح حقيقي:

ـ نعم، أحس به منذ كنت صغيرًا، صوته يلاحقني، وحفيف خطاه في أذني.

سأله الراهب:

ـ من أين يأتيك؟

قال أُمية:

ـ من أذني اليسرى.

سأله:

ـ بأي الثياب يأمرك؟

قال:

ـ بالسواد.

سأله:

ـ ما مركزك وسط قومك؟

قال:

ـ أنا سيدهم وأكثرهم مالًا.

قال الراهب بأسف:

ـ لقد كدت أن تكون النبي المنتظر، لكنَّ الآخر يأتيه تابعه من أذنه اليمنى ويأمره بلبس البياض، وهو أفقر قومه وأقلهم مالًا، لكنه أشرفهم نسبًا، أما تابعك فلا أدري من أين جاء، ربما كان من الجن.

ظل أُمية يحدق فيه، لا يستطيع متابعة الكلمات، ينتظر أن يغير الراهب أقواله، يعدلها، ولكنه هتف في حرقة:

ـ ليس أنا، واحد آخر غيري أشد فقرًا وأرفع نسبًا؟!

وظلت ابتسامة الراهب ثابتة، أي أمل أضاع وأي حلم حطَّم، ركب ناقته وواصل سيره للشام، باع واشترى، كسب وخسر، حدث نفسه باطمئنان: لا يوجد مَن هو أحق مني بالرسالة. تطلَّع إلى السماء البعيدة، هناك إله واحد، إله إبراهيم وإسماعيل، الأصنام التي يحملها أصحابه ويتباركون بها باطلة، الخمر التي يقتلون بها الليالي فاسدة، لم يقرب أيًّا من هذه الأشياء، ولم يدنس ثوبه بأي دنس، ظل كما هو، نقيًّا كما الثلج في جبال الشام، صريحًا كشمس الصحراء، عميقًا بعيد الغور كالبحر الممتد! وتساءل بحرقة: كيف يمكن أن يكون النبي فقيرًا، دون حسب يسنده وعشيرة تحميه ومال يغنيه؟

وفي طريق العودة انفصل عن القافلة، وسعى براحلته مرة أخرى عبر الفيافي إلى نفس المكان، وجد الراهب الوحيد والصومعة الوحيدة والابتسامة الثابتة، ترجل عن ناقته وسأله:

ـ متى يظهر آخر الأنبياء؟

قال الراهب على الفور:

ـ يا أُمية لقد تمت الرجعة، واستدار الزمان، وقد بُعث نبي العرب أخيرًا، كل الملائكة تُصلي عليه، وكل نجوم السماء تتألق بدعوته.

توقف أُمية مذهولًا، ضاع عمر الانتظار الطويل، تحولت الأمنيات إلى رماد، وظل طوال سفره وهو يرتعد ويحس الخديعة، راقب الشهب التي تهوي على رؤوس التلال، لم تكن أكثر من أكاذيب، وهذا الحداء الطويل الممتد ليس إلا رثاء لذاته المفجوعة، لم يملك نفسه فأخذ يبكي، وعندما يبكي الرجال في الصحراء فهذا ليس من الأمور الهينة.

وصل إلى بيته، فلزمته الحمى واستبد به الهذيان، لكن الأخبار لاحقته داخل الفراش، دقات طبول منذرة، تدور كلها حول أخبار النبي الجديد ودعوته الجديدة، تتحدث عن فزع السادة وفرح الفقراء والعبيد، كلمات بليغة تسري في القلوب كريح مواتية وحياة متدفقة، لا تأبه بالحصار الذي فرضه قومه عليه، ولكنها دعوة تقاوم الاضطهاد، وتتصدى لكل العادات المتوارثة والعبادات والطقوس القديمة، ولا تعرف الأوضاع الاجتماعية القائمة، وتعلو فوق العصبيات وقوانين الدم وشرائع الصحراء، كانت الدعوة تولد من بين الفقراء والعبيد، وتمس قلوب بعض السادة، ولكنهم مجمعون عليها مثل الجوهرة ومثل جمر النار.

لم يطق أُمية رقدته طويلًا، تسلل من بيته وظل يتسمع إلى الأحاديث الدائرة حتى عرف المكان الذي يجتمع فيه أتباع محمد النبي، اختبأ خلف أحد حواجز الرمال وأخذ يتطلع إليهم، جماعة من الفقراء والعبيد ومعذبي الأرض يجلسون تحت شمس الصحراء القاسية يتدارسون، وجوههم مدبوغة، وأجسادهم نحيلة من فرط دأبها على العمل اليومي، والنبي الجديد جالس في وسطهم وعيونهم مشدودة إليه، عندما يتكلم تتدفق فيهم حياة مختلفة، وتنقلب موازين الكون البالغ القدم. أدرك أُمية لحظتها أن الهواتف التي لاحقته طويلًا كانت خادعة، وأن لبس السواد ومسح الزيت لا يهب خلاصًا، إن هذا الرجل الفقير الجالس وسط دائرة الفقراء وحده يملك القدرة على التغيير لأنه يعرف ماذا يريد أن يُغيِّر.

تطلع أُمية إلى نفسه، كان سيدًا وكانوا بؤساء، كان يحمل جرح اللعنة الذي لا يندمل، وكانوا يحملون خلاص العالم كله، وبدلًا من أن يستعيد توازنه النفسي، أخذ قلبه ينبض بغيظ متأجج: لقد خدعني وأخذ رسالتي، سلب النبوة مني. ومضى في طريقه، يثير الرثاء أكثر مما يثير السخرية، يحس بالعالم وهو يتغير حوله دون أن يملك القدرة على المشاركة، وتساءل في حنق: هل يعتنق الإسلام؟ هل يرضى أن يكون تابعًا بعد أن وهب عمره كله ليكون نبيًّا؟

وزادت وطأة الحمى فأخذ ينادي الطيور التي خدعته، ويلعن الراهب الذي سرق منه البشارة، ومشى يتخبط بين الخيام، يُلقي آخر تعاليمه، ويدعي أن الوحي قد أخطأ طريقه في الهبوط، مجرد خطأ صغير، لكنه قاتل، لكن الأوضاع سوف تتحسن، ها هي تعاليمه، وهذه هي نبوته.

قالوا له:

ـ أسلم، لعل في الإسلام خلاصك.

رد غاضبًا:

ـ أعلم أنه قد دنا أجلي، وهذه المرضة فيها منيتي، ولكن ما زال الشك يداخلني في محمد.

رأى المسلمين يعذَّبون، رآهم يهاجرون بعيدًا عن أراضيهم وديارهم، لكن الرسالة تطوي الصحراء كالسيل، وبقي وحيدًا، نبيًّا بلا ظل.

يقولون إنه بينما كان يشرب من كأس، جاء غراب أسحم ووقف على حافة النافذة، تطلعا لبعضهما ـ أُمية والغراب ـ مليًّا، ثم قال أُمية:

ـ سوف تقع من فوق حافة النافذة، وتموت.

فرد عليه الغراب:

ـ وأنت تشرب من هذه الكأس رشفة واحدة، وتموت.

وقع الغراب من على حافة النافذة فمات، ورشف أُمية آخر شرابه ومات، مضى المتوهم والمنتظر الأعظم.

١١

الحطيئة

شخص بلا ظل

ذهب الحطيئة إلى أمه يسألها عن أبيه الحقيقي.

كان وجهها الذي كان مليحًا قد تغضن، قالت إنها لا تدري، قد تشابهت عليها وجوه الرجال، ولم تعد تُفرق بين الذي وضع بصمته على جسدها، والذي زرع بذرته في رحمها. أوقد الحطيئة نارًا ووضع فوقها قدرًا ممتلئة بالماء، وعندما ارتفع البخار حمل أمه وأقسم أن يلقيها في القدر إن لم تخبره بالحقيقة، ارتعدت الأم، وقالت:

ـ إنهم كثيرون.

قال محنقًا:

ـ كم؟

قالت:

ـ لا أذكر، لكنهم كانوا كصخور الصحراء، أشكالهم مختلفة ولكنهم من نوع الصخر نفسه، من بني ذهل وبني عبس وربما من قبائل أخرى.

في هذه اللحظات من يأبه بعد الوجوه، تركها وجلس مقهورًا، لم تعرف الأم أين أخطأت بالضبط، فقالت تهون عليه:

- لم أضاجع إلا أشرف الناس، أنت بصورة أو بأخرى شريف النسب.

هكذا يمضي ذلك الرجل المفرد، قبيحًا مثل ناقة حرون، بالغ القصر مثل نبات صحراوي، مغمور النسب، لا ظل من شرف يحتمي به، ولا سند يمنع إهدار دمه، يصفه أبو الفرج قائلًا: «كان الحطيئة جشعًا، سؤولًا، ملحفًا، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلًا، قبيح المنظر، رث الهيئة، مغمور النسب، فاسد الدين، وما تشاء أن تقول في شاعر من عيب إلا وجدته، وقلما تجد ذلك في شعره».

كان وحيدًا في مواجهة تقاليد وقوانين ضاربة الجذور، يعيش هو على حافتها، في أطراف المضارب وسط العبيد والرعيان، يقتات على عطايا كرام الناس، أو الذين يخافون لسانه، لا يعشق، لا يتشبب، ولا يتخطى حلمه موطئ قدميه، لا يملك شيئًا إلا لسانه، يهجو إخوته المزعومين من بني ذهل الذين حرموه من ميراث مزعوم، ويهجو أمه التي تزوجت ابن زنا يُدعى «كليب»، ويهجو سادات القبائل الذين أمسكوا أيديهم عنه، ثم يقلب الهجاء مدحًا في نفس واحد حين يأخذ. وعندما ضاقت الدنيا به ذات مرة ولم يجد أحدًا يهجوه، نظر في الماء فرأى وجهه القبيح ولم يتمالك فهجا نفسه:

أَرَى لِي وَجْهًا شَـوَّه اللهُ خَلْقَهُ فقُبِّـحَ مِـنْ وَجْهٍ وقُبِّـح حامِلُه

وعندما جاء الإسلام أسرع بالدخول إليه، يؤرقه حلم المساواة الشامل، لعله يذوب بين جموعه، لكن تفرده الوحشي، وعدم وجود ما يكفيه من عطاء، ما لبث أن جعله ينفر من أن يمضي طائعًا بين جموع الطائعين. وعندما مات النبي الكريم وجاءت ولاية أبي بكر، تحلل من شهادته، وأسقط التزامه، وأعلن ارتداده، فقدت رغبته في الانتساب حرارتها، وعاد لقوافيه الشاردة، يقول القصِيدة فتشرد في كل الأركان، كان إذا غضب على بني عبس هجاهم وقال أنا من بني ذهل، فإذا غضب من بني ذهل هجاهم وقال أنا من بني عبس، ولأن الشعر كان الزاد اليومي فقد توقَّاه الجميع، وحاولوا توقي لسانه الذي لا ينفح إلا شرًّا.

جاء الحطيئة يومًا إلى المدينة، وكانت سنة مجدبة تغمر الصحراء فيها ريح الجوع، رأى الجميع قامته القصيرة وهو يسير أمام ناقته يتفرس في البيوت والمضارب حتى جلس على باب المسجد، فزع أشراف المدينة، مشى بعضهم إلى بعض، قالوا:

ـ هذا الرجل شاعر متربص، يظن بنا السوء فيحقق ظنه بالكلمات، وسيأتي لكل واحد منا ويسأله، فإن أعطاه كفايته، جهد قريحته ومدحه، وإن حرمه هجاه، علينا أن نبادره بالعطاء قبل أن يسبقنا بالهجاء.

اتفق أهل المدينة معًا على أن يجعلوا له شيئًا من المال يجمعونه فيما بينهم، فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون له العشرة

والعشرين والثلاثين دينارًا حتى جمعوا له أربعمائة دينار، وظنوا أن هذا كافٍ، وأعطوها له، فظل صامتًا لبعض الوقت، ولكن حين نفدت النقود ولم يأته العطاء الثاني أخذ يهجوهم وانصرف عنهم.

كان يمقت نفسه، يمقت أمه التي جاءت به سفاحًا، ويمقت كل القبائل التي تعتز بأنسابها وتحفظ تسلسل حلقاتها حتى تصل إلى إسماعيل، ويمقت الذين يعطونه العطايا خوفًا منه، ويمقت المديح الذي يقوله لمن ليس أهلًا له. عاش يجوب الجزيرة كلها مثل وحش الفلاة، والقبائل تردد شعره وتداري خوفها، والشعر الذي لا عيب فيه ـ كما يقول الأقدمون ـ ينتشر، حتى إن أحد الأعراب يروي أنه كان ذات ليلة يسافر عبر الصحراء، فنزل في ضيافة قوم هيئتهم غريبة، قدموا له طعامًا لم يجد أسوأ ولا أثقل منه على معدته، وقال شيخهم لأحد الشبان:

ـ سامر ضيفنا.

فوقف الشاب وأخذ ينشد أشعار الحطيئة كلها، كلما فرغ من قصيدة تلاها بأخرى، ودهش الأعرابي لهذه الذاكرة الحديدية، وسأله عن ذلك فقال الشيخ برصانة:

ـ نحن من الجن، وهذا الفتى أخو الحطيئة في عالم الجن.

أيًّا كان نوع الأخوة، وأيًّا كانت الحكاية، فإن البعض لا يملك إلا أن يربط أشعاره بجن وادي «عبقر». مرة وحيدة تعرض فيها الحطيئة لمأزق حرج بسبب طول لسانه، وكانت هذه المرة مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كان مثل الكثير من الحكام لا يكنُّ احترامًا لهذا النوع من الشعراء، وهو يسمع أعراض المسلمين وهي

تُسب كل يوم ويشهَّر بها، ولعل أنباء ارتداد الحطيئة قد تناهت إليه، وتندره عندما ولي أبو بكر فقال بيتين شهيرين يعلن فيهما تنصله من الإسلام:

أطَعنا رسولَ الله إذ كان بيننا ... فوا عَجَبًا ما بالُ مُلْكِ أبي بكر

أيورِثُها بكرًا إذا مات بعدَهُ ... فتِلكَ لعمْرُ الله قاصمةُ الظَّهر

وكان الحطيئة قد هجا أحد ولاة المسلمين ـ ويُدعى «الزبرقان بن بدر» ـ هجاءً فاحشًا، وسب امرأته وأهله، فجاء الوالي إلى عمر بن الخطاب يشكو، وروى الشعر، استشار عمر من حوله فأقروا شكوى الزبرقان، وكانت حجة مناسبة للقبض على الحطيئة، فقبض عليه ووضعه في بئر عميقة ووضع عليه غطاء ثقيلًا وأقسم أن يريح المسلمين من شر لسانه، وظل الحطيئة حبيس البئر، يقول الأشعار، ويتوسل أن يفرج عمر عنه، وللمرة الأولى عرف اللسان العصي طعم التوسل، جاء عمرو بن العاص يتوسل للخليفة، فقال:

ـ ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يجعل الحطيئة يبكي على مصيره.

أمر الخليفة فأخرجوا الحطيئة من البئر، ووقف أمامه وأمام الجميع مقيدًا منكس الرأس، قال عمر:

ـ عليَّ بالكرسي.

جاءوا بكرسي فجلس عليه في مواجهة الحطيئة وأشار إليه باحتقار:

ـ أشيروا عليَّ في أمر الشاعر، فإنه يقول الهجو، لا يتورع عن الحرام، ويمدح الناس ويذمهم بغير ما فيهم، ما أراني إلا قاطعًا لسانه.

وأمر من حوله:

ـ عليَّ بالطست.

جاءوا به ووضعوه بينهما، قال:

ـ عليَّ بالسكين، لا بل عليَّ بالموسى فهي أسرع.

أمسك الحرس برأس الحطيئة، ضغطوا بأصابعهم على وجنتيه حتى انفتح فمه رغمًا عنه وسال لعابه وتدلى اللسان الذي قال عشرات الأبيات مدحًا وهجاء وتشفيًا، لكن عبد الرحمن بن عوف وقف بين الموسى واللسان المتدلي وهتف:

ـ يا عمر، سوف تكون سُنة تتداول من بعدك، كلما قال أحدهم شعرًا قطع السلطان لسانه.

وتوقف عمر، خفتَ صوت الحاكم القوي، والموقف الذليل الذي عاشه الشاعر أقسى من أن يحتمل، ولو أن عمر فعلها، لكانت ألسنتنا كلها مقطوعة لأوهى الأسباب!

قال عمر مهددًا:

ـ إياك وهجاء الناس.

قال الحطيئة وقد اقترب من النجاة:

ـ إذن يموت عيالي جوعًا، هذا مكسبي، ومنه معاشي.

قال عمر:

ـ فإياك والمقذع من القول.

قال:

ـ وما المقذع؟

قال عمر:

- أن تخاير بين الناس فتقول: فلانٌ خير من فلان، وآل فلان خير من آل فلان.

قال الحطيئة وقد بدأ يستعيد وقاحته:

- فأنت والله أهجى مني.

قال عمر مغتاظًا:

- والله لولا أن تكون سُنة لقطعت لسانك ولكن اذهب، فأنت له، خذه يا زبرقان.

ووضعوا العمامة حول رقبته وسحبوه منها، وظلت الوفود الحاضرة تتبادل السخرية به، حتى تركوه أخيرًا في الصحراء، المكان الوحيد الذي كان يشعر فيه بالأمان.

وبالرغم من أن عمر بن الخطاب قد استرضاه بعد ذلك، وأراد أن يؤكد عليه الحجة فاشترى منه أعراض المسلمين جميعًا بثلاثة آلاف درهم، إلا أن هذا الحادث ترك في نفسه أثرًا عميقًا، وزادت درجة توحشه، وازدادت درجة تباعده عن الإسلام، لعله وجد السبب الذي ينشده، كان يأخذ زوجته وابنته ويطوف أحياء العرب، ويجلس في أطرافها، ويطلب ألا يكلمه أحد، ولا يزوره أحد، ولا يتشبب أحد ببناته، وكلما ذُكر عمر ارتعدت مفاصله حتى بعد أن مات الخليفة. وازدادت أيضًا درجة بخله وأصبح يفزع من استقبال الضيوف. وأخذ يتندر على سذاجة حاتم الطائي الذي قاده الكرم الأحمق إلى الإفلاس حتى أوشك أن يذبح ابنه ذات ليلة. ورأى جثة أمه وهي ميتة، متيبسة الأعضاء، تساءل: كيف يمكن أن تضاجع هذه المرأة أشراف القبائل؟ وكيف يمكن أن يكون هو سليلهم؟ كانوا يسألونه عن شعره فيقول:

ـ إني أعوي في أثر القوافي عواء الفصيل الصادي.

ويقول القدامى كعادتهم عندما يطلقون الأحكام القاطعة: لم تقل العرب بيتًا أصدق من قول الحطيئة:

مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يعدَمْ جَوَازِيَه　　لا يَذْهَبُ العُرفُ بينَ الله والنَّاسِ

ويروون أن أحد أحبار اليهودية كان يستمع إلى الشعر، فلما ذُكر أمامه هذا البيت هتف مدهوشًا: «والذي نفسي بيده، إن هذا البيت لمكتوب في التوراة».

وعندما جاءت النهاية كان قد أصبح شيخًا محطمًا، لم يبق فيه نشطٌ إلا لسانه، اجتمع قومه حوله، قالوا:

ـ يا أبا مليكة (ومليكة هو اسم ابنته)، أوصِ.

قال:

ـ ويلٌ للشعر من رواية السوء.

قالوا:

ـ أوصِ رحمك الله يا حطيئة.

قال:

ـ أبلغوا غطفان أن الشماخ شاعرهم هو أشعر العرب إذ يقول:

إذا أنبَض الرَّامون عنها تَرَنَّمَتْ　　ترنُّـمَ ثَكْلَى أوجعَتْهـا الجنائزُ

قالوا:

ـ ويحك! أهذه وصية؟! أوصِ بما ينفعك.

قال:

ـ أبلغوا أهل ضابئ أنه شاعر، حيث يقول:

لِـكلِّ جَديـدٍ لـذَّةٌ غيـرَ أنني   رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذ

قالوا:

ـ أوصِ ويحك بما ينفعك.

قال:

ـ أبلغوا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب، حيث يقولِ:

فَيَـا لَكَ مـن لَيْـلٍ كأنَّ نجومَهُ   بكلِّ مُغَارِ الفَتْل شُـدَّتْ بِيَذْبُلِ

قالوا:

ـ اتق الله، ودع عنك هذا، هذا لا يُغني عنك شيئًا.

لكنه أخذ يتمتم بصوته الأجش:

الشِّـعْرُ صَعْبٌ وطويلٌ سُـلَّمُه   إذا ارتقَـى فيه الـذي لا يَعْلَمُه

قالوا:

ـ يا أبا مليكة، ألك حاجة؟

قال:

ـ لا والله، ولكن أجزع على المديح الجيد يُمدح به من ليس له أهلًا.

قالوا:

ـ فمن أشعر الناس؟

أشار إلى فمه وأخرج لسانه وقال:

ـ هذا إذا طمع في شيء، أو إذا استعبر باكيًا.

قالوا:

ـ قل «لا إله إلا الله».

فأشاح بوجهه.

قالوا:

ـ ما تقول في عبيدك؟

قال:

ـ كنت عبدًا لكل الناس حتى أصبحوا هم عبيدي، هم أقنان، ما تعاقب الليل والنهار.

قالوا:

ـ فأوصِ للفقراء بشيء.

قال:

ـ أوصيهم بالإلحاح في السؤال، فإنها تجارة لا تبور، فلن يجيدوا لغة سوى الاستجداء، ولا فعلًا سوى التوسل.

قالوا:

ـ فما تقول في مالك؟

قال:

ـ للأنثى من ولدي مثل حظ الذكر.

قالوا:

ـ ليس هكذا قضى الله جل وعز لهنَّ.

قال:

ـ ولكن هكذا قضيت، فلتأخذ المرأة نصيبها قبل أن يلتهم حصتها ذئاب الرجال.

قالوا:

ـ فما توصي لليتامى؟

قال:

ـ كلوا أموالهم، وانكحوا أمهاتهم، لقد سُلط الموت عليهم فلا جدوى أن نرحم من اضطهدته السماء.

قالوا:

ـ فهل شيء تعهد فيه غير ذلك؟

قال:

ـ تحملونني على أتان، وتتركونني أركبها حتى أموت، فإن الكريم لا يموت على فراشه، والأتان مركب لم يمت عليه كريم قَطُّ.

كانت النهاية مضحكة بعض الشيء، حملوه على أنثى الحمار، وجعلوا يطوفون بين مضارب الحي، يتبعه سرب من الأطفال الصائحين والشيوخ الذين يؤكدون أنها علامة الساعة. واختبأت النسوة الحوامل حتى لا تنطبع صورته البشعة في أذهانهن، وظل هو يهرف بكل الأشعار التي قالها والتي حفظها حتى مات.



أبو الفرج يرحل إلى أرض تميم

ناديت عليك يا تميم في الآبار القديمة، دون صدى، الربع خالٍ، والأحياء دارسة، والصحراء صامتة، وإعجابي تخالطه كراهية لكم تملأ قلبي، إنني تائه يا بني يربوع، ضائع يا بني دارم، غريب يا حنظلة، فقدت هويتي عند أول بئر مالحة، ولم يزدني السفر إلا عطشًا، والطواف إلا تيهًا، حاولت كسب ولائكم فخرجت معكم في الغارات، قاتلت ولم أقع في الأسر، قسمتم الأسهم وعندما حان وقت الغنائم ضاع نصيبي، شعرت بحزن يعتصر قلبي حين ذهبت إلى «الوقيط» فوجدت فرسان بكر يسلبون جثث قتلاكم، وفي «جدود» لم أجد إلا الطيور السوداء وقد أتخمها اللحم الميت، وفي «أياد» كانت كل الينابيع ملوثة، وفي «قشاوة»، «والوقبي»، «والشباك».

أحسست أني أكرهكم، لقد حوَّلتم الربوع إلى مواقع للقتال، وعيون الماء إلى مخابئ، وهمسات العشاق إلى صيحات إنذار، فماذا يبقى منكم في الرمال بعد عشرات السنين؟ وهل انبثق هذا

النفط الأسود اللزج إلا من عظام موتاكم ونخاع أعدائكم؟ فلماذا لا تظهرون وتنحدرون نحوي كالسيل، تأخذون بمشورة أكبركم وتأتمرون بأمر أصغركم، تحاصرونني وتجلدونني، وتطلبون فديتي من حشاش الأرض؟!

تميم من مضر، ومضر من نزار، ونزار من عدنان، تناسل الآباء، وتصارع الأبناء، وتفرقت القبائل مع التضاريس، كانت تميم ثلث العرب، وجهها شطر الصحراء وظهرها للخليج، أمامها قبائل ربيعة، بكر وتغلب وشيبان، وخلفها بضعة من فقراء الصيادين.

كل صعاليك العرب قابلوني، وسألوني في دهشة:

ـ ولماذا تميم وأنت تكرههم؟

قلت:

ـ لأنهم يتحركون خارج المثالية التي يضفيها التاريخ على الأقوام الغابرين، يحملون أخطاءهم الإنسانية كما يجمعون مضاربهم، ويخلعون أوتادهم ويرحلون، يدخلون المعارك دون مبرر واضح فينتصرون انتصارات خاطفة، وينهزمون هزائم مريرة.

قال لي الشيوخ العجائز:

ـ إذا أردت الوصول لدرب تميم فعليك التوجه إلى مغارات الملح.

قلت في دهشة:

ـ مغارات من الملح في وسط الصحراء؟

قالوا وهم يعبثون في لحاهم:

ـ مع تميم عليك أن تتوقع أي شيء.

كنت أعرف أنه مع تميم عليك أن تتوقع أي شيء، عندما شعروا

بالضعف وقرروا أن يدخلوا الإسلام، وتوجهوا إلى يثرب، قال كبيرهم:

ـ إذا دخلنا الإسلام حرم علينا الغزو، فماذا لو قمنا بغزوتنا الأخيرة ونحن في الطريق قبل أن نعلن توبتنا؟

وكانت هذه إحدى الأفكار الجيدة. وفي الطريق شاهدوا إحدى القبائل الغافلة فقاموا بغزوها على الفور، وقسموا الغنائم بينهم قبل أن يجلسوا بين يدي الرسول الكريم، سعداء وشبعى، وأعلنوا إسلامهم بين يديه وهم يتنهدون في راحة.

مع تميم عليك أن تتوقع كل شيء، حين انقسم المسلمون وبدأوا عصر الفتنة مبكرًا، تقابل جمع من جنود الخليفة الأُموي مع خصومهم من الخوارج، وظلوا يتقاتلون النهار بأكمله، وأطبق عليهم ظلام الموت، والسيوف ما زالت تصطك، وقالت فئة منهم:

ـ ويلكم، أما تملون القتال؟

قالوا:

ـ كلا حتى تملوا أنتم.

وسألوهم:

ـ من أين أنتم؟

قالوا:

ـ من تميم.

وقال الجمع الآخر:

ـ ونحن أيضًا من تميم.

وتواصل القتال.

مع تميم عليك أن تتوقع كل شيء، يقاتلون في غير زمن القتال، ويهاجمون بسبب نزوة عابرة، يهزمون قبائل مجتمعة، ولكنهم ينهزمون شر هزيمة أمام بطن واحد من بطون العرب، وهم وحدهم منذ أن توالى ظهور الرسل والأنبياء الذين أخرجوا نبيًّا أنثى، عندما جاءت «سجاح بنت الحارث» تباهوا بها، كانت تقول لهم: «إنما أنا امرأة من بني يربوع، وإن كان لي ملك فالملك ملككم». وكان كل واحد من تميم يعتقد أنه ملك في المنفى، وتبعوا سجاحًا دون وعي، لم يأبه أحد بأنها كانت في كل ليلة تختار من أتباعها رجلًا يرافقها إلى فراشها، كان النبي الحقيقي قد مات، وأخرجت كل قبيلة نبيها الخاص، ولن يضر الدعوة أن يكون لها نزواتها الخاصة، ولكن المتنبية ـ المرأة ـ خذلتهم عند أول منعطف، تقابلت مع مسيلمة الكذاب وقال لها:

ـ أتزوجك فآكل بقومي وقومك العرب.

فتزوجته لأسباب بعيدة عن النبوة، وكان صداقها أن رفع صلاة العشاء وصلاة الفجر عن كاهل قومها. وجاءت جيوش ابن الوليد واجتاحت كل شيء، ومع تميم تتوقع كل شيء.

بدأت رحلتي إلى مغارات الملح، لعل أحدًا يدلني إليهم، اشتعل الدم في عروقي وأنا أواصل الليل بالنهار، كنت لا أتلفت خلفي حتى تتم سفرتي، في الصحراء لا يلتفت إلا العاشق حتى يعود، أفعل كل ما يفعله التائه، أقلب ثيابي وأصيح في أذن ناقتي، وأصفق، وأهتف: «النجاة، النجاة! الساعة، الساعة!»، لعلي أنجو من مفازات الصحراء، أعوذ بكل أصحاب الوديان، وكل ساكني الهضاب، وأشعل نارًا لأترك ذكرى.

وفي النهاية وصلت إلى مغارات الملح، تركت ناقتي وقناعي وسيفي الصدئ في الخارج، ودخلت، لم أُلق سلامًا، ولم أتل تعويذة، وحاصرتني أعمدة الملح، كنت محملًا بصهد الصحراء، وببعض من شمسها، والمغارات مليئة برطوبة الزمن المتحجر، هتفت: «يا تميم»، ثلاث مرات، في الأولى جاوبني الصدى كالبكاء، وفي الثانية عوت كل حيوانات البرية، وفي الثالثة ظهر الفرزدق، قبيح الوجه كما هو، شاحبًا كما لم يكن من قبل، عباءته الدقيقة مغطاة بالملح والتراب، قال في هدوء كأنما كان يتوقع مجيئي:

ـ أنا دليلك إلى مضارب تميم، قبيلتي وموطني ولكنها منفى للبدن والروح.

سرت وراءه صامتًا، أخذني إلى خيام الملح، وأشخاص مكونين من بلورات دقيقة، وأشياء كثيرة تصبح هشة حين تُلمس. أشار الفرزدق بيده إلى جسد امرأة ممدد أمامنا، ذراعاها متقاطعان فوق صدرها، والملح يحيط بها من كل جانب كأنه كفن رمادي رقيق، وقال في صوت متهدج:

ـ هذه هي «النوار»، زوجتي وابنة عمي المسكينة، تزوجتها رغمًا عنها، ولم تكتشف بشاعة وجهي ووضاعة لساني إلا ليلة عُرسنا، هربت مني قبل أن أضاجعها ولو لمرة واحدة، أخذت أطاردها من مكان لآخر، وكل قبيلة جرؤت على إيوائها هجوتها أشنع الهجاء، حاربت العرب كلهم بلساني فلم تجد ملجأ إلا العودة إلى بيتي، ولكن الموت أسرع إليها وأجارها مني، لم يرهبه هجائي، ولم يستهوه مديحي.

سرت خلفه صامتًا، لم يكن يبدو نادمًا، كان تميميًّا قحًّا، وغدًا حتى النخاع. أشار إلى رجل آخر نائم في غلالة الملح الرمادية وقال في همس خائف:

ـ وهذا قطري بن الفجاءة، من الأفضل ألا نتكلم عليه وإلا هدم الخليفة المغارات فوق رؤوسنا، أنت تعرف أنه ثار على الخليفة الأُموي يزيد بن معاوية ونصب من نفسه خليفة، وظل الناس ينادونه كذلك لمدة أربعة عشر عامًا، لم تقدر جيوش الحجاج على هزيمته، هزمه فرسه النعامة حين أسقطه من فوقه فدُق عنقه.

بدأت أشك في نواياه، لماذا كان هو التميمي الوحيد الذي بقي حيًّا؟ وكيف قاوم الملح والرطوبة؟ أشار إلى رجل آخر مفتوح العينين ينظر إلينا في حنق، قال متوجعًا:

ـ وهذا جرير، عدوي وتوأم روحي، تهاجينا بعضنا ضد بعض لمدة أربعين عامًا، ولكن في الحقيقة كنا نلتقي خلسة بعيدًا عن الجميع نشرب الراح معًا ونتناشد الأشعار، فإذا افترقنا تهاجينا وتناقضنا، كان هذا العداء هو مصدر رزقنا، لو أننا تصالحنا لما ظفرنا بشيء، لا من العامة ولا من السلطان.

لم يخدعني صوته المتهدج، كنت أحس بتميم وهي تنتفض، تحتج على هذا التقدم الرسمي الباهت، تملأ المغارات بضجيجها وعنفها وأخطائها البشرية، وتصنع من كل هذا شمسًا صغيرة باهتة.

جاء عمرو بن يربوع، حكى لي قصة زواجه، كان يتجول في وادي «عبقر» ذات يوم وتقابل مع أنثى الغول، ظلا يتصارعان دون أن يقدر أحدهما على هزيمة الآخر، وفي إحدى جولات النزال، وجد

نفسه فوقها بكامل جسده، أو ربما هي التي كانت الأعلى، الأمر كان ملتبسًا، لكن أحدًا منهما لم يغادر موقعه، تزوجا وكان سعيدًا معها، وكانت هي لا تخشى شيئًا إلا برق السماء، كانت تتحسب لعواصف البرق وتختبئ في خيمتها، ولكنها ذات ليلة أطاحت الريح بخيمتها، وفاجأها البرق وهي في العراء، فصرخت، وفرت هاربة في عرض الصحراء ولم يرها بعد ذلك. كان يتحدث عن جمالها الوحشي، وعشقها المليء بالشراسة.

وجاء بشارة العنبري، وكان أعور، ولكن عينه الواحدة كانت أكثر حدة منهم جميعًا، جاء لقومه ليحذرهم من هجوم قبائل ربيعة فلم يصدقوه وخرقوا عينه الأخرى.

ونهنه متمم بن نويرة يبكي أخاه مالكًا، إن الشجا يبعث الشجا، والعالم كله مغارة ملح واسعة، كان مالك سيدًا سمحًا كريمًا، وفي زمن الردة وقع أسيرًا في يد خالد بن الوليد، وحدث الخطأ المأساوي وقُتل مالك، وزادت فداحة الخطأ عندما تزوج ابن الوليد زوجة المقتول حتى قبل أن تُكمل عدتها.

كانت تميم تنهض، خيولهم تصهل، يستعدون لبعث جديد ولغزوة جديدة، وصدى الطبول يتردد عبر المغارات الموحشة يختلط بأصوات الملح وهم ينفضونه من على ثيابهم، وجاء إليَّ «خيبري بن عبادة»، امتشق حسامه وهتف بي في حدة:

ـ هل تذهب معنا إلى «المشقر»؟

لم أُجب، ولكن أصواتهم ارتفعت تهدر، انتقلوا من الصمت إلى الغضب في سرعة تميمية هائلة، استفزتهم صرخة الحرب وهتفوا جميعًا:

ـ هيا إلى المشقر سوف نبدأ من هناك!

على شاطئ الخليج ينتصب حصن المشقر، بلا شموخ ولا وقار، حصن بدائي من ترسبات البحر والمحار الفارغ والطحالب الصلبة والصخور الجيرية، بابه الخشبي عليه سلسلة حديدية صدئة، والحصن كله مترب، فيه عفونة دائمة تنبعث من سردابه الممتد الذي لا يخلو من القتل أبدًا، وكان «المكعبر» عامل كسرى على البحرين والشاطئ الشرقي للخليج قد آل على نفسه ألا يدع من تميم عينًا تطرف ولا نَفَسًا يتردد، وجلس ينتظر مقدمهم في عرض الصحراء حتى يوقع بهم.

وكان «هوذة» ـ عامل كسرى على اليمامة ـ ينتظر قدوم القافلة السنوية التي يرسلها كسرى أنو شروان إلى اليمن تحمل الأسلحة والأوامر الجديدة إلى حكام المقاطعات والحامية الفارسية التي تحكم جبال اليمن الوعرة، وكان خط سير القافلة السنوية لا يتغير، تخرج من المدائن في حراسة الأساورة حتى الحيرة، ويرسلها الملك النعمان بن المنذر في حراسة جنوده حتى تصل إلى اليمامة، فيحرسها هوذة وجنوده حتى تخرج إلى أرض تميم التي تتولى حراستها حتى حدود اليمن، ولأن تميمًا لا تدين بالولاء إلا لتميم، فهي لا بد أن تقبض ثمن هذه الحراسة.

ولكن هوذة لم ينس قَطُّ أنهم قتلوا أباه، وأنه ما زال عاجزًا عن أن يدرك ثأره، وعندما وصلت القافلة تحمل الطعام والمال ثمنًا لخفارة تميم، قال للأكاسرة:

ـ انظروا الثمن الذي تدفعونه لتميم فأعطوني إياه وأنا أكفيكم أمرهم وأسير بها معكم حتى تبلغوا مأمنكم.

وافقه الأكاسرة، وجمع هوذة فرسانه، ورفع الأعلام الفارسية، وسار حتى آخر أودية اليمامة، ثم توغلوا في أرض تميم، ولكن الأنباء سبقتهم، حملتها ريح الصحراء إلى تميم المترقبة، أن يُمنعوا من خفارة القافلة حتى اليمن فهذه إهانة، وأن تُمنع عنهم الأموال التي أرسلها كسرى فذاك شيء لا يرده إلا الدم.

وهجمت تميم في غضبتها العارمة، ضربت الأكاسرة، وقتلت الحرس، وسلبت العير، وأخذت هوذة أسيرًا، وكان قائد تميم هو أكثم بن صيفي الأسدي بسنواته التسعين، ووجهه المتغضن المليء بالجروح، جالس وسط المضارب يتطلع إلى أسيره هوذة وهو يقول له:

ـ أكنت تحسب أنك تفلت بها، أتأخذ أجر خفارتنا، وتتوغل في أرضنا، لا يعوض هذا الأمر إلا حياتك.

ارتعد هوذة، أدرك أنه سوف يلقى مصير أبيه، قال:

ـ فإن شئت افتديت نفسي وعوضت خسارتكم.

قال أكثم:

ـ ليس أقل من ثلاثمائة بعير.

ولم يكن أمامه إلا أن يوافق، سار هوذة وسط فرسان تميم إلى هجر، ذليلًا، حوله بضع من الأكاسرة، مهزومين ممزقي الثياب، وأخذت تميم كل ما في مراعيه من إبل، كانت ثلاثمائة ينقصون ثلاثة، ثم انطلق هوذة إلى المدائن مع الباقين ممن نجوا، راح كسرى يتميز غضبًا وهو يتأمل وجوههم المهزومة، قال لهوذة:

ـ كم ولدًا لك؟

قال:

ـ عشرة.

قال كسرى:

ـ فأيهم أحب إليك؟

قال:

ـ غائبهم حتى يقدم، وصغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ.

قال كسرى في سخرية:

ـ الذي أخرج عنك هذا العقل أعجزك حتى طلبت مني الوسيلة، هؤلاء الذين قتلوا أكاسرتي وأخذوا مالي، هل بينك وبينهم صلح؟

قال هوذة:

ـ بيني وبينهم حساء الموت، قتلوا أبي، واقتادوني ذليلًا إلى بلدي.

قال كسرى:

ـ كيف لي بهم؟

ـ إن أرضهم وعرة مجدبة لا تطيقها أكاسرتك، وهم يمتنعون بها، ولكن احجب عنهم الميرة التي ترسلها إليهم، فإذا فعلت ذلك بهم سنة، أرسلت معي جندًا من أكاسرتك فأقيم لهم السوق، فإذا أتوها أصابتهم خيلك وتمكنت من رقابهم.

كانت السنة مجدبة، والمراعي مقفرة، والماشية هزيلة، والغارات لا تؤتي أكلها، وأدركت تميم خطأها عندما منع كسرى الميرة عنها، لم يعد هناك أمل في أي مساعدة أو طعام إلا أن تكون ذاكرة كسرى ضعيفة فينسى ويغفر ويرسل الميرة، لكن الذي جاء هو هوذة ومعه

ألف من الأكاسرة، ذهبوا إلى المشقر، ونودي في الأسواق والبطون والمضارب:

ـ إن كسرى قد بلغه ماذا أصابكم في هذه السنة، وقد أمر لكم بميرة وافرة، فتعالوا وامتاروا.

وصدَّقت تميم دعوته لأنها كانت تريد أن تصدق، أنساها الجدب حذرها التقليدي، هرعوا جوعى إلى المشقر ووقفوا أمام بابه المغلق، وجاءت لهم الأوامر من الحرس، عليهم ألا يدخلوا إلا فرادى؛ واحدًا خلف الآخر، وفُتح الباب فتحة ضيقة فدخل أولهم، ثم فُتح من جديد ودخل الثاني، وفي الجو رائحة غريبة، خليط من سخونة الخليج وقيظ الصحراء، ودخل ثالث، لم يبق إلا الإحساس بالجوع، والخوف من فصل مجدب آخر، ودخل رابع، وخامس، وسادس، ولم يعد هناك من يحصي، والإبل تثغو في ضعف، ما أغرب ذلك الشبع الذي يجعلهم يدخلون ولا يخرجون، وآخر، وآخر... كان خيبري بن عبادة يتأمل ما بقي حوله من جوعى تميم، يدخلون ولا يخرجون، تأمل الشيوخ والأطفال، يدخلون ولا يخرجون، صرخ:

ـ ويلكم، أين عقولكم، فوالله ما بعد النهب إلا القتل.

جرى ناحية الباب، وامتدت يد أحد الحرس تحاول أن تمنعه، لكنه هوى بالسيف فقطع يد الحارس وقطع السلسلة التي على الباب، فإذا البقية من تميم رؤوس مبتورة، ودم سائل على الأرض، وذبيحة مخدوعة، وإذا هوذة قد أدرك ثأره غالبًا، وصرخ خيبري:

ـ يا لتميم، الفرار، الفرار.

إلى أين؟

من الجحيم إلى الجحيم، من المشقر المليء بالجثث، إلى المضارب المليئة بالأرامل والثكالى، إلى الصحراء وقبائلها المعادية، إلى أين؟

وفي أول ليلة من ليالي الحزن جلسوا وسط المضارب الخالية، بلا فرسان ولا أزواج ولا إخوة، وجلس حكماء تميم السبعة، وجلس أكثم بن صيفي وسطهم محطمًا، محني الظهر، قال:

ـ أوقع بنا كسرى وأوهن قوانا، وإن الناس قد بلغهم ما لقينا، وأخاف أن يطمعوا فينا، وإني قد قاربت المائة، وقلبي بعض من جسدي، نحل كما نحل جسدي، وبعد اليوم لن نقدر على الغزو، ولن يخرج للرعي إلا الفتيان، فليعرض كل واحد رأيه فإني متى أسمع الحزم أعرفه.

كانوا بقايا حطام، يهذون بلا جدوى، وأكثم صامت، حتى قال النعمان بن جسَّاس:

ـ لننظر إلى موقع آخر، أي ماء نرحل إليه ونجتمع حوله، على ألا يعلم الناس أين نحن حتى نقوى ونشتد ونضمد جروحنا.

وافق أكثم، رحيل شامل لكل ما بقي من القبيلة، لا يبقى إلا الطلل الخالي. رحلوا إلى ماء يقال له «الكلاب» يحميه جبل عالٍ، ويفصلهم عن بقية القبائل المعادية، فيه مغارات موحشة يستطيعون اللجوء إليها، حطوا رحالهم، والتفوا حول بعضهم، وتناسوا الخلافات القديمة والتفاخر الأحمق بالأنساب، وكان في «الكلاب» نوع من العزاء لكل الأرامل والثكالى، وهدأ الزمان قليلًا وهدأت حدة القيظ.

ومر بهم مسافر من مذحج، أثارته رؤية الفتيات اللاتي يقمن

بالرعي، والإبل التي بدأت تسترد قواها، وانطلق من فوره إلى قبيلته وهتف بهم:

ـ هل لكم في جارية عذراء ومهرةٍ شوهاء وبكرة خمراء، تلكم تميم، ضعفاء مطروحين على ماء «الكلاب».

كانت القبائل التي قد أنهكها البحث عن تميم قد وجدوهم أخيرًا، ضعفاء كما لم يكونوا من قبل. وسارت الرسل من مذحج إلى قضاعة إلى بقية القبائل المتحالفة، صاح كاهنهم:

ـ لا تغزوهم، فأشرس الحيوانات هو الجريح منها.

ولم يستمع إليه أحد، لا أحد يبالي بالنبوءات عندما تتعارض مع المصالح، وهذه تميم، مهيضة، مكلومة، فرصة لن تتكرر لاقتناصها.

خرج أربعة من قادة القبائل اليمنية، كل قائد معه ألفان من الفرسان، ثمانية آلاف مجتمعة، ومعهم عبد يغوث، شاعر بني الحارث وفارسهم، كأنه جيش وحده، وساروا جميعًا يبغون البقية الباقية من تميم، ساروا حتى بدت طلائع الجيش ظاهرة على التلال، فزعت تميم، لم ترَ من قبل تجمعًا بهذه الضخامة، كان أكثم بن صيفي يحتضر، وتلفتت تميم فلم تجد غيره، هرعوا إليه:

ـ أنقذنا مما يحيق بنا، فإنا قد رضيناك رئيسًا.

قال وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة:

ـ لا حاجة لي في الرياسة فإن الموت في انتظاري، ولكني أشير عليكم: لتنزل حنظلة بالدهناء، وسعد ورباب بالكلاب، فأي الطريقين أخذ القوم كفى أحدهما صاحبه.

وأخذ يقول لهم وصاياه الأخيرة:

ـ أقلوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل، تثبتوا يا قوم فإن أحزم الفريقين الركين، تآزروا للحرب، واجعلوا الليل درعًا لكم فإنه أخفى للويل، البسوا جلود النمور فإنها تُخفي ضعف القلوب، واعلموا أن الثبات في الحرب أفضل من القوة، وأهنأ ما تظفر به هو كثرة الأسرى، وخير الغنيمة المال، ولا ترهبوا الموت عند الحرب، فإن الموت من ورائكم، وحب الحياة لدى الحرب زلل، ومن خير أمرائكم النعمان بن جسَّاس.

وتقدم النعمان ليمسك يد أكثم ولكنها سقطت من يده، باردة ميتة، لم يكن هناك وقت للرثاء، ومذحج وقضاعة وأحلافهما قد حاصروا الجبل، واستولوا على الإبل والماشية وأسروا الفتيات، وبدت المعركة محسومة مقدمًا، ونزلت حنظلة إلى الدهناء، وتوجهت سعد ناحية الماء، وقال ضمرة أحد زعماء بني مذحج وهم يقومون بالإغارة على تميم:

ـ وأنتم تستاقون الإبل، انظروا إلى بني تميم، فإن أتت الخيل عصبًا عصبًا وتأخرت الأولى حتى تلحق بها الأخرى فإن أمر القوم هين، وإن لحق بكم القوم فلم ينظروا إليكم، ولكن يريدون الإبل ولا ينتظر بعضهم بعضًا فإن أمر القوم شديد.

وانحدرت تميم نحوهم، اكتسبت من اندفاعها سرعة السهم وحدَّته، اخترقوا مذحجًا وصفوفها دون أن ينتظر أيٌّ منهم الآخر، وصلوا إلى الإبل، وكل واحد يحارب كأنها معركته وحده في مواجهة كل القبائل، وصرخ النعمان بن جسَّاس:

ـ يا لتميم، لا تقتلوا إلا فارسًا فإن الرجالة لكم.

ولكنه قتل في نهاية اليوم، وانسحبت تميم وباتوا طوال الليل يحرسون بعضهم بعضًا، وفي الصباح عاودوا الهجوم، أطاروا رؤوس الفرسان من على خيولهم، وتركوا الرجالة ضائعين في الصحراء، تناثرت مذحج كالهباء، وفوجئت تميم بنفسها وهي تنتصر، حتى عبد يغوث سقط أسيرًا في يد فتى صغير من بني عميرة، ما لبث أن اقتاده مسرورًا إلى أمه، فرأت الأسير عظيمًا جميلًا، فسألته:

ـ من أنت؟

قال عبد يغوث في خجل:

ـ أنا سيد القوم.

ضحكت الأم وهي تقول:

ـ قبَّحك الله من سيد قوم حتى أسرك هذا الأهوج.

وتواصل القتال، كانت تميم يتضاعف عددها، كأن كل حواملها يلدن ويدفعن بأطفالهن إلى المعركة، فيكبرون وينضجون ويتشحون بدم القتلى، وصرخ عبد يغوث متوسلًا:

ـ يا بني تميم، اقتلوني قتلة كريمة، اسقوني خمرًا ودعوني أنوح على نفسي.

وضعوا أمامه دنان الخمر، وقطعوا عرقه الأكحل، وهو وريد في وسط الذراع، وتركوه ينزف ويموت ويرثي نفسه:

ألا لا تلوماني كفى اللومَ ما بيا   فما لكما في اللوم نفعٌ ولا ليا

كانت تميم تنتصر، انتصارًا رائعًا وغريبًا، والملح يذوب في مغارات الملح، وعبد يغوث يموت، وفلول مذحج تنسحب، واكتشفت أنني أعشق تميمًا، قنعت من رحلتي بالعشق حتى يبرئني

من ذنب الكراهية، لا أبالي إن هزمتهم بطون عامر، أو شردت خيامهم حرب الردة، لا أبالي بأخطائهم وضعفهم الإنساني وكراهية المؤرخين لهم، الطبري والأصفهاني وابن الأثير والمسعودي، فأنا أعشقهم، أعشق أخطاءهم الرائعة، وكثرة الثوار والمتمردين منهم، وثورتهم على أكفان الملح وكراسي الحكم، واستفزاز الرواة ومنتحلي الأشعار، أعشقهم برغم حصار التاريخ الرسمي، ولا أتوقف عن السفر إلى أرض تميم.

١٣

نائلة

إنهم يقتلون الإمام

قال لها أبوها قبل لحظة الرحيل:

ـ تكحلي وتطيبي بالماء، كأن زينتك هي الليل، وكأن عطرك هو النهار.

صرخ حادي القافلة بالعير أن تنهض، وبالخيل أن تصهل، وبالرماح أن تشرئب، ضم حضن الصحراء «نائلة»، فأدركت كم هي غريبة، تهتز صعودًا مع حركة الناقة كأنما الصخر يتنفس، كان المطر يقطر دمًا، والمكاحل نصال سكاكين، والقافلة ترتحل من الشمال للجنوب، تطلعت خلفها فلم تجد إلا أرضًا قاحلة، تنهدت:

ـ ما أبعد الشقة بين الثلج والرماد!

القمر رغيف يابس، الأحلام شذرات من مخاوف، الأيام والشهور الصحراوية متشابهة، للماء ملوحة الرمل، وللريح نذير الموت، حتى الكوفة أصبحت حلمًا شاحبًا من أحلام الطفولة، وعندما أشرقت الشمس هتف الغلمان والجواري:

ـ بشراك، بشراك، ستكونين زوجة الخليفة الجديدة.

بدت مدينة الرسول المنورة على حافة الأفق، قمم من النخل الأخضر، كلمة عذبة لا يمل من سماعها، فكرت نائلة: هذا هو موطني الجديد، ريح رخية، وعقود تنفرط من الطيور البيضاء كأنها ليست في الصحراء، وكأن هذا السلام السماوي لم يُقدَّر إلا لهذه البقعة الصغيرة وسط الجبال المتجهمة. خيم الصمت على كل مَن في القافلة، تناهت همهمات الناس والأسواق مثل أدعية متصلة، كان للبلدة تفردها وقوة حضورها، لا يشبه سكونها سكون، ولا ريحها ريح، يقظة حالمة بعد سبات الصحراء الطويل، قالوا لها:

ـ رحلتك كانت طويلة، ولكن لا وقت للراحة، استعدي حتى تزفي للخليفة.

لكن أحدًا لم يخبر الخليفة أن عروسه قد وصلت في الوقت المناسب، كان عثمان بن عفان حزينًا كما لم يشعر من قبل، يحدق في بئر عميقة ضحلة المياه، تضطرم في أعماقها حركة الباحثين كشهقات مخنوقة، سقط الخاتم من إصبع عثمان، لم يبقَ إلا حز باهت في إصبعه الوسطى، سيختفي بعد مدة، كما اختفى الخاتم، ارتفع رأس أحد الباحثين من فوق حافة البئر الصخرية، حدق فيه بلهفة، لكنه قال مثلما قالوا:

ـ لا أثر لهذا الخاتم.

همهم بقية الصحابة في خيبة، فصاح عثمان:

ـ واصلوا البحث، يجب أن تجدوه، لا يمكن أن تكون هذه البئر الضحلة قد ابتلعته.

هبط الغواص من جديد، ولكن الضوء كان يضمحل، والمساء يقبل، والصحابة ملوا من الانتظار، وسار موكب نائلة وسط الشوارع شبه الخالية، يرافقها طائر الحزن حتى بيت الخليفة، ولم يكن في استقبالها إلا بعض العجائز، سألت عما حدث، قالوا في وجوم:

ـ سقط خاتم رسول الله في بئر «أريس».

كانت لا تزال غريبة ولكنها شعرت بحزنهم، كان الخاتم هو شارة الحكم، يوقِّع به الخليفة على كل رسائل الدولة الوليدة، أخذه أبو بكر عن الرسول، وأخذه عمر عن أبي بكر، ولبسه عثمان وبايعته جموع المسلمين، لكن بئر «أريس» الضحلة ابتلعته وأخفته للأبد، مقدمة بسيطة لكل الأحداث المأساوية التي تنتظر الجميع، هكذا بدأ يوم زواجها الأول باردًا وكئيبًا.

وفي المساء التالي جاء الخليفة وكشف الستر عن وجهها، لم تكن رأته، ولم يكن قد رآها، وتأملها قليلًا ثم ابتسم في حنو، كانت صغيرة، عديمة الحيلة، وتم زواجهما ببساطة، وكان عثمان بن عَفان قد كتب منذ فترة إلى واليه على الكوفة سعيد بن العاص خطابًا يقول فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد. فقد بلغني أنك تزوجت امرأة شريفة النسب، فاكتب إليَّ بنسبها وجمالها».

ورد الوالي برسالة دقيقة يصف فيها المرأة التي تزوجها: «بيضاء، مديدة القامة، حسنة اللسان، معروفة النسب». وكتب عثمان إليه: «إن كان لها أخت فاطلبها للزواج بي». وكانت الأخت هي نائلة بنت الفرافصة، خطبها سعيد نيابة عن الخليفة وحملتها القافلة إليه، وجلست نائلة أمامه مبهورة، ترقبه، حاسر الرأس، لامع الصلعة،

لم تصدق أن يشع كل هذا الصفاء من شخص واحد، كان وديعًا متعبًا، أضنته أشواك الحكم، ومتاعب الدولة التي تتسع مثل أخطبوط وتلتهم كل أجزاء العالم القديم، أحست أنها لم تأتِ من الكوفة عبثًا، إنه في حاجة إليها كما أنها في حاجة إلى ظله، حاول أن يبتسم برغم كل ما يشعر به من مرارة، قال:

ـ إما أن تقومي إليَّ، وإما أن أقوم إليك.

قالت:

ـ والله ما تجشمت إليك من المسافة أبعد مما بيني وبينك، بل أقوم أنا إليك.

نهضت وجلست بجانبه، مسح رأسها ودعا لها بالبركة، لكن أيامها معه لم تكن سهلة.

في الماضي، كانت تعيش في بيتها الصغير بالكوفة، لا تهتم إلا لفتات الأحاديث، حياتها أحداث يومية متكررة، لكنها تعيش الآن في قلب الدولة، يتناهى إلى غرفتها وشيش الأقطار البعيدة، وتدخل أخبار الحروب والهزائم والانتصارات مع ملح طعامها، كان الإمام شيخًا عجوزًا، والدولة فتية تموج بالمحاربين الأشداء، وسط عالم متآكل، يختلط فيه الطموح بنزعات الاستشهاد، والقداسة الدينية بالعصبية، وعندما تفتقت بذور الفتنة تلونت النجوم البعيدة بلون الدم، كان ابن أبي سرح والي مصر يواصل فتح أفريقية، ومعاوية يجهز الأساطيل لغزو قبرص، وسعيد بن العاص يجهز على ما بقي من دولة الفرس، وكان عثمان ينسى أحيانًا أنه قد أصبح خليفة، يستيقظ داخله الرجل الموسر القديم الذي يهبُ أي شيء عن طيب

خاطر لأقاربه، وتحولت هذه الهبات إلى أخطاء قاتلة، كان بنو أُمية بشراهتهم المعهودة قد أحاطوا به كديدان العلق، يريدون مالًا وولاية وأرضًا، كأن الإسلام قد أصبح إرثهم الخاص، وهو يهب، يصل أرحامه كما يعتقد، لا يعلم أن الزمن قد تغير، وأن لكل شيء حسابًا، حتى سماحته وكرمه.

توالت الأحداث الصغيرة وتراكمت، اختلف عثمان مع خازن بيت المال، كان هناك مبلغ كبير كان يريد أن يهبه لمروان بن الحكم، قال للخازن غاضبًا:

ـ أنت خازن عندنا!

قال له الرجل بهدوء:

ـ أنا خازن بيت المسلمين.

وعلق المفاتيح على منبر الرسول، واعتكف في بيته، وبدأت المظالم تَرِد على الخليفة كل يوم، تشكو الولاة وتعصبهم لكل ما هو قرشي خصوصًا إذا كان أُمويًّا. وتعودت نائلة على رؤية أكوام من الخطابات المكتوبة على رقائق الجلد، ورأت الخليفة وهو يقرأ فيها حتى الصباح، ثم يكتب للولاة يحذرهم ويهددهم ويطلب منهم أن يعدلوا، لكن ورغمًا عنه كانت هناك طبقة جديدة من المستفيدين والطامعين تنمو وتشتد وتُملي شروطها، كلما مات شهيد في غزوة تحول ثمنه إلى دنانير تنصب في جيوبهم. منذ استن قانونًا يُبيح لمن يملك أرضًا في الأقاليم المفتوحة أن يستبدلها بأرض في الحجاز برز كبار الملاك كالغربان، يجمعون الأرض للأرض، ويشترون العبد للعبد، وبدأت الثروات في التراكم والبروز وفرض سطوتها،

اختل ميزان العدالة الدقيق. أفاقت نائلة مذعورة على صوت أبي ذر الغفاري وهو في طريقه للمنفى، وحيدًا كما قُدِّر له: يعيش وحيدًا، ويموت وحيدًا، ويُبعث يوم القيامة وحيدًا. وكان الخليفة قد ضاق بكثرة انتقاداته وأمر بنفيه خارج المدينة المنورة.

وحتى بعد أن خرج لم يقبله أي من الولاة، وتحول الصحابي القديم إلى لعنة يخشاها الجميع، ولذا اعتكف في قرية صغيرة حتى مات منسيًّا ودُفن في قبر مهجور. ولكن الخليفة بدا غائب الذهن، فقال لنائلة حائرًا:

ـ لماذا يفعلون ذلك؟!

كان قد وسَّع للناس في أرزاقهم وضيَّق في رزقه، أقام المآدب للجوعى، ودفع ديات القتلى، وسعى جاهدًا في جمع نسخ القرآن ليصنع منها نسخة واحدة فقط يتفق عليها كل المسلمين، لكن بني أُمية ظلوا دائمًا نقطة ضعفه، لم يهذب الإسلام شيئًا من شراهتهم للحكم. ومن الكوفة بلدها البعيد جاءت أنباء أخرى، اختلف الوالي سعيد بن العاص وزوج أختها مع بعض وجهاء الكوفة حول فضل قريش على غيرها من القبائل، لكنهم ردوه عن ذلك بشدة، قالوا:

ـ ليس لمسلم فضل على آخر.

وتطور الأمر حتى اشتبكوا مع صاحب الشرطة وبعض الخدم، وبعث سعيد إلى الإمام يطلب منه أن يسمح بنفيهم من الكوفة، وكانت هي المرة الأولى التي يُنفى فيها مسلم عن أرض الإسلام. نفاهم إلى دمشق، حيث سجنهم معاوية وعاملهم أسوأ معاملة، ثم ردهم للكوفة، ثم أعاد نفيهم للجزيرة، وتواصلت حلقة الإهانات،

وعندما عادوا إلى وطنهم كانت جروحهم قد أصبحت جروحًا في جسد الدولة، قال لها عثمان مغاتبًا:

ـ أرأيت ما فعل أهل الكوفة؟!

قالت وهي تحاول التهوين عليه:

ـ أنا أعلم الناس بهم، لا تأخذهم بالشدة وأنت على العفو أقدر.

جاءت أختها هند مع زوجها لزيارة المدينة، جلس سعيد مع الإمام يقدم له آخر تقارير الفتنة والحرب، وجلست الأختان معًا تستعيدان ذكريات الطفولة في طرقات الكوفة، سألتها نائلة:

ـ ماذا يحدث هناك؟

قالت الأخت في خوف:

ـ كأن الموتى يستيقظون، وكل الأحقاد القديمة تزدهر.

وقال عثمان لسعيد:

ـ عد إلى الكوفة وخذهم بالهوادة، ما جدوى زيادة المنفيين والقتلى؟

وبعد أيام رحلت أختها وزوجها، لكنهما لم يستطيعا العودة للكوفة، كانت سيوف المنشقين في انتظارهما، صاحوا فيه:

ـ لقد عزلناك واخترنا واليًا غيرك.

عاد سعيد مقهورًا، واضطر الخليفة للخضوع لطلبات المتمردين، وولى أبا موسى الأشعري بدلًا منه، لكنهم كانوا قد صنعوا سابقة خطيرة، وأصبح من المخيف تصور ماذا سيحدث في الأيام المقبلة، عندما تفرض كل ولاية رأيها على خليفة المسلمين قسرًا، لقد تبددت هيبة الخلافة وقدسيتها الدينية.

وامتد حبل الفتنة إلى مصر، أكبر الأمصار المفتوحة وأخطرها، كان الوالي عليها هو محمد بن أبي بكر، صديق الروح ورفيق الدعوة منذ بزوغها الأول، ولكنه الآن يعلن تمرده وثورته على الخليفة، ولم يملك إلا أن يهتف في أسى:

ـ حتى ابن أبي بكر يقف ضدي!

كان محمد بن أبي بكر قد اتجه إلى مصر غاضبًا، كان يطمع في إحدى الولايات، لكن الإمام الشيخ لم يستجب له، وضاعف غضبه حين رأى بني أُمية ومن هم أقل منه ومن أبيه سبقًا للإسلام يظفرون بأرفع المناصب، ولكن عثمان ضن عليه، وهكذا أخذ يؤلب المصريين ضد الوالي والخليفة وكل بني أُمية، وضج ابن أبي سرح بالشكوى، لكن ماذا يفعل عثمان مع ابن أبي بكر الخليفة الأول وشقيق عائشة زوجة الرسول؟

رأت نائلة الشيخ وقد تضاعفت آثار السنين على وجهه، تحول ذلك الصفاء القديم إلى تجاعيد غائرة، وتحول سلام المدينة المنورة إلى هذيان ورؤى مؤرقة، بدأ يعتزل الناس، وترك إمامة الصلاة في مسجد الرسول ليقوم بها علي بن أبي طالب، وارتفعت درجة حرارته وأخذ يهذي، وسهرت نائلة بجانبه وهي تضع خرقًا مبللة فوق جبينه. كان يرفع إصبعه نحوها ويهتف متأسيًا:

ـ ليتني ما فقدت الخاتم، كأنه سلبني شرعيتي.

وجاءت اللحظة التي وقف فيها علي بن أبي طالب وقال له في حزم:

ـ اعتزل.

ولكن عثمان رد عليه:

ـ ما كنت لأخلع قميصًا ألبسنيه الله.

ولكن الأمور كانت تتدهور، بدأت حركة غريبة من الجدال حول الخليفة والخلافة وحول عثمان شخصيًّا. جاء الولاة من كل الأقطار وتناقشوا أيهما أحق بالولاية: بنو أُمية، أم كل المسلمين؟ وجاءت وفود من البلاد المختلفة، كل وفد يحمل مطالبه الخاصة، وكل المطالب متعارضة، واختلف الصحابة كما لم يختلفوا من قبل، وانتهز معاوية بن سفيان، أعتى وجوه بني أُمية، الفرصة وعرض على الخليفة أن يصحبه إلى دمشق حيث يبقى في حماية جنده، لكنه رفض قائلًا:

ـ ما كنت لأستبدل دار الهجرة بدار أخرى، لن أرحل عن المدينة التي لجأ إليها الرسول.

ولم يقم معاوية في المدينة طويلًا، حيث أدرك أن هناك صراعًا قادمًا، وقد يكون هناك قتال محتدم، ولم يكن يريد أن يكون طرفًا فيه، في هذه المرحلة على الأقل، أطلق عدة تهديدات جوفاء متوعدًا كل من يتعرض لحياة الخليفة، ثم وعده أن يرسل إليه النجدة والمدد عند تعرضه للخطر، لكنه كان أذكى من أن يفعل ذلك في الوقت المناسب.

وكالعادة خضع الخليفة، ووافق على شروط الثائرين، ولكن الفتنة لم تهدأ، ومر العام ولم يتغير شيء، ولم تتراجع أطماع بني أُمية بل استشرت، وضم معاوية بقية ولايات الشام. انتشر المحرضون في طول الدولة وعرضها، الصحابة القدامى مثل عمار بن ياسر، وأبناء الصحابة مثل محمد بن أبي بكر، والموالي والداخلين حديثًا في

الإسلام مثل اليهودي ابن سبأ، وحتى عبد الرحمن بن عوف وكان على فراش الموت قال لعلي:

ـ احمل سيفك وأحمل سيفي وتعالَ نجاهد هذا الخليفة الذي يحابي أهله.

ولكن ابن أبي طالب كان فارسًا، ولم يكن بالذي ينكص عن بيعته، ثم عاود الثائرون زحفهم على المدينة، من مصر والكوفة والبصرة واليمن، كل مَن يحمل شكوى أو مظلمة أو حقدًا قديمًا، جاءوا هذه المرة لا ليتنافسوا، ولكن ليستولوا على المدينة عنوة. تبدد السلام السماوي الذي شعرت به نائلة في يومها الأول، فرت الطيور وهي تطلق صيحات الفزع، وخرج أهل المدينة المهاجرين والأنصار، ليقفوا أمامهم، لن تسقط مدينة الرسول تحت السيوف أبدًا، برغم معارضة البعض منهم لعثمان، وتعاطف البعض مع الثائرين، إلا أنهم ظلوا واقفين أمامهم حتى اضطروهم للتراجع، أو تظاهروا بذلك، فقد استيقظ أهل المدينة والتكبيرات تملأ الشوارع، فوجئوا بالثوار وسطهم، احتلوا مدينتهم دون أي مقاومة، وهتف المنادي:

ـ من لزم بيته فهو آمن.

وبدأت أيام الحصار الخمسون حول بيت إمام المسلمين وخليفتهم عثمان بن عفان.

كانوا يستيقظون كل يوم على مشاهد الحصار، الأحجار وهي ترتطم بالنوافذ والأبواب، وجوه الغوغاء وهي تسب الخليفة بأقذع الكلمات وتدوس بيعته تحت النعال، وكان الحصار خطرًا قائمًا، كل لحظة يمكن أن تنطوي على سهم طائش أو عدو مترصد، وكان

الحصار هو إحساس الغربة العميق والخوف الغريزي حتى من الأصدقاء، وكان عثمان هادئًا، هدوء من أعد نفسه لهذا المصير، ظلت نائلة تتوسل إليه:

ـ الأمر ما زال في يدك، أنت الإمام، ابعث للأمصار حتى تأتي النجدات!

وفي فناء الدار توفز بنو أُمية وأيديهم على مقابض السيوف، قالوا:

ـ نخرج إليهم ونقاتلهم.

ولكن عثمان كان يقول لهم معاتبًا:

ـ كيف يسيل دم الإخوة على أرض النبوة؟!

وعندما قرر أن يخرج إليهم توسلوا إليه ألا يفعل، وقالت نائلة:

ـ يا سيدي أنت عجوز وهم قطيع أعماه الغضب، لن يرعى حرمة ولن تأخذه شفقة.

وكانت دمدمات المحاصرين تبدو كأصوات حيوانات شرسة، زحفت عبر جوع الصحاري، لكن عثمان أصر على الخروج، وقف هادئًا أمام البيت كأنه إزاء يوم عادي من أيام حكمه، صمتوا، هبطت أيديهم بالسيوف، سار إلى المسجد فساروا خلفه، اعتلى المنبر، أحس بزفراتهم تبدد كل ما في المكان من قدسية، هتف بهم:

ـ امحوا الخطأ بالصواب وعودوا إلى عقولكم، إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، الدم حرام في هذا المكان، في هذه المدينة التي طهرها بهجرته إليها.

انساب صوته مؤثرًا برغم ما فيه من وهن الشيخوخة، يرتفع فيهدد

ويلين فينخفض، يحاول أن يوقظ فيهم عهود الولاء التي نسوها، كان صحابيًّا جليلًا ولكنه أصبح شيخًا عجوزًا، وتحول الشيخ إلى حاكم، ووقع الحاكم في الخطأ. نهض أحدهم وهو يصيح فيه:

ـ يا عثمان، إن كنت جادًّا في نصحنا، انزل لنحملك على ظهر الإبل، ونسيرك إلى جبل الدخان كما سيرت خيار الناس.

أدرك عثمان أنه قد فشل، هتف بحنق:

ـ قبحك الله، وقبح كلماتك.

امتلأ المسجد بالتهديد والوعيد، وظل هو صامدًا حتى في وجوه الاعتراضات غير اللائقة، يهتف بهم:

ـ أنا خليفة رسول الله، ورفيقه وزوج ابنتيه!

لكن شيئًا لم يشفع له، نهض جهجاه بن سعيد الغفاري ونزع العصا التي كانت في يده، كانت عصا الرسول، أخذها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، لم يبال بالأيدي الشريفة التي تبادلتها، كسرها على ركبتيه، حاول البعض الدفاع عن الخليفة، لكن الثوار أمسكوا الأحجار وأخذوا يتقاذفون، شهد المسجد معركة غريبة أُهدر فيها كل شيء، وهوى حجر ضخم على رأس عثمان، غمر الدم وجهه وسقط مغشيًّا عليه من فوق المنبر.

شاهدته نائلة من النافذة وهو محمول على أيدي الرجال، صرخت:

ـ لقد قتلوه في المسجد!

لكنه كان ما زال يتنفس، مسحت الدم من على وجهه، رأتهم يتقاطرون خلفه، ويعاودون محاصرة المنزل، صرخت فيهم:

ـ يا قتلة! لو كان رسول الله حيًّا لقتلتموه!

هرع علي بن أبي طالب، أخذ يعنف المحاصرين ويحاول ردهم دون جدوى، كلف الحسن والحسين أن يقفا داخل البيت للمشاركة في حمايته، تطوع أيضًا عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة، وقفوا يحمون جسد الإمام المثخن بالجراح، أصبح الجرح كبيرًا في جسد الدولة، ولأنها كانت فتنة كان النزيف غزيرًا.

أفاق في المساء، بدأ يتمالك قواه، توسلت نائلة:

- نهرب يا سيدي، لقد تركنا أهل المدينة فريسة سهلة لهم.

ابتسم وربت على رأسها:

- إن لم يكن هناك مفر من الموت فما أحقه بجوار رسول الله.

ثم سرت شائعة بين المحاصرين أن الإمام يراسل الأقطار حتى يطلب النجدة، فزادوا من قبضة حصارهم، منعوا الخليفة أو أي أحد من أهله من الدخول والخروج نهائيًّا، كلفوا من يؤدي الصلاة بدلًا منه، وكانت المدينة تسبح في جو غريب من اللامبالاة، الصحابة القدامى لزموا بيوتهم ولم يُبدوا أي رأي، وكل من مر منهم بالمنزل من الأنصار أدار وجهه للناحية الأخرى، كأنه لا يرى. حتى عندما حان موسم الحج، وتقاطر الحجيج، طافوا البيت وجاءوا لزيارة المسجد، وتطلعوا لما يحدث في بلاهة شديدة أشبه بالتواطؤ. لم يخرج الخليفة للحج كالعادة المتبعة، كلف ابن عباس وحمله رسالة يقص فيها ما حدث لبقية الحجيج، لكنهم سمعوا الرسالة وهم يمضغون التمر، وأكملوا المناسك وانصرفوا كأن لم يسمعوا شيئًا.

ثم منعوا عنه الماء والطعام، وكان والي مكة أقرب الولاة إلى المدينة، يستمع إلى هذه التفاصيل اليومية ويبدي دهشته من تقلب

الدهر، وابن أبي سرح والي مصر الذي خرج معظم الثائرين من عنده لم يكلف خاطره بالاستفسار عن غايتهم، ومعاوية هادئٌ، ينتظر الفرصة حتى تسنح ليبكي ويثأر فينال ثمن البكاء والثأر، كأن هناك تواطؤًا جماعيًّا لاغتيال الإمام العجوز.

وعندما اشتد به العطش، توكأ على كتف نائلة وصعد إلى سطح المنزل، شاهد الوجوه الغاضبة تترصد أنفاسه، قال في أسى:

ـ لقد اشتريت بئر «رومة» من مالي وجعلته سقاية للمسلمين وها أنا أُحرم من مياهه! واشتريت أرضًا ضممتها لمسجد الرسول حين ضاق بالمصلين وأنا أول مسلم يُمنع من الصلاة فيه!

كان يرثي نفسه، شعرت نائلة بالحزن يعتصر قلبها، هذه الجنة التي بُشر بها، كم كان عليه أن يتحمل في الطريق إليها من العذابات الأرضية، عطشًا وجوعًا وقهرًا. حاولت أم حبيبة زوجة الرسول أن تحمل لهم بعضًا من الطعام، لكن الثوار ضربوا بغلتها وأوشكوا أن يسقطوها على الأرض. جاء عليٌّ غاضبًا وصرخ فيهم:

ـ إن الروم يأسرون فيطعمون ويسقون، فما بالكم برجل عجوز هو إمامكم وصاحب رسول الله؟

وراحت صرخاته هباء، تحولت نزوات الحقد إلى إصرار وحشي للتدمير، وظلت الأحجار والسهام تهمي عليهم كأنها حقيقة أزلية، وجاء صباح اليوم الخمسين، شاحبًا، بلا شمس، وهو حدث نادر في الصحراء، وكان لون الرمل رماديًّا حزينًا، واستيقظ عثمان وقد نذر أن يصوم يومه، ابتسم في وجه نائلة وقال في وداعه:

ـ إنني مقتول اليوم.

قالت بفزع:

ـ بل يُقتل عدوك يا أمير المؤمنين.

قال:

ـ جاء رسول الله وأبو بكر إليَّ في المنام، قالا لي: «أفطر معنا اليوم يا عثمان». في الأرض صَومي وفي الجنة سيكون إفطاري إن شاء الله.

تعالت ضجة في الخارج، استأذن أحد المدافعين في الدخول، قال بفرح:

ـ يا مولاي، الإمدادات على مشارف المدينة.

لكن عثمان كان يشعر بالمرارة العميقة:

ـ قُضي الأمر، هل تذكَّروا أخيرًا أن لهم إمامًا مهدور الدم؟!

ازدادت حركة الثوار العصبية، نفثوا عن حنقهم بالأحجار والسهام ومحاولات تسلق جدران البيت، كانت الأنباء قد وصلتهم أيضًا وبدت رغبتهم المحمومة في الإجهاز على الفريسة. قالت نائلة:

ـ ابعث إلى ابن أبي طالب لعله يتفاهم معهم.

لكنهم كانوا معزولين، المدينة والأمصار وكل مَن في العالم ليس له وجود، والدم يخلق جوعًا لا يشبعه إلا نهش اللحم الحي. صرخت وهي تشاهد أجسادهم تتلوى صاعدة على جدار البيت. أسرع ابن الزبير وأخذ يقطع الحبال. اندفعت موجة محمومة لترتطم بالباب، نخسوا جسد عبد الحكم بن مروان بالرماح، وكانت الصحراء والمدن والأقطار المفتوحة والولايات والقصور هادئة ساكنة. قال عثمان بمرارة النبوءة الآتية:

ـ لئن قتلوني لن يُصلُّوا بعدي جميعًا أبدًا، ولن يقاتلوا عدوًّا جميعًا أبدًا.

وظلت حركات المهاجمين كالموج المتلاطم، تود لو تقتلع البيت من أساسه. تساءلت نائلة:

ـ هل نستطيع الصمود حتى تأتي النجدات؟

وفوجئت بالدخان يتسلل ويملأ الفناء، فصرخت:

ـ إنهم يحرقوننا.

أشعل المهاجمون النار في كل الأبواب الخشبية، أتت عليها بسرعة، أصبحت الأبواب والنوافذ عارية ومتاحة، تلاحم الجميع في قتال وحشي زاد من ضراوته أن الدخان كان يخفي كل شيء، وعثمان يصرخ أن يكفوا، فتح المصحف وأخذ يقرأ لعل هناك منفذًا، رُقْيَةً تبعد نذر الكارثة. جلست نائلة عند قدميه وهي تبكي، ثم حدثت المفاجأة من الخلف، فتح عمرو بن حزم باب خندق كان يصل بينه وبين بيت عثمان وتدفق الثائرون، داهمتهم الأقدام مثل دبيب القدر وصراخ الظفر الوحشي، نثرت نائلة شعرها فزعًا، صرخ فيها عثمان:

ـ خذي خمارك، فلعمري ما دخولهم عليَّ أعظم حرمة من شعرك.

كانت السيوف مشرعة فوق رؤوسهم، قال أحدهم:

ـ يا عدو الله.

رد عثمان بهدوء:

ـ أنا عبد الله وخليفته.

هوى السيف، رفعت نائلة يدها تتقيه، بتر السيف أصابعها في سرعة خاطفة، انتفضت من الألم، تناثر شريان الدم على وجه الخليفة

ولحيته، قبل أن يتحرك هوى سيف آخر في منتصف رأس الخليفة، شق مقدمة الأنف، همهم بكلمات متعثرة لعلها كلمات الاستشهاد، انكفأ فوق المصحف المفتوح أمامه، دمدموا في نشوة:

ـ سوف نقطع رأسه ونرفعها على أسنة السيوف.

لكن نائلة برغم النزيف والألم كوَّنت بجسدها حاجزًا فوق وجهه المشجوج ورقبته المهددة بالقطع، حاولوا إزاحتها، أخذوا يضربونها بالنعال، مزقوا ثيابها حتى تعرَّى ظهرها، وفي الخارج عربدت الوجوه الشرسة:

ـ قُتل عثمان.. قُتل ابن عفان.

توقف القتلة، شاهدوا الدم والحريق والقتلى، ذنبهم وعارهم، تبدد الدخان فكشف عن كل شيء، الرمل الرمادي المشبع بالدم، ونائلة تقف بثوبها الممزق وضفائرها المحلولة أسيرة رعب لانهائي، وعندما صرخت تعثر البعض وهم يفرون، وأجهش البعض الآخر في البكاء، وكانت الجثة مسجاة أمامهم، دم حرام وجريمة لا تحل لأحد.

كتبت نائلة فيما بعد إلى معاوية: «وإن أمير المؤمنين قد بغي عليه وقتلوه غيلة».

دثروا جثته في ثيابه القديمة، وخلعت قميصه الملوث بالدم وكتبت: «فوطِئنا وطئًا شديدًا، وعُرينا من ثيابنا، وحرمة أمير المؤمنين أعظم، فقتلوه في بيته وعلى فراشه». وسافر القميص إلى الشام، وصعد معاوية إلى المنبر وفرد القميص أمام المصلين، تناثرت منه أصابع نائلة المقطوعة. وكتبت: «ورحم الله عثمان، ولعن من قتله، وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والذلة».

وكان دم الخليفة مهدرًا، لا يحق لأحد أن يستحله، لكن النبوءة تحققت منذ أن قرأ معاوية خطاب نائلة من فوق المنبر، منذ سارت الجيوش وتقاتل الإخوة، وسال الدم بلا قضية وبلا ثمن، وامتزجت كل مشاعر الحب المضطرم بالكراهية الطاغية، منذ هذا اليوم البعيد الموغل في القدم ونحن لم نقاتل عدوًّا جميعًا قَطُّ، ولم نُصل جميعًا قَطُّ.

١٤

عمر بن أبي ربيعة
محاولة لتشخيص حالة

هذا هو الشاعر، فتى قريش المخزومي، أشعرها وأكثرها فسقًا. ثمانون عامًا قضاها على ظهر الصحراء، فتك منها أربعين ونسك منها أربعين، وتقلب فيها مثل رمية من رميات الزهر، تختلط في داخله وجوه الخير والشر، يرتفع في السماء ليكون شهابًا ساطعًا، ويهوي ليُصبح حجرًا أصمَّ يذهب بددًا في الصحراء، لم يُختلف حول شاعر كما اختلفوا حوله، أنكروه واستعاذوا من فسوقه ولكنهم حفظوا شعره وتمثلوا به، وهو ساكن داخل جلده، لا تثيره الحروب والفتن، لا تجره دوامة الصراعات السياسية، لا يستثار فقط إلا عندما يلمح امرأة جميلة، أو يسمع أوصافها، أو يشم عطرها، أو يذكر اسمها فقط أمامه، يستفز هذا حواسه كلها، ويجعل قريحته تمور كالبحر الصاخب.

في ليلة ميلاده مات عمر بن الخطاب، وفي العاشرة من عمره اغتيل عثمان بن عفان، وقتل علي بن أبي طالب وهو في الثامنة عشرة،

وهدمت الكعبة على رأس ابن الزبير، وسار الحسين إلى قبره في كربلاء، كل الأحداث التي هزت عمود الإسلام وفرقت المسلمين وجعلتهم شيعًا وطوائف.

قال الأقدمون: «كانت العرب تقر لقريش بالتقدم في كل شيء إلا في الشعر، حتى جاء عمر بن أبي ربيعة فأقرته لها ولم تنازعها في شيء». لكن هشام بن عروة يحذر كل الآباء: «لا ترووا فتياتكم شعر ابن أبي ربيعة، لا يتورطن تورطًا». ويقول حماد الراوية عن شعره: «إنه الفستق المقشر». وقال أبو المقوم الأنصاري: «ما عُصي الله قَطُّ قدر ما عُصي بشعر عمر بن أبي ربيعة». ويفيض مصعب بن الزبير في الحديث عنه كأنه جماع أشعار العرب: «سهل وقول، قاسى الهوى فأربى، وأعلن الحب وأسر، وبطن به وأظهر، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلى قاتله، واستبكى عاذله، وأحسن التفجع، وأنطق القلب». ولا يكف مصعب عن إضافة النعوت، ولا يكف الآخرون عن نقده ومدحه، وتبقى روح ابن أبي ربيعة قلقة لا تجد من ينصفها دون مبالغة.

المحدثون أيضًا يقفون أمامه وهم أشد حيرة، طه حسين لا يراه منفصلًا عن عصره، ولكن ثمرة نيئة لمجتمع لم تكتمل أركانه، اختلطت فيه البداوة بالبذخ، واستغلت فيه المقدسات الدينية من أجل جمع الأموال، جاءت الثروة والرفاهية والجواري وأقامت ضياعها على الرمال فسلبت الصحراء شدتها وشظفها، ولد الفرسان الناعمون، ركبوا البغال بدلًا من الجياد، وتقاذفوا بالورد لا بالسهام. وحاول العقاد أن ينفذ خلف جلده، تعامل معه بترفع شديد كأنه

يأنف من الكتابة عنه، يرجع كل ما يحيط بحياته من ملابسات إلى طبيعته، حقًّا إنه يغازل الحسان، ويطلق شاربه ولحيته كما يفعل رجال عصره، لكن كل مغامراته تعويض في الوهم، وكل أشعاره أكاذيب جزلة الكلمات، إنه فقط «يصف ويقف، يحوم ولا يرد».

سأله الخليفة الأُموي سليمان بن عبد الملك:

ـ يا هذا، ما يمنعك من مدحنا؟

لم يحاول ابن أبي ربيعة الاعتذار، ولكنه قال في إيجاز:

ـ إني لا أمدح الرجال، إنما خصصت شعري للنساء.

العالم بغير نساء ليس هو العالم، بدونهن تصبح الصحراء مصيدة، وعيون الماء مجرد مكان لسقي البهائم، ونجوم الليل مجرد مصابيح خابية، وتصبح القصائد، وهو الأمر المؤكد، غير مجدية. هذا هو الشعر وفق حاجته الشخصية، ووفق قناعته، مشكلته بسيطة لكن جزءًا مهمًّا منها أن الآخرين لا يفهمونه، لا حاجة له بالطموح، يكفيه أنه يشبع لحظته ويعيشها حتى آخر قطرة منها، وإذا كانت الحياة تدور بين محورين: الخبز والحب، فإن الخبز لم يؤرقه طوال حياته. كان من بني مخزوم، أغنى بطون قريش، وأبوه أغنى بني مخزوم، تسميه قريش «العدل»، لأنه كان يعدلهم جميعًا، كانوا يتعاونون معًا ليكسوا الكعبة في عام، ويكسوها وحده في العام التالي، لم تكن قوافله تكف عن السعي بين الشمال والجنوب، كلما أقيمت سوق أو حضرت تجارة أو لهث بعير أو تغنى حادٍ، ينصب هذا في جيبه قطعًا ذهبية، عنده جيش من النوق والجمال، وجيش آخر من الأحباش يقومون على حراسة هذه الثروة.

حالته ليست فردية، لكنها حصيلة تناقضات عصره الاجتماعية، منذ أن تولى عثمان بن عفان الخلافة وقد تنفست الأرستقراطية القريشية الصعداء. ذهب عمر بن الخطاب بشدته وشظفه، لأنه كان يعرف أن الفتنة حين تولد سوف تولد من قريش، يساعدها في ذلك إحساسها بالاعتداد والتفوق على كل ما عداها من قبائل العرب، فقد كانوا من قبل الإسلام رابضين حول الكعبة، وقد استثمروا هذا الموقع تجاريًّا، حتى جاء الإسلام فأضافت القدسية الدينية ونسبهم للرسول قوة إضافية. يقول طه حسين ببلاغة: «إن النبي قد وعد قريشًا حين دعاها إلى الدين الجديد مُلك الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، ففكروا جميعًا في ملك الدنيا، وفكر بعضهم في ثواب الآخرة». من أجل ذلك شدد عليهم عمر، ومنع الصحابة من مغادرة مكة لأي سبب؛ خوفًا من أن ينتشروا في الأقطار المفتوحة ويجمعوا ثروة الدنيا بجانب الدين. لكن عثمان جاء وأطلق كل شيء من عقاله، وأعطى لقريش فوق ما كانت تحلم به، سن قانونًا جديدًا يتيح لمن يملك أموالًا وأرضًا في الأمصار المفتوحة أن ينقلها أو يستبدلها بأرض وأموال في الحجاز، وهكذا تدفقت ثروة العالم القديم لتلك المنطقة الضيقة المحصورة بين الجبال القفر، أقيمت الضياع ولم تقم الحضارة، جاءت النعومة والثروة ولم تأت قيمة العمل، جاء الخمول، وتبعه السأم.

واشتعلت الفتنة، قُتل عثمان وعلي والحسين وابن الزبير وعدد لا يحصى من الصحابة والخوارج والشيعة والأُمويين والعلويين، وأصبحت أطلال الشعراء مواقع للحرب، وينابيع المحبين ملوثة

بالدم. انتقل مركز الخلافة والحكم إلى الشام، انتزعت السُّلطة من أرضهم انتزاعًا، واستفاد الأُمويون من أخطاء عثمان، وأغلقوا باب الحكم في وجه قريش، زادوا في أعطيتهم من المال والعبيد والضياع وكل وسائل الإغراء إلا التفكير في السياسة أو التحدث فيها، قلموا أظافرهم بما يكفي حتى لا يعاودوا نشبها في جسد الدولة، هكذا ظهر جيل ابن أبي ربيعة، معفيًّا من كل الروابط، كل الأهداف النبيلة قد تلوثت بالدم، وبالغ عمر فأعفى نفسه من كل القيود التي يخضع لها العدد الأكبر من الناس، تحلل حتى من اعتبارات الحياء والاحتشام، أصبح أكثر خفة من بقية أفراد جيله، أقدر على السرعة والحركة والإقدام، لا يكبله الوازع الأخلاقي الذي يرهب غيره، لقد أفزعت مغامراته كثيرًا من معاصريه، يحكي سمرة الدوماني عن الأيام الأخيرة لابن أبي ربيعة: «إني لأطوف بالكعبة فإذا بشيخ وسط الجموع في الطواف فقيل لي: هذا هو ابن أبي ربيعة، فقبضت على يده، قلت له: يا ابن أبي ربيعة. قال: قل ما تشاء. قلت: أكلُّ ما قلته في شعرك فعلته؟ قال: إليك عني. قلت: أسألك بالله، وبحق هذا المكان. قال: نعم، كل ما قلته فعلته، وأستغفر الله».

تتسع الدولة، يرفع الشهداء راياتهم المخضبة فوق الروابي البعيدة، ولكن شعراء الغزل يتفانون في الوجد والبكاء على أعتاب المحبوبة، كان عمر يمر بالخوارج في ثيابهم الداكنة وهم مشغولون بتغير العالم وانتظار المهدي المنتظر، وهو موزع النفس، لأن زينب قد أخلفت وعدها معه. كان يرى أن الخوارج عبيد طموحاتهم الشخصية

ورغبتهم أن يعلو حقهم وباطلهم فوق كل حق وباطل. كان هو عبدَ لامبالاته، لا يبالي بالمكسب والخسارة، عبدًا للمصادفة، المصادفة التي تعامله بغاية القسوة والخشونة في بعض الأحيان، ولكنها في الغالب تحنو عليه وتقف في صفه.

كان عمر جالسًا في فناء مضربه وحوله غلمانه، وأقبلت عليه جارية جميلة عليها آثار النعمة، سألت عنه وحيته ثم قالت:

- حياك الله، هل لك في محادثة أحسن الناس وجهًا، وأتمهم خلقًا، وأكملهم أدبًا، وأشرفهم حسبًا؟

وهل كان يترقب شيئًا غير ذلك، وافق على الفور، ولكن الجارية أضافت:

- ولي شرط، تمكنني من عينيك أعصبهما وأقودك ثم أفعل بك ذلك حين تعود.

وافق أيضًا، عصبت عينيه دون اعتراض، ونهض معها وهي تقوده، لم يعرف إن كان قد سار كثيرًا أم قليلًا، لكن رائحة العطر والبخور ملأت أنفه. رفعت العصابة فرأى أمامه امرأة لم يرَ مثل جمالها، نظر إليها مبهورًا، وقابلت نظرته بازدراء، قالت:

- أنت الفاضح للحرائر؟

قال عمر:

- وما ذاك جعلني الله فداءك؟

قالت:

- ألست القائل:

فَلثمْـتُ فاهـا آخِـذًا بقُرونِهـا   شُرْبَ النَّزِيف ببَرْد ماء الحَشْرَج

قال عمر:

ـ أجل قلت ذلك.

صرخت فيه:

ـ قم فاخرج عني يا فاسق.

فوجئ عمر بعبيد لم يدر من أين جاءوا، انهالوا عليه ضربًا بالعصي. تركته الفتاة دون أن تبالي بصرخاته، جاءت المرأة وعصبت عينيه وقادته إلى مضربه.

في اليوم التالي جاءت نفس المرأة، كان كل جزء من جسمه يتألم، قالت:

ـ هل لك في العود؟

وبرغم ما يشعر به من ألم وافقها على الفور، اختلطت في مشاعره لذة الظفر بالأنثى بالألم الذي يتكبده في سبيل ذلك، الأنثى الصعبة تظل دائمًا مشتهاه، عصبت المرأة عينيه حتى انتهى لموضع الليلة السابقة، هاجمته رائحة العطر والبخور، رفعت العصابة فرآها أشد جمالًا وبهاء.

قالت:

ـ إيه يا فاضح الحرائر؟

قال عمر:

ـ بماذا جعلني الله فداءك؟

قالت:

ـ ألست القائل:

وناهِدَة الثَّدْيَينِ قلتُ لها اتَّكي   على الرَّملِ من جَبَّانةٍ لم تَوَسَّدِ

ثم صرخت صرختها المعهودة:

ـ قم فاخرج عني يا فاسق.

وجاء العبيد، وتركت العصي آثارًا حمراء فوق جسده، دون أن يدري، كانت الضربات تبعث داخله نوعًا من نشوة سادية، بدلًا من الرغبة المستحيلة التحقيق، لكنه استطاع أن يغمس كفه في إناء صغير فيه طيب، وعندما عصبت المرأة عينيه أخذ يتسند حتى طبع كفه المخضبة بالطيب على باب الخيمة، وفور أن عاد جمع غلمانه بسرعة، وقال لهم:

ـ أيكم يدلني على باب خيمة عليه أثر طيب كأنه كف، فهو حر وله خمسمائة درهم.

انتشر غلمانه، لم يلبثوا أن عثروا على الخيمة. سار معهم، فإذا الكف ما زالت طرية، وإذا الخيمة لفاطمة بنت الخليفة الأُموي عبد الملك بن مروان. وجاء الصباح فرحل الركب، لكنه امتطى جواده وتبعهم، فزعت فاطمة، أرسلت إليه الجارية، قالت:

ـ ويحك! ما شأنك وماذا تريد؟ انصرف ولا تهدر دمك.

لم يخفه التهديد، قال:

ـ لست بمنصرف حتى تبعث لي قميصها.

ترددت الجارية قليلًا ولكنه ظل مصرًّا، ذهبت وأحضرت القميص الذي طلبه، شم فيه الرائحة نفسها التي كان يشمها كلما توجه معصوب العينين إلى خيمتها، وزاد هذا من حدة شغفه،

حتى الرغبات «الفتيشية» لم تتركه، لا يعرف العار ولا الخجل ولا الخزي، إنه صريح في مواجهة نفسه والآخرين، يقف على الشعرة الفاصلة بين الوله والشذوذ، يتحمل الضرب والإهانة، ويقنع من الغنيمة بأقل الأنصبة، لعل هذا كان الأسلوب الوحيد المتاح أمامه، إن إحساسه الشديد بالخواء والسأم يدفعه للحديث أو للحركة، لأن احتكاكه بالكائنات الحية هو الوسيلة الوحيدة لإبقاء حيويته، فالسأم وسط الصحراء هو الجحيم، لا يدفعه بعيدًا ولا يبعث فيه الحيوية إلا المرأة، هي الجزء الآخر، مناقض ومكمل له، هي الأكثر إحساسًا به، الأكثر تفهمًا وتعاطفًا وتذوقًا لأشعاره، كل الرجال لا يفهمونه، ويشعرون بالاشمئزاز من تصرفاته، يقيمون وفقًا لكل القيم التي يؤمنون بها، لا يغفرون له أنه يختلف عنهم، لا يعنيه في هذا العالم الواسع المليء بالمشاغل إلا المرأة، لا ينشغل عنها بأي من هموم الحياة اليومية، هو الرجل الأمثل الذي ينشغل بها دائمًا، ويبحث عنها إلى آخر العمر.

وهو يختلف عن الفرزدق، على عكس ابن أبي ربيعة لم يكن وسيمًا ولا ناعمًا، كان ضخم الرأس، متجهم الوجه، وقد سُمي بالفرزدق لأنه أحد أسماء رغيف الخبز، ولكنه مثل ابن أبي ربيعة كان مولعًا بالنساء، لكن مدخل كل منهما للمرأة مختلف، الفرزدق مخادع، عندما شب اكتشف أنه فقير، ضيع جده وأبوه ثروتيهما من شدة الكرم، وكان جده هو محيي الموؤودات، لأنه كان في الجاهلية يتدخل دومًا لإنقاذ البنات التي يوشك أهلهن على وأدهن خشية إملاق، وكان يدفع من ماله فداء لهن، وكان أبوه لا يأكل وجبة

بمفرده ولكنه يحيط نفسه بضيوف لا ينتهون. وهكذا لم يرث الفرزدق منهما إلا الإفلاس، وأصبح كرمهما في نظره نوعًا من الحماقة، وتعود منذ صغره أن يلجأ للخديعة ليأخذ ما يريده. كان يرى أن النساء مخلوقات أقل أهمية وأدنى مرتبة، لذا فمن اللائق ألا يحترمهن، يخدعهن بلا هوادة حتى يظفر منهن بما يريد، حتى النوار ابنة عمه، والجواري اللائي وعدهن بالزواج، والقابلة التي خدعها على طريق مكة، مع كل واحدة لبس ثوبًا مختلفًا، وحين يأخذ ما يريد يمضي دون أن يلتفت، كل امرأة عرفته شعرت بمرارة الخديعة، شعرت بالخوف منه والحقد عليه. لكن إحساس المرأة تجاه عمر يختلف، إنها تعرف منذ البداية أنه يستحيل أن يكون زوجًا أو عشيرًا وفيًّا، إنه عابر سبيل، رفيق لا يخاطب عواطفها ولا يطلب عشقًا وسهادًا، يعطي نفسه حتى آخر قطرة من دمه وينفق كيسه لآخر دينار، وهو حين يعطي يكون حريصًا على أن تكون القسمة عادلة بينه وبين المرأة التي يعشقها، إن أعظم مصدر لسعادته حين يراهن سعيدات، ناسيات في نشوة سرورهن هموم الحياة الرتيبة خارج الصحراء.

ثم كان أن قابل الثريا، امرأة مختلفة، جذوة لا تخمد، وحشية الجمال، نموذجًا للجمال الصحراوي، يجري في عروقها دم نزق مجنون توارثته من جدتها عبلة بنت عبيد التي أرسلها زوجها إلى سوق عكاظ لتبيع أواني السمن، ومعها ابن أخيه، فباعت السمن والناقتين ورهنت ابن الأخ وصرفت المال على هواها وهربت. تدفق هذا الدم في عروق الثريا فنزعت الأحجبة، وألقت بكل النواهي،

وتعرضت للرجال بجمالها، لا يقدر أحد أن يتجاهلها، ولا يستطيع أحد أن يمتلكها. وعندما تقابلت هي وعمر أدرك كل منهما أنه قد قابل صنوه، وبرغم كل التقلبات ظل الرباط بينهما قائمًا، كانت تعرف أنه لا يصلح زوجًا، وكان يعرف أنها لن تكون إلا خليلة، فكمية النزوات بداخل كل منهما لا تستقيم معها أي حياة زوجية.

كان سائرًا في الطريق إليها، قابل بعض الرعاة قادمين من ناحية الطائف، سألهم عن الأخبار، قالوا إنهم سمعوا بوفاة امرأة اسمها يطابق اسم نجم من السماء، أصابه الجنون، وشعر بالكون يختل من حوله، حث جوّاده على السير من أقصر الطرق وأخشنها، وصل لاهثًا فوجدها سليمة تقول ضاحكة:

ـ أنا أمرتهم بذلك لأختبر ما لي عندك.

كانت تعرف كيف تسوسه، وكان معها يفتقد حذقه المعهود، يرسل إليها الرسل فتردهم بتعالٍ:

ـ إن ابن أبي ربيعة فارغ ونحن في شغل.

كانت تعطيه أحاسيس متناقضة، روضت عواطفه وجعلته يختصر كل نزواته الجامحة في نيل رضاها، أحس أنها امرأة فيها كل النساء، حنونة كريح الصبا، عنيفة مثل ريح السموم، لا يوجد حد فاصل بين رضاها وغضبها. حدث أن عمر أتاها ومعه صديق له، ولما كشفت الستر وأرادت الخروج إليه رأت صاحبه فرجعت، قال عمر ببلاهة:

ـ هذا صديقي، لا أحتشمه ولا أخفي عنه شيئًا.

واستلقى وهو يضحك، خرجت الثريا وضربته بظاهر كفها، كانت

تلبس خواتم في أصابعها العشر، لذا يطلق عليها «المختمة»، صرخ عمر والدم ينزف من فمه، تكسرت أسنانه الأمامية، وقد اضطر بعد ذلك للسفر إلى البصرة لمداواتها بالذهب بعد أن اسود لونها، وظل السواد في فمه كالذكرى المؤلمة. لقد تركت الثريا في نفسه كثيرًا من الجروح، وحين فكرت بطريقة عملية اختارت زوجًا آخر، وقبلت أن ترحل مع زوجها إلى مصر بعيدًا عن موطن الذكريات والفضائح القديمة، وعرف عمر بموعد رحيلها، سافر حتى لحقها في منتصف الطريق، جلس يعاتبها ويبكي، لكنها قالت في بساطة عملية:

ـ ما جدوى العتاب وهذا وقت الرحيل؟ أخذت منك الذكرى وتركت لك اللوعة، ستشفى من لوعتك، وستبقى لي ذكراك.

خرجت الثريا من حياته مثلما دخلت بإرادتها، ودعت الصحراء كلها من أجله، بينما ظل عمر أسير الرمل والهضاب والصبار، مرت سنوات طويلة، وذاب الشباب من بين أصابعه، أصبح شيخًا، لكنه لم يكف عن السعي، لعل هناك مغامرة لم يصبها بعد، وبرغم وهنه فقد رأى امرأة جميلة، ظل يسعى خلفها وهو يلح كالذبابة، ولما لم تستجب، ظل يتبعها ويصف ثيابها:

الرِّيحُ تَسْحَبُ أَذيالًا وتَنشُرها ... ياليتني كنتُ ممَّن تَسحَبُ الريحُ

وظل يهتف بالأبيات. قالوا لها:

ـ اذكريه لزوجك.

قالت:

ـ كلا، لا أشكوه إلا إلى الله.

ثم هتفت:

ـ اللهم إن كان نوه باسمي ظالمًا، فاجعله طعامًا للريح.

وضرب الدهر ضربته، كان يعدو فوق جواده فهبت ريح قوية، نفس الريح التي كانت تواتيه وتقوده في شبابه، لكنها أطاحت به، سقط من فوق الجواد، ألقته على شجرة من أشجار العضاة يابسة، أشواكها حادة ومسنونة، انغرست في جسده، قيدته إلى أرض الصحراء، ذهب جسده بددًا في الرمل الشاسع، لم تُبق الريح لجسده من أثر.

١٥

قيس بن الملوح

الموت عشقًا

يبدأ أبو الفرج رحلته إلى ديار بني عامر وهو يطرح على نفسه سؤالًا متشككًا:

ـ هل كان لقيس بن الملوح وجود حقيقي؟

في أيامه الأخيرة لم يكن يراه غير ظباء الوادي، تلك التي تحدق فيه بعيونها الواسعة الحزينة فتذكره بعيني ليلى فيزداد ولعه. لم تكن الظباء تنفر منه، فقد ألفت وجوده بعد أن اكتسب رائحة البرية التي يعيش فيها، كان يسعى فوق رمالها، لا يستر جسده غير خرق بالية، زائغ العينين، يداوم البحث عن شيء لا وجود له، وإذا صادف وتقابل مع عابر سبيل أو ضائع مثله، كان يسأله:

ـ أين أنا من ديار بني عامر؟

وكان الجواب يأتيه مستغربًا وهازئًا:

ـ أنت على حدود العراق، اتبع هذه الفلوات واتجه جنوبًا.

كان يدير موطئ قدميه ويمضي، فوق الرمل الخادع، تحت الشمس المعادية، تتفتح جراح قلبه كأخاديد الصخور، ويمتد الصبار حتى

عظامه، بعد مسيرة طويلة ومنهكة، يصل إلى أول الأحياء المعمورة، يسأل من يقابله:

ـ أين أنا من ديار بني عامر؟

يأتيه الجواب مستغربًا:

ـ أين أنت منها؟! أنت في اليمن، اتبع هذا النجم وامض شمالًا.

تشابهت مسالك الصحراء، واختلط الليل بالنهار، وباتت الحياة على حافة الموت، تشابهت الشمس ووجهك يا ليلى، كلاكما قاسٍ وبعيد المنال، طاب مساؤك أيتها النجوم، يا مضللتي، يا جبل «التوباد»، يا ذاكرتي، لحظات المتعة القليلة التي تجمدت كصخورك، يا كل الطلول والمراعي والعيون التي شهدت لمسة أو قبلة أو فراقًا بلا وداع، وعم مساؤك أيتها الجراح التي استعذبت نزيفها، يا أيها الجنون، يا بلسمي الشافي حين عز الدواء وحان الموت، غيبت عقلي حين تضاعف الألم، وأنقذت بقية من روحي، على الأقل حتى تبقى الذكرى بداخلي، وطاب صباحك يا ليلى.

بعد سير طويل عاد أبو الفرج خائب المسعى، وكتب في سفره: سألت بني عامر بطنًا بطنًا عن مجنون بني عامر، فما وجدت أحدًا يعرفه، أو يذكر قصة عشقه.

كان واضحًا أن كل من سألهم ضللوه، أنكروا أشعار قيس، وكذبوا أخباره، تنصلوا من كل ما يربطهم به، ولكن أبا الفرج كان يسمع لهاث أنفاسه التي أضناها القنوط، ودبيب أقدامه التائهة، يرى ظله وهو يتداعى خلف العيون اللامبالية، ذهب إلى راوية القبيلة، الرجل الذي يحفظ في ذاكرته كل الأنساب والأشعار، سأله:

ـ أتعرف المجنون؟ أتروي شيئًا من شعره؟
قال الرجل باشمئزاز واضح:
ـ أوَقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي شعر المجانين؟!
حمل أبو الفرج أوراقه الممزقة وسار بين الخيام، رأى جذوات النار الخابية، لم يبق منها إلا الرماد، كل أحاديث الحب وأشعار الصبابات، مجرد رماد، ذهب إلى شيخ القبيلة، استحلفه بمكانته أن يقص عليه أخبار مجنون بني عامر الذي قتله العشق. هتف الرجل في سخرية حقيقية:
ـ هيهات، أنا أعرف قومي جيدًا، بنو عامر أغلظ أكبادًا من هذا، إنما يكون هذا في القبائل الضعاف قلوبها، السخيفة عقولها، الصلعة رؤوسها.
ورفض أبو الفرج أن يتناول قهوته، واحتج بأن التمر يهيج معدته، كان ممتعضًا من حالة التعتيم المبالغ فيها. اصطحبه رجل عجوز يعرف كل أسرار القبائل ويجيد التحدث في الأسرار الخفية، قال له بجدية:
ـ إن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أُمية كان يهوى ابنة عم له، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون، واختلق الأشعار التي يرويها الناس ونسبها للمجنون أيضًا.
والتبس الأمر في ذهن أبي الفرج، أكان يسعى خلف وهم إذن؟ أسماء كاذبة وأشعار منحولة، لم يكن هناك قيس، لم تكن هناك ليلى، أوَيعجز البشر عن عيش هذه الحالة من العشق الغريب المدمر

فينتحلون له الوقائع؟! حتى الأعرابي الأخير الذي قابله وسأله، رد عليه باهتمام بالغ:

ـ عن أيهم تسأل؟ فقد كان فينا جماعة رُموا بالجنون، فعن أيهم تسألني؟

وشعر أبو الفرج ببادرة الأمل، فسأل بلهفة:

ـ عن ذلك الذي كان يشبب بليلى العامرية.

هز الأعرابي كتفه:

ـ كلهم كان يشبب بليلى، عامرية كانت أو غير ذلك.

وانطلق يقص الأخبار ويروي القصائد، وتداخل كل شيء، فلم يستطع أبو الفرج التدوين، وفي النهاية اكتشف أن الرجل كان يكذب أيضًا، ألقى الريشة والورق وصرخ في حنق:

ـ يا قيس، هل أنت موجود؟

وحملت الريح صدى النداء عبر فيافي الصحراء، والربوع المهجورة، كان قيس وحيدًا وسط سرب من الظباء، يقص عليهم قصته ويروي أشعاره، والظباء تهز قرونها الصغيرة، لا تفهمه لكنها لا تنفر منه، يؤكد لها أن ليلى تشبهها تمام الشبه، ظبية حزينة ألقى الصائدون لها الشباك، خيروها بين الحب وتحمل العار، أو الحياة بقلب ميت، وهل تملك الظباء الاختيار وهي تتخبط في الشرك؟ كان جسده العاري قد تلون بلون الصخر الداكن، واستطال شعره حتى غمر وجهه، لم يبق غير عينين تتألقان بفيض غريب من الوهج حين يأتي ذكر ليلى، كم هي نائية، لكنها آخر ما يربطه مع العالم

من خيوط. يعدو مع الظباء، ينام في أوكارها، ويشرب من مناهلها، ويختبئ خوفًا من الصيادين.

في اللقاء الأخير تسللت أمه دون أن تخبره وذهبت إليها، وقالت وهي تبكي:

ـ إن قيسًا ذهب حبُّك بعقله، ترك النوم والطعام، فلو جئته هنيهة من الزمن، ربما رجع إليه بعض من عقله.

تغير وجه ليلى، كانت أوامر المنع مشددة، والسيوف مشرعة، لكنها قالت:

ـ أمَّا نهارًا فلا سبيل إلى ذلك، لأنني لا آمن من قومي على نفسي، ولكن قد أقدر على ذلك ليلًا.

وحل الظلام فسارت إليه، ارتجفت الأيدي وهي تتلامس، وامتلأ الليل بحفيف الأنفاس الغامضة، قال مبهورًا:

وإنِّي لأخشى أن أموتَ فُجَاءةً   وفي النَّفس حاجاتٌ إليكِ كما هيا

وإنِّي ليُنسِيني لقاؤكِ كلَّما   لقِيتُكِ يومًا أن أَبُثَّكِ ما بيا

كان جائعًا للمسة حنون، وتكورت النجوم على سفح «التوباد»، واختلطت مع الحصى وبقايا الأغنام، حينما كانا صغيرين يرعيان معًا، والسماء تصب زرقتها الصافية داخل قلبيهما، كانت أمامه، ترفع طرف الخيمة وتدخل قلبه مثل أمنية مستحيلة. بكت أمه في خبائها دون صوت، لم تشأ أن تخبره بما فعلت خوفًا من أن يتبدد الموعد وتزداد مرارة الحرمان. نظر إلى ليلى، ابتعد يتأملها. تأوهت النار، وتطاير شررها كأسئلة حائرة، ظل يتمتم بحروف اسمها كأنما يردده للمرة الأولى، يخطها بيد رقيقة على قلبه، مثلما ينقر عصفور صغير:

تَعَلَّقتُ لَيلَى وهي ذات ذُؤَابةٍ ولم يَبْدُ للأتراب من ثَدْيها حجمُ
صغيرين نَرعَى البهمَ يا ليتَ أننا إلى اليوم لم نَكبَر ولم تَكبَر البهمُ

وضعت يدها على فمه حتى لا يهذي بالمزيد من الأشعار، قالت:

ـ هذه ليلتنا الأخيرة، وهذا آخر عهدي بك.

تطلع إليها غير فاهم، واصلت القول برفق:

ـ وافق أبي على زواجي من «ورد»، وفي الغد سوف يحملني معه إلى ثقيف.

ظل يتطلع إلى شفتيها وهي تتحرك، كأن الكلمات تقولها شفاه أخرى، ما جدوى الحياة إذن؟! أن تضيء النجوم وتدفع الشمس داخله بالقيظ والمرارة، هي له، برغم معاداة الأهل، وبرغم دمه المهدر، هي له، منذ تلك اللحظة التي رآها فيها جالسة وسط نسوة من قومها، نزل على مضاربهن وجلس يتحدث ويروي الشعر، كان هذا شيئًا عاديًّا، لكن فتى آخر يُدعى «منازل» جاء، تركته النسوة وانصرفن إلى الوافد الجديد، ولم يبق معه إلا هي، تتشرب كلماته، تعطيه أهمية مضاعفة، قرأ في عينيها أنها تريده، وتوقف الزمن، واستيقظت القبرات من نومها، كلما هبت الخزامى رددت اسمها، وكلما سرى أقحوان الرمل التقيا معًا، فما جدوى أن تحمل إلى ثقيف ولا يحملان معًا إلى قبر واحد. واصلت التوسل إليه:

ـ لا تذهب إلى قومي، لا تسأل أحدًا عني، لقد أهدر السلطان دمك إذا اقتربت من ديارنا.

صرخ فيها:

ـ الموت أروح لي، فليتهم قتلوني.

كانت هي التي تقتله، تعطيه الجنون مخدرًا قبل أن تجهز عليه، قد ترحل، وتتعزى، وقد تنسى أيضًا، قد تكتشف أن زوجها ليس بالسوء الذي تصورته، وأن الحب لا يحتاج لكل هذا القدر من المرارة، لعلها لم تكن تريد إنقاذ حياته بقدر ما تريد ألا تزيد من إحساسها بالذنب، كان هو يحترق، يترك يده وسط اللهب دون أن يحس بلسعتها، يختلط الحب بالاعتذار، والوداع بالخوف، قالت:

ـ سوف أمضي.

غارت النجوم وتولى الليل، لكنها لم تفعل، هبط القمر، وألقى «التوباد» بظله الكثيف عليها، وخمدت النيران، حاول احتضانها، لكن لحظة الوداع الأخيرة كانت مليئة بالخوف والارتباك.

الظباء ترحل وتعود، لكن ليلى رحلت دون عودة، ذهب إلى حيها فلم يجد أحدًا، دخل إلى منزلها الخاوي، رأى مكان نومها، وبقية آثارها، جزء من الحياة لم يمت بعد، ألصق صدره بالتراب، وأخذ يمرغ وجهه ويبكي، أصبح وحيدًا في الخلاء الواسع، في داخله افتقاد مرير، لم يخدعه أحد، وحدد أبوها موقفه منه بصراحة، اعترض مستنكرًا:

ـ لقد فضحت ابنتي في أشعارك، ولو وافقت على ارتباطك بها فكأنني أفضح نفسي وعشيرتي وآت بما لم يأته أحد من العرب وأسم ابنتي بميسم الفضيحة والعار!

تمتم قيس لنفسه في حسرة: ليتني خرست ولم أقل الشعر، ليت النخل يكف عن الارتحال، وأن تتبدد زرقة السماء وتحل بدلًا منها

صفرة قاتمة. ندم قاتم، ما أوحش الخلاء، وتعاويذ أمه، وسخط أبيه، واستهزاء قومه، وفقدان ليلى.

حين أراد التعزي خرج مع بعض من فتيان قومه، مروا في طريقهم بجبلي النعمان، قالوا وهم يعابثونه:

ـ قد كانت ليلى تنزل بهما.

توقف ملهوفًا:

ـ فأي الريح يأتي من ناحيتهما؟

قالوا:

ـ الصبا.

قال:

ـ فوالله أديم على هذا الوضع حتى تهب الصبا.

مضوا وتركوه مشرئبًّا خمسة أيام كاملة، وهبت الريح فإذا جسد ليلى يتضوع عطرًا، وهتف قيس:

فـإن الصَّبَا ريحٌ إذا ما تنسَّـمَتْ   على نَفْسِ محزونٍ تجلَّتْ هُمُومُها

فليوقفوا هبوب الريح إذن.

التفتت حوله نسوة الحي، هتفن به:

ـ ما الذي فعلته بنفسك من هوى ليلى؟ إنما هي امرأة من النساء، اصرف هواك إلى إحدانا فنساعدك ونجزيك بهواك، ونُرجع إليك ما ذهب من عقلك وجسمك.

اجتمع أهل الحي إلى أبيه، قالوا له:

ـ احجج به إلى مكة، ادع له الله، اطلب منه أن يتعلق بأستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه من حبه ويبغض ليلى إليه.

ألح عليه أبوه، توسل إليه، واستحلفه باسمها حتى سار معه إلى مكة، ثم عاود التوسل:

ـ يا بني، تعلق بأستار الكعبة، اسأل الله أن يعافيك من حبها.

تعلق قيس بأستار الكعبة وهتف بكل ما في قلبه من وجد:

ـ اللهم زدني لليلى حبًّا، وبها كلفًا، ولا تنسني ذكرها أبدًا.

دعاء فاصل وقف به على حافة الجنون، شعر أبوه باليأس منه، اقتاده إلى مِنى ليقضيا الليل مع بقية الحجيج، وحين هجع كل شيء، وخفت الابتهالات، دوى صوت من أسفل الجبل، ينادي اسمها، لم يسمعه سواه، لم يرتعد له سواه، صوت جياش باللهفة الجائعة، استيقظ صارخًا:

ـ لبيك يا ليلى.

واستيقظ بقية الحجيج:

ـ لبيك اللهم لبيك.

لكنه هرول وسط الصخور:

ـ لبيك يا ليلى.

تعثر في الأجساد النائمة، والصوت يجذبه، يهوي به، حاولوا منعه وإمساكه، واصل الصراخ والصدى يبدد الصرخات ويرجع النداء، أفلت منهم ومضى بعيدًا، حيث ينتظره الموت في مكان مجهول.

أنهك التعب أبا الفرج، أوراقه مهترئة لا تحمل إلا أخبارًا مبتورة وأحاديث كاذبة. ذهب إلى علّامة بغداد الجاحظ، كان منكبًّا يؤلف كتابه الضخم عن «الحيوان»، هتف به:

ـ أتوسل إليك يا سيدي الجاحظ، حدثني عن مجنون بني عامر، أهو موجود، أم مختلق؟

ابتسم الجاحظ ابتسامة زادت من دمامة وجهه، وقال:

ـ تعني ذلك الإنسان الذي أصبح حيوانًا؟

دمدم أبو الفرِج في غيظ:

ـ ليكن ما يكون، إنسانًا، حيوانًا، نباتًا، هل كان له وجود؟

أجاب الجاحظ في غموض:

ـ كان موجودًا، ولم يكن موجودًا.

وأوشك أبو الفرج أن يبكي.

يعشق أو لا يعشق، تلك المسألة، لقد كان سيد قومه، وسيط النسب، معروفًا بثقته الشديدة بنفسه، كان مُهيَّأً لأن يصنع الكثير، أن يغدو أعظم وأرق ما شاهده العرب من شعراء، لكنه فجَّر في العشق كل طاقته، سخَّر له كل ما يعرف من كلمات وقصائد ولحظات العمر، تمزقت ثقته بنفسه مثل ثوب قديم فصار عاشقًا ضعيفًا عاريًا، لم يسخط قَطُّ على ليلى، برغم كل التقلبات، حتى في أول العشق عندما اكتشف أن له منافسًا يدعى «معاذًا» هتف معزيًا نفسه:

ـ كلانا يا معاذ يحب ليلى.

وعندما وعدته قبل أن يجن أن تزوره وظلت تماطله، وإجراءات زواجها من «ورد» تسير كقدر محتوم، ذهب إلى ديارها وجلس مع نسوة يحدثهن عنها ويبكي وهي تسمعه:

أطعتُه وعصيتُ الناس كلَّهُمُ في أمرِه وهواه وهو يَعْصِيني

لم تف بوعدها برغم ذلك، وعندما اشتهر أمره بها، وتناقل الناس أشعاره فيها، وذهب يخطبها، بذل خمسين ناقة حمراء، ولم يبذل لها «ورد» سوى عشر نوق فقط، قال أهلها:

ـ نحن مخيروها بينكما، فمن اختارته تزوجته.
ودخل أبوها إليها ويده على مقبض سيفه، صاح بها:
ـ والله لئن لم تختاري وردًا لنمثلن بك.
لم تكن أكثر من ظبية مرتعدة، فاختارت وردًا، تركت لقيس الخلاء والجنون، وقف يرقب رحيلها إلى ثقيف عاجزًا عن السخط، عاجزًا عن الشعور بالحنق، الأمر الذي قد يخفف من مدى مرارته، كان حبها نوعًا من القضاء والقدر لا مرد له، ثابتًا لا يتزعزع، لا يملك إلا أن يهتف:

لقد رسَختْ في القلب منكِ مَودةٌ كما رسَختْ في الراحتين الأصابعُ

تحول العشق إلى تسليم لاإرادي عاجز، واستبدل الحرمان في الحياة بنوال كامل في العالم الآخر حين يحشران معًا يوم القيامة.
لم يكن لليلى العامرية شكل محدد، حين سألوه عنها وصفها بكل ما هو جميل وصعب:

تـكادُ يدي تَنْدَى إذا ما لمسـتُها ويَنبتُ في أطرافها الورقُ النَّضرُ

إنها القمر حين الظلام، والمطر وقت العطش، والنجم في ليله، وهي كل شيء إلا أن تكون امرأة من لحم ودم. عندما مر برجلين قد اصطادا ظبية وربطاها بحبل، نظر إليها وهي تركض مقيدة، كانت تشبه ليلى، لحظة أن ودعته، بعد أن وضعت أناملها على جبينه وابتسمت دامعة، قال للرجلين:
ـ اتركاها وخذا مكانها واحدة من إبلي.
ورضي الرجلان بالصفقة، وتركا الظبية تفر منهما ومنه، همهم:

يا شبه ليلى لا تراعي. لكن ليلى بعيدة، تفر مثل ظبية، وعندما تعذر منالها وأصبحت بالنسبة إليه شيئًا مثاليًّا لا يمس، ولا يتصور أن يمسه أحد غيره، اكتسبت من بعدها لاواقعية غير محدودة، وبلغ الأمر غايته من الألم حين قابل وردًا ذات مرة، فسأله مباشرة:

بِربِّك هل ضَمَمْتَ إليكَ لَيلَى   قُبيـلَ الصُّبـح أو قَبَّلْـتَ فاهـا

وأجاب «ورد» ببساطة:

ـ اللهم إذا حلفتني، فنعم.

وقبض قيس بكلتا يديه على قبضتين من الجمر، ما فارقهما حتى سقط مغشيًّا عليه، وسقط مع الجمر لحم راحتيه، ولم يفعل «ورد» أكثر من أنه هز كتفيه، ومضى.

وظل أبو الفرج سائرًا، أوقفوه أمام باب صومعة وقالوا له:

ـ إن «نظامي» شاعر فارس الكبير في الخلوة ولا يقدر أحد على إزعاجه.

سألهم عن ميعاد انتهاء الخلوة، فابتسموا في رثاء:

ـ وهل يتبدد الوجد؟ وهل ينسل المحب من محبوبه؟

لم يفهم شيئًا، أقعى جالسًا جنب السور، وامتلأ الجو بتمتمات الدراويش وهي تصوغ أدعية التبتل بلهجة غريبة وغامضة. مر به موكب للصوفية، لابسي الخرق محنيي الظهور، هتف في حيرة:

ـ يا نظامي أجب مسألتي، وخفف من حيرتي.

رأى «نظامي» أمامه، خارجًا من الصومعة في ثوبه الأبيض، وشعر رأسه الأشيب منسدل على كتفيه، يتطلع إليه في تساؤل، قال أبو الفرج بسرعة:

ـ جئت أسألك عن قيس بن الملوح الذي أحب ليلى العامرية، هل كان موجودًا؟

ابتسم «نظامي»، تخلل لحيته بإصبعه، ثم قال مؤكدًا:

ـ أجل، قيس كان موجودًا، لكنِ الأرجح أن ليلى لم تكن موجودة.

وألقى أبو الفرج الورق والأقلام، أخذ يضرب الأرض بقدميه:

ـ يا لها من مسألة! يا لها من حيرة!

كان «نظامي» يشرح، لم تكن ليلى امرأة، كانت رمزًا لكل صبوات الوجد، ما من شاعر عشق إلا وهتف باسمها تبتلًا، وما من أحد حلم بامرأة إلا وكانت صورتها هي التجسيد الذي يراه، لكن قيسًا هو الذي أكمل رحلة الوجد للنهاية، وختم بموته دائرة العشق، هناك في بلاد بعيدة اسمها اليونان، امرأة اسمها «هيلانة»، أشعلت نيران الحرب بينهم بسبب نزوة عشق، أشعلت شرارة الشهوة في نفوس الفرسان، فماتوا وهم يظنون أنهم يعشقون، هذه المرأة تشبه ليلى عند العرب، ولو أنها لم توجد لابتدعوها.

الجنون لم يصب قيسًا، إنما طغى شعوره على سلطان عقله، فاضت عاطفته من القلب فملكت حياته، لقد دخل أول درجات الوجد، أول درجات المحبة الخالصة، وارتقى بالتأمل إلى ما بعد الشكل الجسماني المحدد، لم يقف عند صفات ليلى المادية، ولكنه رأى الروح السابحة في الملكوت، ما خلقت العين إلا كمرآة، فيها آلامنا، وفيها جمالنا، وفيها قبورنا، والعين ترى ما تريد أن تراه، والروح تهفو للارتقاء، لم تكن ليلى جسدًا يحتضنه قيس، بل كانت مدارًا يدور حوله كالنجم التائه.

ولم يفهم أبو الفرج أي كلمة، لم يحس بالحيرة وهو يتتبع أخبارًا كما أحسها الآن، ودلو يلقي بالأمر كله خلف ظهره وينساه، لكنه نظر في حيرة إلى «نظامي»، أكبر شعراء فارس وأحد أقطاب الصوفية، وهو يجزم أن ليلى عاشت عذراء، لم يمسها بشر، لا قيس ولا زوجها، وظلت كذلك حتى ماتت وفرجها لم يمس. وفكر أبو الفرج: هذا مستحيل، هذا غير بشري، إن الأخبار التي جمعها تؤكد أن الأمور لم تكن كما يعتقد «نظامي» أبدًا، لا يعني هذا إلا أن «نظامي» قد أطال مقامه داخل صومعته فأنساه ذلك كثيرًا من الطبائع البشرية. كانت في أوراقه رواية مؤكدة، على الأقل تؤيدها أبيات من الشعر دقيقة الوصف، ففي لقاء قيس مع ليلى لم يقتصر الأمر على التنهد والتحسر، ولم يقف عند حد القبلات، ولكنه:

فإن كان فيكم بَعلُ ليلى فإنني وذي العرش قد قبَّلتُ فاها ثمانيا
وأشهَدُ عند الله أني رأيتُها وعشرون منها إصبعًا مِنْ وَرَائِيا

يقسم قيس إنه لم يكتف بالقبلات، ولكن كانت هناك عشرون إصبعًا لليلى متشابكة خلف ظهره؛ وضعٌ غير طبيعي يخالف ما عرفه العرب في شأن العشق والحب العذري، فقد كان للعشيق النصف الأعلى من الجسم، ضم وتقبيل ورشف، وللزوج النصف الأسفل. وقد اجتمعت جارات ليلى وألححن عليها في شأن علاقتها مع قيس، وهل توقف فقط عند النصف الأعلى كما هو مألوف؟ فقالت في صوت خافت:

ـ ألم تسمينه بالمجنون؟! إنكن لا تعرفن العُشر مما خبرته! وهل هناك حد يقف عنده المجانين؟

وقبل أن يشرح أبو الفرج بعضًا من حقائق الحياة على حافظ الشيرازي، أقبل أعرابي من بني عامر، معفر بالرمال وهمس في أذنه:

ـ اليوم يشيع جسد قيس.

تمتم أبو الفرج مدهوشًا:

ـ أوَقد عثروا على جثته؟

وهرع إلى مضارب القبيلة، رأى أباه يبكي ويشير إلى الجسد المسجى أمامه، شديد النحول كأنه على وشك التلاشي، مليئًا بالجروح وآثار المخالب، قال الأب من خلال دموعه:

ـ والله ما كانت تطمع في مثله.

حين لحقه الخبل، هام في الفيافي وجدًا عليها، حبسوه وقيدوه، فأخذ يعض لسانه حتى خشي الجميع أن يقطعه، خلوا سبيله وتركوه ينطلق، اختلطت آثار أقدامه بحوافر الوحوش والظباء. وتعودت أمه أن تخرج كل يوم فتضع طعامًا على حافة التل، لعله يأتي ويأكل، في أيام لم يكن يُمس الطعام تقريبًا، وفي أيام أخرى كان يُؤكل عن آخره، لم تكن تدري، أهو الذي يأكل حقًّا أم أنهم رفاقه من الوحوش، لكن ذلك كان يعطيها بعضًا من العزاء، إنه ما زال حيًّا، يربطه بأمه شيء ما، ثم مرت خمسة أيام والطعام بحاله لم يُمس، لا تقربه يد، ولا تقترب منه آثار، وكلما أبدلته عادت وأخذته كما هو، وفي صباح اليوم السادس، قالت لأبيه:

ـ قلبي يحدثني أنه مات.

همهم الأب:

ـ وكيف يموت وقد كان ميتًا؟

ألحت الأم عليه:

ـ اذهب وابحث عنه، ائتني به أو بجثته.

وخرج الأب، ورأى الجمع وجهه فساروا خلفه صامتين، تتبعوا أثره، حاولوا تمييزه عن آثار بقية الحيوانات، تلالًا صعدوا، ووديانًا هبطوا، حتى وصلوا إلى وادي الحجارة المسنونة، حاصرتهم الطيور السوداء وهي تتدافع في الفضاء، تصرخ بصوت حاد متواصل كنعيب النسوة، نظروا أسفل الوادي فرأوا جثته، قطعتها الأحجار مزقًا، وهشمت الرأس الذي لم يكف لحظة عن الهذيان بالحب، توقف القلب المضنى أخيرًا.

ضموا جسده في عباءة وعادوا به، استيقظت القبيلة كلها، أفاقت على عشقه القاسي ومصيره التعس. لم تبق امرأة، ولم يبق رجل، خرج وتذكر بعضًا من أبيات شعره، دماء قلبه، إلا وبكى. وقف أبو الفرج ذاهلًا وسط مظاهر الحزن الفاجع، هدم الرجال خيام القبيلة فأصبحت في العراء، ووقفت النسوة حاسرات الرؤوس، وجاء بنو عامر، جثا أبو ليلى أمام الجثمان الممزق وهتف في حرقة:

ـ والله ما علمت أن الأمر يبلغ إلى هذا المدى، لكنني كنت امرأ بدويًّا يخاف العار، زوجتها وخرجت من يدي!

نهض، نظر إلى صفوف الباكين، توسل إلى أبي قيس:

ـ لو علمت أن أمره يجري هكذا ما أخرجتها من يدي.

ورأى أبو الفرج الجسد المتكفن بالثوب الممزق وهو ينزلق بطيئًا في الهوة الرملية الفاغرة وتمتم محزونًا:

ـ كان موجودًا إذن؟

وتعالت الصرخات، أخذت النسوة يرثينه بكل أشعار الحب التي قالها، واقتربت الظباء النافرة، وقفت على أنقاض الخيام تتأمل رفيقها الوحيد وهو يغيب في جوف القبر، مكان راحته الوحيد الممكن، ثم ولت هاربة.

١٦

ديك الجن

الشراك منصوبة للشعراء

يـا طَلعةً طلـع الحِمـامُ عليها　　وجَنَى لهـا ثَمَرَ الـرَّدَى بِيَدَيْهَا
رَوَّيْتُ من دَمِها الثَّرَى ولطالَما　　رَوَّى الهوى شَفَتيَّ من شَفَتَيها

تنحدر الشمس خلف ضفاف نهر «بردي» الضحل، وما زال رسول السلطان يطوف بالمدينة وهو يصيح:

ـ لك الأمان يا ديك الجن، لك الأمان.

في يده راية بيضاء، وغرة الجواد بيضاء، لكنها شمس تموت ويأتي الصباح بشمس أخرى مخادعة، هذا المخبأ رطب، قبو أسود لا يألفه سوى الفئران والعقارب، والوحدة بالغة المرارة، يا ديك الجن ذهبت الصبوات العذاب واحترقت الشهب، وعندما يأتي الليل تدق الطبول فوق أبراج دمشق، لعله يسمع رجع الصدى:

ـ الأمان.. الأمان يا ديك الجن.

لا البيوت الشهباء، ولا الحدائق الوفيرة الخضرة، ولا السلطان الذي يترامى ملكه من البحر حتى الصحراء يمكن أن يمنح روحي الأمان،

انكسر المثلث وضاع طعم الأمان، ما جدوى الهرب إذن والتخفي، عليه أن يخرج من مخبئه، شهور الهرب كالسنوات تمر مضاعفة، تزيد من كثافة الغضون التي تكسو وجهه كقناع من شروخ، تمتد من أعلى الوجه حتى اللحية الكثة، سيفه ما زال في غمده، ما زال ملوثًا بالدم، وطوال شهور الهرب لم يجرؤ على غسله، آخر ما تعلق به من آثارهما، هي وهو، رفيقته في الفراش، ورفيقه في الصيد والطراد، زوجته وغلامه، المثلث الذي اعتقد أنه سيدوم ما بقيت الحياة، وقف ديك الجن أمام حاكم دمشق، أمرهم أن يحلوا عنه الوثاق الذي يحمل سيفه، قال:

ـ عفا عنك السلطان حقًّا، لكنه حرم عليك حمل السيف مدى الحياة، من المخزي أن تضع السيف في غير موضعه.

أخرجوه من غمده وألقوه في أحد الأركان، رأى الدم الجاف على نصله وقد أصبح داكنًا، رأى صورًا غريبة تذبل في حمص، وأمطارًا صافية تتحول إلى سيول، ورآها تبتسم من خلف الخمار، هتف لها بكلمات العشق، قالت محذرة:

ـ لا يأخذنك قلبك بعيدًا، الله خلق الأرواح ولكنه طبع الأنفس، كل بطابعه، أنت مسلم وأنا نصرانية.

كان اسمها «ورد»، اسم قد يوجد في أي دين، وحمص التي ارتفعت منها كل الأدعية وكل أنواع الصلوات يمكن أن تتقبل صلاة زائدة للعشق، لحظتها كانت السحب قريبة المنال، فلماذا أنا وحدي أحببت ثم قتلت، ما زال الحاكم يتكلم:

ـ كان السلطان قد أقام الحد عليك، لكن أحمد بن علي الهاشمي تشفع لك.

أشار للحرس آمرًا:

ـ أطلقوه.

فأطلقوه، ومضى.

وهاد الطريق المهجورة تعرف عبد السلام بن رغبان الشهير بديك الجن، تعرف أن سكان العوالم الخفية يصبون الشعر في فمه فيتحدث عفوًا بأعذب الكلمات، حتى إنه أهدى بعضًا من أبيات شعره لأبي تمام حتى يسترزق منه، ولِمَ لا؟ فالجنيات ترحل إليه من وادي عبقر إلى حمص، فتهديه الشعر طافيًا مطبوعًا، ومنها اكتسب كنيته وأخفى تحتها اسمه الحقيقي. رحل جده الأول من قبيلة تميم مع الفتوحات الإسلامية الأولى واستوطن حمصًا وأبناؤه من بعده، يقال إن هذا الجَد كان متشيعًا، شديد العصبية على العرب، وكان يردد دائمًا: «ما للعرب علينا فضل، جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم، وأسلمنا كما أسلموا، ولم نجد أن الله فضلهم علينا إذ جمعنا في الدين».

هل كان يشيد بفضل تميم على بقية القبائل، أم أنه كانت له جذور فارسية لم يكن يكل في الدفاع عنها؟ ولكن ديك الجن كان متشيعًا أكثر من جده، كانت له مراثي طويلة في ذكر استشهاد الحسين عندما سال دمه في كربلاء، وتشحذ قريحته عندما يستدير قمر عاشوراء وتبدأ طقوس الندم ومواكب التكفير من أجل الشهداء الذين اغتيلوا بلا ثمن. يقول عبد السلام أشعاره فتغدو مراثي عامة يحفظها الرجال وتنوح بها النساء.

لم يعد الراثي يرثي سوى نفسه، قد ناء حمل الندم عليه فضَل الطريق، توقف أمام خيمة يجلس أمامها رجل عجوز، سأله:

ـ يا عم، أهذا هو الطريق إلى حمص؟

تأمله الرجل مليًّا، وقال:

ـ ديك الجن يسأل عن حمص؟! إنما تُعرف حمص بك، وأي الطرق سرت إليها تحل حمص حيث حللت.

ابتلع مرارته وسار:

ـ كان هذا قديمًا يا شيخ، الرؤية زائغة والطرق متشابهة، وذات لحظة قديمة كانت الأقاويل أيضًا متشابهة.

ما قاله ابن عمه أبو الطيب هو نفسه ما قاله رفاق السحر وخلان الليالي: «ابتعد عنها، إنها لعوب، إن فيها نهايتك، هناك في الظل غلمان لا تعرفهم».

كان هو وغلامه بكر، يرتحلان تحت الشمس، يصيح به:

ـ شد قوسك يا مولاي حتى لا يذهب الطراد بعيدًا.

وطار الصقر بعيدًا ثم حط على جيفة. قال لها:

ـ ارفعي نقابك.

رفضت في المرة الأولى، ألح عليها فرفعته، رأى وشم الصليب، قالت:

ـ أما قلت لك، الآن تمضي مبتعدًا، تموت سريعًا إحدى قصص الحب في ليل حمص.

لكنه كان يحبها، أدرك هذا وهو يهتف متوسلًا:

ـ لو أنك تحبينني لتركت دينك وتزوجتني.

ابتسمت وأسدلت النقاب، صاح الغلام:

ـ يا مولاي لو أننا سرنا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ فسوف نصل إلى وادي الظباء.

وكان ديك الجن يحب غلامه، يربط بينهما عشق الصحراء الواسعة، وانطلاقة الجياد في الصباح، وسهم لا يخيب، وهدأة في الليل الدامس، خيمة صغيرة ونار موقدة، وظبي طازج لا يكاد يلفظ الروح حتى يتحول إلى شواء، ويقظة الفجر عند الينابيع البالغة البرودة عندما يخلعان ثيابهما ويغوصان معًا، رجلان حقيقيان، تتلامس جلودهما في مودة، فتزول الفوارق بين السيد وغلامه، يقابلان عرَّافًا تائهًا، سأله ديك الجن عن طالعه، قال العرَّاف:

ـ مثلما يتلوث سهمك بدم الظباء، يتلوث سيفك بدم الآدميين.

سأله الغلام عن طالعه، قال العرَّاف:

ـ الموت معلق على كتفيك، والموت يسير في ظلك.

لم يدفعَا له أجرًا، ولم يبال هو بأن يأخذ أجرًا.

أعلنت «ورد» إسلامها، وثقت في شدة حبه، كانت متأكدة أن صياد القوافي والقلوب قد استكان أخيرًا عند حافة نبعها، قال أبو الطيب ابن عمه في حنق:

ـ هذا دأب عبد السلام، يصاحب الفسقة، ويتزوج النصارى.

تم الزواج، وامتلأت سماء حمص بالنجوم الملونة، ورفع ديك الجن نقاب عروسه فتوهجت الشموع وذابت الثلوج فوق الجبال البعيدة، يا وردُ صفا الزمان أخيرًا.

كان ديك الجن ما زال يتساءل: أهذا هو الطريق إلى حمص حقًّا؟ هذه القرى ما كانت مهجورة هكذا! ولا الأرض مغطاة بالرمل الجاف! والنباتات مريضة والشمس معادية! كيف اختل ميزان زماننا ومالت كفتنا للنقصان؟!

صرخ الغلام:

ـ اقتل فريستك يا مولاي.

كانت الفريسة ظبيًا صغيرًا وقع في الشرك وجثم الصقر عليه، يتطلع نحوهما، السيد وغلامه، بعينيه المستديرتين اللامعتين، يسألهما عن السبب: لماذا يكون القتل دائمًا نهاية اللعبة؟ هتف الغلام:

ـ لا تتردد يا مولاي حتى لا يفلت الصيد.

والعينان تدوران في محجريهما، تومض ومضات التساؤل الحارة والأمل الواهي في النجاة، أكان هذا البريق في عين ورد، الدهشة نفسها والسؤال نفسه: لماذا يكون القتل دائمًا نهاية اللعبة؟

أبو الطيب يسعى في المدينة خلفه، يهبط كالبومة على مجلس الخلان فيُذهب نشوة الخمر، ويعنفه دائمًا بقوله: «يا عبد السلام لا تفعل كذا وكذا، اترك أصحابك ومتعتك، كف عن قرض الشعر، طلق المرأة النصرانية، افعل كذا وكذا...».

كانا أولاد عم، شاهدت حواري حمص المتربة طفولتهما ورضعَا معًا من شمس الطرقات، لكن الجنيات هن السبب، لما رحلن من وادي عبقر أعطين عبد السلام كل شيء وتركن أبا الطيب أسير الظلال والحروف الباهتة. كانت المدينة تروي أشعار عبد السلام في لهوه ومراثيه وهو منزوٍ بعيدًا عاجزًا عن إيصال حاجته الملحة، وحتى الجواري أيضًا، عليهن اللعنة، عندما كن يحملن رسائل سيداتهن لعبد السلام لم تبال إحداهن بإلقاء نظرة واحدة على أبي الطيب، لكنه ظل يطارده، يفرض حوله حصاره ووصايته. وعندما تزوج عبد السلام ملأ المدينة بالإشاعات:

ـ الزواج كان ورطة، هل رأى أحدكم وردًا؟ كل الذين حضروا الزواج شاهدوا ارتفاع بطنها الغريب.

وفي عرض الطريق وعلى الملأ قابله ديك الجن وصفعه على وجهه.

هذه أول مشارف حمص، البيوت البيضاء تبرز، الشوارع المرصوفة بالأحجار مغطاة بالورق الأصفر، كهول ونسوة يلبسن السواد مقعيات جنب الجدران، والجواد ينقل الخطى منهكًا، وقع سنابكه لا يكاد يُسمع، يا طلعة طلع الحمام عليها، كانا، هو والغلام، يدقان أحجار الطريق بالسنابك فتستيقظ المدينة كلها، أمس واليوم وغدًا، نهار واحد متصل، مثلث هو الضلع الرئيسي فيه، وردٌ الضلع الثاني، وبكر الضلع الثالث. كان هو يتواصل مع الضلعين الآخرين فهل تواصل الضلعان بعيدًا عنه عند القمة؟ أليست هذه طبيعة الأمور، ما دام هناك عبد السلام–ورد، وهناك عبد السلام–بكر، فلماذا لا يكون هناك ورد–بكر؟ أتراه كان يدرك هذا من البداية ويتغاضى، ترك حياته تسير رخية هكذا وسط هذا النظام المحكم، وعندما تدخل الوشاة وثار السيف تفككت أضلاع المثلث وأصبح الضلع الثالث وحيدًا، مجرد خط باهت في الفضاء لا يصل ولا يتصل، لو أنه عرف دون تدخل أبي الطيب والآخرين، هل كان الأمر يصل إلى نفس النتيجة؟

كان قد أصابه عسر، وطالت به الأيام الضنك، فقرر الرحيل. رحل إلى سليمة، إحدى البلاد التي يحكمها صديقه الأمير أحمد الهاشمي، وابتعد عن البيت، أكانت هذه مرتهما الأولى أم مرتهما الأخيرة؟ قالوا له:

ـ إنها عندما تريد تفتح له باب الحديقة الخلفية فيأتيها، وإن الجواري يتحدثن عن فحولته، قالت واحدة إنها شاهدتهما عاريين فوق العشب الأخضر، كانا أشبه بكتلة واحدة لا تكف عن التداخل.

استعاد في ذهنه عشرات الكلمات والإشارات والحوادث والنظرات الخفية والأشياء التي بدت لحظتها غامضة، سل سيفه وسال الدم وبدا أبو الطيب أقرب إليه منهما، يشد على عضديه ويهمس له بكلمات عسلية مسمومة.

هذه حمص أخيرًا أبوابها مغلقة، يا طلعة طلع الحمام عليها.

قد بات سَيْفِي في مجال وشاحِها ... ومَدامِعِي تجري على خَدَّيْها
فوَحَقِّ نَعلَيها وما وطئ الحَصَى ... شيءٌ أَعَزُّ عَليَّ من نَعلَيها
ما كان قَتْلِيها لأني لم أكُنْ ... أبكي إذا سَقَطَ الذُّبابُ عليها
لكنْ ضَنَنْتُ على العيون بحُسْنها ... وأنِفْتُ من نَظَرِ الحسودِ إليها

هذه حمص أخيرًا، منفى جديد.

دخل حديقة داره، ماتت شجرة الرمان، مجرد فروع يابسة، كأنها أذرع فزعة، الدار قفر لا يسكنها سوى العناكب، والنباتات تمد أشواكها. قديمًا كانت الأحجار تعرف سيدها، لكن الفراغ يجهل الجميع، لكنه وجد شخصًا، كتلة سوداء مكومة جنب الحائط، كانت فاطمة مربيته وخادمته منذ أن شب ووعى، تتأمله بهدوء مثلما تتطلع أمٌّ إلى ابنها وقد عاد لتوه من اللعب في الخارج، قالت:

ـ هل عدت يا سيدي؟

قال بمرارة:

ـ أين كنت عندما خاناني معًا؟

لطمت المرأة وجهها، وقالت:

ـ سبق السيف العزل يا سيدي، لكن سيدتي وردًا كانت تخاف قضاء الليل وهي وحيدة، لم أغادر فراشها في أي ليلة من ليالي غيابك.

هتف مبهوتًا، كان يعرف صدقها، وواصلت المرأة القول:

ـ ليتك سألتني قبل أن تهوي بسيفك، إنني لم أفارقها لحظة ولم يقربها بكر لحظة!

قال:

ـ هل كنت أنا على الخطأ؟

عاودت النواح:

ـ لو سألت قبل أن تأتي غاضبًا وقبل أن تفر نادمًا؟!

تركها، هرول عبر البهو الخالي والحديقة المهجورة والشوارع الموحشة، البيوت ثكلى والأصدقاء يرتدون الأقنعة، أكانت مؤامرة؟ تضاعف إحساسه بالخديعة، كلهم كانوا يعرفون إلا هو، لكنهم أبرياء من الدم إلا هو، ومثل المرة الأولى أقسم الجميع أن أبا الطيب هو الذي فعل هذا، كان كل الأمر من تدبيره، صرخ وسط الشوارع:

ـ هل كانا بريئين؟

كانت تنثر الزهر حول فراشه، وكلما ضم جسدها تضوع برائحة الطيب. كان بكر يدعك جسده بكريات الثلج فتبعث داخله رعدة من النشاط. صرخ وسط البيوت:

ـ هل كانا بريئين؟

هرع إلى دار أبي الطيب فوجده قد لاذ بالفرار، والأثاث يبتسم ابتسامة صفراء.

ـ لم ينسَ أنني صفعته وسط الناس، وأنني قلت أشعارًا أهجوه فيها.

كانت تقبل أطراف أنامله وتقول:

ـ دين المرء حيث يحب.

صرخ:

ـ لن يفلت من يدي.

قال الحاكم:

ـ يجب أن توقف حمام الدم الذي تغرق فيه.

هتف:

ـ لقد خدعوني! حمص كلها تآمرت ضدي!

صعد فوق أعلى مكان، ورأى المدينة مثل قوارير فارغة قبيحة:

ـ لقد حولوني إلى قاتل يا حمص، يا شراك الصياد، ما جدوى المراثي يرددها المخادعون؟

جاء أبناء العمومة من «مزينة»، وجاء الآباء من تميم، وهبت ريح الموت من الجبال، ونبت الحب من ظهر المقابر، وماتت الغزلان في المنافي البعيدة، وتبدد الزبد على حوافي الجزر الغرقى، وأصبح الشاعر وحيدًا، لا يعرف ماذا يفعل ولا إلى أين يذهب.

يـا طلعةً طلـع الحِمـامُ عليها وجَنَى لهـا ثَمَرَ الـرَّدَى بِيَدَيهَا

رَوَّيْتُ من دَمِها الثَّرَى ولطالَما رَوَّى الهوى شَفَتَيَّ من شَفَتَيْها



كثير عزة

نصيب الشعراء من العالم

كان «كثير» ينتظر قدوم الحوت، وكان الحوت يتثاءب في جوف المحيط، المحيط متخم بالمحار الفارغ، فكيف انشق الموج عن قريش، وامتلأت الخيام بالطحالب، وسار الحوت فوق الرمال؟ وكيف جاء الموت كأنه حلم عذب؟ يا عزة، ملأ الشوق عروقي بالملح، ودفنت الرمال واحات قلبي، وعز الطيب والدواء، وفيك ترياقي وهلاكي.

كان أبو الفرج الأصفهاني يسير متنكرًا في هيئة «نطاسي» مغربي، يرتدي ملفحة سوداء، وعلى رأسه قلنسوة طويلة مدببة، واقفًا يتخلل أصابعه بلحيته، كأنما يفكر بعمق، ثم هتف:

ـ لا فائدة، لا بد من إعادة كيِّه بالنار.

وكان جسد كثير مُلقى على الفراش، فرع يابس جاف، لا أثر للحياة فيه إلا هذه الأنفاس التي يتنازعها، والنيران قد تركت بقعًا ملتهبة في بطنه وظهره وجنبيه، وبرغم تعدد مرات الكي إلا أنه

لم يفق من غيبوبته المتصلة، يفيق، يسعل بعنف ويبصق دمًا، ثم يعاود الغيبوبة، كانت قريش كلها تنتظر موت كثير، وكان كثير ينتظر قدوم الحوت.

منذ الصباح والأسواق تبيع كل شيء، كلما زاد عدد الأمصار المفتوحة تنوعت البضائع، جاريات الروم البيضاوات، جلد الصين المدبوغ، أصباغ فلسطين، العباءات المراكشية الموشاة، فخار مصر الملون، وكانوا أيضًا يبيعون جسد كثير، في منتصف السوق كان هناك رجل يهتف:

ـ مَن يريد أن يحفظ شعر كثير لقاء ثلاثين دينارًا؟

ازدحمت النسوة حول الرجل، اختلط صوته المؤثر بتأوهات كثير، كانت قصة الحب قد أصبحت مبتذلة تمامًا من طول التكرار، لكن النساء كن يبكين، كلما زاد إعراض عزة، وشموخ أنفها، ازدادت حرارة التأثر، وتمنت النسوة لو يكف كثَير عن التأوه قليلًا حتى يُحسن الاستماع، وأعلن بائع آخر عن مزاد يُباع فيه رداء كثير، رداء ممزق قصير وقذر، اختطفه الرجل ذات مرة من فوق كتفيه ولم يشأ كثير أن يلتفت إليه تيهًا وتكبرًا، وافتتح الرجل حول الرداء مزادًا صغيرًا ما لبث أن رسا على أحد الخدم الذي اشتراه لحساب سيدته، وكان هناك من يبيع صندله، ولفافة عمامته، وقميصه، ورقًّا من الجلد فيه أبيات من قصيدته، ومكحلة، وقنينة. ونجح أحد الحلاقين في بيع لحية صغيرة مدببة، وصدَّق الشاري أنها لحية كثير بالفعل. قلب مساعد النطاسي الكرات النحاسية فوق الحجر حتى اكتسب لونه المتقد، أسرع آخر في تعرية جسد كثير نهائيًّا، تلقف أبو الفرج الكرة النحاسية بواسطة

الملقط في مهارة فائقة، بحث عن بقعة من الجلد لم تحرقها النار بعد، ثم ألصق بها الكرة في حركة مباغتة، صرخ كثير، أصدر اللحم المحترق صوتًا ورائحة ثقيلة، تقلصت ضلوع الصدر البارز، صرخ كثير من خلال الغيبوبة:

ـ يا عزة!

الألم ماء نبع ينبثق من أغوار عميقة، كأنها الصحراء وهي غضبى، وكأنها عزة وهي مُعرضة، تجلس على الطرف الآخر من عين الماء، صبية صغيرة بهية الحسن، تمد يدها فتهطل السماء بالمطر الغزير، ولا تجود هي عليه بابتسامة، تهمس في تردد:

ـ أنت أقصر مما ينبغي، لو أحببتك لعايرتني بك صويحباتي.

وتمضي هكذا. تغرس في كبده سهامًا صغيرة ملونة، وتتركه يتلوى من النزيف، يقول:

إن أكُ قصرًا في الرجال فإنَّني   إذا حلَّ أمرٌ ساحتي لطويلُ

وتأمله الطبيب مستغربًا، كان يبتسم كأنما يستعذب الكي، كانت عزة تضع أناملها على جبهته، تهمس مدهوشة: مَن الذي يصدق أنني سوف أحبك مثل حبك لي؟ كانت في الصحراء بئر بعيدة، إذا شرب منها عاشقان لا يفترقان، ذهبَا يبحثان عنها وسط الشعاب فضلَّا الطريق، وعندما وصلها كان وحيدًا، وكانت عزة قد تزوجت برجل آخر، لا يقول شعرًا، ولا يحلم ببئر المحبة، لكنه طويل عريض، فحل، مثل الرجال الحقيقيين.

دق النطاسي أبو الفرج الأرض بقدميه مثل طفل غاضب، صرخ:

ـ لا فائدة، كل مكان في جسده أصبح محترقًا تمامًا، ولا يريد أن

يكف عن السعال وبَصْق الدم، اللعنة على الشعراء، متعِبون وهم أصحاء ومتعِبون وهم مرضى.

أحست قريش أنها سوف تفقده، ودخلت صرخته البيوت وهزت أوتاد الخيام، وجاء الموت ممتطيًا غيمة سوداء، خفت الضجة في الأسواق، شعر التجار بالخجل، والصبايا بالحسرة، ولم يكن كثير إلا حالمًا، لا يعتد بوجوده المادي، كان قصيرًا دميمًا، يقسم الذين يعرفونه أن طوله لا يزيد عن ثلاثة أشبار، وكانت عزة إذ تحس بحبه لها يمتزج ذلك بشعور حاد من الخجل، وكان كثير لا يكف عن السير وحيدًا في الصحراء، وذات مرة خرج عليه فارس مصنوع من النحاس، وقف في مواجهته، طويل، عريض المنكبين، لكن ملامحه النحاسية هي نفس ملامح كثير، قال له:

ـ أنا قرينك من الجن، جاء أوانك حتى تقول الشعر.

وصهل الجواد فأحس بالسنابك تدق صدره، اختلطت دقاته الهائجة مع وجيب قلبه، وكان الرمل ساخنًا والشمس قاسية، ونهض من إغماءته وتكلم فكان الشعر، وكان حلم الحياة المتجددة، وامتد النحاس داخل عروقه، واختلط الدم بالكلمة، يا رفيقي يا أخي الجن، في أي الكائنات، هب لي حب عزة دون أن تخجل مني.

كان يرعى الغنم، مر بنسوة من بني ضمرة وهن يتضاحكن ويشرن إلى قامته، لم تكن تتجاوز ظهور الخراف، شعر بالحنق نحوهن، كانت السخرية تفقده الثقة في فارسه النحاسي، قال لهن:

ـ أين أجد الماء لأسقي غنمي؟

أخرجن له فتاة صغيرة سارت أمامه حتى ترشده للبئر.

سألها:
ـ ما اسمك؟
قالت:
ـ عزة.
ورمقته بنظرة خجلى، خالية من السخرية، كان ماء البئر أزرق كوجه السماء، لم يعرف لون عينيها، كانت مجرد فتاة صغيرة، جعدة الجدائل، فمها صغير، حين تضمه تبدو مثل الأميرات. قال لها:
ـ هل أقول لك شعرًا؟
قالت:
ـ لا أحب الشعر.
كانت مجرد فتاة صغيرة. قال:
ـ ما اسم أبيك؟
قالت:
ـ لا شأن لك، هذا هو الماء فاسق غنمك!
وتركته يتطلع في أثرها، ثم عادت تحمل بعض الدراهم، قالت:
ـ تقول لك النسوة بع لنا كبشًا وسوف نرد لك بقية الثمن في طريق عودتك.
توثب من الفرح، انتقى أجمل كبش في قطيعه، وطلب منها أن تحتفظ بالدراهم، وأن تنتظر عودته. وأخذت عزة الدراهم، وساقت الكبش دون كلمة شكر واحدة، كانت مجرد فتاة صغيرة، ورحل للتلال، كانت النجوم في متناول اليد، والسحب قطع من الزبد المتناثر، والشمس كوجه عزة، وعاد بعد ثلاثة أيام، وجد النسوة من بني ضمرة كما تركهن، قلن:

ـ خذ دراهمك.

قال:

ـ لستن غريماتي.

قلن:

ـ فمن إذن؟

قال كأنه يحلم:

ـ عزة غريمتي، ولست أقتضي حقي إلا منها.

ضحكن في صوت عالٍ، قلن:

ـ ويحك! عزة جارية صغيرة وليس فيها وفاء لحقك، أحله إلى إحدانا ونحن أقدر على الوفاء.

لكنه كان يريد عزة، فقط عزة، مثل حاجته لشعاع من قمر بعيد.

قضى كلُّ ذي دَيْنٍ فوفَّى غَرِيمَه وعَـزَّة ممطولٌ مُعَنـى غريمُها

ظل يروح ويجيء أمام خبائهن، وهن يتضاحكن على قامته التي تطاول الأغنام، وهو يقول شعرًا، والنحاس يتمدد داخل عروقه، كففن عن الضحك، أخذن ينصتن في انبهار حقيقي، ذهبن إلى خباء عزة وأخرجنها، كانت مجرد فتاة صغيرة غضبى، تسبه وتسبهم، لا تريد أن تخرج ولا تحمل أدنى فهم لأشعاره، حتى إن نجومه المتوهجة أصبحت أحجارًا. ومضى الشاعر القصير البالغ الدمامة مفردًا، ولكن كان مقدرًا لها أن تنمو وتكبر، وتفهم الشعر، وأن تحس بالفخر، لأن كل هذه القصائد قيلت من أجلها، ولأن الشاعر الذي تهوى الملوك مديحه يخر صريع لمسة واحدة

من أناملها، وهكذا ينمو الحب، زهرة وحشية ومزيج من الخجل المؤلم والزهو الكاذب.

توصل النطاسي أبو الفرج إلى فكرة عبقرية، هتف بالمحيطين به:

ـ سوف نقتطع قطعة من جسده ونجعله ينزف قليلًا، إن الألم الذي سيحدثه الجرح كفيل بإيقاظه من إغمائه الطويل.

أحضر مساعده سكينًا صغيرًا مدببًا، أمسكه أبو الفرج بنفس المهارة وطعنه طعنة صغيرة، فتح كثير عينيه، كانتا حمراوين قانيتين، ضرب أبو الفرج الأرض بقدميه في سرور:

ـ ألم أقل لكم؟ أنا جالينوس العرب.

وبعث الحركة في أرجاء قريش، وابتسمت الصبايا الصغيرات، وواصل التجار البيع والفصال في ارتياح، وطلب كثير قطرة من الماء، لكن النطاسي أخبره في حزم أن جسده مليء بالحروق، وأن جرعة من الماء معناها الموت، قال كثير:

ـ سأرحل بعيدًا، سيأخذني الحوت الأسود في جوفه لمدة أربعين يومًا، ثم أعود، أولد من جديد أفضل وأجمل وأكثر طولًا، هكذا قُدر لي، كأنني أقرأ الآن لوحي المحفوظ.

واغمض عينيه، وعبثًا وخزه النطاسي ليوقظه، أخذ يهذي عن يونس بن متَّى والإمام المنتظر، وعزة كانت جالسة في خيمة بعيدة، بينهما صحراوات مقفرة، وحبال محبة متقطعة. كانت تربُّ اللبن في زقٍّ من الجلد، وتفصله عن السمن، وتغسل ملابس زوجها، وتعاني من اضطرابات الهضم التي تصاحب الحمل. يسألونها

عن الأشعار التي قالها كثير فيها فتكتشف أنها نسيت معظمها. كان الحب إغماءة قصيرة تبعتها يقظة قاسية. تدخل على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فيهتف فيها مندهشًا:

ـ أنت عزة كثير؟! ما الذي أعجبه منك؟!

ردت على الفور:

ـ أعجبه مني ما أعجب المسلمين حين صيروك خليفة.

وسكت الخليفة بعد أن أدرك سلاطة لسانها.

وفي أحد مواسم الحج طلب منها زوجها أن تأتيه ببعض السمن، طافت بين خيام الحجيج تسألهم، حتى دخلت إحدى الخيام فوجدت أمامها كُثيرًا، لم تكن تدري أنها خيمته، ولم تكن تدري أنه ما زال على قيد الحياة، كان جالسًا يبري سهامه، وذهل حين رآها ترفع طرف الستر وتدخل، أخذ يبري أصابعه بالسكين، والدم ينفجر شوقًا ورغبة عاجزة، جلست بجانبه تضمد جراحه، تقول له كلمة من كلمات العزاء، أي عزاء يُقال للموتى؟! ولم تنسَ أن تأخذ زق السمن الوحيد الذي كان يملكه، وبعد أن تناول زوجها غداء دسمًا، اكتشف آثار الدم الموجودة فوق الزق، وثار ثورة عارمة كما يليق بزوج شهم، وكان الإنكار مملًّا فقصت عليه ما حدث، وصمم الزوج أن تمضي معه إلى خيمة كثير وتسبه، وكانت تعاني من صداع مستمر، وتمقت المجادلة فنهضت معه، ذهبت إلى كثير، لكزها زوجها فتقدمت خطوة وصرخت في وجهه:

ـ يا ابن الآثمة!

وانصرفت، ونفخ الزوج صدره ومضى مختالًا كالطاووس،

كان الأمر صبيانيًّا، ما جدوى طعنة إضافية والقلب تكاثرت عليه الطعنات، لم يبق إلا الحلم، المهرب الأخير: «بعد أربعين يومًا من موتي، سأعود على فرس عتيق».

الحلم هو التعويض عن كل الآلام، والجراح التي لا تكف عن النزيف، والسخريات اليومية، كان يحلم بالبعث، بالرجعة في صورة أكثر بهاء وشبابًا، يكون فيها فارغًا عنيدًا كفارس، قويًّا جوادًا كسيِّد، مهيبًا شديد الرهبة كملك، لن تكون عزة تلك المعشوقة الخجلى البعيدة المنال، سوف تفخر بين أصحابها، وسيقف الملوك كالشعراء الفقراء يتلقون عطاياه، وسوف يصبح العالم أكثر جمالًا وبهجة، لا يكون فيه شيء قبيح أو مثير للسخرية.

دخل على عمته العجوز فطرحت له وسادة يجلس عليها، قال لها:

ـ أنت لا تعرفينني، ولا تكرمينني حق كرامتي.

دهشت عمته، أخذت تذكر اسمه، ونسبه، لكنه قال في إيجاز:

ـ أنت لا تعرفينني، أنا يونس بن متَّى.

لم يكن مجنونًا، ولكن لم يكن هناك بُد من انتظار الموت، حين يصل حب عزة لهذه الدرجة من القسوة والتباعد، فلا بد أن يبتلعه الحوت ويلفظه من جديد، لعل هناك أملًا ما، وحين يعجز الأُمويون عن إقامة العدل على الأرض، فإن الشيعة هم حلم الخلاص، ودم أولاد الأنبياء الذي سال فوق سهل كربلاء هو قربان العدل المفتقد، سوف يلتهم الحوت كل شيء، زوج عزة أولًا، وقصور الأُمويين، والشعراء الذين يسخرون من قصر قامته، ويترك العالم خاليًا ليبرز الأنبياء الصغار بدعواهم، لعل عزة تحمل له ولو قليلًا من الحب،

تعطيه قبلة واحدة. كانت عزة تستأذن في الدخول على زوجة الخليفة أم البنين، سألتها:

ـ يقول كثير فيك:

قضى كلُّ ذي دَيْنٍ فوفَّى غَرِيمَهُ   وعَزَّة ممطـولٌ مُعَنى غريمُها

ماذا يقصد بتلك المماطلة؟

قالت عزة:

ـ كنت وعدته بقُبلة.

قالت أم البنين:

ـ أنجزيها وعليَّ إثمها يوم القيامة.

كانت قبلة الموت أشد برودة، واصل النطاسي المتشح بالسواد نخزه، لكن الجسد كف عن الاستجابة، تكررت الجروح دون تقلص، أخذ حلمه وانطوى عليه، صعدت امرأة إلى سطح البيت وناحت بصوت عالٍ:

ـ يا ولداه! مات كثير!

وتلون الجسد بالزرقة، بدَا مليئًا بالثقوب والدم الجاف والدوائر المحترقة، بكت البنات الصغيرات في صوت خافت خوفًا من آبائهن، ارتعدت الأغنام، واستيقظ الحوت مفزوعًا من أعماق المحيط، لكنه لم يكن يعرف الطريق إلى الصحراء، توقفت أصوات الفصال، وخرجت قريش كلها من المضارب والبيوت، توجهت إلى داره، حيث يرقد الجسد المتهرئ، هز الطبيب كتفه بلامبالاة، كانت عزة بعيدة، كأنها لم توجد قَطُّ، كيف توجد وهي لم تعط سوى المزيد من الألم، وكأنما تضاعف عدد الناس، واختلطت صيحات الاستغراب والتكبيرات، ولملم الشيعة أطراف عباءاتهم، وأخذوا يدفعون الباكين:

ـ اذهبوا بعيدًا يا أنصار أُمية، بالأمس قتلتم الأنبياء، واليوم تقتلون الشعراء.

ونهنه شيخ عجوز من الكيسانية:

ـ سوف يعود، ستسمع قريش وقع جواده، سيعود مع الإمام المنتظر.

وكانت النسوة المتشحات بالسواد يحتشدن في الطُّرق، برغم أنوف أهلهن، وإرادة أزواجهن، ويجتمعن في رثاء متصل:

ـ يا ولداه! يا ولداه!

جاء أولاد الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، يحملون برغم صغر سنهم سمات آل البيت، حيث تختلط القداسة بالعذوبة، جلسوا أمام بيته في صمت، هل كانوا ينتظرون نهضته؟ أن يقف بين أيديهم ويُلقي أشعاره في رثاء صرعى العدل من آل البيت، ويضع بين أيديهم كل ما أعطاه له بنو أُمية من عطايا، ويُقبِّل أيديهم؟ لكن جسده ما زال ملقًى. جمع النطاسي أدواته ومضى. جاء المغسلون، حملوا جسده بحذر شديد حتى لا تتهشم أعضاؤه، وعندما وضعوا الماء عليه، ازدادت زرقته كأنه قطعة من المحيط البعيد. وتمتم المُغسِّل مدهوشًا:

ـ لم أرَ جسدًا بهذه الزرقة، كأنه طفل سماوي!

وواصلت عزة ربَّ اللبن، شاهدته يتخثر ويتحول إلى قطع داكنة، تذكرت بيتًا من الشعر قاله كثير ذات مرة:

وقد زعمتْ أنِّي تغيَّرتُ بعدَها ومَنْ ذا الـذي يا عـزَّ لا يَتَغَيَّرُ

تساءلت: ما الذي ذكَّرها بهذا البيت الغريب؟ لم تهتم وظلت

ترب اللبن، وبحث حفار القبور عن مكان لائق، فلم يجد إلا تلًّا مفردًا عليه صبارة وحيدة. سأل زميله عن اتساع الحفرة، قال له: احفر ثلاثة أشبار فقط. هذا كل نصيبه من الأرض! وامتلأت الساحات بالناس، ووقف الأُمويون والشيعة والكيسانية والخوارج ـ كل من فرَّقتهم الحروب الأهلية والثارات القديمة ـ جنبًا إلى جنب، ولُف الجسد في قمصانه القديمة، ثم في غطاء الفراش، وكان أبو جعفر محمد بن علي بن أبي طالب في طرف المدينة يحاول اختراق جمع النسوة حتى يتصدر الجنازة. وأُخرج الجسد أخيرًا، وصرخت النسوة ينادين عزة، لعل الصوت يعبر الفيافي المقفرة، وأخذ أبو جعفر يدفع النسوة وهن يزاحمنه، ضربهن لكمة وصرخ:

ـ تنحين يا صويحبات يوسف!

وقفت امرأة في طريقه، وقالت:

ـ صدقت يا ابن بنت رسول الله، وإنا لصويحبات يوسف حقًّا، وقد كنا خيرًا منكم له.

نظر إليها في دهشة، واصلت هي قولها:

ـ نحن دعوناه للذاتٍ من المطعم والمشرب والتمتع والتنعم، وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه في الجُب وبعتموه بأبخس الأثمان وحبستموه في السجن، فأينا كان أحن عليه؟!

وابتلعها طوفان النسوة الأسود، تاهت في الزحام. لمس أبو جعفر النعش فأحس به حارًّا كأنما يوشك أن يُبعث، كان الرجال يحملونه إلى القبر، والنسوة يحكين قصة حبه، عمره الحقيقي، كان الرجال يسخرون من شكله، يخطفون عباءته، ويؤلفون فيه أشعار الهجاء،

ويسفهون من أحلامه، وكانت النساء يرددن أشعاره، ويهبن قلبه نبضاته الأخيرة، ويُكَوِّنَّ بملابسهن السوداء حوتًا هائلًا ينتشر على الرمل الأصفر يوشك أن يبتلعه في جوفه ويخرجه بعد أربعين يومًا، شابًّا، قويًّا، لم ترَ قريش من هو أجمل منه.

١٨

وضاح اليمن

الموتى يكتمون السر

غفا الوليد بن عبد الملك يومًا وهو جالس على العرش، فحلم بصحراء جافة قاحلة، وأنه يقود قافلة عطشى، كلما وجدوا بئرًا وجدوها مسمومة، كانت الحيوانات تنفق والشمس لا ترحم، وأخيرًا وصلوا إلى بئر عذبة، أخذ الخليفة يلهث وهو يجذب الحبال الطويلة حتى صعدت الدلو والماء يتألق فيها، لكنه ما إن مد فمه ليشرب حتى فوجئ برأس مقطوع يملأ الدلو والماء يتألق فوقه، لم يتعرف على الوجه، لكنه ظل يصرخ حتى استيقظ.

جمع الخليفة الفقهاء والحكماء وسألهم تفسيرًا، عبثوا في لحاهم، وبشَّروا الخليفة بكل أنواع الانتصارات على جميع الأعداء، فسوف تأتيه رؤوسهم مقطوعة غارقة في دمائها، لكنه حين مضى إلى غرفته وجلس وحيدًا عاجزًا عن النوم، تذكَّر وجه الرأس المقطوع فجأة، وتذكَّر أنه يعرفه، قال لنفسه:

ـ إنه وضاح.

لم يكف الأُمويون قَطُّ عن الحلم بهذه الأحلام الدامية، برغم أن الدولة لا تكف عن الاتساع، والخلفاء يتوالون ويزداد عدد الأتباع والقصور، وتربو وتزيد جزية الأمصار المفتوحة، ولكنهم كانوا يشعرون في أعماقهم أن الحكم تركة ثقيلة، ملطخة بدم أولاد الأشراف والصحابة والمنشقين والشعراء، كان هذا مخاض الدولة، مخاض قسري في أغلب الأحيان، يحتاج إلى رجال بالغي القسوة وبالغي الحنكة أيضًا، يملكون القدرة على إقامة دولتهم في مواجهة الأحق منهم في السُّلطة، أهل البيت بما يحيط بهم من قدسية، أبناء الصحابة، القادة وأصحاب القامات الدينية، وحتى زعماء القبائل الذين خرجوا فاتحين، كان بنو أُمية الأقدر منهم على فهم ظروف سُنة الزمن، وكانت وسيلتهم التي اعتمدوها هي نقل الصراع الداخلي الذي كان يستنفد قواهم، إلى صراع خارجي، جهاد لا يهدأ في مواجهة إمبراطوريات العالم القديم، وكانت النتيجة مجزية، امتدت دولتهم من سهوب آسيا حتى شطآن أفريقيا وأطراف أوروبا، اكتسبوا شرعيتهم من توسيع رقعة الإسلام فلم يعد أحد يجرؤ على اتهامهم بتفاهات من آثار الماضي، وأعطاهم ذلك القدرة على الضرب بكل قسوة في مواجهة أي انشقاق داخلي.

ارتفع مركز الثقل مع المد الجغرافي من جنوب المدينة المنورة إلى الشمال حيث توجد دمشق، ولكن ظلت الصحراء موطن البكارة الأولى، تهب عليها ريح السياسة وتنحسر وتترك خلفها الكثبان ساكنة والمضارب منصوبة وكل شيء كما يبدو على حاله، الشعراء العذريون يلفظون أنفاسهم لقاء لحظة من العشق، والقبائل تتداول

قصائد التشبيب وقصص الحب بنفس الاستمتاع، فإذا اجتمعت واحتاج الأمر إلى موقف رسمي تقاعس الجميع، ووصفوا الشعراء الغزليين بأقبح الصفات، حتى إنه لم يوجد في الجزيرة من لم يحفظ شعر عمر بن أبي ربيعة، ولم يمنع هذا من يقول: «ما عُصي الله قَطُّ قدر ما عُصي بشعر عمر بن أبي ربيعة».

وكان وضاح اليمن واحدًا من هؤلاء الشعراء، شاعرًا غزليًّا، اجتمعت فيه كل الصفات المتطرفة، شعر رقيق بالغ الرقة، وحسن فائق، ونهاية مأساوية، حتى إن طه حسين يشك في وجوده أصلًا، ويعتقد أن الخيال اليمني هو الذي ابتكره في مواجهة السيطرة الحجازية.

كان أبوه عربيًّا وأمه فارسية من أتباع جيش الفرس الذي قدم لليمن لنصرة سيف بن ذي يزن في صراعه مع الأحباش، عندما كان صغيرًا ثار النزاع حول نسبه: هل هو عربي أم فارسي؟ وعندما ذهبوا إلى أحد القضاة العرب، راعه جمال الصبي فهتف وهو يمسح على شعره:

ـ أنت وضاح اليمن، ولست من أتباع ذي يزن.

واشتهر بهذا الاسم، أشبه بـ«أرفيوس» عربي بالغ البراءة، يحل حيث لا مكان، يهتف بالأشعار فيهتز إيقاع الزمن، ويظل يجوب الجزيرة طولًا وعرضًا مثل قطعة سحابة تخشى الذوبان. كانت الدولة تتسع والأماكن الحبيبة تفقد أُلفتها، يتكاثر عدد الأمراء وقواد الحرب وملاك الأرض، والسكاكين قد أعدت ـ كما هي العادة ـ لاغتيال الشعراء، ومثلما أحاط الشك بمولده، أحاط الشك بموته.

بدأت الأنظار تلتفت إليه عندما أصدر الخليفة أمرًا أن يرتدي وضاح اليمن واثنان ـ كانا معه من أجمل فتيان الصحراء ـ أقنعة

فوق وجوههم حتى لا تُفتن نساء المسلمين في موسم الحج ويذهب حجهم باطلًا، وعندما ارتدوا الأقنعة لم يكن ظاهرًا إلا العيون التي تتألق مثل جمر النار دون أن تحجب الفتنة. في بواكير الشباب، عندما كان الشعر ما زال طازجًا، أحب فتاة اسمها روضة، نُسبت إليه، اشتهرت بروضة الوضاح، يمنية حسناء، وعادة ما ينصب الحب شراكه عند عيون المياه العذبة خارج المضارب بعد أن ينام الأهل، وتسكن سيوفهم الحادة في أغمادها، لكنه مثل عادة كل الشعراء ذوي المشاعر المتأججة واللسان المفلت، أخذ يقول القصائد التي يشبب فيها، يصف اللقاءات المختلسة، حتى طارت أنباء الغرام الجديد وعرف به أهلها.

تقدم وضاح إلى أهل روضة يطلب الزواج بها، لكن أشعاره كانت قد سبقته، كانوا يحفظونها وهم يتميزون غضبًا، أدركوا أنهم بقبولهم خطبته سيؤكدون صحة ما أشيع عن علاقة ابنتهم به، الموقف نفسه الذي واجه الشاعر التعس قيس بن الملوح، لا يستفيد العشاق أبدًا من تجاربهم، وتتكرر المآسي بالوتيرة ذاتها، لم يرفض أهل روضة زواجه بها فقط، ولكنهم أسرعوا بتزويجها برجل آخر.

كان رد فعل وضاح اليمن أن أغرق نفسه في الخمر، وبين أفخاذ النساء، لا يهم أي نوع منهن، زوجات شريفات أو جواري، عرب أو أحباش، وفي مجموعة أخرى من النساء، وكان حب روضة هو حزن وحدته الليلي، وعندما أخذها الزوج الجديد ورحل، ظل هو يتابع القافلة حتى غابت وراء الكثبان، وعاد وحيدًا يقول أشعارًا في عشق الجواري السود.

لم تنتهِ قصة الحب عند هذا الحد، ذات ليلة جاء رسول إلى وضاح وأخبره أن روضة تود أن تراه، لم يصدق أذنيه، وسار وراء الرسول ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ عبر فيافٍ موحشة لا تسكنها إلا الضباع، وطوال الطريق تتابعهم الغربان بعيونها الجائعة، وتنتظر سقوطهما من شدة الإنهاك، لم يكن الرسول يتحدث كثيرًا، وعبثًا حاول وضاح أن يعرف منه كيف جاءت روضة إلى هذا المكان الوعر وماذا حدث لزوجها، وأخيرًا توقفا وهتف الرسول به:

ـ سوف تكون روضة في انتظارك.

كانت هناك خيام بائسة، وأكوام خشبية متكسرة، وأوانٍ للطعام، وبقايا عظام، ورائحة عطنة تملأ الهواء، واستدار وضاح ففوجئ أنه في وادي المجذومين، حيث تعزل كل القبائل المرضى الذين حلت عليهم اللعنة، تتركهم في هذا المكان الموحش في انتظار الموت البطيء، كانت روضة تقف أمامه، مختبئة من الشمس الساطعة، والجذام قد أكل الملامح التي عشقها، البقع البنية السوداء لا ترحم، تزحف وتنتشر، بدأ الشعر الفاحم يتحول إلى اللون الرمادي ثم يتساقط، والعضلات تتقلص، والريح إذ تلمسها تغدو مسمومة، قالت:

ـ يا وضاح، أنا أموت!

وفي صمت وضع ما يحمله من مؤن بينه وبينها وأسرع بركوب جواده، هرب من وادي المجذومين، لاحقه صوتها تناديه، لكن الحب القديم كان قد تحول إلى كابوس، عاد للناس الأصحاء وهو أكثر عزلة وخوفًا، الحلم أكله الجذام، وبصمة الأصابع السوداء فوق كل شيء، يرثي لها ويستحم في اليوم أكثر من مرة، ويخاف من ملامسة الآخرين.

حان موعد الحج، وكانت أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك تستعد للحج، وبعث الخليفة يهدد كل الشعراء، يحذرهم من أن يقولوا شعرًا في أم البنين أو فيمن يصاحبنها من جوارٍ، وكانت أم البنين في خريف عمرها، بدأ جمالها في الذبول وسط برودة قصور الشام، جاءت للحج لتأخذ قليلًا من دفء الصحراء، وبرغم تحذيرات الخليفة فقد كانت تريد أن ترى نفسها في عيون الآخرين، عرفت أن وضاحًا موجود في موسم الحج، وأنه يضع على وجهه قناعًا كثيفًا، كان قد جاء دون رغبة أو أمل وامتثل للأوامر، لكن عيني أم البنين كانت تضيء، ولكنه فوجئ بجارية أم البنين وهي تنقل إليه دعوة سيدتها للقدوم إلى خيمتها، برغم خطورة الأمر فقد ذهب إليها، تحدث إليها قليلًا، ولكنها مدت يدها ورفعت القناع من على وجهه، ما أبعد الشقة بين هذا الوجه الصبوح وبين زوجها الجالس على العرش في دمشق! وما أكثر الفرق بين دفء هذه الخيمة وبرودة جناحها الواسع! رفعت الخمار وطلبت أن يقول شعرًا في وجهها، كانت لا تزال جميلة برغم كل شيء، وكانت عيناها تتألقان مثل قمرين صغيرين، للحظات نسي روضة التي كانت تلفظ أنفاسها في وادي المجذومين، ظل يحدث أم البنين حتى ذابت الشموع وانطفأت القناديل، ووجدت نفسها تسكن في أحضانه، اختلطت عليها صورة الابن الذي فشلت في أن تنجبه مع صورة العاشق، أحست أن بعضًا من شبابه وجماله يتسرب إلى جسدها، وعندما انتزعت شفتيها من بين شفتيه كان الفجر يؤذن فوق روابي مكة.

انتهى الموسم، وبدأت القافلة رحلتها للشمال، وانضم للقافلة

فارس جديد، ظل يسير بجانب هودج أم البنين لا يفارقه، وفي كل فترة كانت ترفع الستر لتتأكد من وجوده، وعندما وصلت القافلة إلى دمشق كان الخليفة مشغولًا بأنباء فتح جديد، أرسل عبدًا له لأم البنين حتى يهنئها بالوصول، ووعد أن يزورها في المساء ونسي الوعد، وسكن وضاح في أحد بيوت دمشق، لكن الحماقة لم تفارق وضاحًا، فأخذ يعاقر الخمر في إحدى الحانات ويقول شعرًا، وانتشرت الأشعار، ولم تكن أذن الخليفة صماء لهذه الدرجة برغم أنه كان آخر من يعلم كما هي عادة معظم الأزواج.

طلب أن يرى وضاحًا، سعى أحد الشعراء الذين كانت لهم صلة بالقصر، وأوصى وضاحًا أن يذهب إلى الخليفة ويمدحه في إحدى قصائده حتى يزيل الريبة من قلبه، وهكذا تلاقى الرجلان للمرة الأولى والأخيرة، أدرك الخليفة أن هناك ظلًّا من الحقيقة في كل ما سمعه، وأن مثل هذا الوجه يمكن أن يأسر قلب أكثر من زوجة، وَجْه خُلِق للإغواء، ولكن إلى أي مدى وصلت العلاقة، مجرد إعجاب بين شاعر وامرأة متنسبة، أم أن الأمر غير ذلك؟ لم يرد أن يفكر في الأمر، لذا عندما خرج وضاح من حضرته، صرَّ من بين أسنانه وهو يهتف:

ـ سوف أقتله.

لكن ابنه عبد العزيز بن الوليد، اعترض قائلًا:

ـ يا مولاي، إن قتلته فضحتنا، سيقول الناس إن الشائعة صحيحة، وإننا قتلناه انتقامًا.

قال الخليفة بحنق متزايد:

ـ على الأقل سأقطع لسانه.

قال الابن:

ـ سنجعله يرحل عن الشام، وعندما يذهب بعيدًا ستموت الشائعة.

هدأ الخليفة بعض الشيء، لكن وضاحًا لم يرحل، استخدمت أم البنين جواريها لإدخاله إلى القصر خلسة، كان يتنكر في زي امرأة ويسير بينهن إلى جناحها، وعندما تغلق الأبواب بينهما يتغير كل شيء، تدب الحرارة في الفراش البارد، ويتدفق الدم حارًّا في عروقها، تعوَّد أن يُغمض عينيه وهو يدس رأسه بين نهديها، وتعودت أن تدس أنفها في شعر رأسه وتشم رائحة الصحراء، لم تصدق أنها قد عادت فتاة صغيرة تتعامل مع هذا الرجل البري، ترتعد وتتأوه وتنتشي، كان يتعامل مع جسدها كما تعوَّد أن يفعل مع بغايا الطرقات، لا توجد محرمات من أجل الوصول إلى الذروة الكاملة، اعترفت لنفسها أنها تعيش من جديد، وأنها لو اختارت ستترك هذا الفراش الوثير وتقيم في أيٍّ من بيوت المتعة في قاع المدينة.

ثم وقع الأمر الذي لا مفر منه، جاء إلى القصر تاجر مجوهرات يهودي فاشترى الخليفة منه بعض الزمرد، وتذكَّر زوجته التي أهملها وهجر فراشها طويلًا، أعطى الزمرد إلى غلامه حتى يذهب به إلى أم البنين، حمل الغلام الجواهر وطرق على بابها، لا تدري كيف دخل الغرفة دون أن تسمعه، قفز وضاح إلى أقرب صندوق واختبأ فيه، وأخفت أم البنين جسدها العاري، وبأدب جم تقدم الغلام وأعطاها الجواهر، فتقبَّلتها شاكرة فضل الخليفة، لكن الغلام ظل واقفًا، فتطلعت إليه متسائلة:

ـ ألك حاجة؟

قال الغلام بهدوء:

ـ أريد واحدة من هذا الزمرد.

كان وقحًا أكثر مما ينبغي، قالت بغيظ:

ـ لا. عليك اللعنة!

خرج الغلام من عندها وذهب إلى الخليفة وروى له عن الرجل العاري والصندوق الذي احتواه، وكان الخليفة أكثر حنكة وتفهمًا للأمور، اتهم الغلام بالكذب وأمر به فذُبح، وأمر الجند ففرضوا حصارًا حول القصر حتى لا يدخل ولا يخرج أحد، ثم سار إلى غرفة زوجته، كانت بكامل ثيابها جالسة أمام المرآة تتزين في هدوء، تطلَّع الخليفة في أرجاء الغرفة حتى وجد الصندوق الذي أعطاه الغلام أوصافه، تقدَّم وجلس عليه، سادت فترة من الصمت الثقيل، ثم سألها الخليفة:

ـ هل أعجبك الزمرد؟

قالت:

ـ كل ما تعطيه هو فضل منك يا مولاي.

قال:

ـ هلا أعطيتني شيئًا مقابله؟

قالت:

ـ كلي وما أملك هو لك يا مولاي.

صمت قليلًا، ثم أشار للصندوق الذي يجلس عليه، قال:

ـ أريد هذا الصندوق.

قالت بفزع:

ـ ولكن...

ثم اختنق صوتها، وأصبح وجهها بالغ الشحوب.

قال الخليفة:

ـ ولكن ماذا؟

قالت:

ـ فيه ثياب وأشياء تخصني.

قال:

ـ سأعوضك عنها.

ولم يكن أمامها مهرب، استسلمت:

ـ هو لك.

دخل الخدم والأتباع، أمرهم فأزاحوا طرف السجادة، حفروا في وسط الغرفة حفرة غائرة، ونهض من فوق الصندوق، وأمرهم فحملوه، وضعوه في الحفرة وأهالوا عليه التراب، وسووا الأرض، وأمرهم فأرجعوا السجادة إلى مكانها، وقف فوق السجادة وقال ببطء:

ـ يا هذا لو كنت كذبًا فما دفنا سوى الخشب، ولو كنت صدقًا فقد أرحتنا واسترحت.

وانصرف مسرعًا، يقولون إنه لم يناقش زوجته في هذا الأمر مُطلقًا، وإنه لم يمس فراشها حتى مات، ولم يُرَ وضاح اليمن منذ هذا اليوم.

لقد علَّم الموت وضاحًا أن يكتم السر.

١٩

قيس بن ذريح

الطلاق أو الموت

«كُلفتُ خوض البحر والبحر زاخر». لم يكن هناك إلا بحر من الرمال يحيط به وبقبيلته، عشق لبنى هو الذي خفف منه قليلًا، ولكنهم يقولون لبنى فتنة، يؤكدون له: «كنت بخير قبلها فلا تندم عليها وطلق». الخطأ الأكبر أنه طاوع أعداءه، وعصى ناصحه، وأقر عين الشامت.

كان قيس بن ذريح، مثل طائر صحراوي يموت، قلبه ممتلئ بالحب ومشاعر الندم، لم يكن يملك ما يرسله إلى لبنى غير الهذيان وبعض الأشعار، كان العذاب شاقًّا على قلبه، لأنه هو الجاني، وهي المجني عليها، وكانت لبنى تستمع إلى رسائله دون أن تصدق، تقول بلامبالاة: «ما أراه إلا كاذبًا فيما يدعي، متعللًا كعادته». لكنه لم يكن كعادته، لم تعد تجديه التعليلات، ماذا يفيد المسافر من حصى الطريق، وكل ما ينتظره هو الرماد.

بدأ حبهما كزهرة برية، تفتحت ببطء، وذوت سريعًا، يتذكر قيس لحظة التفتح الأولى، وهو يسير عبر مضارب بني كعب والحي خالٍ

من الرجال، وعيون النساء ترصده من خلف خيامهن، كن جميعًا يعرفنه، يكفي أن أباه ذريحًا أغنى أغنياء المدينة، وقيس سيد حقيقي كما يجب أن يكون السادة، فارس، شاعر، وبنو كعب قبيلة فقيرة، تقع بظاهر المدينة وتعيش على فنه. أحس بالعطش، ووقف بالمصادفة أمام خيمة، مجرد خيمة صغيرة لا يميزها شيء عما حولها، وقف صامتًا، كل ما فعله هو أنه رفع يده وأشار إلى فمه وانتظر، ثم سمع صوتًا واهنًا، والتفت فرآها واقفة، ساحرة الوجه، مديدة القامة، ولكن عينيها كانتا زرقاوين، وهو أمر نادر في الصحراء، قطعة من زرقة السماء، بحر حقيقي عميق الغور فيه دعوة ملحة للغرق، شرب الماء الذي قدَّمته له وظل عطشان صاديًا، حملت إليه كوبًا آخر، وأدرك أنه لن يرتوي أبدًا، ابتسمت وقالت:

ـ أتنزل فتتبرد عندنا قليلًا؟

نزل إليها، سألها عن اسمها، قالت:

ـ لبنى بنت الحباب.

هتف مبهورًا:

ـ لم أرَ في الصحراء عينًا بهذه الزرقة!

حدقت فيه بلا خوف وبادلته الكلمات، كانت الشمس تواجه وجهها وتغير لون عينيها، كل لحظة لون جديد، ونظرة جديدة، تضع أمامه طبقًا من النجوم الملونة. وجاء المساء دون أن يشعرا، عاد الرجال إلى الحي، وانسحبت لبنى إلى خيمتها، وعاد الحباب الكعبي فرأى جواد السيد يرعى، ووجد السيد نفسه ذاهلًا، وحين اكتشف أنه ابن ذريح شخصيًّا ازدادت درجة ترحيبه، زعق في أهل

بيته أن ينحروا للضيف، وأفاق قيس ليكتشف أن الذي يحدثه هو الأب، وليس لبنى، يتحدث عن جدب البادية، وشُح الأُمويين، وحق الحسين الضائع. كان الحباب يعرف جيدًا أن قيسًا والحسين بن علي قد رضعا معًا من أم واحدة.

عاد قيس إلى أصحابه مبهورًا، يصف سماء الحب التي يحلق فيها، يجمع أشعة الشمس الغاربة في قلبه ليظل مضيئًا طوال الليل، يتحدث عن عيون لبنى وسفرته الطويلة فيهما. وانتشر الشعر كالعطر، وظن أصحابه أن هذه صبوة جديدة من صبوات الشاعر، لكنه كان جادًّا، لا ينام، ولا يسلو. وسار إليها للمرة الثانية، وقف أمام خيمتها فخرجت إليه مبتسمة، دعته للنزول، كانت قد سمعت كل ما قاله من شعر، أبوها كان غاضبًا وأمها غاضبة، لكنها كانت راضية، ترسم الكلمات في قلبها أخاديد رائعة من النشوة، سألها قيس:

ـ أتقبلين الزواج بي؟

قالت ضاحكة:

ـ أسرع قبل أن يزداد انتشار الشعر ويزداد غضب أبي.

عاد إلى أبيه، كان يحصي أرباح تجارته ويدوِّن أرقامها، كل الجيوش كانت تتحارب، بعضها يحارب الأعداء ومعظمها يحارب بعضه بعضًا، وأيًّا كان الفريق الفائز فإن ذريحًا يربح، والتاجر الناجح لا يفرق بين القتلى والمقتولين، قال قيس:

ـ إني عاشق يا أبي.

لم يكن الوقت مناسبًا، رمى الأب أكياس نقوده وقال بسخرية خفيفة:

ـ العشق مفسد للقلب، ومعطل للربح، ومبدد للمال.

وكان قيس جادًّا فألح على أبيه:

ـ لقد عزمت على الزواج.

قال الأب مرتاحًا:

ـ أخيرًا، طالما ألححتُ عليك، إن المصالح متداخلة والزواج هو الذي يوفق بين هذه المصالح.

قال قيس في سرعة:

ـ سأتزوج لبنى بنت الحباب بن كعب.

قلب ذريح شفتيه في ازدراء واضح وتمتم:

ـ يا بني، عليك بإحدى بنات عمك هي أحق بك، وأكثر ثراء.

كان الأب يعتقد أنها نزوة، لا تبيح له أن يهبط إلى مستوى بني كعب، وقيس يتحدث بلغة قلبه وهي لغة غامضة لا تجيد التعبير عن نفسها، والأب يعرض أرقامه الصريحة ويرفض أي صفقة لا تعود عليه بكسب واضح. ذهب قيس إلى أمه، وكان رفضها عنيفًا وأكثر أنانية، كيف تقبل، وما كعب إلا قبيلة تعيش على فضل السادة؟ وتطايرت أنباء الرفض، الأب سخر في مجالس التجار، وأبدت الأم امتعاضها في مجالس النساء، وكانت إهانة الحباب بالغة، وكان رد فعله إعلانه أنه يرفض رفضًا قاطعًا زواج ابنته بقيس لعله يسترد شيئًا من كرامته.

وسار قيس إلى الحسين بن علي، وحكى له ما حدث، فنهض من فوره إلى ابن كعب، وفوجئ الحباب بوجوده أمام خيمته فنهض وهو يهتف:

ـ يا ابن بنت رسول الله، ما جاء بك؟! ألا بعثت إليَّ فأتيتك!

جلس الحسين في مقدمة الخيمة وهو يقول مبتسمًا:

ـ الأمر الذي جئت فيه يوجب أن أقصد إليك، وقد جئتك خاطبًا ابنتك لقيس بن ذريح.

وتردد الحباب، ولكن الرفض كان أكثر من طاقته، قال في تردد:

ـ يا ابن بنت رسول الله ما كنا لنعصي لك أمرًا، وما بنا عن الفتى من رغبة، ولكني أحب أن يخطبها أبوه ذريح، وأن يكون ذلك عن أمره، فإنا نخاف إن لم يَسْعَ أبوه خاطبًا، أن يكون عارًا وسبة علينا.

كان مُحقًّا، ويتحدث من منطلق الدفاع عن كرامته وعزة نفسه.

سار الحسين إلى مجلس ذريح، كان وسط التجار يناقشهم أيهم أكثر مالًا، شيعة عليٍّ أم الخوارج عليه، ولكنه حين رأى الحسين نهض واقفًا وهو يهتف:

ـ ألا بعثت إلينا فأتيناك!

وبادره الحسين قبل أن تفتر التحية:

ـ أقسمت عليك إلا خطبت لبنى لابنك قيس.

صمت ذريح، تطلع إلى الحسين، إلى التجار، صفقة خاسرة ولكن كيف يمكن أن يرفضها، واعترف بينه وبين نفسه أن قيسًا قد أحسن التدبير، وأصر الحسين أن يتم الأمر في الحال، وساروا جمعًا كبيرًا، الحسين والأب وقيس في المقدمة وخلفهم بقية التجار ووجهاء المدينة، وظلت الأم كئيبة في خبائها. نهض الحباب في وجل، أسرع يقترض السجاجيد والحشايا والأرائك وحتى صحاف الطعام، تضافر الجيران في معاونته حتى يبدو سيدًا وسط السادة، ولم يمنع

كل هذا ذريحًا من أن يقلب شفتيه في ازدراء، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ جئتك خاطبًا ابنتك لبنى لابني قيس!

وانبهر الحباب بالمفاجأة، فقال ببلاهة:

ـ قبلنا الخطبة، وقبلنا الزواج، وكل من يأتي منكم.

تم الأمر في بساطة أشبه بالحلم، تزوجا في خيمة صغيرة على حدود المدينة، على حافة الأفق، وجد قيس أخيرًا مكانًا دافئًا بين ذراعي لبنى، تسطع عليهما شمس الصباح، تذيب الندى من على جسديهما، كل ما قاله من أشعار قبلها كانت وهمًا، العالم الآن طوع يديه، حتى السحب تنحني وتلمس جبهته، يدخل عيني لبنى فتغلقهما عليه ويسبح في زرقتهما، وسط المحار، وعشب البحر، والأسماك الفضية. ولكن أباه ظل غاضبًا، وأمه متباعدة، لم يزوراهما، ترسب بينهما ثلج الجفوة، ذهب إليهما أكثر من مرة يرجوهما، ويتودد إليهما، لو يمنحانه فرصة أخيرة يتعرفان فيها على لبنى، لعل شيئًا ما يذيب هذا الثلج، لكنهما رفضا كل محاولاته للتقريب.

ذهب إلى الحسين أخيه في الرضاع مرة أخرى، لعله يعاود التوسط، لكن الحسين كان يستعد للرحيل، حان الوقت ليسترد ملكه الضائع بين أيدي الأُمويين، أهل العراق ينادونه، والشيعة يستحثونه، كلهم يوجهونه للسير إلى بقعة صغيرة من هذا العالم اسمها «كربلاء» سوف تتحدد فوق ترابها كل المصائر. وهتف قيس:

ـ سوف أسير معك.

سارا معًا في طرقات المدينة، وسط أصوات التحريض والمبايعة.

وعاد قيس ليُعد رمحه وسيفه، وامتقع وجه لبنى، وحاول قيس أن يهون الأمر عليها، كانت تعرف أن الحب لا يعيش وسط تحريضات القتال المتواصلة. وفي الصباح اشتكى من بعض الصداع، والحمى، وألحت عليه لبنى أن يلزم الفراش، لكنه أصر على الذهاب إلى أبويه ليخبرهما أنه قد قرر السير، وتلقيا النبأ بذعر واضح، همهمت الأم:

ـ أما كان يكفي الزواج حتى تُلقي بروحك إلى الحرب؟!

وهتف الأب وقد تخلّى عن جموده:

ـ سوف أدفع للحسين كل ما يريد!

وضحك قيس لأن أباه يرفض أن يفكر إلا في المال، ألح عليهما أن يعوداها، أن يقبلا زوجته، ألا يزيدا في هذه الجفوة المدمرة، كان يترنح متعبًا، ولكن الأم قالت في حدة:

ـ لقد شغلتك عن بِرّي!

وانسحب قيس، ارتمى في أحضان لبنى وهو يهذي، وفي المساء احتقن وجهه وتفصد جبينه بالعرق، وأصبحت لبنى مجنونة، تضع له القماش المبلل، وتغلي الأعشاب، وهو غائب عن وعيه، يهرف بأشعار الحب، ويناشد أباه وأمه، وأصبح جسده رقيقًا كورقة شجرة ذاوية. وجاء الحسين لزيارته، وقال لجسده فاقد الوعي:

ـ كنت أرجو عونك، ولكني أسأل الله أن يعينك على شدة المرض.

وسار الحسين إلى الشمال، وهبط الوباء السفوح، واعتلى التلال، وتناثرت الجثث، كان الجو حارًّا خانقًا، وكان على لبنى أن تذهب إلى بيت الأبوين، برغم المقابلة السيئة التي تتوقعها، لكن الأبوين هما اللذان حضرا، اقتحما خيمتها دون استئذان، لم يلتفتا إلى وجودها،

اتجها إلى جسد ابنهما المسجى، لمسا جبينه المندى بالعرق، وبكت الأم بحرقة، والتصقت لبنى بالجدار وقد انتابها شعور غريب بالذنب، وأشار الأب من خلال الباب إلى العبيد الذين كانوا يتبعونه، فاقتحموا المكان، فردوا الأغطية ولفوا جسد قيس، حملوه، أوشكت لبنى أن تصرخ، لكن نظرات الأم القاسية أسكتتها، حمل العبيد الجسد وساروا وسار خلفهم الأبوان، ولم تجد لبنى بُدًّا من أن تسير خلفهما، كانت تحبه كثيرًا، وقد وهبها ذلك قدرة كبيرة على المقاومة.

ساروا إلى البيت الكبير، البيت الفخم الذي لم تجرؤ لبنى من قبل على دخوله، دخلته كإحدى الغريبات، غير مدعوة، ولولا انشغالهم لوجدت من يمنعها، استدعى الأب كل نطاسي المدينة، انزوت هي بالقرب من سريره، كانت هي بلسمه الأخير، ظلت بجانبه، قدرها أن تبقى في هذا المكان، معشوقة ومرفوضة في الوقت ذاته، وذات يوم دون أي قصد سمعتهما يتحدثان عنها، وعن قيس، كانت الأم تقول في حدة:

ـ لقد خشيت أن يموت قيس ولم يترك خلفًا، وقد حُرم الولد من هذه المرأة، وأنت ذو مال وسوف يصير مالك إلى غير أهلك، وهذا والله لن يكون!

وغاص قلب لبنى، وهمهم الأب موافقًا ثم سأل:

ـ وماذا تريدين؟

قالت:

ـ زوِّجه بغيرها لعل الله أن يرزقه ولدًا.

وأحست لبنى كأنها تختنق، تتلوى وسط طرقات البيت المتداخلة،

يمتلئ قلبها بالسواد، والجسد المريض صامتًا، لا يملك لها حيلة ولا مساعدة، هتفت بحرقة:

ـ لا تتركني، لا أدري أهو ذنبك، أم ذنبي، ولكن لا تتركني!

ألقى عليها قيس نظرة مستغربة، لم يستطع التعرف عليها، أهذه عين الحب التي رآها بها للمرة الأولى؟ ولكنه نهض من مرضه أخيرًا، نحيفًا، رقيقًا، كأنه يستعد لدخول العالم للمرة الأولى، وجد نفسه في بيت أبيه فحسب أن الأمور قد عادت إلى طبيعتها، وساعده هذا على سرعة الشفاء، ولكنه كان واهمًا، كان كل شيء مؤجلًا فقط، وكانت لبنى تعيش مأساتها الخاصة، تترقب دورتها الشهرية في رعب بالغ، تحمل لها كل شهر نذير الفُرقة والعجز عن المقاومة، وهذه المرة فشل قيس في أن يعاود التحليق بها مرة أخرى، حدثت أول مواجهة صريحة بين الأب وقيس، قال الأب:

ـ يا قيس، لقد اعتللت هذه العلة فخفت عليك ولا ولد لي سواك، وهذه المرأة ليست بولود، فتزوج إحدى بنات عمك لعل الله يهب لك ولدًا تقر به عيناك وأعيننا.

هتف قيس بلا تفكير ولا تردد:

ـ لست متزوجًا غيرها أبدًا.

قال الأب:

ـ فإن في مالي سعة، فتسرَّ عنها بالإماء والجواري.

قال قيس:

ـ ولا أسوؤها والله بشيء أبدًا.

صرخ الأب في حدة:

ـ فإني أقسم عليك إلا طلقتها.

وصاح قيس متوجعًا:

ـ الموت والله أهون عليَّ من ذلك، ولكني أُخيرك خصلة من ثلاث خصال.

قال الأب:

ـ وما هي؟

قال قيس:

ـ تتزوج أنت فلعل الله يرزقك ولدًا غيري.

قال: ما فيَّ فضل لذلك.

قال قيس:

ـ دعني إذن أرحل عن هذه الديار، واصنع ما كنت صانعًا لو أنني مت في علتي هذه.

قال:

ـ لا والله، ولا هذه.

قال قيس:

ـ فأدعُ لبنى عندك، وأرتحل، لعلي ألحق بالحسين، أو لعلي أسلوها.

وهتف الأب في تصميم نهائي:

ـ لا أرضى إلا أن تطلقها.

صمم كل منهما على موقفه، ووصلت أصداء حوارهما العنيف إلى الأم وإلى لبنى، وسمعا معًا الأب وهو يقسم بكل الأيمانات المقدسة ألا يُظله سقف بيت أبدًا حتى يطلق لبنى. وعلى الفور خرج الأب من

البيت إلى العراء الواسع، وقف تحت السماء الصامتة، والصحراء المترقبة، وقف مثل صبارة عجوز والريح تزوم وتملأ أرديته، وعاد قيس إلى لبنى، كانت ترتعد، والقطرات الحمراء تتسلل من رحمها، تلوث ثيابها وروحها، توسلت إليه:

ـ لا تطع أباك، فتهلك، وتهلكني!

وقال قيس وهو يشاركها البكاء:

ـ ما كنت لأطيع فيك أحدًا وأعصاك أبدًا.

كان الحسين الذي يشفع له دومًا بعيدًا، وبلغت درجة العناد بالأب أنه ترك تجارته وأمواله وظل واقفًا في العراء، في الصباح تشرق عليه الشمس في نعومة، ثم تستدير في قسوة، تصب شواظها على التلال والصخور، وتخترق رأس الأب، ويأتي قيس متوسلًا إليه أن يعود إلى داخل البيت، أن يرحمه ويرحم نفسه، لكن الأب لا يرد، وجهه جامد كالصخرة، يقف قيس بجانبه، ويفرد رداءه فوق رأسه لعله يستظل قليلًا، ولكن اليوم ينقضي ويبدأ زمهرير المساء، لم يعد يجديه التوسل، وحاول قيس أن يذهب إلى أمه، لكنها رفضت أن تقابله، كانت تُحمله ذنبًا جديدًا، عاد إلى لبنى وعانقها وبكى فبكت معه، وأشرق الصباح سريعًا يحمل لهما دورة أخرى من العذاب، الأب جالس وقيس فارد رداءه والشمس تسخر منهما معًا، لا كلام ولا تواصل، ولبنى تترقب معجزة كل شهر، لعل القطرات تتأخر قليلًا، لعل ما زالت هناك بقية من أملها الضائع، لحظتها سوف تخرج وتهتف في قيس والأم والأب: «إني حامل، سوف أنجب عشرات الأولاد».

لكن الأيام تمر، والأب العجوز يجف تحت الشمس، مثل حبات العنب وهي تتحول إلى زبيب جاف وداكن، تضاعف عمره، وتشابكت التجاعيد على وجهه، وقيس يظله بالرداء حتى يسقط إلى جواره، والأم داخل خبائها تذوي في صمت، عام كامل من العداوات المتصلة، وتأخرت قطرات الدم، نهضت لبنى في موعدها فلم تجدها، لم تشعر بآلامها، أحست بنبضات غريبة تسري في بدنها، لعلها البداية، لعله جسدها أصبح صالحًا لدبيب الحياة في داخلها، سوف يكون هذا اليوم آخر أيام العذابات، ستلبس أجمل أثوابها، وتتزين بأطيب عطورها، وتخبره.

لكن الأب سقط متحشرج الأنفاس، سال رغاء داكن من فمه، وصرخ قيس، حاول أن يقيمه من على الأرض، وسمع صرخة أمه من الخلف، كان وجهها قاسيًا صلبًا وهي تقول:

ـ أيها الولد العاق، سوف تقتله.

تجمع حولهم الناس، كل منهم يرمقه بنظرة اتهام صريحة، يحاصرونه كقبضة يد قاسية، وهتف في أبيه يستحثه للنهوض، ويعلن هزيمته على الملأ:

ـ انهض يا أبي سأنفذ أوامرك، سوف أطلقها من الليلة، انهض ولا تحملني وزرك.

لم ينهض، ولكن نظرة الانتصار بدت واضحة وجلية في عينيه. أسرع قيس إلى لبنى، كانت في انتظاره متألقة كليلة عُرسها، متفتحة للحظة الحب الأولى، لمست وجهه الأشعث المغبر، قبَّلته وهي تقول:

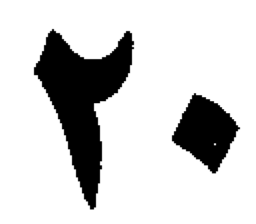
ـ عندي لك أخبار جديدة.

رد في وهن:

ـ بل أنا الذي أحمل لك الأخبار.

امتقع لونها، تراجعت إلى الوراء، وضعت يدها على بطنها كأنما تحاول أن تحميه من خطر داهم، وهتف قيس:

ـ سامحيني، لم أستطع، هذا أقوى مما أحتمله، لقد طلقتك، وأنت حرام عليَّ منذ هذه اللحظة!



الفرزدق

السائر على حد السيف

حدثني أبو الفرج الأصفهاني عنه بحماس بالغ:

الفرزدق لقب له، وتفسيره «الرغيف الضخم الذي تجففه النساء للفتوت»، اسمه همَّام بن غالب بن صعصعة بن ناجية.

حدثتني النساء عنه باشمئزاز واضح:

كان يعشقنا، ونحن نعشق من يعشقنا، لأنه يكمل في داخلنا دورة الرضا والكبرياء، ولكن خلف نظراته الشرهة كان يُكنُّ احتقارًا هائلًا لجنسنا، لم نكن نخافه كما يفعل الرجال، كانت القبائل تهتز أمام لسانه، ولكننا نعرف أننا نقاط ضعفه، الرجل الشره أحمق دائمًا، تعميه شراهته عن حيل المرأة، تقول نسوة من البصرة: «خرجنا يومًا إلى غدير خارج البصرة، لم يكن هناك من المخلوقات سوانا، خلعنا ثيابنا ورمينا بأجسادنا الحارة المتعبة، كانت المياه ناعمة، والشمس دافئة، ونحن لا نكف عن الضحك والعبث بالماء، فوجئنا بوجهه الكئيب المنتفخ يطل علينا من فوق بغلته، فزعنا، حاولنا أن نداري

عُرينا، أن نهرب منه، ولكنه ظل واقفًا مبحلق العينين في نهم، طلبنا منه الانصراف حتى نتمكن من الخروج، ولكنه انقض على ثيابنا وطلب أن نخرج عاريات، وهو يقول في نهم: «ستفعلن معي كما فعلت النساء مع امرئ القيس في دارة جلجل». ولكننا لم نرد أن نمتعه برؤية أجسادنا، امرؤ القيس كان فارسًا وأميرًا حتى وهو يعابث النساء، ولكن هذا مجرد وغد لن يجلب لنا سوى العار، بدلًا من ذلك قذفناه بالماء والطين والحصى وبكل ما وصل إلى أيدينا حتى فر هاربًا».

وحدثتني «النوار» عنه برعب هائل:

ماذا أقول وهو ابن عمي؟ قدري الذي قُدِّر لي، لم أكن أتعامل معه كرجل عادي، كان أكبر مني، وولي أمري، والمتصرف في أموالي، يدخل داري وقتما يشاء، فتتدافع أمامه الجواري ويجري خلفهن مثل ضبع شرس، أقف بعيدًا غير راضية، لا أجرؤ على الاعتراض، كنت أنمو، وأرى في عينيه أنه يرغبني، ذات لحظة سأصبح فريسة له، بدأت أهرب من وجهه، أتعلل بأي شيء حتى لا أراه، ثم وقعت في الحب، دخل إلى حياتي فارس من بني دارم، يمر أمام بيتي كل يوم مزهوًّا يدق الأرض بجواده، كأنما يهب قلبي نبضاته، ألمح لحيته وطرف شاربه فأتوارى خلف خماري، وأحلم باليوم الذي سيأتي فيه وينقذني من وجه ابن عمي الدميم، كنت أخاف أن يصل الأمر إليه بطريقة ما فيشهر بي وبأحلامي، ثم سارت الرسل بيني وبين فارسي النبيل، قال إنه يريد أن يتزوجني، قلت إنني موافقة، ولكن الأمر الصعب والسخيف، هو أن أُرسل للفرزدق حتى يأتي ويُخبره لأنه ولي أمري، وهو الذي سيزوجني كما يقضي العُرف، أرسلت إليه

جارية سوداء وأنا أعرف ضعفه أمام سوادهن، جاء خلفها يتلمظ، حط عليَّ بعينيه الشرهتين، قلت:

ـ خطبني رجل من بني دارم، وأنت ولي أمري فزوِّجني إياه.

ضحك بصوت خافت، لم أعرف لحظتها ماذا تعني ضحكته.

ـ لا أفعل حتى تشهدي أنك قد رضيت بمن زوجتك.

أحسست أنه يود أن يسترد اعتباره أمام القبيلة، يريد أن أبين لهم إلى أي مدى كم أنا راضية بوصايته عليَّ، كم كنت أكره هذه الوصاية! قلت:

ـ إنني راضية ما دام هذا أمام الناس.

أكد أنه موافق على زواجي، إن الصلات متينة بين بني دارم وبني مجاشع، وكلاهما من أشراف تميم. اجتمع قومي وسمعوني وأنا أقول أمامهم إنني رضيت بمن يزوجني إياه. قال لي:

ـ أعدي زينة العُرس وسأذهب إلى المسجد لإعلان الزواج.

كدت أطير فرحًا، لعلها المرة الوحيدة التي أحسست فيها بإنسانيته، ذهب القوم إلى المسجد، أوقدت الجواري الشموع المعطرة، وأخرجت كل أثوابي الجميلة، وامتلأ المسجد بالناس، صعد الفرزدق إلى المنبر، حمد الله وأثنى عليه، وقال:

ـ قد علمتم أن «النوار» قد ولتني أمرها، وأشهدكم أنني قد زوجتها نفسي على مائة ناقة حمراء سوداء الحدقة.

وافقه بنو مجاشع في بلاهة، وحدق فيه بنو دارم في ذهول، وجاء العبيد بالحلوى والشراب، والتف النسوة حولي يهنئونني باختيار شاعرهم العظيم، ولكني جريت منهن باكية، أطفأت شموعي،

مزقت أثوابي، وبكت الجواري حولي، لم أكن لأتركه يدخل مخدعي ويتوسد جسدي، جمعت مالي وثيابي، أعدَّ العبيد لي الجياد، أقبل الظلام فتركت نفسي في صحرائه السوداء ونجومه الشرهة كعيون الفرزدق، أصبحت طريدة، ناشزًا، والليل ستار هش، قالت جارية:

ـ يا مولاتي، خلف هذه التلال توجد مضارب بني عدي، بينك وبينهم صلة قرابة.

تسللت إلى المضارب، ارتميت تحت أقدام شيخهم، قصصت عليهم كيف تمت خديعتي، أجارني، ظللت ثلاثة أيام، وكل صبح يحمل رعب الفرزدق، ثم دخل شيخ القبيلة حزينًا، قال:

ـ الفرزدق يهجونا أقذع هجاء، وسوف ينتشر ذلك في أحياء العرب، ولسنا أكفاء للسانه!

عليَّ أن أرحل من جديد، شهر الفرزدق سلاحًا ماضيًا، وأصبحت الصحراء أكثر قسوة، وصلات الرحم بلا قيمة، لو أنه جاء بسيف ماضٍ لحاربوه وردوه عني، لكنه شهر لسانًا ما أشد رهبته، لجأت إلى بني عاصم المنقري، استضافوني، وعندما ردد الرواة البيت الأول في هجائهم، طلبوا مني الرحيل في الحال، ولم يوافق أحد من بني مطر على استقبالي، وزعم بنو كلب أن خلافاتهم القبلية تمنعهم من استضافة الأغراب، وادعى بنو مزينة أنهم غير موجودين لأنهم ينوون الرحيل إلى أرض جديدة، كان طعامي الرمل وخبزي الصبار، والفيافي الموحشة تمتد في قلبي، ومياه الآبار تجري في عروقي بدلًا من الدم، أود أن أكف عن اللهاث، أنعم بليلة واحدة خالية من الكوابيس، أن

يتوقف لسانه قليلًا، لكنه كان يتعقبني، يقول الشعر في كل منْ يؤويني أو يقدم لي شربة ماء أو كسرة خبز، أو حتى من يلقي عليَّ السلام، ثم وصلت إلى مكة، إلى خولة بنت منظور، زوجة عبد الله بن الزبير، أمير المؤمنين على الحجاز والعراق، وحسبت ـ واهمةً ـ أن لسان الفرزدق لن يقدر عليه، ثم شممت رائحته في مكة بعد أيام قلائل، أدركت أنه جاء، نزل بأبناء عبد الله بن الزبير يمدحهم ويسألهم أن يتشفعوا له عند الأمير، تحقق غرضه فاستجابوا له في البداية، لكني توسلت لزوجته، واستعطفت خولة الأمير، فعاد ثانية إلى صفنا، وهجا الفرزدق الجميع كما هي العادة.

ثم توصلنا إلى اتفاق، أقسمت إنني لن أتزوج بعده، لن أعرف أي رجل، سأحرم نفسي من أي لذة، وسأترك له ما يريد من جواري، سأترك له مالي يأخذ منه ما يشاء، لقاءَ مطلبٍ واحد: الطلاق. سال لعابه للصفقة، وافق، قلت:

ـ ليُتم هذا الإمام الحسن البصري.

حدثني الحسن البصري عنه بعد طول تردد:

جمعني وإياه عصر واحد، ومدينة واحدة، قالوا إنها البصرة التي جمعت خير الناس، وشر الناس، ولم أكن خير الناس، لكن الله وحده يعلم ماذا تخبئ الثياب، جاء إليَّ، قال:

ـ إني هجوت إبليس فاسمع.

قلت:

ـ لا حاجة لي بما تقول.

قال:

ـ فلتسمع أو لأخرجن فأقول للناس إن الحسن ينهى عن هجاء إبليس.

قلت:

ـ اسكت، فأنت تتكلم بلسانه!

ثم جاء إليَّ مع ابنة عمه النوار، كان قد تزوجها رغمًا عنها، قال أمامي:

ـ اشهد أنها طالق.

قلت لهما:

ـ قد شهدنا.

قال:

ـ ولكن لمرة واحدة فقط.

صرخت النوار، لم يكن هذا اتفاقهما معًا، وأحسست أنني محرج، كنت أود لو أملك القدرة على أن أهدر دمه، وأن أريح المسلمين من لسانه، لقد عرفت أنه أعادها إلى عصمته، وأخذ كل أموالها، وأخذ يخونها مع الجواري سيئات السمعة، وكان كل خبر من أخباره يثير في نفسي الرعب والحيرة، وكنت أهتف دائمًا في صلواتي: اللهم أنقذني من زمن يقاسمني فيه الفرزدق.

ثم حدثني الفرزدق عنْ نفسه:

السائر في هذا الزمان كالسائر على حد السيف، زمني الذي أكرهه وأتنفس غباره وأطالع وجهي في مرآته كل صباح، كيف أحتمله دون أن كون وغدًا لهذه الدرجة؟

جاء أبي إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال:

ـ هذا ابني من شعراء تميم فاسمع منه.

قال علي:

ـ علِّمه القرآن خير له.

أثرت فيَّ هذه الكلمات، قيدت نفسي في أوتاد الخيمة، أقسمت ألا أحل قيدي حتى أحفظ القرآن كله، وعندما كتبت الشعر قالوا: «لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة». لكن الشعر كان مضنيًا كالنحت في الصخر، وربما كان نزع ضرس أيسر عليَّ من أن أقول بيتًا من الشعر، لكنه جعلني نِدًّا للملوك وصديقًا للأوباش.

وأنا صغير كنت أرعى الغنم، جاء الذئب وأكل إحدى غنمي، عاتبتني أمي فلم آبه بالعتاب، كان الذئب حازمًا وكنت راعيًا فاشلًا، قال لي الذئب حين قابلته بعد سنين طويلة ودعوته للطعام، كان عجوزًا وحكيمًا، إن همتي لم تكن لتقف عند الرعي. سألته في أسى: أكان لا بد من الرحيل عن البادية؟ قال: هذا أجدى من مقارعتي. تركت ذئبًا واحدًا حكيمًا وجئت إلى البصرة وسط قطيع جائع، فلماذا لا أكون ذئبًا مثلهم، أعوي كما يعوون، وأعود إلى حجرتي في المساء ملوث الأظافر بالدم، كان الدم يسيل بلا ثمن، فما ضر أن ألغ فيه قليلًا.

أنا أجبن الناس، أخاف الموت والسجن والجوع، رأيت الحَجاج فلم أخف منه، رأيت فيه نفسي، حين يمسك هو بالسيف ويستمرئ لذة القتل، وأمسك أنا بناصية القول وأوغل في الهجاء، نفس الشراسة التي أخافها وإن كنت في حاجة ماسة إليها، ومع الحسن البصري رأيت نفسي التي فشلت في أن أكونها، الجزء من نفسي الذي استطاع هو أن يروضه، ماذا أفعل وقد بدأت قبيلتي تاريخها بالاعتداء على

الحرم وسلبت كل ما فيه، وبدأت حياتي بخديعة النوار وهجاء جرير، لم أفلت جارية ممن أتحْنَ لي، استضافتني امرأة ذات ليلة باردة وقدَّمت إليَّ طعامًا، فما إن دفئت وشبعت حتى نهضت وشاركتها فراشها، وعندما قاومت هددتها بالفضيحة حتى رضخت، برغم ذلك فأنا لست شرسًا، يكفي أنني لا أجلس على عرش ولا أقود جيشًا، كل ما أفعله هو أن أتبع نزواتي الصغيرة بعد أن ماتت كل الأشياء النبيلة في كربلاء.

كنت لا أزال مقيدًا في أوتاد خيمتي حين جاءت نسوة من قومي وهن يصرخن:

ـ قبرت من شاعر قوم، هتك جرير عورات نسائك وأنت ساكت!

كنت معزولًا، لا أعرف ماذا يحدث. قالوا إن جريرًا قد تهاجى مع شاعر من قومي يُدعى «البعيث» وقد تفوق عليه وهجا القبيلة وأفحش في وصف نسائها، أنا أعرف أنهن أشد فحشًا مما وصف جرير، لكن العصبية أشعلت الحرب الكلامية بيننا أربعين سنة كاملة، أربعين سنة من الخصام والملاسنات، والهجاء وتبادل كل ما في قاموس اللغة من شتائم، والأيدي الخفية تذكي النار بيننا، والناس يتناقلون الأشعار، يرفعون يده بالغلبة ويدي حينًا آخر، كان نسبي شريفًا وحاضري وضيعًا، وكان هو شريف الحاضر مجهول النسب، ولأننا نقتات الماضي البعيد فقد علوت عليه.

تلومونني لأنني اغتصبت زيجتي من النوار، وماذا في ذلك؟ هل كنت أترك الأغراب يأكلون مالها الذي هو مالي وأقف لأتفرج عليهم؟ لقد ضيَّع جدي كل شيء، كان يفتدي البنات الموؤودات في الجاهلية،

الأحمق كان كلما رأى رجلًا يريد أن يئد ابنته يشتريها منه ثم يهبها له، وبمثل هذه الصفقات غير المفهومة ضاعت ثروتي وأصبحت شاعرًا صعلوكًا، لم أكن لأكرر الغلطة وأهب النوار لشخص غريب، وعندما أصبحت في يدي، أخذت أضاجع أي جارية تصلها يدي، مضاجعات سريعة بلا حب ولا مودة، ولكني تعلقت بهوى إحدى الجواري التي تأبت عليَّ، وأخذت أراسلها، واعتقدت أنها مالت إليَّ وأرادت أن تجربني في الفراش، وأنا في الفِراش لا أُبارى، هذه هي كل ثروتي، واعدتني على أن أذهب إليها في المساء، ولما أقبل الليل تسللت إلى حجرتها، ثم إلى الفراش، وكانت في انتظاري، كانت ساخنة وكنت بارعًا، كلما توغلت فيها تدمدم بكلمات غير مفهومة، لم أسمع مثل هذه الموسيقى في حياتي، ولم أصل لمثل هذه الذروة، وهي أحست بالرجفة وهي تغمر كل بدنها، وعندما اشتعلت القناديل فوجئت بها تصرخ في وجهي:

ـ يا عدو الله، يا فاسق!

كانت هي، النوار، لقد خدعتني الجارية، تآمرت هي وزوجتي ضدي، ولم أتمالك أن هتفت في حيرة:

ـ أنت هي، يا سبحان الله، ما أطيبك حرامًا، وأرداك حلالًا!

وأخذت أحاذر بعدها، لا أختار إلا الجواري المضمونة، السود في أغلبهن، ولكن من الذي يأمن لهذا الزمان، لم أكن آمن إلا لبيت الشعر الذي يخرج من فمي، أما بعد أن تتداوله أفواه، فلا أمان لشيء.

على قبر النوار لم أقل بيتًا واحدًا، الموت جعل الشعر يجدب

في داخلي، الحسن البصري والجميع نظروا إليَّ بحنق، النصيب الأكبر في موتها يقع عليَّ، لكنها أيضًا قتلتني، ضنت عليَّ بحنانها وكنت في حاجة ماسة إليه، دون نساء الأرض كلهن ظلت نائية، ليلة واحدة فقط اشتعلنا فيها معًا، بعد ذلك لم تكن سوى رغبات مطفأة وحسرة تتجدد كل ليلة، كل النساء بعدها كن سلوى، وكنت أبحث عن حياة ما خلف جلودهن، وناحت النوائح على قبرها بأبيات من شعر جرير وقتلني هذا من جديد.

حدثني ابنه «لبطة» عنه بلامبالاة:

قالوا: «أبوك على وشك الموت».

لم أصدق، لعلها حيلة يسعى بها للزواج من جديد! مللت وجوده على قيد الحياة، كرهت سعيه إليَّ كل صباح ليتهمني بالعقوق، يسعل ويسير محني الظهر فإذا رأى طرف جارية كف عن السعال، هرم وشاخ ولم تنطفئ شهواته بداخله، عمَّر أكثر من مائة عام، شاهد سبعة خلفاء أُمويين وعددًا لا يُحصى من الفتن والحروب.

آخر من تزوج كانت ظبية بنت حالم، كانت أصغر مني سنًّا، تركها في البيت سنة كاملة، وفي النهاية فرت من وجهه كما فعلت النوار من قبل، لكنه هذه المرة لم يجرؤ على تتبعها، وسار يدب في شوارع البصرة يبحث عن زوجة أخرى.

قالوا: «لا بد أن تراه، فليس أسوأ من مجافاة المحتضرين».

ذهبت فإذا أبي حقًّا طريح الفراش، وإذا السنوات المائة تجاعيد غائرة ونفَس متحشرج، قال الطبيب إنه يعاني من ذات الجنب وليس هناك أمل إلا في الكي وشرب النفط الأبيض، شعرت بالحزن من

أجله، كان ضعيفًا كما لم أره من قبل، أحضرت الجواري أكواب النفط، قلت له:

ـ اشرب يا أبي.

نظر إليَّ كأنما يتساءل عن سر حناني. تجرع أول كوب بسرعة ثم أخذ يسعل ويرتجف:

ـ يا بُني عجلت لأبيك شراب أهل النار.

ألقى الدواء وطلب خمرًا صافية وشواء طازجًا، وظل يحدق فيَّ بعينيه الجائعتين، هتف:

ـ وصيتي...

أخذ يُعدد لي أنواع الجواري والمتاع، لم تخنه ذاكرته في أي شيء، قال:

ـ سوف أعتق كل الجواري والعبيد وأدفع لهم بعض المال.

لقد تذكر أخيرًا أنه إنسان، تجمعت حوله الإماء وقد شعرن بحزن طاغٍ، كن يعرفن أن موته يحمل لهن العتق والحرية، لكن شرارة الحزن تولدت وطغت، أعطيته رقًّا من الجلد ليكتب عليه ما يريد، هز رأسه وهو يقول:

أروني مَـنْ يقوم لكـم مقامي إذا ما الأمرُ جلَّ عن الخطاب

قالت جارية بحزن:

ـ إلى الله يا سيدي!

فوجئنا به يثور في عنف، صمم أن يبيعها ويقبضَ الثمن لساعته. قلت:

ـ يا أبتِ قل: «لا إله إلا الله».

صرخ فيَّ أن أذهب لآتي بالنخَّاس، قلت:

ـ إنها لم تُخطئ، سوف تذهب يا أبتِ ولا يبقى لنا إلا الله.

ظل ثائرًا حتى جاء النخَّاس، وباع الجارية، وحين كان يسقط الدراهم الفضية في حجره قلت:

ـ خذ دراهمك!

لم يرد عليَّ، ولم تطرف عيناه بنظرة الجوع المعتادة حين يرى مالًا، أو جارية.

حدثني جرير عنه بحزن حقيقي:

جاء الركب من البصرة، فسألت عن آخر الأنباء، قالوا:

ـ مات الفرزدق!

قلت:

ـ ليت الفرزدق عاش قليلًا.

لم أتمالك نفسي فدمعت عيناي، قال الذين حولي:

ـ يا سبحان الله، أتبكي على الفرزدق؟!

قلت:

ـ والله ما أبكي إلا على نفسي، إن بقائي بعده لقليل، وما تقارب رجلان مثلنا على خير أو شر فمات أحدهما إلا أوشك صاحبه أن يتبعه.

كانت روحانا مرتبطتين بشعرة رفيعة، نتنازع حولها ولا نقطعها، قالوا إننا معًا كنا أشعر أهل زماننا، أتينا بما لم يأتِ به الأوائل، كنا جوادين في حلبة رهان، كلانا خاسر، نلهث ونعرق فتخرج أشعارنا زبدًا أجوف، تجري في أوطار لعبة لم نفهمها قَطُّ، هجاني بأبي

فهجوته بأمه، هجاني بتاريخي ونسي حاضره، وهجوته بحاضره وأفعاله، واحتار الناس بيننا طويلًا، وكلٌّ منا لا يكف عن فتح جراح الآخر الشخصية، كم تغدو الحياة كريهة وأنت تنام وفي فمك دم الآخرين! قالوا إنه كان لعنة قومه وكنت أنا شهابًا من نار، وقلت إننا في قيد واحد، وضع عليَّ رداء لعنته واحترقت أنا بداخله، وما بقي منا سوى قطعة من الأحجار يسمونها شاهد قبر.

قالوا:

ـ مات الفرزدق!

قلت:

ـ فلا ولدتْ بعد الفرزدق حاملٌ!

وأتخيله في قبره يشد لحيته ويضحك بصوته الأجش قائلًا: «ابن المراغة يرثيني!»، فتضحك الملائكة، وتضحك الزبانية!



عبد الله بن الزبير
مقتل المستجير بالبيت

ظباء مكة صيدهن حرام، فمن الذي أحل دمي؟

اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى، العام الثالث والسبعون من الهجرة، والهواء عبق برماد الحريق، والرمل مشبع بالدم، وعبد الله بن الزبير قد بلغ عامه الثاني والستين، سارت الجيوش إليه من الشام مرتين، حاصرته في مكة مرتين، نصبوا المجانيق وقذفوا رؤوس الحجيج بالحجارة، حولوا نداءات التلبية إلى صرخات فزعة، وأشعلوا النار في أستار الكعبة، وردموا كل الآبار المقدسة، كان عبد الله في الداخل، والحجاج بن يوسف الثقفي في الخارج يُحكم حوله حصاره الطويل القاسي، تقلصت دولة ابن الزبير، أصبحت مجرد قطعة من الصحراء، لا تتعدى المساحة حول الكعبة، مليئة بالقتلى، والخرائب.

وقف أمامه ولداه حمزة وخبيب، ووقف ابنه الثالث الزبير خلفه، كانا يطلبان الإذن منه للخروج. أي إذن؟ هل بقيت له سُلطة، حتى

السُّلطة الأُبوية؟ حمزة هو الذي يتكلم، أقرب أولاده إلى قلبه، منذ أن ولاه على الكوفة برغم أنف الجميع، وكان يود أن يجعله قائدًا للجيوش ووليًّا للعهد، حمزة هو الذي يتكلم:

ـ يا أبي، نطلب منك الإذن بالخروج إلى الحَجاج.

غاصت الكلمات مثل نصل مسموم، زام الابن الثالث (الزبير) معترضًا، وحين التفت الأب إليه رأى أصابعه تلتف على مقبض السيف، أشار إليه أن يهدأ، وظل وجهه جامدًا، واصل حمزة كأنه لم يسمع شيئًا:

ـ إذا أذنت لنا سيعطينا الحَجاجَ الأمان إذا خرجنا إليه، لم يعد هنا إلا الهلاك.

تردد الأب قليلًا، ولكن ما جدوى الرفض؟ سوف يتسللان كما تسلل عشرة آلاف من أنصاره قبلهما، مثلما خلع المختار بيعته وأعلن الولاية لنفسه، مثلما غدر به الأُمويون، وقتلوا مصعبًا أخاه، كل شيء ينهار، والفئران هي أول من يُسرع بالهرب، وظل وجه الابن الثاني (خبيب) صامتًا، وأشار عبد الله بيده، إشارة لا تعني الموافقة أو الرفض، لكن الولدين انصرفا مبتعدين، سيذهبان حيث يقفان بعيدًا يطلان على تفاصيل المذبحة الأخيرة، والصمت ثقيل كالموت، والتفت عبد الله إلى الولد الثالث وهو يتساءل:

ـ وأنت، ألا تريد الذهاب معهما؟

هتف الزبير في قوة:

ـ كلا يا أبي، سأبقى معك.

وقال عبد الله:

ـ أيها الأحمق، سوف تموت معي!

في البدء، كانت البيعة وكانت الخلافة، وجاء معاوية كالقدر فأخذ البيعة بحد السيف، وورَّث الخلافة لأبنائه من بعده، وترك عبد الله في ذل الانتظار. في البدء كانا معًا، عبد الله ومعاوية، يبكيان القتيل نفسه، عثمان بن عفان، ويتوعدان قتلته، ويحلمان بدولة العدل، لكن معاوية صعد إلى ما يريد، استخدم كل أساليب الخداع والإغراء، وتردد عبد الله قليلًا فضاعت فرصُهُ، وظلا يتساجلان وسط جموع المسلمين الصامتة المتفرقة الغارقة في وهم الإمام المنتظر. أيهما أحق: قتلى الكوفة، أم قتلى الحجاز؟ قال معاوية:

ـ أنا أول الملوك.

ورد عليه عبد الله:

ـ أمك هي هند آكلة الأكباد، وأمي أسماء ذات النطاقين، أبوك سفيان بن حرب، وأبي الزبير بن العوام، ومَعاذ الله أن يكون أبواك خيرًا من أبوي، أما الدنيا فلك، وأما الآخرة فلي إن شاء الله.

ولكنْ عيني عبد الله كانت على الدنيا، على عرش القرشيين الذي ضاع، منذ أن قُتل أبوه في حربه ضد علي، وخرج الخوارج وتشرذمت الأحزاب، وتاهت الحقيقة، وبدأت كل الحروب دون سبب واضح، لذا لم يكن هناك مبرر لانتهائها، وعبد الله ينتظر الفرصة حتى يسقط معاوية ويتبدد شمل بني أُمية، لكن المشكلة أن معاوية على العرش، والحسين بن علي في القلوب، وابن الزبير يلعب لعبته الخاصة في حذر بالغ، يعد يومه الآتي من كل لحظات الانتظار. وبدأت أخطاء بني أُمية عندما حاول معاوية أن ينقل منبر النبي من مسجد المدينة إلى دمشق وهو يصرخ في الأنصار:

ـ لا أترك المنبر بينكم وأنتم قتلة عثمان!

وحرك المنبر، فانكسفت الشمس وشوهدت النجوم في الظهيرة، وأدرك ابن الزبير أن هذه علامة السماء، وبشارتها له.

كان هو أول مولود في المدينة بعد الهجرة، زعم اليهود أنهم قد سحروا المسلمين فلا يولد لهم أبناء، ومرت أيام الجدب بطيئة، ولم يكن بطن أسماء بالارتفاع الكافي، لكنه جاء، صرخ أولى صرخاته وسط تكبيرات المسلمين، وحملته أمه إلى الرسول ووضعته في حجره، وابتسم الرسول وهو يمسح على رأسه، ووضع في فمه تمرة كانت هي أول شيء دخل جوفه، وأوصى أسماء قائلًا:

ـ أرضعيه ولو بماء عينيك.

وأرضعته. بدأ خطواته الأولى مع فتح مكة، واشتد ساعداه وهو يحارب في شمال أفريقية، وحوصر في بيت عثمان أربعين يومًا، وبدأ الحلم يترسب في داخله، مجرد وصية غامضة أوصاه بها عثمان قبل أن يموت، زرعت في داخله كل هذه الطموحات، وقادته إلى تلك النهاية.

سار عبد الله يتفقد مملكته، انكمشت الصحراء حوله كالطوق، وامتلأ حرم الكعبة بالحمائم والجثث الغريبة، الحجيج الذين جاءوا يسعون من أقصى الأرض ففاجأهم الحصار، واحترقت الكعبة فوق رؤوسهم، كانت مظاهر المجاعة في كل مكان، لا يوجد حيوان داخل مكة إلا ذُبح وأُكل، حتى جواد ابن الزبير نفسه قدمه لأنصاره فذبحوه وأكلوه ثم تسللوا في المساء إلى الحَجاج.

تقابل مع ابن قيس الرقيات، شاعر قريش الذي وهب شعره من

أجل بيعته، مدحه كما لم يمدحه أحد، وهجا الأُمويين كما لم يهجهم أحد، كان مشعثًا، ذاهلًا، يجوس خلال الحرائق والجثث، كأنما يبحث عن الشيء الذي آمن به، وقف كلاهما أمام الآخر، الخليفة والشاعر الذي آمن به، كلاهما يحس بنذير النهاية ويشعر بمرارتها، قال عبد الله:

- لم يعد الشاعر يخشى من منظر الموتى.

قال ابن قيس الرقيات:

- بعد موت مصعب، فكل الموتى سواء.

حتى ابن قيس يفتح الجروح القديمة النازفة، ترك أشعار الغزل والصبابات وكل الرقيات التي شبب بهن وتبع حركة الزبير، وعندما تولى مصعب ولاية العراق نائبًا عن أخيه ذهب معه ابن قيس، شاهد حروبه مع الأُمويين ومع الأزارقة، ومع التوابين، حتى تولى الخلافة صديقه القديم عبد الملك بن مروان، كانا صنوين، ولذا كان صراعهما مريرًا، وبموت مصعب اتسع الثقب في جسد الدول، ضاعت العراق، وضاعت مصر، وحمص، وحلب، والأردن، وتدفقت الجيوش عبر الصحراء، هدفها رأس ابن الزبير نفسه. عاد عبد الله يقول في حزن:

- انظر، ماذا فعل بنا الحصار، حاصرنا الأُمويون قبل ذلك، بنفس الجيوش، وفي نفس المكان وانتصرنا عليهم، ماذا تغير هذه المرَّة؟

تطلع إليه ابن قيس في دهشة ممتزجة بالسخرية، ثم قال:

- ألم تدرِ بعد، في المرة الأولى لم تكن قد أصبحت خليفة، كنت

فكرة، رمزًا، والسُّلطة لا تستطيع حصار الفكرة أو الرمز، لكن السُّلطة تعرف جيدًا كيف تقهر سُلطة مثلها.

كانت نبرات صوته باردة، تجبُّ كل أبيات الشعر الحماسية التي قالها، بدآ معًا عندما جمع معاوية أولاد الصحابة ووضع السيوف على رقابهم ليأخذ بيعة ابنه يزيد، يزيد السِّكير سوف يصعد على العرش، ويحكم جموع المسلمين، ها هو عبد الله عليه أن يُعطي البيعة قسرًا كما أعطاها من قبل لمعاوية، ومات معاوية، وشدد حاكم المدينة حسب أوامر الخليفة الجديد على عبد الله أن يبايع أو يُوضَع في السجن، وهو يماطل ويُسوِّف، وسار إليه الحرس لكنه استطاع أن يهرب من المدينة إلى مكة، يحتمي في حرمها ويلوذ ببيتها، يعلن رفضه لخلافة السِّكير، يعلنها عالية ونهائية، وأقام في البيت ليلًا ونهارًا يصلي، ويهز الصحراء المستسلمة، ومات الحسين في كربلاء، رحل خليفة القلوب وبقي خليفة السيوف، وأخذ عبد الله يجمع حوله كل بقايا الرافضين والغاضبين والذين يؤمنون بالعدل المطلق، وغضب يزيد، وجَّه إليه جيشًا كبيرًا يقوده الحصين بن نمير، حسبوه صيدًا سهلًا، لكن المستجير بالبيت لم يعد وحده، جاءت إليه النجدات من كل مكان، دون أن يطلب شيئًا، جاء أهل المدينة وعلى رأسهم قدامى الصحابة وأولادهم، وجاء نجدة بن عامر الحنفي من اليمامة يقود ثواره ضد الحكم الأُموي، وجاء الخوارج الأزارقة، وجاء المختار الثقفي، حتى النجاشي أرسل بعضًا من الأحباش، كانوا يدافعون عن الكعبة وعن حُرمة المستجير بها، لكنهم الآن يرحلون في عكس الاتجاه، واحدًا وراء الآخر!

سار عبد الله إلى بيت أمه، أسماء بنت أبي بكر، كانت جالسة في انتظار زيارته اليومية، بلغت المائة من عمرها ولم تقع لها سنٌّ ولم تبيضَّ من رأسها شعرة واحدة، وكانت تحدق فيه بنظراتها الصلبة، لا يعرف فيها الشفقة من اللوم، أحس عبد الله كأنما ارتد طفلًا صغيرًا يعاني من الوحشة، قال:

ـ يا أمي، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، لم يبقَ من عمري إلا ساعة والحَجاج في الخارج يعطيني أمن الدنيا والعيش، ما هو رأيكِ؟

قالت أمه في سخرية مُرة:

ـ أنت أعلم بنفسك، إن كنت على حق أو على باطل، فيمَ قُتل هؤلاء إذا كنت تبتغي الدنيا؟ فيمَ قتلُهم وأنت تُمكِّن رقبتك لغلمان بني أُمية، إن أردت الدنيا فبئس الناس أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من حولك، وإن كنت على حق، فما الخير في حياتك وإصرارك على العيش؟

أحنى عبد الله رأسه، كانت هذه لحظة ضعف طفولية، لا يجرؤ على إظهارها إلا أمام أمه، قال:

ـ ما ركنت إلى الدنيا ولا أملت الحياة فيها، فانظري يا أمي إني مقتول من يومي هذا فلا يَزِد هذا من حزنك، إنني لم أجُر في حكم، ولم أغدر في أمان، ولم أتعمد الظلم، وكنت صوامًا، قوامًا، أحكم بالعدل، لا أقول ذلك تزكية لنفسي ولكني أقوله تعزية لك، ليسلو قلبك عني.

قالت أسماء:

ـ يا بُني، تُقتل حين تُقتل على حق.

ثابت الجنان حتى النهاية، عرفت نهاية اللعبة بعد أن شاهدت بدايتها، وتساقط أولادها كأوراق شجرة ذاوية، صورة مصغرة لكل ما حدث حولها، دم بلا ثمن، وقضية ضائعة، كل طرف فيها يعتقد أنه المحق.

خرج عبد الله إلى جولته الأخيرة، تطلَّع إلى كل من بقوا معه، ما أقلهم! أهي الشجاعة أم نوع من حماقة الانتحار؟ بعد انتهاء الحصار الأول، بايعه الخوارج على أن يذم عثمان ويثأر من قتلة علي، ورفض عبد الله، وتقدم إليه قائد الجيش الأُموي يبايعه ويطلب منه أن يصحبه إلى دمشق، ورفض عبد الله، وعرض عليه المختار الثقفي أن يشاركه في الأمر بعد أن يقتل الأزارقة، والتوابين، ورفض عبد الله، كان ينتزع خلافته من بين أنياب الجميع، هو وحده القادر على أن يملأ الأرض عدلًا بعد أن امتلأت جورًا، واستدار الزمن في دورته المفجعة، حين أعلن خلافته قبِلها الجميع وانتشر عُماله في كل أرجاء العالم الإسلامي إلا بقعة ضئيلة في الشام، واختار الأُمويون اختيارهم اليائس الأخير، اختاروا شيخهم الفاني مروان بن الحكم، وكان أول شيء فكر فيه أن يرحل إلى الحجاز ويبايع عبد الله ويخلع نفسه، لكنهم منعوه، وأصبح في الأرض خليفتان وحربان، ودماء كثيرة، ومات مروان ليأتي ابنه عبد الملك، وفَجأة انقلبت الأمور، سارت جيوش عبد الملك تحت قيادة الحَجاج بن يوسف الثقفي تجتاح كل شيء كالطاعون، يقتل دون رحمة، ويكافئ دون حساب، في الوقت الذي تخاذلت فيه جيوش عبد الله، ومات مصعب، وظهر المختار الثقفي بوجهه الحقيقي فخلع

بيعة عبد الله وأخذ يدعو لنفسه، وأصبح في الأرض ثلاثة خلفاء، وانقلب الزمن مزدوج الوجه المليء بالطموحات القاتلة.

آه! ما أطول ذلك اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى، العام الثالث والسبعون من الهجرة، وعبد الله وسط مكة، أسد عجوز محطم الأنياب، والحَجاج يُعد العدة للإجهاز عليه، لا يريد أن ينفرد أحد بقتله، مثلما جمع حوله كل العرب يجب أن يقتله كل العرب، وضع أهل حمص على الباب المواجه للكعبة، وأهل دمشق على باب شيبة، وأهل الأردن على باب الصفا، وأهل فلسطين على باب جمح، وأهل قنسرين على باب تميم، ووقف الحَجاج على باب المروة، وعبد الله في الوسط، يصرخ في أصحابه:

ـ صونوا سيوفكم تصونوا وجوهكم، لا تسألوا عني، فمن كان سائلًا فإني في الرعيل الأول.

لكن أنصاره تراجعوا، تركوه لأحجار المجانيق ولجند الشام والذباب، هبط على رأسه حجر ضخم، وتدفقت السيوف داخل جسده، كل الذين بايعوه، وخدعوه، ومن بعيد كانت الكعبة تطل عليه، عالية، أعاد بناءها بعد الحصار الأول، كانت تقل بمقدار سبع أذرع عما بناها إبراهيم الخليل، وظلت هكذا حتى أعاد عبد الله بناءها، وأضاف إليها الأذرع الناقصة، هوى على رمل الأرض التي حرَّم الله القتل فيها، وحوله وجوه غريبة، ملطخة بالدم والسواد، قال أبيات شعره الأخيرة:

يا رب إن جُنود الشَّـام قد كَثروا وهتكوا من حِجاب البَيت أستارًا

وغرق في ظلام الموت الكثيف، وهلل الجند لعل تهليلهم يصل

إلى الخليفة البعيد في الشام، ووقف الحَجاج على رأسه، أمر أن تُصلب جثته في ساحة الكعبة، صنم جديد، ميت، مستنزف الدماء، يرقد محني الرأس، مقوس الجسد، غائر العينين، كان الحمام الذي يعيش في حمى المسجد الحرام قد طار أو قُتل في أيام الحصار، وامتلأت السماء بطيور سوداء جائعة تصرخ في نهم، حتى إن صرخاتها غطت على صوت الأذان.

وخرجتِ أسماء تحمل على كتفيها أحزان سنواتها المائة، وقفت أمام جسد ابنها المصلوب والحَجاج يراقبها في تشفٍّ، لم تسأله شيئًا، لكنه هو الذي صرخ كأنما يدفع نظراتها:

ـ لن يُدفن حتى تأكله طيور الصحراء.

وقالت أسماء:

ـ سمعت رسول الله يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومبير، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت».

وظل الجسد المصلوب مُعلقًا يرقب بعيونه الغائرة المعاول وهي تهوي على الكعبة تنقض البناء الذي بناه، البيت الذي استجار به، لعلها تمحو دمه، وأثره، وخلافته.



أشعب

العيش على فتات الآخرين

حدثتني عنه مدينته، قالت:

كلما ذكرته، بجسده الضخم وهيئته الدميمة، اقشعرت أرض الحواري، واصطكت أبواب المنازل، وغاضت الينابيع. كان لحوحًا كذبابة، شرهًا كضبع يجوس خلال المقابر، طماعًا مثل... مثل... وهل هناك أطمع من أشعب؟

قال دينار ضائع:

ـ وجدني أشعب في إحدى الطرقات، وبدلًا من أن يسأل عن صاحبي، اشترى بي قصعة من الفخار ووقف على باب المسجد وهو يهتف: من يتعرف على هذه القصعة؟

وقال باب بيته:

ـ كانت في أخشابي ثغرة مستديرة، عندما ينام أشعب يخرج يده منها لعل إنسانًا يمر ويطرح في يده شيئًا.

وقالت امرأة تجدل الخوص:

ـ وقف أشعب أمام دكاني وأنا أجدل طبقًا فقال: لتكبريه. فقلت: ولمَ؟ أتريد أن تشتريه؟ قال: لا، ولكن عسى أن يشتريه شخص فيهدي إليَّ فيه طعامًا أو فاكهة، فيكون كبيرًا خيرًا من أن يكون صغيرًا.

لم يكن يكف عن السير والتسكع، دروبي كلها مرسومة في باطن قدميه، وأنفه الكلبي يتبع رائحة الطعام كما تتبع أذناه رنين الدنانير. كلما رأى تهامُس اثنين اعتقد أنهما يوصيان له بشيء. لا يترك نافذة إلا ونظر من خصاصها. لا يجد بابًا إلا ودس عينيه في ثقبه. كلماته مبللة باللعاب، ولعابه ملون بالشراهة، وشراهته بئر بلا قاع.

وقال صبيان المدينة:

ـ كنا نسير وراء أشعب، وضاق بنا فزعم أن عمرو بن عثمان يقسم أموالًا بين الناس، وحين صدقناه وانصرفنا نبحث عن هذه الأموال، فوجئنا به خلفنا يسعى إلى عمرو بن عثمان وقد صدق كذبته.

وقالت جارية:

ـ كان أشعب يجيء للحديث معي، فقالت لي جاراتي: «لو سألتِه شيئًا فإنه موسر»، فلما زارني كعادته قلت له: «تقول لي جاراتي ما يصلك أشعب بشيء؟»، فخرج نافرًا من المنزل ولم أره لمدة شهرين حتى جاء ذات يوم وجلس أمام الباب فأخرجت إليه قدحًا من الماء وأنا أقول: «اشرب هذا من الفزع». فقال: «اشربيه أنت من الطمع!».

كان يريد العالم كله بلا ثمن، يريده متكورًا ومحسوسًا بين أصابعه، لا مانع من أن يمر عليه بلسانه بين الحين والآخر، فاسدًا، نيئًا، جيفة،

لا يهم ما دام بين أصابعه، كل لحظة هي لحظته الأخيرة، من يستطيع أن يطفئ آلة الشراهة المتوقدة في داخله.

حدثتني عنه أمه، قالت:

أشعب ابني وليس ابن أحد غيري، لا أعرف من هو أبوه بالضبط، إنه يحسب نفسه أشعب بن جبير، وأنا متأكدة أن جبيرًا لم يعرف قَطُّ أن له ابنًا على قيد الحياة، المسألة أن الليالي متشابهة والرجال في الظلام متشابهون، ولكن الأطفال يلحون في السؤال بلا مناسبة، فليكن ابنًا لهذا العالم المليء بالجوعى والمتخمين، ليختر أي لقب يشاء، ولكن عليه ألا يبيت الليل دون عشاء.

بعد ولادته جف اللبن في صدري ولم أجد له غذاء، وظللت أطوف على سيدات المدينة، لم أكن أملك مالًا أخصصه لمُرضعة، فجعلت أستوهب له كل وجبة من وجباته، ما كان أجدر بي أن أتركه للموت جوعًا كما مات غيره، حتى لا يكبر ويُلقي عليَّ هذه الأسئلة السخيفة، الطفل الأحمق تشبث بالحياة، كلما وافقت امرأة على إرضاعه أنشب فمه بنهم غير عادي، كان يتلمظ في حضني، ويبدو مصغيًا شديد الإصغاء وأنا أتوسل لأي امرأة أن تجود عليه برضعة، لا يبكي، يظل هادئًا حتى يثب إليها، الوغد الصغير، لقد تعلَّم أن يرضع من كل الصدور، ويأكل على كل الموائد، وينافق كل السادة، ويحفظ فتات الشعر ليثير إعجاب الحاضرين، ويلح في السؤال، ويبالغ في التذلل، ويبكي خشية الرفض، ويكون ممتنًّا دومًا، شاكرًا أبدًا، مطيعًا للأصاغر، ملبيًا لإشارات الأصابع، يحكي النكات إذا حضر المدام، ويجوِّد القرآن إذا أسحر الليل.

حين علمت أنه تعلَّق بأستار الكعبة ودعا الله قائلًا: «اللهم أذهب عني الحرص والسؤال والطلب»، ثم مر بالقرشيين فلم يعطه أحدهم شيئًا، وجاء إليَّ خائبًا خالي اليدين، صحت فيه:

ـ لا والله، لا تدخل من الباب حتى ترجع فتستقيل ربك، وترجع عن دعائك.

ولم أدخله حتى عاد إلى أستار الكعبة وتعلق بها وهو يهتف: «يا رب أقلني». فلم يمر بمجلس من المجالس إلا وهبه أحدهم شيئًا.

ثم يأتي هذا الأحمق ليسألني من هو أبي، كأنه يعتقد أن لهذا السؤال أهمية، قلت له على الفور: «إنه جبير». وكان مصعب بن الزبير قد ذبحه، وسار أشعب يبكي أباه. وقلت في نفسي: «ولعله زيد، أو تبع، أو عمرو، أو أي كائن من كان، الأرض واسعة والسماء شاهقة، ولماذا تطالبني وحدي بالإجابة عن كل الأسئلة؟».

حدثني أشعب عن نفسه، قال:

عليكم اللعنة جميعًا، تتحدثون عن طبعي، أخبار جشعي، ونوادر طمعي، وأنتم أكثر نهمًا مني، لا أتطلع إلا إلى الطعام، وأنتم لا تكفون عن نهش جسدي، تتحدثون عن كيف مررت بقوم يأكلون، فلما سلمت ردوا سلامي بجفاء، سألتهم ماذا تأكلون، قالوا سمًّا، فجلست بينهم وأنا أهتف:

ـ الحياة بعدكم حرام.

تتحدثون عن أني أكلت فالوذجة، وجديًا مشويًّا، وبرغم المغص الشديد لم أتوقف حتى لا تحسب سابقة عليَّ أنني أبقيت شيئًا. تتحدثون أنه لا تزف عروس في المدينة إلا وتوقعت أن تهدي إليَّ، وحين طلبت مني امرأة وقعت في هواها خاتمي لتذكرني به قلت لها:

ـ اذكري أني ما منحتك إياه فهو أحب إليَّ.

إنني الجزء الأسود فيكم الذي تجاهدون في إخفائه، أعلن نزواتي الصغيرة، وأطالب بحق معدتي، ولا أكتم رغبة مهما سفلت، أنتم أشد جبنًا وخجلًا، تجاهدون كل عمركم لخنق رغبة، تقطعون جسدي سيورًا لنبالكم العمياء، وسهامكم الصدئة، عليكم اللعنة جميعًا.

كنت صغيرًا عندما اقتحم الحرس دارنا، وحضر الوالي والقاضي والشيوخ، وصعاليك المدينة، أخرجوا أمي محلولة الشعر، ممزقة الثياب، والنساء الفاضلات يصرخن:

ـ ارجموها!

لم يكن ينقصن سوءًا عنها، حتى القاضي برقت عيناه في نهم وهو ينظر إلى جسدها العاري الممزق الثياب، وأنا أعض أيدي الحرس التي تقيدني، وأحاول التملص، وحين تقابل وجهانا، لم تكن تبكي، كانت مدهوشة لأن زبائنها القدامى تحولوا إلى ذئاب، يريدون أن يقتصوا من جسدها الذي طالما وهبهم المتعة، ولم يعطوها في المقابل سوى عدة دراهم صدئة، صاح فيها الوالي:

ـ ضبطتِ متلبسة، وشهد عليك شهود عدول، وتبرأ منك أهلك وعشيرتك.

فلم تطلب الرحمة، وهي التي طالما سألت الكثيرين، وعلمتني حرفة السؤال وذل الإلحاح، لم تطلب بضعًا من حياة لا تستحق أن تُعاش، ونظر الوالي إلى القاضي، ونظر القاضي إلى أمي، ونظرت أمي إليَّ، وخصتني بنظرتها الأخيرة وقال القاضي:

ـ تُحلق، ويطاف بها، ثم تجلد.

وكان الموسى ثالمًا، يقلع ولا يحلق جدائلها الطويلة، ليلي الصغير الذي أخبئ فيه وجهي وأحلم، أرضع طعامي من صدور النساء ثم تعطيني شعرها لأتخلله بأصابعي الصغيرة ونادرًا ما كنت أظفر بنجمة صغيرة، اجتزوا رأسها وأصبحت صلعاء مائلة للخضرة، غاية القبح يا أمي، وبدت الملامح غليظة مثل نعل قديم، ووضعوها على حمار ووجهها للناحية الأخرى، كان الحمار هادئًا تمامًا، مثل حكيم يدوِّن أقواله، ووقف الحرس ضاحكين، تذكرت أحدهم وهو يضع درهمًا في يدي ذات ليلة حتى أترك البيت وأتجول بعيدًا، مضى الموكب، والجلاد يمسك السوط ويهوي عليهما، أمي والحمار، وأنا طفل الزحام اليتيم، أتبعك، أشاركك عارنا المشترك، أنت أبي الذي لم يرني وذكرياتي المفضوحة، والسوط يهوي على ظهري، شربت مهانتها قطرة فقطرة، خطوت على شوك عارها خطوة فخطوة، وحين كان السوط يهوي ثم يصعد ناثرًا قطرات الدم لم أدرِ، دمها، أم دمي، بعد أن هدأ احتفال الشماتة جلسنا وحيدَين، في يدي قارورة زيت أدهن ظهرها الممزق، لم تكلمني، كان وجهها أبيض مائلًا للزرقة، كانت ميتة ولن تعيدها زيوت الدنيا إلى الحياة، وفي صباح يوم لا أذكره وجدتها متيبسة، متكومة الأعضاء، جلدها أزرق، والدم المتجلط على ظهرها تحول إلى اللون الأسود.

لم يبكها أحد، تولت تربيتي وكفالتي عائشة بنت عثمان بن عفان، وابتعدت مؤقتًا عن التشرد في الطرقات، وعن مذلة السؤال، دخلت إلى عالم واسع، بيت الحكم، في ظل أمير المؤمنين عثمان، حتى إنني ذات لحظة، فكرت أنه من الخير أن أمي قد اختصرت طريق المهانة

وماتت، لقد أتاحت لي بموتها هذه الفرصة الوحيدة لكي يكون لي هذا البيت، وهذا الأب.

لكني استيقظت صباحًا، لأجد المئات من الناس يحاصرون بيت الخلافة، كنت صبيًّا لا أعرف ماذا تعني كل هذه الخلافات والضغائن التي يولدها الطمع، رأيت السهام تهبط علينا كالمطر، وامتنع دخول الماء والطعام إلى البيت، والخليفة جالس في الفناء يقرأ في مصحفه الذي قُدِّر له أن يُقتل فوقه، وسط عشرات المسلحين والسيوف والرماح.

خمسون يومًا وقبضة الحصار تزداد حولنا، كل يوم قتيل، وكل لحظة دم ضائع، وعندما اعتلوا سور البيت، أشعلوا النار في الأبواب، وذبحوا الخليفة، وجدتُني وحيدًا يتيمًا مرة أخرى، اغتالوا كل الذين أحببتهم، فلماذا لا أطالبهم بفتات الحياة التي سلبوها مني؟! لمَ لا ألحف في السؤال، وأنتزع من على وجوههم أقنعة الكرم الزائفة، أكشف عما في داخلهم من شح وبخل وأنانية؟! حين وضع أحدهم فالوذجة ماسخة أمامي وطلب مني رأيي، قلت:

ـ لعلها طُبخت قبل أن يوحي الله للنحل أن يصنع عسلًا!

لم يكن كل واحد منهم يجود بما عنده إلا خوفًا من الفضيحة، وعليَّ في كل مرة أن أُجرب معهم حيلة جديدة، كنت أُربي جديًا صغيرًا، وجعلت زوجتي تُرضعه من لبنها، تذكرت كيف كانت أمي تحملني إلى زوجات الآخرين، وذهبت إلى إسماعيل بن جعفر وأنا أقود الجدي:

ـ بالله عليك إنه مثل ابني، قد رضع بلبن زوجتي، وقد حبوتك به ولم أجد أحدًا يليق به سواك.

ونظر إسماعيل إلى الجدي، أدرك أنه إزاء حيلة جديدة من حيلي،

أو لعله خشي أن تكون فتنة من الفتن، فأمر به فذُبح وسمط، وأقبلت عليه وهو يأكله أطلب منه المكافأة، ففوجئت به يقول:

ـ ما عندي والله شيء، مُر بنا فيما بعد.

وظللت ألح عليه في السؤال حتى أصابني اليأس، فقمت وذهبت إلى أبيه جعفر بن محمد، وأخذت أبكي في حرقة وأنا أهتف:

ـ وثب ابنك إسماعيل على ابني فذبحه، وأنا أنظر إليه!

وفزع جعفر وهمهم مرتبكًا:

ـ ويلك! وفيمَ؟ وتريد ماذا؟

وأدخلني منزله، وأخرج إليَّ مائتي دينار وهو يتوسل إليَّ أن أهدأ ويعدني بالمزيد، وأفلتُّ أنا والنقود، وذهب جعفر إلى ابنه فعرف منه القصة الحقيقية، وكان كلما قابلني يقول لي:

ـ رعبتني رعبك الله.

فأقول له:

ـ روعة ابنك والله إياي في الجدي أكبر من روعتك أنت في المائتي دينار.

ذات مرة وجدت من هو أبخل مني، وأكثر شحًّا، من هو أقوى من أن أقاومه، حدث ذلك حين تولى على المدينة رجل من بني عامر، وكان من أبخل الناس وأنكدهم، وأغراه الله بي يطلبني في ليله ونهاره، فإذا هربت منه هجم على منزلي بالشرطة، ويطلبني أن أُحدثه وأُضحكه، لا أسكت ولا أنام، ولا يطعمني ولا يعطيني شيئًا، فلقيت منه جهدًا عظيمًا وبلاءً شديدًا، وحضر الحج، فقال لي:

ـ يا أشعب كن معي.

فقلت:

ـ بأمي أنت وأبي، أنا عليل وليست لي نية في الحج.

قال:

ـ لئن لم تخرج معي أودعتك في الحبس حتى أعود.

فخرجت معه مكرهًا، فلما نزلنا المنزل أظهر أنه صائم، ونام حتى تشاغلت، ثم أكل ما في سفرته وأمر غلامه أن يطعمني رغيفين بملح، وظللت أنتظر المغرب وأتوقع إفطاره حتى قال لي غلامه:

ـ قد أكل الأمير منذ زمن.

فقلت مدهوشًا:

ـ أوَ لم يكن صائمًا؟

قال:

ـ لا، وقد أعد لك ما تأكله فكُلْ.

وأخرج الرغيفين والملح فأكلتهما وبتُّ ميتًا من الجوع، وأصبحت فسرنا حتى وصلنا إلى أطراف مكة، فقال لغلامه:

ـ ابتع لنا لحمًا بدرهم.

فابتاعه. فقال:

ـ كبب لي قطعًا.

ففعل. فأكله. ونصب القدر فلما اغبرتَ، قال:

ـ اغرف لي منها قطعًا.

ففعل. فأكلها. ثم قال:

ـ اطرح فيها دقة وأطعمني.

ففعل. فأكلها. ثم قال:

ـ ألق توابلها وأطعمني منها.

ففعل. فأكلها. وأنا جالس أنظِر إليه لا يدعوني، فلما استوفى اللحم كله قال:

ـ يا غلام أطعم أشعب.

ورمى إليَّ برغيفين، فجئت إلى القدر وإذ ليس فيه إلا مرق وعظام، فأكلت الرغيفين غيظًا. وأخرج جرابًا فيه فاكهة يابسة فأخذ منها حفنة فأكلها وبقي في كفه بضع نوى، ولم يكن له فيه حيلة، فرمى به وقال:

ـ كل يا أشعب.

فذهبت آكل واحدة منها فإذا بضرسي قد انكسرت منه قطعة فسقطت بين يدي، ولم أملك بعد ذلك إلا أن أعوي باكيًا. وأقبل أناس بني مصعب عليَّ وأنا في هذه الحالة فصحت بهم:

ـ الغوث، الغوث، أدركوني يا آل مصعب!

فركضوا إليَّ وأنا أواصل الهتاف:

ـ خذوني معكم حتى تخلصوني من الموت.

فحملوني معهم وأنا أرفرف كالطير الذبيح، وحلفت بالطلاق أني لا أدخل المدينة ما دام بها هذا الوالي، فلم أدخلها حتى عزل.

أعرف أنني مهما قلت لن ترحموني، لقد أصبحت أنا المكان الوحيد الذي تلقون فيه نفايات رغباتكم، ونزواتكم، عليكم اللعنة جميعًا.

وأخيرًا حدثني ابنه عنه، قال:

قاوم أبي السنين طويلًا، وغالط حساب عمره، وجاءت الشيخوخة كالثلج فوق قمة جبل قاسيون، مسخت حكاياته، وفقدت نوادره مذاقها، وارتعد صوته، وأصبح شيخًا دميمًا ثرثارًا، يسعى في أرجاء

المدينة ويذهب إلى حيث لا يريده أحد، كنت جالسًا في فناء بيتنا مع أمي، حين رأيته يدخل مندفعًا ويهتف بي:

- بلغني أنك تقول النادرة، وتروي الأشعار، وأن لك حظوة وقد مال الناس إليك.

أومأت إليه موافقًا، فهتف:

- هلم إذن حتى نتبارى ونرى من منا أحق بالغلبة.

جلس كلٌّ منا في مواجهة الآخر، هذا الوغد العجوز لم يكن يريد الاعتراف أن زمنه قد ولى، اندفع يتغنى ببيت ركيك من الشعر وخرج صوته ضعيفًا، متعثرًا، وغنيت أنا بكل ما في صوتي من نضارة حتى تخاذل أمامي، ثم اندفع يقول النوادر، نوادر قديمة فاترة لم تعد تثير ضحك الأطفال، ولم أسكت، أحرقت كل نوادره، وزدت عليها في نوادري اللاذعة، وتوقف قليلًا ثم اندفع في الخطب، يردد الكلمات المسجوعة والمعاني البائرة بصوت رتيب متحشرج، وأخذت ناصية الخطابة منه، تلاعبت بكل ما في الكلمات من جناس، وما في المعاني من تورية، وفي النهاية انخرط في بكاء عنيف، حتى إن اشمئزازي منه تبدد في لحظة، فقلت في أسف:

- لعلي أسأت إليك يا أبي!

لكنه همهم من خلال دموعه:

- أنا بمثابة شجرة الموز، إذا نشأ ابنها قطعت، وأنت نشأت وحظيت، وأنا أموت، إنما أبكي على نفسي.

كان ضعيفًا، مترهلًا، يعبر المدينة طوال اليوم ويعود فارغ اليدين، ونحن صغار كان جرابه لا يخلو من طعام أو حلوى، ولم نكن ندري

أي طعام نأكل بالضبط، فقد كانت كل الأنواع تختلط معًا في عجينة واحدة، وحين يضعها أمامنا يسرع كل منا بملء معدته.

كان يبكي نفسه، ويمضي لحظاته الأخيرة ذاهلًا، رثًّا، كريه الرائحة، لكن كل هذه الأشياء تبدَّلت فجأة وهو راقد على فراش الموت، وهو يمد يده ويمسك بيد أختي ويقول:

ـ يا بُنية، إذا مت فلا تندبيني والناس يسمعونك فتقولين «وا أبتاه أندبك للصوم والصلاة، وا أبتاه للفقه والقراءة»، فيكذبك الناس ويلعنوني.

ولم أتمالك نفسي من الضحك المرير. وتسللت عجوز من المدينة تدعى «صريمة»، كانت صفراء العين، حاسدة لا تنظر إلى شيء وتستحسنه إلا وأهلكته، التفت أبي ورآها فصرخ وهو يغطي وجهه بكُمه:

ـ يا صريمة، بالله إن كنت قد استحسنت شيئًا مما أنا فيه فصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ولا تهلكيني.

فغضبت المرأة وهتفت:

ـ سخفت عيناك، في أي شيء أنت مما يُستحسن، أنت في الرمق الأخير!

قال أبي:

ـ إنني أعلم، ولكن قلت لئلا تكوني قد استحسنت خفة الموت عليَّ وسهولة النَّزع فيشتد عليَّ ما أنا فيه.

وأخذت العجوز تسبه وهي تتجه إلى الباب، وبينما كان كل من يحيط بفراشه يضحكون، كان أبي قد مات!



بشار بن برد

لا عزاء للأعمى!

دخل أعرابي على جماعة وبشار جالس وسطهم وعليه طيلسان الشعراء، تساءل الأعرابي:

ـ مَن الرجل؟

قالوا:

ـ رجل شاعر.

قال:

ـ أمولى أم أعرابي؟

قالوا:

ـ بل مولى.

قال الأعرابي في استنكار بالغ:

ـ وما للموالي وللشعر؟

أجل، كان مولى، وكان أعمى، وكان زنديقًا، وكان شاعرًا، وكان اسمه بشار بن بُرد.

وعندما جلدوه حتى الموت، وحملت الأمواج جثته كشاهد أخرس، عندما سخروا من عماه، من دمامة وجهه وضيعة نسبه، أخذوا لسانه وأعطوه بدلًا منه دنانير مزيفة، مزجوا ماءه العذب بطعم المُر، واستقراره بالمنفى، عندما حاصروا خطواته المظلمة، كسروا كل ما كان يتوكأ عليه من عصي، أكان مولى هجينًا أم كان إنسانًا؟

أمه جارية عربية، وأبوه عبد فارسي، تزوجا ذات ليلة وعلقت في طفلها الأول، وجاء الطفل أعمى، مشوَّه الساقين، أسمته «بشيرًا»، انطوت تحلم مثل كل الأرقاء بطفل رائع جميل، كأطفال السادة، يحمل كل مباهج الحرية، ثم جاء الطفل الثاني، له ذراع أطول من الأخرى، أسمته «بِشرًا»، وأخذت تهذي من حمى النفاس، ثم أفاقت من المرض لتواصل حملها بالطفل الجميل، ثم جاء الثالث، ضخمًا، مشوه الوجه، جاحظ العينين، تام العمى، أسمته «بشارًا»، وعندما أقبلت سيدتها لتهنئها ولتُبشرها بالعتق شفقة بها وبالمواليد الثلاثة المشوهين، وجدتها ميتة، ووجدت الطفل الأعمى يبكي، يطلب بإصرار حقه في الطعام وفي الحياة.

قال أبو الفرج الأصفهاني: كان بشار ضخمًا، عظيم الخلق والوجه، مجدورًا، طويلًا، جاحظ المقلتين، يغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس في العمى، وأفظعهم منظرًا، وكان إذا أراد أن ينشد صفق بيديه وبصق على يمينه وشماله، ثم ينشد فيأتي بالعجب.

البصرة، مدينته وعذابه، لا يراها، ولكنها محفورة في داخله مثل جرح لا يندمل، في كل مساء تتنفس الحواري بالعطن، وتمتلئ القصور برائحة الشواء، ويموت المبشرون على الأرصفة، تستعر

شرارة الشعر في داخله، تحدث جلبة كآلاف الجياد النافرة، يسترجع تفاصيل حياته اليومية بالصوت والرائحة، تتشكل بلا ألوان، وتتحول الأحلام إلى أشباح قاتمة فيشعر بالكراهية نحو الجميع، يهتف:

ـ الحمد لله الذي ذهب ببصري.

وحين يسألونه:

ـ ولِمَ يا أبا معاذ؟

يجيب:

ـ لئلا أرى مَن أبغض.

قال الشعر في سن العاشرة، تعبيرًا مريرًا عن كل ما يحس به، لقد علَّموه كيف يُجيد الكراهية، كل شيء بغيض، من أول شعاع الشمس الذي يحسه ولا يراه، وأريج النسوة حين يعبرونه ويبقى أثرهن في أنفه، وبكاء الأطفال الجوعى، وتفاخر الرجال الأجوف، كان احتقارهم له ينفذ عبر الظلام الذي يحيطه، وكان يعرف من دبيب الأقدام أي أناس قادمين وأي إهانة سيتلقاها، كيف يمكن أن يستقيم العالم وفيه كل هذا العدد الهائل من المُبصرين؟ انبرى يقول الشعر، لعله يسمل كل العيون التي تكشف عوراته في كل لحظة.

أثار فزع قومه، هذا الغلام الذي لم يبلغ الحلم بعدُ، ويملك هذا اللسان بالغ القسوة، اكتشفوا أنه يراهم كما يرونه، يُبصر عوراتهم وسوءاتهم التي جهدوا في إخفائها، ذهبوا إلى أبيه، تأففوا وهم يخاطبون ذلك العبد الفارسي الذي كان يشتغل «طيَّانًا»؛ يعجن التراب والتبن بالماء ويصبها في قوالب طينية ثم يبني بها بيوت الفقراء المنخفضة، هتفوا مهددين:

ـ الأعمى قد جاوز حده، إن لم تردعه قتلناه.
بُهت الأب، لم يتصور أن يفعل ابنه هكذا بالسادة الذين تعوَّد على طاعتهم، أسرع إلى البيت، انهال بالضرب على بشار وهو يصرخ فيه:
ـ يا أعمى القلب واللسان، كيف تهجو أسيادنا السادة؟!
لم يأبه الغلام بالضربات، كان سعيدًا لأنه خدش جلودهم السميكة، كلَّت يد الأب وما زال الغلام يبتسم، شرح له الأمر ببساطة متناهية:
ـ يا أبتِ، إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر، وإني إن داومت على ذلك أغنيتك وسائر أهلي، فإن شكوني إليك قل لهم إن الله يقول: «لَيسَ عَلَى الأَعمَى حَرَجٌ».
انصرف الأب غير مصدق كيف امتلك ابنه كل هذه الفصاحة. تركه ومضى، يعجن الطين ويضرب الطوب، وأتى السادة، فلم يلتفت إليهم، للمرة الأولى في حياته عاملهم بترفُّع بالغ، وهتف بالآية القرآنية:
ـ «لَيسَ عَلَى الأَعمَى حَرَجٌ».
نظر السادة بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وهم يهمهمون:
ـ فِقه بُرْد أغيظ لنا من شِعر بشار.
لقد قوَّى فَقْد بصره من مرارته، ودفعته المرارة إلى حافة التمرد، وكان الهجاء وسيلته لفرض قوته العاجزة، وحين سُئِل لماذا يُكثر من الهجاء، قال:
ـ إني وجدت الهجاء المؤلم أشد فائدة من المديح الرائع، وإني في الهجاء أُخاف فأُعطى، وأما الثناء فيضعني في زمرة المنافقين.
تبرَّم الناس جميعًا، وأولهم أخواه، كانا قصَّابَين بالبصرة، لم يتركاه

في حاله، ظلا يستعيران الأثواب التي تُهدى إليه فيوسخانها ببقايا دم الذبائح، فأقسم ألا يعيرهما أي شيء، فكانا يأخذانها دون إذن منه، وهكذا عندما كان يلبس أي ثياب يجدها متسخة، ملطخة، ولا يجد بُدًّا من الخروج إلى الناس، وحين يسألونه عن هذه الرائحة يجيب:

ـ هذه ثمرة صلة الرحم.

ثم يهتف في حنق بالغ:

ـ اللهم إني قد تبرمت بنفسي، وبالناس جميعًا، اللهم فارحمني منهم.

ولكن لم يكن مُقدَّرًا له أن يريح أو يستريح إلا بعد سبعين عامًا، قال الأصمعي: سلك بشار طريقًا لم يسلكه أحد، أحسن فيه وتفرد به، في وقت لم يتجاوز فيه الشعراء مذاهب الأوائل.

سبعون عامًا كاملة، لم يترك همسة تسللت إليه، أو لحظة عاشها، أو حلمًا طاف بذهنه، إلا وترجمه إلى صورة شعرية، وكتب من القصائد عددًا لم يبلغه أي شاعر آخر. قال:

ـ لي اثنا عشر ألف قصيدة، لعنها الله، ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين.

لم يبقَ من كل هذه القصائد إلا أقل من ألف بيت فقط، تحمل في كل شذراتها المبتورة عذابات الشاعر الأعمى، ما بين احتقار الموالي في أواخر أيام الأُمويين، حين كان يبذل ماء وجهه وطاقته ليختلق لنفسه نسبًا مع بني عقيل، ثم هوى نجم الأُمويين وصعد الموالي إلى دست السُّلطة، وتعقب العباسيون وأعوانهم من الفرس الحكام القدامى، لكن بشارًا لم ينتبه مبكرًا لهذا التغير، كان يعيش نبض مدينة

البصرة الخاص، مدينة الفكر والفتن والأهواء السياسية، يسعى في دروبها الزنادقة والمعتزلة والخوارج، تحمل عقدة ذنب العلويين، عندما خذلوا علي بن أبي طالب وباعوا أولاده، وتشبع بشار بهذه الروح المذنبة، وعندما جاء إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يقود آخر ثورات العلويين، يحاول أن يناطح العباسيين وهم في أوج قوتهم، وقفت البصرة كلها خلفه، لعله ينتصر، لعله يخفف قليلًا من عقدة الذنب، وكتب بشار القصائد يمدحه، يحرضه، يضع بين يديه حلم العدل الشامل: لا مولى، لا عبد، لكن الثورة فشلت، وصُلب إبراهيم، وتحولت القصائد إلى أدلة اتهام.

لم يكن هناك بُدٌّ من السير مع مد الريح، الوفاء للموتى بلاهة، وما دام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن قد قطعت أوصاله فلْتُقطع أوصال القصائد التي كُتبت من أجله، وبدلًا من أن يحث العلويين على الثأر حرَّض العباسيين على الانتقام، أدرك أن الموالي، خجله القديم، أصبحوا قوة الدولة الجديدة، انقلبت كل موازينه، أظهر اشمئزازًا بالغًا من نسبه العربي، وأعلن انتسابه كاملًا وواضحًا للفُرس، وضع لنفسه سلسلة من الأنساب الزائفة تضم ستة وعشرين جَدًّا أسماؤهم أعجمية.

قال الجاحظ: وكان بشار يدين بالرجعة، ويُكفِّر جميع الأمة، ويصوِّب رأي إبليس في تقديم النار على الطين.

والرجعة هي من مذاهب الشيعة، وكانوا يعتقدون أن بعض الموتى سيعودون إلى الحياة قبل يوم القيامة، نشور مبكر للنفوس والأجساد، مَن كان صالحًا وتقيًّا سيرى انتصار العدل بعودة الإمام المنتظَر، ومَن

كان فاسقًا وفاجرًا سيلقى عقابه من جديد، وكان بالبصرة خمسة من أصحاب الكلام، منهم بشار، وواصِل بن عطاء، وآخرون، كانوا يداومون على الاجتماع والنقاش كل ليلة، يفندون حكمة السلف وفلسفات اليونان واجتهادات الفِرق الإسلامية، عقول متقدة كانت تبحث بإصرار عن نوع من الخلاص الفكري، منهم من آثر الاعتزال مثل واصل بن عطاء، ومنهم من رجع يائسًا إلى مفاهيمه البدائية الأولى، ومنهم من آمن بالمذاهب المتطرفة، وبقي بشار، حائرًا مختلطًا، يحيط به ظلام كثيف لا يجد ما يضع يده عليه ويوقن به، العالم مليء بأرواح الموتى وأنفاسهم، الأجساد تتحول إلى تراب في المقابر، وتتشكل الأرواح في أجساد جديدة، لم يعد هناك سبيل آخر غير التمسُّك بكل ما تتيحه هذه الحياة القصيرة من متع.

كان لبشار نظرته الخاصة للعشق، المرأة عنده لا تخرج عن دائرة الحواس، في الظلام لا قدرة يمتلكها على التخيُّل، إنها مجرد أنثى، وعاء للمتعة والإنجاب، جسدها فقط هو المتاح لأنك لن تصل أبدًا إلى عقلها، وانتشر هذا المفهوم بطول البصرة وعرضها، فقد أخذ يلح ويفرد أبيات شعره الطويلة في وصف المتع الحسية، يعوض بها كل ما لديه من نوازع النقص.

حاول أن يصل إلى بلاط الخليفة في بغداد، أجهد نفسه في قصائد المديح، لكن أبا جعفر المنصور كان شحيحًا في معاملته للشعراء، وكان يكره العميان أيضًا، وظل بشار الأيام الطويلة أمام باب قصره دون إذن بالدخول، ولم تواته الفرصة إلا حين جاء المهدي للحكم، لكنه لم يصبح قَطُّ أحد الشعراء المفضلين، حقًّا إن بلاغته لا ترقى

إليها بلاغة، لكن مَن الذي يقسر نفسه على الاستماع إلى هذا الأعمى القبيح الذي لا يكف عن البصق؟!

انتشرت أشعاره الحسية، حفظها الشباب وتمثلتها النساء، إذا لم يكن من الموت بُدٌّ فلماذا لا تأخذ الأجساد متعتها الكاملة، أصبحت أخباره مثلًا يُحتذى، ضج المعتزلة، الأصدقاء القدامى، اشتعل الأزواج من الغيرة، وفارت دماء الآباء، وسار الشيطان طليقًا في شوارع البصرة، وخرج واصل بن عطاء من عزلته، وقف في المسجد يحرض الجميع:

ـ أما لهذا الأعمى الملحد مَن يقتله، أما والله لولا أن القتل ليس من سجيتي لدسست إليه من يبقر بطنه.

وتناهت الأخبار، كثرت المباذل، أوغل فيها حين عرف أن المعتزلة قد أهدروا دمه، حين أصدروا الفتاوى في زندقته وإلحاده، أصدر هو فتوى في تكفيرهم، بل وتكفير الأمة كلها، وتجمع الغوغاء فرجموا منزله بالأحجار، جذبوا لحيته ومزقوا ثوبه وهو يسعى في الطريق، تعرَّض للقتل ولم تُنجه إلا المصادفة، واستطاع واصل بن عطاء أن يستصدر أمرًا بنفيه خارج البصرة.

تتشابه البلاد في عين الأعمى، لكن للغربة مرارة واحدة، كانت قدماه قد ألفتا حصى البصرة، ومنعطفاتها، كل حي له رائحة، وكل سوق لها ضجة، لكنه الآن إذ يدب بعصاه في أرض البلاد الغريبة يشعر بمدى كثافة الظلام، كتب القصائد، توسل للخليفة، لكن الخليفة لم يكن ليغامر بتحدي نفوذ المعتزلة وفيهم صفوة المفكرين، من أجل شاعر واحد، ضرير، ونصف مولى، لكن

واصلًا مات، وألحف بشار في الرجاء حتى سُمح بعودته، شريطة ألا يقول بيتًا واحدًا في الغزل.

عاد، وعادت معه مرارة النفي، تكاثر أعداؤه، أصبحوا مدينة بأسرها، مدينة لم يرها قَطُّ، لكنه أحس بكل جروحها في أعماقه، أخذ يهجوهم بحرقة، فجر كل طاقته في الإيذاء، يُحرض الموالي على سادتهم، والجواري على سيداتهن، أصبحت أبيات الشعر سهامًا مسمومة تُرمى، أخذ المعتزلة يرمونه بالزندقة والإلحاد، وأخذ هو يرميهم بالكذب والنفاق بعد أن باعوا العالم بلا ثمن.

تكاثرت الشكاوى أمام الخليفة من أشراف البصرة وسادتها؛ لقد حوَّل الشاعر الضرير المدينة إلى جحيم، استدعى وزيره يعقوب بن داود، أرسله بالهدايا والهبات إلى البصرة، ليستقصي ما كان من خبر بشار، انهالت هدايا الخليفة على كل شعراء البصرة ولم يظفر بشار بشيء، كان هذا إعلانًا بسيطًا لغضبة الخليفة، لعله يبادر بالاعتذار، بالتوسل، لكن رد فعله كان مخالفًا، خرج من بيته، سار في الشوارع حتى حلقة يونس النحوي، أكبر تجمعات المدينة الفكرية، سأل في تحدٍّ:

ـ هل هنا مَن يخاف؟

أجابوه بالنفي، اندفع في الهجاء المقذع، يهجو الخليفة المهدي، يندد بعرشه المغتصب، ونسبه الذي تحيطه الفضائح، وخضوعه لشهوة الحيوانات، وفي بغداد دخل يعقوب بن داود على الخليفة، ارتمى تحت قدميه وهو يهتف في فزع:

ـ يا أمير المؤمنين، هذا الأعمى قد هجاك وأقذع في الهجاء.

بوغت الخليفة، وسأل:

ـ بأي شيء؟

قال يعقوب مُهَوِّلًا:

ـ بما لا ينطق لساني، ولا يتوهمه فكري، والله لو خيرتني بين إنشادي لشعره وضرب عنقي لاخترت ضرب عنقي!

واستثار الخليفة بما فيه الكفاية، أمره، استحلفه، وأخيرًا وافق يعقوب على أن يكتب الأبيات على رقعة، وقرأها الخليفة، بكل ما فيها من سخونة وغضب، تطاير الشرر من عينيه، لم يصدق أن يجرؤ واحد من رعاياه، مجرد مولى، أعمى، أن يصفه بتلك الأوصاف، وصرخ في الجند أن يستعدوا، وليزحف الجميع إلى البصرة.

أصبح بشار فأرًا وحيدًا في مصيدة ضيقة، قطع جسوره مع الجميع، ولم يعد أحد بقادر على أن يمد إليه يد المعونة، وضع الجنود أيديهم عليه، ساقوه مكبلًا إلى مجلس الخليفة وشهدوا ضده:

ـ هذا الملحد، كان يؤذن للصلاة في غير موعدها وهو سكران.

وشهق بشار في دهشة؛ لقد ارتكب الكثير من الذنوب، لكن من أين جاءوا بهذه التهمة؟! ساقه الخليفة لتعديه على حرمة الدين، لم يذكر السبب المباشر لغضبته، صرخ:

ـ سوف نحاكم هذا الأعمى الفاسق بتهمة الزندقة.

وقف بشار وحيدًا، وأنشبت المدينة أظفارها في جسده، تكاثرت التهم، خرج الشهود من كل فجاج البصرة، أصوات لا يعرف معظمها، كلهم رأوا خطاياه وشهدوا ذنوبه، ولم يرَ لهم ذنبًا ولا خطيئة: «والله العظيم أقول الحق ولا شيء غير الحق»... شهد الأول أنه سمع بشارًا يقول في شعره إنه يزري بآذان الصلاة. وقال آخر إن

بشارًا قد سمع ركض الحمير وهي متجهة إلى سوق البصرة فزعم أن القيامة قد قامت. وشهد جمع كبير من الذين كانوا يذهبون لسماع شعره أنهم أجروا اختبارًا عليه، كانوا إذا حضرت الصلاة يقومون ويبقى بشار جالسًا، فوضعوا حول ثوبه ترابًا ليروا إن كان ينهض أم لا، ثم عادوا فوجدوا التراب كما هو. وتوالت الشهادات ضده، حتى جاءت شهادة سعد بن القعقاع؛ كان رفيق بشار في نزواته وفسقه، وقال له ذات يوم:

- لقد نسبَنا الناس إلى الزندقة، فهل لنا في الذهاب إلى الحج حتى ننفي عنا ذلك؟

وافقه بشار، اشتريا بعيرًا ومَحْملًا ومتاعًا وتزودَا بالطعام وبدأت رحلتهما، ظلا يجِدَّان في السير حتى وصلا الكوفة، وانفتحت أمامهما الصحراء، وكان باقيًا بينهما وبين الحجاز حوالي ثلاثمائة فرسخ، وزفر بشار وهو يقول:

- ويحك يا سعد! كيف نقطع هذه المسافة؟! دعنا نُقم أيامًا في حانات الكوفة، نسكر ونمرح ونغازل النساء، حتى إذا عاد الركب انضممنا إليهم عند القادسية.

وافقه سعد على الفور، أخذَا على بعضهما المواثيق والأيمانات المغلظة ألا يفشي أحدهما سر الآخر، وقبعَا في إحدى الحانات يشربان الخمر ويداعبان الجواري السود، حتى حان موعد عودة الحجيج فأسرعا إلى أقرب حلاق، ثم انضما للركب عند القادسية، وصلا إلى البصرة، لبس بشار طيلسانه وجلس في وقار يستقبل وفود المهنئين، ويحكي عن لحظات خشوعه عند البيت الحرام.

كانت كل هذه الشهادات وبالأخص آخرها كافية لإقامة الحد عليه، ودفع المهدي بالشاعر إلى حمدويه صاحب الزنادقة، وأمره:

ـ اضربه ضرب التلف.

أخذوه، وقيدوه على سطح سفينة تسير بموازاة الشاطئ، حتى في موته كان مقدرًا للجميع أن يحظوا برؤيته، عرَّوا ظهره، أخرجوا السياط المنقوعة في الخل، هوى السوط الأول على ظهره فاستيقظت البصرة كلها، هرعوا إلى الشاطئ، وسارت السفينة ببطء، هوى السوط الثاني، فزعت طيور النهر، وتجمد السمك من الرعب، تمزق لحمه من أعلى الكتف إلى أسفل الخصر، جحظت العينان، أوشكتا أن تقفزا من وجهه، هتف:

ـ ويلك! أوجعتني!

قال حمدويه وهو يمرق بالسوط:

ـ يا زنديق، أتضرب ولا تقول باسم الله.

تأوه في مرارة وهو يتلقى الثالث، والرابع، رأى الجميع طرف السوط وهو ينثر دمه في الهواء؛ النساء اللاتي أوقف شعره من أجلهن، والفتيان الذين تمثلوا أخباره، والموالي الذين حرَّضهم على الحلم بالحرية، والمعتزلة الذين جلدهم هجاءً، والسياط تهوي، والخل ينفذ من خلال الجروح فيكويها من الداخل، وحمدويه لا يهدأ، ستون، واحد وستون، اثنان وستون، احتقن الوجه الضرير، ثم تحول من الصفرة إلى الزرقة، سال لعابه مختلطًا بالدم، أخذ يهذي، ينادي أمه التي لم يرها، وأباه العبد، وربقة الأسر التي كبلت روحه، وكلَّت يدا حمدويه، ثمانية وستون، تسعة وستون، وهتف أهل البصرة في صوت واحد:

ـ سبعون!

وجاء الصوت من أعلى الصاري:

ـ مات الشاعر الزنديق! مات بشار بن برد!

وانتشر الخبر المفرِح في أرجاء المدينة، هنأ الأشراف بعضهم بعضًا، وانكسر الموالي في صمت، ارتفعت أصوات الغناء في القصور، وأُخرجت الصدقات التي طال تأجيلها، وانهالت الهدايا على حمدويه، لم يبقَ بيت من الأشراف إلا وأرسل له كسوة وعطاء، ولم تبقَ امرأة لم يثرها طرف السوط الدامي إلا وأرسلت له جاريتها، وأُلقيت الجثة في مكان ضحل على جانب النهر، لكن الموج حملها، سار بها إلى الشاطئ، عكس اتجاه السفينة التي جُلد فوقها، وتعطف البعض على الجثة الممزقة فانتشلوها، لفوها في ثوب قديم وساروا إلى مقابر الصدقة، لم يُشيِّعه أحد إلا جارية سوداء أعجمية تصيح خلفه بلهجة غير مفهومة:

ـ واسيداه! واسيداه!

لكن مظاهر الفرح في البصرة كانت أكبر من أن يكدر صفوها نُواح تلك الجارية السوداء التي لا تفصح.



علية بنت المهدي

الحب بعيدًا عن ضوء الشمس

هل كانت علية بنت المهدي تحب الغلام المدعو «طل» حقًّا، أم أن ذلك كان مجرد نزوة حمقاء؟

الحب نبات بري في حاجة دائمة لوحل الطريق، وشمس الساحات الواسعة، ولكنها كانت بنت الخليفة الماضي، وأخت الخليفة الحالي، وعمة الخليفة الآتي، عروق متشابكة لا يجري فيها إلا دم أزرق نبيل، بينما يتأجج دمها بالعشق، كأنها غزالة تذبح رغباتها الخاصة، في الليل تلاحقها عيون الحرس، وفي الصبح آذان الخصيان، ولا يكف الواشون عن السعي بالنميمة لهارون الرشيد:

ـ مولانا، أختك علية تحب خادمك وحامل كأسك «طل».

يهدر هارون الرشيد غاضبًا، ترتجف السحابات وتمطر في أقصى الأرض، فيأتي الخليفة خراجُها، لم يكن الرشيد يعرف شكل هذا الغلام المدعو «طل»، فالعبيد جميعًا متشابهون في الملامح، ويحملون نفس الأسماء، ويعمرون عددًا متساويًا من السنين، وسوف

يكون من المستغرب أن تعشق علية أخته عشبًا في الأرض وفي مقدورها أن تدهسه بقدميها! لكن ألسنة الوشاة لم تكف، ومن هو هذا الطل بالضبط؟

ثم رآه ذات ليلة، وكان عائدًا وبصحبته مسرور السياف، رأى القصر يموج بالضوء الغريب، همس لمسرور في خوف:

ـ هل شعروا بغيابنا؟

ضحك مسرور وهو نصف منتشٍ:

ـ إنها أختك علية تغني يا مولاي.

انساب صوتها كالحلم، ورأى الرشيد في سماء الحديقة أقمارًا ملونة لم يرها من قبل، ورأى الحرس يبتسمون خلال نومهم، وزهور الحديقة مشرئبة، متفتحة الأوراق تنتظر الشروق، اجتاز الأروقة حتى وصل إلى جناحها، والصوت يزداد لوعة وارتفاعًا:

ولا خَلا منك قلبي لا ولا جسدي   كُلِّي بكُلِّك مشغولٌ ومُرتهِن

ارتعد هارون الرشيد، كان الهواء يحمل أخبار عشقها للمدينة النائمة، سوف تستيقظ وتفتح نوافذها، وغدًا يرددون الخبر في الأسواق والحانات، أزاح الستائر، واقتحم المخدع، ورأى علية أخته جالسة على الأرض والعود في يدها، بينما يجلس ذلك المدعو «طل» على أريكة مرتفعة، يرتدي ثياب السادة، ويشرب من كؤوس السادة، وفوق رأسه عمامة حريرية ضخمة في وسطها ريشة لا تخص سوى السادة، صرخ غاضبًا، سقط العود من يدها، خر الغلام ساجدًا، تدحرجت العمامة الحريرية فاكتشف الرشيد أنها إحدى عماماته، همهمت علية:

ـ يا سيدي، يا مولاي...

كانت شاحبة مأخوذة كأنها تحتضر، أخذ الرشيد يهدر كالبركان، هتف مشيرًا للغلام الذي ما زال ساجدًا:

ـ يا مسرور اقتل هذا الغلام.

هتف مسرور:

ـ أمر مولاي.

وضع يده عند خاصرته ثم هتف مرعوبًا:

ـ السيف يا مولاي، لقد نسيته.

ارتبك الخليفة، نظر إلى المرأة الباكية، والغلام الساجد، والشموع المطفأة، وقال في يأس:

ـ ضعه في السجن إذن، وغدًا لنا حساب آخر.

ولكن، لماذا أحبت علية بنت المهدي الغلام المدعو «طل»؟ وهل أحبها هو؟

كان السجن مظلمًا، مليئًا بالفئران، والقتلة، والقادة أصحاب النياشين، ومقطري الخمور، والبراغيث، والبصاصين، والسحالي، وكُتَّاب المخطوطات، وكان جسد «طل» مدهونًا بالزعفران، وعندما رقد على الحصيرة المجدولة شعر بها تدخل في لحمه، أحاطته أنفاس السجناء بسحابة لزجة، فشعر بكراهية عميقة لعلية بنت المهدي أكثر من كراهيته للصائد الذي أسره والنخَّاس الذي باعه، وكان الحارس قد لكزه بعنف، وهدده إذا أحدث شغبًا، وقدَّم له طعامًا عفنًا، فظل جائعًا، ولاحظ الرشيد للمرة الأولى أن العبيد مختلفي الوجوه يقدمون له الكأس نفسها حقًّا، لكن هناك ابتسامة غريبة على

وجوههم لا يقدر أحد على امتلاكها، إنهم كثيرون، تزدحم بهم الزوايا والممرات والأروقة، إن لهم لغتهم الخاصة، برغم أنهم فُرس وتُرك وديلم وشركس، إلا أنهم يتحدثون لغة واحدة، كيف يمكن النوم ومثل هذه المخلوقات تتسكع عند أبواب المخادع؟

وكانت الغصة تزداد في قلب علية كلما فشلت في رشوة حارس، وكلما أرسلت طعامًا أكله الآخرون، وشاهدت طائرًا يعبر النهر ويغيب وسط المقابر في الضفة الأخرى، توجهت إليها، رأت زهرة الصبار الوحيدة ترتعد، هتفت:

ـ يا أمي، للمرة الأولى أعاني من وطأة العشق!

حملت الريح الباردة صوتها إلى مكنونة جارية المروانية، وهي مسجاة داخل المقبرة، تلوك قطعة من الصبار، مزقت الكفن ونهضت، وجلست على حافة الشاهد، قالت علية:

ـ يا أمي، آل العباس يكرهونني، حتى أخي إبراهيم حرموني من رؤيته، و«طل» في السجن، ماذا أفعل؟

ألقت مكنونة قطعة الصبار، وهتفت:

ـ كلهم هكذا، لا يفكرون أبعد من أنوفهم، كنت جارية المهدي، ملح طعامه، وقارورة عطره، كما يقول لي، كنت أغني له طوال الليل حتى يستريح صدره من الحشرجة، وأجلس عند قدميه أغسلهما بماء الورد عندما اقتحمت زوجته الباب كأنها نمرة جائعة، تقبض على شعري وتجرجرني على الأرض، يومها كنت حاملًا فيك، ولم أدرِ كيف نجوت من شرها!

أكدت علية ببلاهة:

ـ لكن الرشيد أخي يحبني؟

قالت الأم:

ـ والفرس أعوانه، والبرامكة وزراؤه، والترك مواليه، لكن من يأمن له، كلهم ذئاب ينامون مفتوحي العيون.

تناولت قطعة الصبار، وقبل أن تهبط إلى قبرها لمست جبين علية فأحست كأنما سهم من الثلج يخترق رأسها.

فتح «طل» عينيه في فزع، رأى وجوه السجناء الشرهة، شعر بأنفاسهم اللزجة: دعنا نستمتع قليلًا بجسدك الناعم المطلي بالزعفران. كانت أظافرهم أشبه بالمخالب الجارحة، ضحك الحارس وهو يشاهد المنظر من كوة الباب، ما أطول ليالي السجن وما أقل التسلية بها، وكان الخليفة يستقبل رسل «شارلمان»، وكان أتباعه يحركون أقدامهم وأرجلهم كما تقضي أصول اللياقة في بلاط أوروبا، وحاشية الخليفة غارقة في الضحك، وكان كاسحو الأوساخ يعدون عُدتهم لإضراب عام، وباتت المدينة ليلتها الثانية والقاذورات تملأ الطرق، وسعى الشعراء إلى أديرة الرهبان للحصول على أصناف الخمر الجيدة، وانتصرت جيوش الخليفة في إحدى المدن البعيدة وسط سهوب آسيا، وانتقلت الأنباء عبر أروقة القصر: علية عاشقة، عودها مقطوع الأوتار، والنجوم غرقى في النهر. اجتاز مسرور بهو العرش حيث كان الرشيد يعبث في لحيته وهو يتأمل حركات رسل «شارلمان» المضحكة، همس في أذنه:

ـ يا مولاي أختكم علية مريضة وعلى وشك الموت!

لماذا غضب الرشيد هكذا، برغم أن هذا يحدث في أحسن العائلات؟

كانت علية تهذي، توقف الرشيد أمام فراشها، شاهد وجهها المحتقن، ونظرة الأسف في عيون الأطباء، نثر عليها اللؤلؤ، وظلت تهذي، والأطباء يحاولون فتح فمها قسرًا ليدخلوا فيه شراب الأعشاب، شعر بالحنق لأنها أحبت خادمًا، كانت غزالة مجنونة، يسري في عروقها دم مضطرب، لم تبالِ بقصائد التشبيب ولا بانتصارات القادة، ولا بثروة التجار، لا تكف عن الغناء والهذيان، كان الموت رقية مطوية تحت وسادتها. ذات مرة اختلى الرشيد بجارية رومية جديدة، وشعرت زوجته أم جعفر بنيران الغيرة الحارقة، ذهبت إلى علية وقصت عليها الأمر، ضحكت، قالت تطمئنها:

ـ لا تفزعي من ذلك، فوالله لأردنه إليك، وقد عزمت على أن أقرض شعرًا وأصوغ فيه لحنًا وأطرحه على الجواري، فلا تُبقي عندك جارية إلا بعثتها إليَّ.

وعندما جاء العصر لم يشعر الرشيد إلا وعلية قد خرجت من حجرتها، وكذا أم جعفر، ومعهما زهاء مائة جارية، كلهن في زي مختلف، وزينة مختلفة، يغنين لحنًا واحدًا صنعته علية:

مُنْفَصِلٌ عنِّي وما　　قلبي عنهُ مُنفصلْ
يا قاطعي اليوم لمنْ　　نويتَ بعدي أن تصلْ

نهض الرشيد طربًا، أجلسهما واحدة عن يمينه وأخرى عن يساره، وهتف:

ـ اطلبي مني ما تشائين.

اغرورقت عينا علية بالدموع وهتفت:

ـ هب لي «طل» يا مولاي!

زمجر الرشيد غاضبًا:

ـ يا مسرور اقطع رقبة علية!

مد مسرور يده بعنف ليمسك السيف، لكنه ركع باكيًا أمام الرشيد:

ـ سامحني يا مولاي، السيف قد رهناه بالأمس.

هل غفر الرشيد حقًّا لعلية و«طل» والبرامكة وأدار لهم خده الأيسر؟

بعد عشرة أيام وعشر ليالٍ أخرجوه من السجن، ضحكوا في وجهه، قالوا إنها مجرد غلطة، غضب الرشيد فقط لأنه فوجئ بالأمر، أشار «طل» للمسجونين، كان يريد أن يصرخ فيهم: «لقد اغتصبوني!»، كان جسده مليئًا بالجروح الصغيرة، آثار أظافرهم وعضات أسنانهم، سلمه الحارس للخصيان وسلمه الخصيان للجواري، تأففن:

ـ ما أشد كراهية رائحتك، علينا أن نعدك لتكون جديرًا بحب علية.

خضع الرشيد أخيرًا لإلحاحها، دبت الحياة في جسد علية، تولى أحد الصناع ترميم عودها الأثير، تجول الرشيد ورأى الأوساخ في كل مكان، فأمر بإعدام كل كاسحي الأوساخ، وعاد رسل «شارلمان» يحكون عن عظمة بغداد وسطوتها ولكن ما أغرب رائحتها. بنى جعفر البرمكي قصره العاشر، وقالت العيون إنه بناه لاستقبال العباسة، وتمتم الرشيد: «اللعنة على العباسة وعلى علية!». لكنه ابتسم حين زارها، قال:

ـ لقد بررت بوعدي.

ابتسمت كأنها طفلة تلعب معه في الحديقة، رأى في جبينها ندبة غريبة لم يكن قد رآها من قبل، كانت تخفيها تحت عصابة من لؤلؤ، سألها عنها قالت:

ـ لمستني أمي «مكنونة» ذات مساء، خرجت من قبرها ولمستني.

لم يكن مستعدًّا لتعود إلى الهذيان مرة أخرى، ففكر في نفسه: فلأقتل البرامكة وأهدم قصورهم لعل هذا يخفف من توتري. غسلت الجواري «طل» بالعطر للمرة الخامسة، لكن رائحة السجن الثقيلة ظلت تشع من كل خلاياه، نهضت علية، تزينت، وخرج الرشيد في رحلة الصيد، واستلقى «طل» على الفراش الحريري، قالت علية:

ـ لقد أحببتك دائمًا يا «طل»، حين غبت عني ذات مرة، خرجت من نافذة حجرتي وسرت على حافة الإفريز حتى نافذتك، يومها غنيت:

مِن أجلِك أمشي من مَوتٍ إلى مَوت

وكان «طل» يفكر في الحبل، حبل طويل يربط ساقه مع بقية العبيد، من أقصى السهوب الباردة، جنوبًا حتى أسواق بغداد، كان مؤلمًا، ثم تكوَّن تحته جرح، تحول إلى قرحة، تداخلت أليافه مع أنسجة القدم، وظل الجرح ينزف صديدًا وأطراف الحبل في داخله، أوقفه النخَّاس ودهن جسمه بالزيت، أصبح غلامًا، أوهموه أن هذا امتياز له لأنه لم يصبح خصيًّا، مثلما أوهمته علية أن حبها امتياز له، قالت له:

ـ هل أغني لك؟ هل تتمنى شيئًا؟

كانت قريبة وبعيدة، بيضاء، شاحبة، تشبه الصائد وتشبه النخَّاس، وتطن: «هل تحبني؟ وهل...؟ وهل...؟». نهض نصف نهضة، تأملها وهي تخلع ثوبها، تدس عُريها في أحضانه، تأمل عصابة اللؤلؤ التي تخفي الندبة في جبينها، تأمل نهديها النافرين وهي تهبهما له وتدعوه أن يرضع منهما ماء الحياة، رفع يده وأهوى عليها بصفعة قوية!

كيف تذكر مسرور أخيرًا أن يحمل سيفه، وما تأثير ذلك على أمور الدولة؟

المأساة أنهم يطلبون منه السيف في غير الوقت المناسب.

كان «طل» ينام على الحرير ويلبس الحرير، وينسج الموت، مثل عنكبوت دؤوبة، خيوطه الحريرية حوله، كل لمسة منها طوق جديد من أطواق العبودية، لقد أذلوه، استنزفوه، لم يبقَ إلا أن يعلن موته رسميًّا.

أمسكت علية العود وغنت، فخرجت من النهر عشرات الضفادع، وجاء للخليفة واشٍ ثانٍ، وثالث، ورأى الخليفة العلامات الحمراء على وجهها وقد أصبحت زرقاء، وازداد جسدها نحولًا، أصبح الخبر بحجم القصر، واتسع فأصبح بحجم الخلافة، وأدرك مسرور أن الوقت قد حان فلم يعد يخلع سيفه مُطلقًا، وكان الرشيد نائمًا فرأى الخصيان والعبيد يتطاولون عليه، وخرجت السحالي من بيت المال الفارغ، كوَّن العبيد من أصابعهم حلقة واحدة أخذت تضغط على عنقه، حاول أن يصرخ، فوجئ بشخص آخر هو الذي يصرخ، كان يحلم، ولكن الصراخ كان حقيقة، فتح باب حجرته، كان مسرور نائمًا والسيف بين ذراعيه، والصرخات تتناهى من جناح علية، استيقظ الحرس والعبيد، اقتحموا المخدع، وأزاحوا الستائر، كانت علية ملقاة على الأرض و«طل» يمسك السوط، يهوي عليها ويضحك بتشفٍّ، لم تكن تقاوم الضرب كثيرًا، رآهم «طل» فازدادت درجة سروره، كأنما يقف على حافة الجنون.

كان الرشيد هادئًا، أشار إليهم فاقتادوه، ألقى السوط، سار طيعًا

وهو يضحك، امتلأت الأروقة بالغلمان، كانت عيونهم تلمع بشدة، ساروا إلى الحديقة، أسرع آخرون فأحضروا المشاعل، تحاملت علية ونهضت، نظرت من النافذة، وكانت ترى شبحه والأضواء المتراقصة، والصدى يبدد ضحكاته الغريبة، والغلمان يتكومون، لم تكن هي المرة الأولى التي يشاهدون فيها إعدام أحدهم، لكن الضحك يرسل داخلهم رعدة باردة، كأنما يشاركونه نصيبه في الموت، ربطوا يده خلف ظهره، حاول مسرور أن يجلسه محنيًّا ليُسهِّل مهمته، رفض وظل واقفًا، تحول الضحك إلى ما يشبه العواء، أحس الغلمان والخصيان والجواري بوجوه النخَّاسين تطل من بين الأشجار، تقتحم قشرة الليل، كان الضحك يختلط بصليل الجرس وصيحات المنادي، رسَا المزاد على الموت: من يدفع أكثر؟ يدفع أكثر؟ أكثر؟ الحبل يصنع الجرح، والجرح يعبق بالعفن، وظل يواصل العواء، لم يجد مسرور بُدًّا من أن يمسك السيف ويطيح برأسه وهو واقف، ويبدو أن الضربة كانت قوية بعض الشيء لأن الحرس ظلوا طوال ثلاث ليالٍ يبحثون عن الرأس في كل أرجاء القصر والحديقة، فلم يجدوها.

٢٥

عبيدة الطنبورية

الغناء من أجل الفقراء

يوم سوق بغداد الكبيرة ضل طفل عن أبويه، سار حتى وصل إلى مكان منعزل عن نهر دجلة، كان سعيدًا بهذه الحرية المؤقتة، برغم أن النهر كان غائضًا والوحل يغمر الشطآن، كانت هناك نشوة خاصة للمراكب الراسية العارية من الأشرعة ولعقود السمك وهي تنفرط، وكانت طيور الماء تحلق ببطء ما بين قصور الرصافة وأوكار الصيادين الفقيرة.

لكنه توقف أمام شيء غريب، جسد شبه عارٍ منبطح وسط الوحل.

اقترب وهو لا يدري حقيقة ما يراه، عرف أنه جسد آدمي، عرف أنها امرأة، شعرها الطويل الفاحم منسدل ومختلط بالوحل، واليد قابضة على آلة خشبية مقطوعة الأوتار، لمس الجسد فوجده باردًا، لمس وترًا كان لا يزال مشدودًا فأصدر رنة غريبة، ترددت ثم ذابت، ولم يتحمل وطأة الصمت، بكى بصوت عالٍ، أقبل بعض الناس، صيادون، بحَّارة، عابرو طريق، أخذوا الطفل بعيدًا وقلبوا الجثة وأزاحوا الوحل عن الوجه الأزرق، وتهامس الجميع:

ـ إنها عبيدة الطنبورية، أجل هي بعينها عبيدة.

جاء أحد حرس الخليفة بزيه الأسود، فرق الجميع وأمر فأُحضر غطاء وألقاه عليها، وانصرف الناس وحُفظ الموضوع، لم يعد أحد يتساءل: ماذا حدث لهذه الجثة؟ ومن الذي هشم الآلة الخشبية التي هي قابضة عليها؟

هدأت الحرب الأهلية في بغداد بعض الشيء، انهزم الأمين واستوى المأمون ذو الأصول الفارسية فوق دست الخلافة، وتواصلت حلقة أخرى من حلقات الدولة العباسية، ظل الأغنياء في القصور والفقراء على أرصفة الكرخ وسط أكواخ الصيادين والأوكار المشبوهة، كان المغنون يمجدون كل العصور، ويدينون بالطاعة لكل الخلفاء، والأدباء يؤلفون الكتب أو يترجمونها عن اليونانية والسريانية فيعطون مقابل وزنها ذهبًا، والشيعة يطرزون الرايات ويجلون أطراف الأسنة، والعلويون ينتظرون عبثًا ذلك الإمام الذي سوف يُعيد الحق إلى نصابه، والشعراء يقولون أشعارًا جيدة في الخمر ورديئة في العشق، والرهبان يقطرون الخمر في الأديرة ويهربونها للخارج، والبحَّارة يعودون متعبين من الأسفار الخاسرة يحكون عن السندباد وعن جزر الزبرجد الغارقة، وكانت عبيدة الطنبورية تغني:

كُلُّ شيء سوى الخِيانةِ   فـي الحُـبِّ يُحْتَمَـل

تقف عبيدة وحدها غريبة وسط موكب الشعراء الفحول والفرسان والأمراء، بعيدة خارج دائرة الأنساب الشريفة، وعن هالات المجد، لكنها أكثر قربًا للحياة، نموذج لهؤلاء اللواتي ينفجرن بنوع غريب من

النشوة والرغبات الحارة، يرتفعن فوق حاجز الأخلاقيات المتعارف عليها، ويضعن أخلاقيات وأنماطًا خاصة لحياتهن، ويدهشنا أبو الفرج بهذا الهدوء والموضوعية التي يتسم بها وهو يورد أخبارهن، فهو يقف باسمًا لا يتورط في أي حكم أخلاقي أو أي مصادرة، متسامحًا لا يعرف التزمت، برغم تدخله المستمر في تراجمه عن الشعراء وانتقاده أشعارهم بقسوة، ما سر ذلك؟

يصف عبيدة بأنها رائعة الجمال، حسنة الصوت، لم يعرف في الدنيا أعظم منها في الطنبور، ويضيف إلى صفاتها الجسمانية، يؤكد أنها كانت شديدة الشغف بالرجال، كهولًا كانوا أم أطفالًا، مثل أرض لا ترتوي، لا تهدأ رغبتها برغم مرور السنوات.

كانت مطربة الفقراء، لم تدخل قصورًا إلا فيما ندر، ولم تعرف ترف الدمقس، وماتت دون دية، ودون أن يعرف قاتلها، كان أبوها أحد الموالي الفقراء، اسمه صباح، وكان مولاه أحد تجار بغداد الأثرياء ويُدعى «أبو السمراء»، وكانت هي صبية جميلة حسنة الصوت لا تحمل من صفات أبيها إلا الفقر، كان أحد المغنين يتردد على أبي السمراء ينادمه ويطربه، ويأخذ عطاياه. كان الزبيدي، وهو اسم هذا المغني، أحسن من يضرب الطنبور في بغداد، وفي أحد الأيام ذهب الزبيدي ليغني لأبي السمراء ويأخذ عطيته، لكن أبا السمراء كان قد خرج مع إحدى القوافل إلى بلاد فارس، وبدلًا من أن يعود الزبيدي أدراجه أخذه صباح والد عبيدة إلى البيت يقضي الليل عنده، لم يكن البيت الفقير مستعدًّا دائمًا لاستقبال الضيوف، لكن الصبية وأمها جهزا المكان وأحضرا القليل من الطعام، وبدأت ليلتهم، الأب والضيف

في القاعة، والأم وعبيدة خلف الستار، وسرعان ما غلب النعاس الأم وظلت عبيدة جالسة تستمع.

كانت أصابع الزبيدي إذ توقع على الطنبور تبعث داخلها رعدة غريبة، وفمه يعيد اللحن، يرق ويعلو، ما بين الآهة والزفرة وحكايات الوجد القديم، تتولد داخلها رغبة جياشة، منذ أن ولدت وهي حبيسة البيت، حبيسة المعاش الضيق، لكن الغناء جعله أكثر اتساعًا، جعله يمتد من حد البحر إلى حافة الصحراء، والطنبور عاد يوجد قلبها، والرغبة تحولت إلى اشتهاء.

رفعت الستار، تقدمت، جلست أمامهما، ورأى الزبيدي هذا الوجه الحسن فزاد في الغناء، وزادت نجوم السماء تألقًا، بعد برهة كان الأب نائمًا والزبيدي وعبيدة يغنيان معًا، وكلما انتهى اللحن أعاداه:

وإنِّـي لمجنـونٌ بليلَـى مُـوَكَّلٌ ... ولستُ عَزُوفًا عن هواها ولا جَلْدَا
إذا ذُكِـرَتْ ليلَـى بكيـتُ صَبَابةً ... لِتذْكارِها حتـى يَبلَّ البُكَا الخدَّا

وأجهدتهما النشوة، ولمست أوتار الطنبور فارتجف قلبها، قالت:
ـ علِّمني الغناء، علِّمني الضرب فوق الطنبور.

وعندما أفاق الأب لم يكن أمامه إلا أن يوافق، أدرك بغريزته أن عبيدة لو أجادت الغناء فسوف يكون هذا إنقاذًا من ورطة الفقر الدائم، وطالت رحلة أبي السمراء في بلاد فارس، وطاب المقام للزبيدي يُعلِّمها فنون كل عظماء الغناء الذين سبقوه: معبد، وابن سريح، وطويس. بدأ صوتها ينضج على نار هادئة، لكن الاضطرام تواصل، وقبل أن يعود أبو السمراء من بلاد فارس كانت قد أجادت الطنبور تمام الإجادة.

مات الأب، ورق الحال، وذهب الزبيدي في صحبة أحد الأمراء وترك لها طنبوره حتى تذكره، وهل كانت تملك أن تنسى؟ ولم تكن الذكرى طعامًا ولا سلوى، فخرجت تُغني وتقنع باليسير، وكان في خروجها إعادة جديدة لاكتشاف العالم، في حواري بغداد الضيقة، بين الموالي الفقراء والحرفيين وصيادي الأسماك، كانت تأخذ أغانيهم وتعيدها على أوتار الطنبور، وبدأت رحلتها مع أغنيات الشقاء اليومي، إذا سارت تجمع الناس خلفها، إذا جلست التفوا عليها، كانت الفتاة الصغيرة التي أغواها مطرب قد نضجت وخبرت تشابك العالم، وكانت أمها مديرة أعمالها تدبر لها أمر الغناء في أول الليل، وما قد يستجد في آخر الليل.

لان الزمان قليلًا، فعشقت عبيدة فتًى غنيًّا يُدعى «علي بن الفرج الرخجي»، وسيمًا، يملك ضياعًا واسعة بأطراف بغداد، وقوافل ترحل طوال العام ما بين اليمن والمربد، كانت هذه فرحتها الأولى والأخيرة أيضًا، اصطفاها لنفسه، لا تغني ولا تشارك أحدًا الفراش غيره، واشترط حتى يتزوجها أن تُنجب له ولدًا، وعندما فشلت في ذلك هجرها دون أي أسف.

أمها كانت أكثر منها واقعية، استولت على المال الذي جمعته ابنتها، وتزوجت رجلًا فحلًا يُدعى «أبو كرب» أصغر منها سنًّا، أسود اللون، أقرب للدمامة، أراد أن يدخل بالأم والابنة في الليلة نفسها والفراش نفسه، ولم يكن أمامها إلا أن تترك لهما البيت، أصبحت وحيدة دون مكان تستقر فيه، امتدت الشوارع على طول النهر، وبدت بغداد الفقراء بلا نهاية.

أحيانًا كانت القصور تطلبها، نوع من تغيير الجو، لا مانع من التغاضي والاستماع إلى أغاني الحواري، كانت النساء يختبئن تقززًا بينما يُبدي الرجال نوعًا من السماحة البلهاء، بل ينفلت منهم العيار فيطربون من هذه الأغاني السوقية، حتى أبو محمد إسحاق بن إبراهيم مغني الخليفة وأحد عظماء المطربين في عصره، علم أنها سوف تغني عند أحد أصدقائه فتخفَّى وجلس وراء ستار كثيف وهي تغني وتعيد، حتى زعق طربًا، وتوقفت عبيدة عن الغناء وهتفت به:

ـ اخرج يا أبا محمد، لقد كشفت سرك.

هتف وهو يسارع بالهرب:

ـ فضحتِني فَضَحَكِ الله.

لكنه عاود التخفي والاستماع مرة أخرى.

القصور مجرد نزوة، أناسها الحقيقيون كانوا في الأزقة، معهم لم تكن تشعر بالخجل، ومعها كانوا ينتشون وينسون بؤسهم، كانوا يكفون عن الحديث عن شظف العيش، والمكوس، والحروب التي لا تتوقف حتى تترك أرملة في كل بيت، وكانت أوتار الطنبور تحمل العزاء للجميع، تجلس في الحانات الرخيصة فيحدثها البحَّارة عن عشق السفر، أغاني حوريات البحر التي تسمع من الجزر البعيدة دون أن يعرفوا مصدرها، فتسحرهم وتحطم سفنهم.

ثم سمعت بموت أمها، شعرت بالحنين إليها وإلى بيتها القديم، كان أبو كرب متربعًا بجسده الضخم في فناء المنزل، وفراش أمها خاليًا، قال لها:

ـ هذا البيت قد أصبح لي، ولكن لو أردت الإقامة فيه فلا مانع لديَّ.

نظرت إليه طويلًا، كانت متعبة في حاجة إلى مكان آمن، قالت في وهن:

ـ هل يمكن أن أنام على فراش أمي؟

قال:

ـ قلت لك لا مانع ما دمنا سنتشارك في كل شيء!

كان أسود اللون، غليظًا وقحًا، أغمضت عينيها وشمت رائحة أمها على الوسادة، ولم تكن بحاجة إلى غطاء، فقد غطاها بجسده، وأحست بحرارة جسده تنساب إليها، طوال الليل ويده تجوس في كل مكان بجسمها، ولم تستطع النوم، منذ زمن بعيد لم تحس أطرافها بهذا الدفء، سمعت آذان الفجر في المسجد القريب، تسللت من تحت جسده وخرجت من باب المنزل، وقفت بالقرب من باب المسجد وهي ترتجف، وعندما خرج الشيخ توسلت إليه أن يستمع إليها، حدثته عن أمها التي ماتت، وزوجها الذي ما زال حيًّا متوثبًا، لم تقل له إنه قد وثب عليها بالفعل، سألته هل يمكن أن تتزوجه.

صاح الرجل رافضًا:

ـ هذا محرَّم، الله ورسوله نهيَا عن ذلك، لا يوجد بنت تتزوج أباها!

قالت معترضة:

ـ ولكنه ليس أبي، لم ينجبني ولم يربني!

قال الشيخ:

ـ منذ أن تزوج من أمك وهو في مقام أبيك.

عادت تعترض مرة أخرى:

ـ ولكن أمي ماتت، وهو لم يعد أبي!

نظر الشيخ إليها مليًّا، ولا بد أنه لمح بريق الرغبة في عينيها، فضرب كفًّا بكف ومضى وهو يهتف:

ـ أعوذ بالله من غضب الله، الرغبات أحلت المحرَّمات!

تركها وحدها، وأحست ببغداد باردة كما لم تكن، عادت إلى البيت، رأت الجسد الأسود ما زال عاريًا ومستغرقًا في النوم، عرفت الآن لماذا فُتنت أمها بهذا الجسد، خلعت ثيابها واندست بجانبه، حملت ذراعه ووضعتها على صدرها، وظلت تنفخ في وجهه حتى يستيقظ، كل شيء حرام، عيش الفقراء الذين يحيطون بها حرام، المنازل التي يسكنونها والطعام الذي يكدون من أجله والحواري التي تجوب فيها حرام، فهل يتوقف الكون بسبب حرام صغير تقوم به؟

لكن أبا كرب لم يكن سلس القيادة، بعد أن هدأت حمى جوع أجسادهما قليلًا بدأ ينقلب عليها، وظل يصفعها ويضربها حتى تقبل أطراف أصابع قدميه، وظلت تعمل طوال اليوم، تجوب المدينة حاملة طنبورها وترجع له بالحصيلة، فيأخذها منها دون كلمة، كانت تغني وآثار أصابعه لا تزال على وجهها، تبكي حرقة وجدها وجوعها وهو يشرب ويقامر بنقودها، حتى جاء يوم لم تجرؤ فيه على العودة إلى البيت، فتركها ومضى، ولم يبقَ لها أحد، اللهم إلا غلامًا كان يشتغل طبالًا معها، وكان مأواها بين المطاريد على حافة النهر وتحت الجسور، تغني لهم حتى تتقي شرهم، ولكن هذا لم يوقفهم، كان النهر يحمل لها الخلاص الأخير، القبر الأخير الذي سيُطهرها بمياهه، وكانت كل عطاياه، طنبورًا وطفلًا ميتًا وعشاقًا بنفس بؤسها.

٢٦

فريدة

الموت فوق سرير الخلافة

قالت فريدة:

ـ يا «خل»، أحل الترك دماءنا وأعملوا السيوف في رقابنا.

قالت فريدة:

ـ يا «خل»، كيف نغني للحب ونحن نعيش زمن الخوف؟!

ومضت. كانت جثة «خل» ملقاة وسط الدار، جسدها الأبيض الجميل ملطخ بالدم، وآثار سيوف جنود الترك الغائرة. كانتا معًا، غنيتا معًا، وكان الجنود سكارى، وبغداد نائمة، والنهر متواطئ، «خل» هي التي قالت لها: «تعالي نرحل إلى بغداد، لا جدوى من الغناء في المدن الفقيرة والقصور في انتظارنا». ولكن الدم كان على سرير الخلافة يا «خل»، يختم به السلطان مراسلاته، وبغداد بلد غريبة يسكنها غرباء، السيوف المترصدة أنهت الرحلة في مطلعها، إذا اختلف تركيان كانت الضحية بغدادي، فامنحيني المغفرة يا «خل»، لم أبكِكِ كما يجب، لم أقدِّم لك عزاء ولا سلوى.

كانت فريدة تهرب من بغداد إلى بغداد، أصبحت أسيرة الدروب الضيقة والبيوت الطينية، وتحول حلم القصور الباذخة إلى خطوات لاهثة للهرب، وكانت «خل» تنام بعد أن تضع عدة قطرات من البنفسج وتمسك العود وتغني:

ألا أَيُّهـا الرَّكْـبُ النِّيـامُ ألا هُبُّوا نُسَائلُكُمْ هل يقتُل الرَّجُلَ الحُبُّ

بل تقتله سيوف الديلم والغربة، كان الجلوس يبكون إذ يطربون، يستعيدون الصوت وأنس الليالي ودفء الصحراوات البعيدة، جئيتا غريبتين يا «خل»، باعونا في سوق واحدة، واشترانا النخَّاس نفسه، وأحببنا معًا رجلًا واحدًا، وبكينا معًا من مرارة الهجر، أنت تحلمين أنك لؤلؤة داخل محارة ضائعة، وأنا زهرة من شقائق النعمان أرتقب الندى، والمطر حلم صافٍ. ظلت فريدة تلهث وتجري، حتى وصلت إلى شاطئ النهر، على ضفته تتناثر خيام اللاجئين، ضحايا حركات التمرد على العباسيين، وقادة الدولة من أتراك الديلم يأكلون القرى، ويسلبون أراضي صغار الفلاحين، ينتزعون جذورهم فلا يملكون سوى الرحيل، يسيرون مع النهر الذي عبروه في الزمن القديم، يقودهم النهر إلى بغداد، وتعطيهم بغداد أكواخًا من الصفيح والخيش وعملًا يوميًّا شاقًّا لا يكاد يفي إلا بالقوت الضروري، لا أحد يتصور هذه الدولة العظيمة تحتضر، تحتضر ببطء قاتل، حتى إن العفونة دبت في أطرافها، وبدأت ريح السموم تدق أبواب القصور.

جلست فريدة بينهم، لم يسألها أحد من أين جاءت، ولا إلى أين تسير، يكفيها أنها مثلهم ملفوظة، هدأوا من روعها، وأعدوا لها فراشًا

من القش في جانب أحد الأكواخ، ونامت بعمق حتى إنها لم تحلم بجثة «خل»، بل حلمت بها وهي تغني، وظلت هكذا ثلاثة أيام متواصلة، كل صباح يجلس الجميع على جانب الطريق في صف طويل بائس، محنيي الرؤوس، هذا وقت مرور السادة وأصحاب الأعمال، يمرون في نفس المكان كل يوم ليأخذوا ما يحتاجونه من عمال بناء أو حمالين أو حجامين أو منظفي فضلات البشرية، وكل أصناف المهن الحقيرة التي تحفل بها مدينة واسعة.

كانت تجلس في جانب الكوخ عندما جاء ظل رجل وحجب الشمس عنها، رفعت رأسها فوجدت أحد السادة يتطلع إليها من فوق صهوة جواده، من النظرة الأولى للماسة التي تتوسط عمامته أدركت مدى ارتفاع قدره ومكانته، سألها بغلظة:

ـ ما اسمك؟

ذكرت اسمها، عاد يسأل:

ـ أي مهنة تجيدين؟

قالت:

ـ لا أجيد سوى الغناء.

قال:

ـ اتبعيني.

لم تكن تملك أن تعصي، سارت خلف الجواد، عبر صفوف الأجراء وعبر الأكواخ، قالت لها «خل»: لن نبيع أنفسنا إلا بأغلى الأسعار. وها هي تمضي الآن دون ثمن، وعندما وصلت أخذها خصيان القصر ووضعوها في غرفة منعزلة، كان القصر فخمًا بالغ

الاتساع، ومياه الحمَّام معطرة، بحر من البنفسج لم تحلم به «خل»، وقالت لها إحدى الجواري:

ـ أنت في قصر الأمير عمرو بن بانة.

ولم يكن الاسم يعني شيئًا غير مأوى طيب عليها أن تحرص عليه، وعندما أعطوا لها العود ذات ليلة أدركت أنها فرصتها حتى تبعد شبح الأكواخ نهائيًّا، أخذت تغني بكل ما تعلمته من حذق:

خليلـيَّ لا واللـه لا أملِكُ الذي قضى الله في ليلى ولا ما قَضَى لِيا
قضاهـا لغيري وابتلانـي بِحُبِّها فَهَـلَّا بشـيءٍ غيـر ليلـى ابتلانِيا

لم يتوقع عمرو بن بانة عذوبة هذا الصوت، هاج طربًا وشق ثوبه، وألقى بنفسه في بركة الماء التي تتوسط القصر، أخرجه العبيد وأحضروا له ثيابًا أخرى. وأبدعت فريدة وهي تعيد الصوت من جديد، ومرة أخرى ألقى بنفسه في بركة، وظل هكذا يلقي بنفسه والعبيد يخرجونه حتى أصابته ذات الرئة، ومن اللحظة أصبحت فريدة محظيته المفضلة، ومن خلاله دخلت فريدة حياة بغداد المترفة، رأت الأمراء وهم يتوافدون على مجلسها، وكيف يهيمون بغنائها حبًّا وصبابة، سمعت قصص الجواري اللاتي يحكمن من فوق سرير الخلافة، وغاب عن ذاكرتها منظر جثة «خل» وأكواخ اللاجئين، وتجسد الحلم الذي عبرت الصحراء من أجله، ومرغ عمرو بن بانة وجهه تحت أقدامها، المرأة التي التقطها ذات يوم عند شاطئ النهر بلا مقابل.

في يوم لا تنساه، اشتعلت الحياة داخل القصر، انهمك المئات من العبيد في العمل، غسلوا الأبهاء والممرات والغرف بماء الورد،

ازدحم المطبخ بالطباخين وكل أنواع المأكولات، غيَّر الخدم الستائر والحشايا، ووضعوا الزيت المعطر في القناديل، ولما سألت عن السبب قال لها عمرو بن بانة إن عليها ألا تغادر غرفتها الليلة، وألا يسمع أحد صوتها، وبعد أن انصرف همس أحد الخصيان في أذنها:

ـ الخليفة «الواثق» سوف يشرف قصر الأمير الليلة بالزيارة.

وفهمت السر وراء أوامر المنع الصارمة، يريدها ابن بانة لنفسه فقط، وأشعل هذا نيران الطموح التي سعت من أجلها، تسللت في الليل، ومن خلف الستار رأت الخليفة الواثق، رجلًا بالغ النحول والعصبية يجلس بجانب ابن بانة، ويستمع باشمئزاز واضح إلى أغاني الجواري المبتدئات، وانتهزت إحدى لحظات الصمت فارتفع صوتها رائقًا شجيًّا يطغى فوق الجميع ويَجُبُّ ما عداه، وانتبه الخليفة، وضع الكأس وانتبه، وامتقع عمرو بن بانة وذهب لونه، كانت فريدة أذكى مما تصور وأكثر طموحًا، واستعاد الواثق الصوت مرة، فمرة، فمرة ثالثة، والتفت يسأل، فأجابه ابن بانة وقد أدرك أن الطير قد أفلت من يده.

في اليوم التالي قادوها هدية للواثق، قال لها عمرو:

ـ لقد خدعتني يا فريدة وكنت أنوي الزواج بك!

وأظهرت دهشتها، ولكن كان سرير الخلافة يناديها: يا «خل»، دانت القصور فهل يدنو الزمان؟ والترك يحرسون الأبواب ويقيمون العرش على أسنة الرماح، وتشبث الواثق بها ونسي صفوف الجواري اللائي يمتلئ بهن قصره، كان يقول لها:

ـ أنت ملكتي وحاكمتي، فمريني.

لكنها تعلمت درسًا آخر، أنها تحكم من لا يحكم، ووجوه الديلم والفرس تحاصرهم من فوق الأسوار.

أحبت الواثق، أحبت حتى مشاعر القهر الخفية التي كان يعانيها تحت أبهة الخلافة، أحبت نفوره من الترك، وكرهت حاجته إليهم، لكن سرير الخلافة كان فراشها، والمزيد من الطموح لا يعني إلا سببًا للجنون.

وعندما حملتها إحدى السفن الضخمة هي والخليفة في إحدى نزهاتهما فوق دجلة، والعبيد يقومون بالتجديف، والجواري ينثرن الزهر حول السفينة، رأت على الضفة خيام الفقراء المتلاصقة وأكواخهم البائسة، رأت النيران التي يشعلها الفقراء لطهو طعامهم، سألت البحَّارة أن يسرعوا، لكن صف الأكواخ ظل يلاحق النهر، هتفت:

ـ إنهم يتكاثرون؟

قال الخليفة وهو سكران:

ـ مَن؟

أشارت إلى الظلال التي تتجمع على الشاطئ لتراقب السفينة، قال الخليفة:

ـ هؤلاء ناسي وشعبي، خير أمة أُخرجت للناس.

ركعت أمامه وهي تقول:

ـ يا مولاي، هؤلاء الفقراء حول النهر، والديلم في القصور، يجب أن تجد حلًّا!

هتف في فزع:

ـ الفقراء، الديلم، ماذا أفعل؟

ومات الواثق بطريقة غامضة، مثل بقية الميتات التي ماتها آخر

خلفاء بني العباس، انفض الحداد في سرعة مريبة، وارتجلت مراسيم البيعة، ونُصِّب المتوكل خليفةً، واستوت جثته الضخمة على سرير الخليفة، واقتحم الترك القصر والمدينة وفرضوا شروطهم النهائية: يصبح الخليفة فقط مجرد اسم، تُحدد إقامته ويُحدد راتبه، وتهبط راياته السود إلى الأبد، وترتفع بدلًا منها رايات الديلم. كان الثوار يثورون، والقرامطة يطالبون بحق أفضل في الحكم، وكل فريق يقتطع جزءًا من جسد الدولة، وصفق المتوكل بيده وهو يصيح:

ـ أحضروا الجواري والمغنيات، هذه أيام الأُنس.

قالت فريدة:

ـ لن أغني!

كانت لا تزال حزينة على الخليفة الراحل، ولكن الخليفة الحالي أمر العبيد أن يقفوا على رأسها ويضربوها حتى تغني، كان الضرب قاسيًا فغنت عن الموت، موت «خل»، وموت الواثق، اهتزت جثة المتوكل الضخمة، وأمرهم أن يضعوها في السجن، فعششت العناكب في شعرها السرح الجميل، رأت في السجن رفاق الأكواخ، وأحست بفراش القش يغزها ويترك علامات على جسدها.

وأحضرها الخليفة لتغني، لتشاركه الفراش، وقف الحرس يهيئون الجو، كان الفِراش هو ميدان الخليفة الأخير، وكان جسد فريدة هو آخر الانتصارات، لكن أقدام الحرس تجوس فوق صدرها، في أي لحظة سوف يدخلون شاهري السيوف، كم طعنة تقود للموت؟ وكم طعنة بعدها لا تحس بالألم؟ وهتف الخليفة:

ـ غنِّي عن الحب والوجد يا فريدة.

وأمر العبيد أن يواصلوا الضرب على رأسها، وكانت صفوف الفقراء واللاجئين تنام فوق بلاطات القصور وفي أحواض النوافير، تصيح محذرة إياه:

ـ سيقتلونك! سيقتلوننا جميعًا!

ضحك الخليفة في بلاهة:

ـ الترك أصدقائي، والفقراء أعدائي، من الذي يعطيني راتبي إذا عاديت الديلم؟

وسمعت الآذان المنبثة في كل مكان في القصر ما تقوله فريدة، وتلمظت السيوف، تحول القصر إلى شرك، وسرير الخلافة إلى مقبرة، قال الخليفة:

ـ غنِّي!

لكن أوتار العود كانت تلتف حول عنقها، في أي القبور المجهولة دُفنت «خل»، وفي أي القبور سوف تدفن فريدة؟

قالت فريدة:

ـ يا «خل»، أحل الترك دماءنا وأعملوا السيوف في رقابنا!

قالت فريدة:

ـ يا «خل»، كيف نغني للحب ونحن نعيش في زمن الخوف؟!



عريب تغني

«ألصق خلخالي بقرطي»

حدثتني بغداد عنها:

عندما غنت غسلت النجوم نفسها في النهر، وتركته ناعمًا بلون الفضة، تفتَّح الزنبق في قصر الشتاء، وتفتح السوسن في قصر الصيف، وسارت «عريب» وحيدة، الحزن دائمًا مفرد الخطى، فأي مدينة تسع الحياة التي تضطرم داخلها؟ أنا مدينة الزمن القديم، شوارعي تقود إلى دجلة، ودجلة يصب في الخليج، والخليج يصب في المحيط، دنيا الله التي لا حد لاتساعها، السمك يرتعد من المطاردة، والقصور تقتنص شمس الفقراء، والبيوت والحارات والأسواق والحانات تمور بالحياة.

قالت بيوت النصارى في الأطراف:

ـ كبرت الطفلة بيننا، ولم يغادرها الخوف حتى بعد أن كبرت.

وقالت المقابر على الجانب الشرقي من النهر:

ـ لم نعد نصلح مأوى للمطاردين، المخبرون لم يدعوا مكانًا آمنًا.

وقالت أسواق النخاسة:
ـ كسدت تجارة بيع الجواري بعد أن اشترى المأمون «عريب».
وقالت ساحة الخيل:
ـ كانت تهوى ركوب الخيل دون سرج، وكان الجواد الذي تختاره سعيد الحظ إذ يحس بلمس جسدها.
وقال صانعو الأوتار:
ـ ومن الذي صنع أوتار صوتها؟
وقال مقطرو النبيذ:
ـ أصابت بضاعتنا الكساد لأن صوتها يسكر دون خمر.
وقالت امرأة نصرانية:
ـ أنا الوحيدة التي أعرف سرها، ولدت «عريب» ابنة غير شرعية لجعفر بن يحيى البرمكي من جارية له، وعندما أدار الزمان ظهره وانقلب الرشيد على البرامكة قتلًا وتشريدًا، دفعت الأم بـ«عريب» إليَّ حتى أخفيها وسط منازل النصارى، ولما هددني جيراني بالإبلاغ عني ذهبت بها إلى المقابر، ثم بعتها للنخَّاس سنبس بعشرين دينارًا.
قال سنبس النخَّاس جازمًا:
ـ هذا الكلام كذب، أنا متخصص فقط في بيع العبيد، ولا علاقة لي ببنات السادة.
وقالت بيوت الفقراء:
ـ ما أسرع ما ينفد زيت المصابيح ولا يبقى سوى السناج.
وقالت جواريها:

ـ كنا ننتظر يوم حمامها، عندما تفك جدائل شعرها الطويل وتغسلها، فيمتلئ برائحة العنبر، لم تكن تفعل ذلك إلا من الجمعة إلى الجمعة، وطوال أيام الأسبوع تغلقه بستين مثقالًا من المسك والعنبر، فإذا غسلته أعادت وضع مثقال جديد، وكنا نقتسم غسالة رأسها بالقوارير وما تسرحه منه بالميزان.

وقال أبو الفرج:

ـ دعوني أعرف موقف الخلفاء منها لأحدد موقفي.

وأدلت إحدى الجواري بشهادتها:

ـ كانت «عريب» تقول: «ما فائدة أيام تخلو من الهجر والوصال؟».

وقالت الأرصفة:

ـ كان الشحاذون يتوسلون باسمها.

وقالت طيور الماء:

ـ كنا نرى جسدها وهي تستحم فتتلقفنا شباك الصيد.

وولى نهار، وجاء ليل، وارتعد النهر، وسكن الناس، وضربت «عريب» على أوتار عودها وغنت:

يا بغدادُ، يا مدينة الصَّبابة والدم المُباح

وحدثني عنها سرير الخلافة:

كنت مجرد هدية من ملك الروم، لا أعرف من صنعني ولا من امتلكني، لكني عرفت جيدًا «عريب» وعطرها إذ تلمسني، توالى عليَّ خلفاء كثيرون، شاهدت ليالي متعهم، وتشربت دماء من ذُبح منهم فوقي، وأصابتني كآبة دائمة، لكن «عريب» كانت تعطيني الكثير من دفئها، كنت أنا الحلم الدائم لكل المتسلقين والمغامرين من تُرك

وديلم وسلاجقة وتتار، وعندما سكنت في زاوية الذكريات الحزينة كانت معي ذكرى «عريب».

«عريب»، على أي سرير ترقدين؟

قتل الرشيد أهلها، واستولى الأمين عليها من صاحبها المأمون، وملكت عليه قلبه، وعشقت المعتز واستمتعت بلياليها معه، وكرهها المعتصم وبادلته الكراهية، واشمأزت من الواثق، واكتشف المتوكل أنها قد أصبحت عجوزًا.

سبعة خلفاء توالوا، ودائمًا ينتابني الإحساس بأنها لا تشعر بالأمان، يضنيها وسط أغطية الحرير شعور حاد بالغربة، وعندما يهجع كل الناس عند منتصف الليل تظل هي ساهرة، ووسائدي تشرب دمعها الليلي وكآبتها الصباحية، وكنت أشعر بالحنق عليها، هذه المرأة الغريبة، إذا لم تكن تحس بالسعادة وهي تملك كل هذا الجاه، فمتى تسعد؟! ثم أشفق عليها، أي همٍّ تحمله لا يجعلها تحس بالسعادة وثروات الدنيا تحت قدميها؟!

بعد ليلة من المعاناة والمحاولات الفاشلة، قالت للأمين بسخرية:

ـ تذكر أنني لست أختك.

وقالت للمأمون:

ـ لقد ملكتني بعض الوقت لكنك لم تملك قلبي لحظة واحدة.

وقالت للمعتز:

ـ إنني أحبك فقط لأنك تذكرني بأحد عشاقي القدامى.

وقالت للمعتصم:

ـ لماذا نعذب نفسينا؟ جسدي مشتعل ولا يوجد من يطفئه!

وقالت للواثق:

ـ لا أدري من أين تنبعث هذه الرائحة الكريهة؟

وقالت للمتوكل:

ـ تروَّ قليلًا يا مولاي فالتهابات المفاصل تؤلمني.

«عريب»، «عريب»، على أي سرير ترقدين؟

وحدثني عنها سيدها المراكبي:

وسدت رأسي الأشيب على صدرها، وحلمت أنني أبحر مع ريح مواتية، واستيقظت، قالوا هربت «عريب»، ففكرت متأسيًا: من يمسك السحاب؟ أنا سيدها والمجنون بها، لم يعد الموت في المعشوق مألوفًا في هذا الزمن، لكنني وقفت أمام الخليفة المأمون، قال لي:

ـ قد اشتريت جاريتك «عريب» بخمسة آلاف دينار وسأوليك عملًا تكسب فيه أضعافًا.

ورمى إليَّ بخاتمين من الياقوت الأحمر، فقلت:

ـ يا سيدي إنما ينتفع الأحياء بمثل هذا، أما أنا فميت لا محالة، لأن هذه الجارية كانت حياتي، وخرجت من حوزتي فاختلط عقلي ومت في اليوم الأربعين.

قادها سنبس النخَّاس إليَّ وهي طفلة، بعد أن دفعت له ثمنها قالت لي «يا سيدي» للمرة الأولى، فرأيت وميض عينيها، كنت الموكل بمراكب الرشيد، تحت إمرتي عشرات القوارب والسفن والدهبيات والملاحين والجنود، كان الجميع يعرفونني سيدًا وجيهًا، لكنها مذ قالت «يا سيدي» أصبحت عبدًا لها، وعندما ظهر ابن حامد في حياتها هجرتني دون أسف، وانتظرتها بلا ضغينة،

وعادت مشعثة الشعر، ممزقة الثياب، لكن كل خلجة من خلجاتها تنبض بالسعادة، وأدركت أن قدري أن أدع القفص مفتوحًا حتى يشعر طائري السيد بالأمان، يهجرني ويعود، لو أنني أحكمت قبضتي لطار دون عودة.

وظهر ابن حامد، ريح عاصف أطاح بمجلس طربي، وحطم كاساتي وأسال خمري، وخطف «عريب»، كان يجلس متوفرًا يسلط عليها عينيه القاسيتين، فتصمت وتشرد حتى أحس بالذنب، وعندما تلطم الريح نوافذي في الليل أعرف أنها قد مضت إليه، حيوان بري يحن لقبضة الصياد، ومع ابن حامد لم تعد، مضى الليل وغارت النجوم، وظللت أوقد الشموع وأنتظرها مثل امرأة مهجورة، سقطت صريع الحمى وسط شماتة زوجتي وسخرية ابني، وجاء الخلان تحمل كلماتهم نبرات العزاء، ولم تعد، لم تعد، ذهبت أستجير بالخليفة الأمين:

ـ يا مولاي ابن حامد أخذ جاريتي، حياتي، أنا صاحب مراكبك، ومراكب أبيك من قبلك.

واستجاب الأمين، ذهبت الشرطة وأحضرتهما معًا، تطلع الأمين إليها متمعنًا، سألها:

ـ لماذا تركت سيدك؟

أشارت لابن حامد، قالت:

ـ هذا هو سيدي.

وجعلتني أتضاءل وسط ابتسامات الحاشية الشامتة، والأمين يلتهمها بعينيه ويقول:

ـ دعوها عندي إذن حتى يحل القضاء مشكلة ملكيتها.

وفتحنا نحن الثلاثة، «عريب» وابن حامد وأنا، أفواهنا من الدهشة، وضع الخليفة يده عليها وأصبحت مشكلتي مضاعفة، وانصرفنا، أنا وابن حامد، كلٌّ منا يمقت الآخر ويسوق إليه العزاء، ظللت أتردد على القصر حتى أرى طريقًا أستعيد به جاريتي، لكنها الحرب اللعينة تدق أبواب القصور، وجنود الفرس يتخطون النهر، يُنزلون رايات الأمين ويرفعون رايات المأمون، لكنها الحرب أحرقت سفني، وضيعت جاريتي، وحولتني إلى غراب عجوز أنتظر سقوط الرمم. وما إن جاءت الأنباء أن الأمين قد قُتل، وأن بغداد أصبحت سبية لسيف المأمون، حتى هجمت على القصر وأخذت «عريبي»، سلبت حقي وسرقت عشقي الوحيد، وعدت إلى بيتي فرأيت زوجتي واجمة وابني قد خرس عن الشعر الرديء، لكن قلبي كان ينتفض فرحًا، ولم يطل مجلس طربي، استوى المأمون على العرش، وطار الطائر هذه المرة، دون عودة.

وحدثني عنها قاضي بغداد:

اللهم احفظ أمة الإسلام، القضية واضحة والأدلة بينة، والحكم معدٌّ سلفًا، قاضٍ مثلي، في زمن مضطرب مثل زمني، في مدينة غريبة كمدينتي، عليه أن يكون حريصًا، يمشي على الصراط ولا يقطعه، يحكم من خلال وجوه المتقاضين وثيابهم ومراكزهم الاجتماعية لا من خلال الأدلة التي كثيرًا ما تكون مضللة، إن الميزان يميل والقاضي مستوٍ على مقعده، وأنا قاضي القضاة، ظِل الخليفة، والقضية كما قلت واضحة.

المغنية «عريب» هربت من سيدها المراكبي، ليست هذه هي المرة الأولى التي تهرب فيها، وليس هو العاشق الوحيد الذي تهرب إليه، فاللهم احفظ أمة الإسلام، ويقولون إن في موقف سيدها بعض الرضا على هذا الوضع الذي لا يُرضي أحدًا، يقولون إنه مرض مرضًا شديدًا، وعندما أفاق ظل يبحث عنها ثم استغاث بالمأمون (ملحوظة: استغاث قبل ذلك بالأمين)، وكان المأمون يحمل له ذكرى طيبة من أيام مولانا الرشيد، فأمر الشرطة بإلقاء القبض على ابن حامد، وسأله عنها فأنكر معرفته بها، فقال له:

ـ كذبت.

وأمر صاحب الشرطة أن يجرده ويضع السياط عليه حتى يردها، وما إن بدأت عملية الجلد حتى فوجئ الجميع بـ«عريب»، وهي قادمة على حمار مكار مكشوف الوجه، عالية الصوت:

ـ أنا «عريب»، إن كنت مملوكة فليبعني، وإن كنت حرة فلا سبيل له عليَّ.

وهكذا رفع خبرها للمأمون فبعث إليَّ برسالة، يطلب مني إقامة العدل في أمرها، وكانت الرسالة غريبة، والحاجب الذي حملها أغرب، هنا يأتي دور ذكائي ومعرفتي بتقلبات زمني، قبلت الرسالة فابتسم الحاجب، قلت:

ـ القضية واضحة!

قال:

ـ كُلك نظر.

قلت:

ـ هل رأى المأمون الجارية؟

قال:

ـ ومن أجل هذا عهد إليك بالقضية.

ابتسمت، قلت:

ـ اطمئن.

وعندما مثلوا أمامي، تأملت الجارية فبهرني جمالها، وأخذت أسأل عن كل التفاصيل، وأحاصر المراكبي بأسئلتي الذكية حتى ارتبك، وأخذ يتحدث عن سطوته أيام الرشيد، وعن سنبس النخَّاس، ويستشهد بأصدقائه، وأنا أبتسم في برود، ثم فاجأته بالسؤال:

ـ هل تملك البينة على ملكيتك لـ«عريب»؟

قال مدهوشًا:

ـ ماذا؟!

قلت:

ـ البينة، الدليل، ألا تملك دليلًا على ملكيتك للجارية؟

قال:

ـ أنت تطالبني بما لم يطالب به أحد في رقيق، ولا يوجد مثله في يد من ابتاع عبدًا أو جارية!

قلت:

ـ لأنه لا يوجد أحد ينازع من يملك رقيقًا مثلك!

وأفحمه جوابي فعاود الهذيان:

ـ هذه ملكي! سأشكو للمأمون! سأتظلَّم!

وصدر حكمي قاطعًا:

ـ إنها ليست ملكه، وهي حق لمن يشتريها.

ابتسم ابن حامد، لكن ابتسامتي كانت أوسع، وأضفت للحكم حاشية أخرى تقول: «ولا تجوز ملكيتها للمتنازعين عليها»!

واشترى الخليفة «عريب»، ولم يرضَ قلبه الرحيم فأجزل العطاء للمراكبي، وبعث إليَّ بإناء خسرواني عجيب الشكل لا زلت أحتفظ به في صدر مجلس الحكم، وكلما سألني أحد عن قصته، أكتفي بالابتسامة.

وحدثني عنها عاشقها:

وداعًا يا أميري، أنا ذاهب للحرب، علت صيحات القتال ومضى زمن الحب، أعلم أن هذه غزواتي الأخيرة، تُرى هل ستذكرني «عريب»، أم سوف تنشغل بمجالس الأمراء والعشاق الجدد؟ كنا معًا في الفراش، وكان جسدها ينتفض من فرط النشوة، أشد لحظات المرأة ضعفًا، اللحظة التي تستجيب فيها لأي طلب، قلت لها:

ـ دعينا نتزوج، دعيني أشتريك.

همست وهي تقبِّلني:

ـ لا أريدك زوجًا طائعًا، ولا سيدًا شرهًا، أريدك فقط عاشقًا لي.

لم يغلب جسمها عقلها، كان لها منطقها الخاص، وكنا نعيش على حافة الخطر، تضرب هي بالمقارع وأجلد أنا بالسياط، وكانت لا تكف عن القول: «لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل». قلت:

ـ دعينا نرحل إلى بلاد أخرى.

قالت:

ـ أنت فقط تحلم بامتلاكي.

وذهبت أنا إلى الغزو، وحُبست هي في كنيف مظلم. وكان الجنون يبلغ بنا مداه فنخرج معًا إلى النهر تحت أعين طيور الماء والنخل وأعوان المراكبي.

وعندما وضع المأمون يده عليها وضمها إلى حريمه ظلت طبيعتها الحرون كما هي، تفلت من برودة الأروقة، وتحت وطأة الرعب كانت تأتي إليَّ، لقد بدأت أقتنع بمنطقها، ذات ليلة ممطرة كانت تركب جوادها عائدة من عندي، أحسَّت بمن يركب جواده بجانبها، وعندما أضاء البرق وجهيهما رأت حمدون أحد أعوان المأمون قال:

ـ يا «عريب»، من أين أقبلت في هذا الوقت من الليل؟

قالت:

ـ من عند محمد بن حامد.

قال:

ـ وما صنعت عنده؟

ردت «عريب» بسخريتها التي أعرفها جيدًا:

ـ يا أبله، «عريب» تجيء من عند ابن حامد في هذا الوقت، خارجة من قصر الخليفة وراجعة إليه، تقول لها أي شيء عملت عنده؟ يا أحمق، تعاتبنا، وتحادثنا، واصطلحنا، وشربنا، وتلامسنا، وغنينا، وانصرفنا.

وانصرف حمدون خجلًا.

وفي الصباح قصت عليَّ هذا الحوار وهي تضحك، تجمدت رعبًا أمام ضحكاتها، أي جنون أن نضع أنفسنا تحت أنياب الذئب، كنت

أعرف أن المأمون مُدَلَّهٌ بها، منذ أن أصدر القاضي حكمه الغريب، ومنذ أن كف عن كل جواريه وتفرغ لها، وكنت أعرف أن لسان حمدون يصب في أذن الخليفة، وأن السياط التي تحملتها قديمًا من أجلها قد تحولت إلى سيوف قاطعة، لكن دفقة العاطفة التي تغمرني بها، وشهوة الحياة التي لا تحد، كانت تغرقني في بحر لانهائي؛ يصبح الخليفة وهمًا، والعالم وهمًا.

وصل الأمر أنني اكتسبت جنونها، ذهبت إلى مجلس المأمون وجلست وسط ندمائه في مجلس الطرب، كنت أحاول استشفاف مدى التهديد في نبراته، جلست «عريب» وسط جواريها كالقمر المغرد، نسيتُ مبادئ الحذر، ظللت أتطلع إليها، كم تبدو مثيرة وهي بعيدة وبيننا يجلس أسد كاسر على عرش من ذهب، غنت الجواري وهي صامتة، وعندما تقابل وجهانا رأيت تألق عينيها الذي أعشقه، لم أتمالك فأومأت إليها بقُبلة خاطفة، أحسست بها تتلقاها، كأنما شفتي على وجهها، أخذت العود وغنت، تخلط الوصل بالهجر، ولا يدخل في الصلح بيننا أحد، غنت بكل أعماقها، وتحول المجلس إلى حلم ملون كأننا وحيدان، لم أفق إلا والخليفة يصيح:

ـ كفى يا «عريب»، اصمتي!

وخيم الصمت، رأيت نظراته الغاضبة تكاد تقتلعني كالعاصفة:

ـ مَن فيكم أومأ لـ«عريب» بقُبلة؟

عرفت أنه رآني، أو على الأقل فهم من طريقتها في الغناء، أصابني الوجل فظللت قاعدًا، كرر القول مهددًا:

ـ من فيكم أومأ لـ«عريب» بقُبلة، والله لئن لم يصدقني لأضربن عنقه.

لم يكن ثمة مفر، كانت أنظاره تحاصرني من دون أهل المجلس، نهضت، قلت:

ـ أنا يا أمير المؤمنين أومأت إليها، والعفو أقرب للتقوى.

قال من بين أسنانه:

ـ قد عفوت!

لكنه أسرَّها، وانفض المجلس، ولم أرَ «عريب» من يومها، كأنه قتلني حيًّا، وجاء إليَّ الأمر بالخروج للغزو على حدود السِّند، انتقم الخليفة بطريقته الخاصة وحملني ذنب الحرب البعيدة القاسية، أنا ذاهب يا أميري، لا يجدي الحب والسيوف مسلَّطة على أعناقنا، وسوف أموت، وتنساني «عريب»، ولكن هل ستمتلكها حقًّا؟

أخيرًا حدثتني «عريب» عن نفسها:

لماذا يحلمون دائمًا بامتلاكي؟ إن أحدًا لا يحلم بامتلاك الشمس ولا النهر ولا السُّحب، إن نار الرغبة تتوهج داخلي، وعواطفي تضطرم كالموج، وشطحات عشقي كأنها أسفار السُّحب، فلماذا يحلم الجميع بامتلاكي؟ سنبس والمراكبي والأمين والمأمون والمعتز والمعتصم والواثق والمتوكل والعشاق العابرون، وحتى الشعراء الذين كنت أذوب وأنا أغني أشعارهم.

ولأن الخليفة المأمون لا يستطيع حبس الشمس فقد حبسني في كنيف مظلم، وأنا أرتدي جبة من الصوف الخشن، ولا أذوق إلا الخبز والملح والماء، كل ذلك حتى أنسى ابن حامد، لم أكن أحبه لهذه الدرجة، كان فقط يُحسن مضاجعتي، لكن تصرف المأمون الأحمق

جعلني أتخيل أنني أموت صبابة فيه، وعندما أفرج عني وقفت أمامه وغنيت:

حَجَبوه عن بَصَري فمُثِّل شَخصُه		في القَلْبِ فهو مُحجَّب لا يُحجبُ

وتركته يتميَّز غضبًا، حتى ابن حامد وضع أمامي قيد الزواج المغري، وليته ما فعل، وانحنى المأمون وقبَّل قدمي فقلت:

ـ مثل اليهود يقبل كيس نقوده وأنت دفعت فيَّ خمسة أكياس.

وقفزت من النافذة، ذهبت إلى ابن حامد فلم أجده، صحبت أقرب رجل قابلته وطلبت منه أن يعاملني بخشونة، وسألني في الصباح عن اسمي فقلت:

ـ شهرزاد.

ومات المأمون، كنت الجارية الوحيدة التي بِيعت في ميراثه، واشتراني المعتصم بمائة ألف درهم، وأعتقني فأعطيته قلبي ليلة واحدة وهجرته حتى لا أكون أسيرة فتنته، إن الحب لا يمتلك ولحظة الحب لا تُباع، وكنت أهتف بابن حامد:

ـ اجعل سراويلي مخنقتي، وألصق خلخالي بقرطي!

ولقد نجحت في أن أجعله يعشقني كما أريد، وفشلت مع آخرين، ومات على حدود السِّند، وأحببت أبا عيسى بن الرشيد، كان مغنيًا ناشئًا يتدرب، وعندما كنت في أحد مجالس الطرب سألوني عن أي خليفة فضَّلتُه، فقلت:

ـ عاشرت سبعة، ما عشقت إلا المعتز، فإنه يشبه أبا عيسى بن الرشيد.

سألوني إن كانت لديَّ قدرة على العشق، فقلت في أسى:

ـ أما القدرة فبحالها، لكن الشباب ولَّى.

النيران المستعرة في داخلنا تحرقنا أسرع، ولا يبقى سوى رماد الشيخوخة، لكننا نتوهج ويلسع وهجنا الآخرين، ويذكرنا الناس كما يذكرون الشهب، نضيء فجأة، ونحترق فجأة، ولا يعرف أحد أين مثوانا.

لقد ظللت أعشق حتى النهاية، وعندما حاول المتوكل امتلاكي وقع في نفس خطأ الآخرين، انتقمت منه، عشقت خادمه صالح المنذري، دخلت عليَّ إحدى جواري المتوكل، صعقت الخادمة وأنا أضحك كما صعق حمدون خادم المأمون من قبل، ونقلت الكلام للمتوكل فأبعد الخادم، وحسب أنني استسلمت، وقفت بين يديه وغنيت:

أمَّا الحبيبُ فقد مَضى   بالرغم مِنـي لا الرِّضا

طرب، وأخذ يستعيد الصوت والجواري يكتمن الضحك الشامت فيه.

حدثني عنها حارس باب الخليفة:

كنت واقفًا على باب الخليفة، منتصبًا، يدي على مقبض السيف كما يليق بحارس رفيع القدر، ومجلس الخليفة منعقد، كانوا منتشين وكنت اليقظان الوحيد، جلوسًا على الأرض كالحيوانات الرخوة، يتحدثون عن الغناء، واختلفوا حول أحد الأصوات: إلى من ينتسب الشعر؟ هاتوا «عريب» نسألها!

إنني أكره هذه المرأة، مجيئها كفيل بأن يمد السهرة حتى الصباح، وأنا منتصبٌ أعاني من آلام التقلص، أكره طريقتها المائعة في الغناء، وأكرههم عندما يستعيدون اللحن عشرات المرات، أكاد أختنق، عاد

الخادم ليقول إن «عريب» تعاني من الحمى، هتف الخليفة، لا حمى ولا أعذار، وهلل الندامى مطالبين بمجيئها، وبعد برهة جاءت تستند إلى خادمين والحمى تكسو وجهها بالحمرة القانية، وصوت أنفاسها يتردد بصعوبة، كنت الوحيد في القاعة الذي أدرك حالتها، أما هم فقد انهالوا عليها بالأسئلة وهم يتصايحون، سألها مولانا فأجابت بكل ما تعلم، أمور لا أدعي أنني أعلم فيها كثيرًا، صاح الخليفة:

ـ غنِّي الصوت إذن.

قالت في صوت متوسل:

ـ مولاي، إنني متعبة!

صرخ في عصبية:

ـ غنِّي.

قالت مستسلمة:

ـ ائتني بالعود.

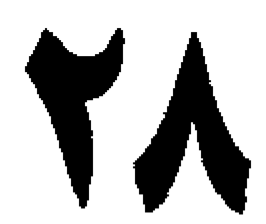
صرخ:

ـ غنِّيه دون عود.

تركت الخادمين واعتمدت على الحائط، وللمرة الأولى لم أستطع الوقوف منتصبًا، ارتخت عضلاتي وأحسست بالأسى تجاه هذه المرأة المحمومة، فكرت أنها لن تطيل الغناء وسرعان ما ينفض المجلس وأعود إلى بيتي، بدأت الغناء، والحمى تزداد والأنفاس تتثاقل، كانوا يهللون ويصيحون، فكرت: سوف تسقط هذه المرأة حالًا، أكرهها، لكنها لم تسقط، واصلت الغناء، وعندما استعادوا الصوت أعادته، وخفت حمرة الحمى، وانساب الصوت كأنفاس الليل وكالنجوم

البعيدة في نوبات الحراسة، ينطلق ويكتسح آثار الحمى وآثار الجنون، يضج بحياة جديدة كأنها تولد في هذه اللحظة، هذه المرأة العجوز كيف أصبح صوتها بهذا الشباب، إنها تغني لي أنا فقط، أنا الوحيد الذي يعي هذا.

لمحت ظلًّا أسود يسير على الحائط الذي تعتمد عليه بيدها، عقرب تسير نحو أصابعها، فكرت أن أترك مكاني وأجري إليها، لكن الخليفة قد يظن أنني أنوي اغتياله، لكن يجب أن أفعل شيئًا، ولدغتها العقرب، لم يبدُ عليها أنها أحست أيما إحساس، ظلت تغني وتجلو نبراتها وأنا مذهول، لدغتها للمرة الثانية، لم تتحرك، أخذت تُعيد الصوت كأروع ما يكون، والصمت يعم المجلس، هل شاهدوا العقرب مثلي، أم أن تلك النبرات التي يبدو أنها ليست من عالمنا قد أسرتهم؟ وانصرفت العقرب عائدة إلى أعلى الجدار كما جاءت، وانتهت الأغنية، وكلهم صامتون ومولانا نائم، ورفعت يدها إلى رأسها ببطء تمسح جبهتها من العرق، ثم سقطت على الأرض دون أن يتحرك أحد.



فضل العبدية

الحب صفقة خاسرة

إذا أردت أن تبيع نفسك، فليكن الثمن غاليًا، كانت «فضل» تحلم، قطرة من العطر باغتتها الشمس فتبددت، رفعت الستر، فرأت الخليفة، وإخوتها الخمسة، وسعيد بن حميد، والنخَّاس الذي اشتراها، وعصافير بغداد ميتة على الأرصفة، وكان عليها أن تعقد الصفقة، وأن تدفع الثمن أيضًا، لحظتها قال لها الخليفة:

ـ أليس لك مطلب آخر؟

أومأت برأسها، واصل السؤال:

ـ وبعد ذلك؟

ترددت قليلًا، غاصت الكلمات في حلقها كنصل سكين، ثم قالت:

ـ أُسلِّم لك جسدي وروحي، دون قيد أو شرط.

«فضل العبدية» ما زالت تحلم، والخناجر تسابق حلمها، عندما لم تكن «عبدية»، وكان إخوتها الخمسة يعبرون بها الصحراء، رحيل، واختطاف، وقمر جائع يأكل من الرمل، ونفس ممزقة، تنام الليل في

القيد، وتصحو محاصرة بعيونهم العشر، وأظافرهم المتسخة تنغرس في لحمها، كل واحد منهم يشبه الآخر تمام الشبه، وهي لا تشبه أحدًا، كانت أمها تموت في خيمة منزوية، والنجوم تتساقط، وسألتها فضل:

ـ يا أمي، لماذا يكرهني إخوتي لهذه الدرجة؟!

قالت الأم:

ـ جئت إلى هنا وأنا جارية غريبة، أعتقني أبوكِ لحظة ولادتك، أما إخوتك هؤلاء فمن زوجة أخرى، حرة، لم تكف لحظة واحدة عن كراهيتي.

مع كل ذكرى، وكل لحظة، واجهتها هذه الكراهية، كانوا أكبر منها، وأكثر غلظة، وماتت أمها جوعًا فرفضوا أن يدفنوها بجوار زوجها، ورأت الأم الأخرى وسط أولادها الخمسة تهيل الرمل على القبر، وحين رأتها تبكي صاحت في سخرية:

ـ أترتدين ثوب الحداد وأنت بهذه الجدائل الطويلة؟

وهجم الإخوة الخمسة مثل قطيع من الذئاب، ألقوها على الأرض، جزُّوا جدائلها بخناجرهم، أطلقوا صيحات الانتصار وهم يسلمونها إلى أمهم التي تأملتها قليلًا، ثم ألقتها إلى القبر، وأهالت فوقها الرمال.

كانت في العاشرة من عمرها، بلا صدر، ولا جدائل، قالوا لها:

ـ سوف ترحلين معنا إلى الشمال.

وسمعت الأم وهي تؤكد عليهم آمرة:

ـ تخلصوا منها بأي ثمن.

ووقف رجال القبيلة، شهودًا صامتين، يؤكدون بصمتهم المصير الذي ينتظرها، عدا شيخ واحد أصم، دق الأرض بعصاه وهتف بهم:

ـ إلى أين تذهبون بالصَّبية اليتيمة؟

وارتبك الخمسة، وأسرعت الأم تأخذ الشيخ بعيدًا، تحكي له عن زوج مزعوم في قبيلة أخرى يطلبها للزواج، وظل الرجل يلح في السؤال، ورحل الأشقاء الخمسة والشقيقة الوحيدة، جوعًا وعطشًا، والشمس غصة، وبحار الملح بلا نهاية، كانت تبكي: «يا إخوتي، يا أشقائي»، ولم يجبها سوى الصدى. أنزلوها في أول بئر قابلتهم، وتركوها معلَّقة حتى كفت عن البكاء والتساؤل، وأخرجوها ليواصلوا السير الخشن، وكانت بغداد عالمًا حزينًا برغم ألوانه الزاهية، ساروا بها إلى الكَرْخ حيث يجلس حسنويه النخَّاس، عرضوها أمامه فسألهم بغتة:

ـ من أين جئتم بها؟

وكالعادة ارتبكوا، نظروا إلى بعضهم كأنما يبحثون عن الأم لترد بدلًا عنهم، ثم قال أكبرهم:

ـ إنها جاريتنا، مللناها وأردنا التخلص منها.

ونظر حسنويه إليها في تساؤل، لكنها صمتت، لماذا تنكر وتشكو؟ لماذا تعود معهم أصلًا؟ في الصحراء لا ينتظرها سوى الكراهية والملح والخناجر، قال حسنويه:

ـ عشرة دنانير.

همهموا في طمع:

ـ عبرنا كل هذه الصحراء من أجل عشرة دنانير!

كانت «فضل» متأكدة أنه لو عرض عليهم أقل من هذا لقبلوا، قال حسنويه:

ـ خمسة عشر دينارًا، لا تزيد دينارًا واحدًا.

كل واحد منهم أخذ ثلاثة دنانير، وعادوا يبكون إلى قبيلتهم بني القيس وهم يصيحون:

ـ أختنا أكلتها الذئاب، اختطفها الذئب منا.

وفردوا أمامهم ثوبها الملوث بالدم، الممزق بالأظافر، وصدق الجميع، حتى الشيخ الأصم، تذكروا قصة سيدنا يوسف، ولم يتذكر أحد أنها كانت قصة كاذبة.

نظر حسنويه إليها، اكتشف جمالها الذي لم ينضج، من هذه اللحظة فقدت كل أنسابها، أصبحت «فضل العبدية»، لم تنسَ شيئًا من عذاباتها، أيام الجوع، وليالي الخوف، والطرد، حتى موت أمها كمدًا، كانت تهذي بكل هذا، وتدفع الشعر من ينابيع هذه الآلام، كان حسنويه يشظفها مثل يهودي يعمل بالماس، ومرت السنوات فلم تمحُ جرحًا أو ندبة، تعلمت أكثر مما قدر لها، ورفضت نقاب الجواري، وجلست سافرة وسط شعراء بغداد، تستمع إليهم، وترد عليهم، تحفظ القصيدة من أول مرة، ثم ترتجل في التوِّ قصيدة على نسقها، وفرك حسنويه يديه، وهو يرى قيمتها تزداد كل يوم.

لكن الحب، ذلك الطائر الأبيض مقصوص الجناحين نقر جدار قلبها، ذات ليلة أقبل سعيد بن حميد إلى مجلسها، لفتت نظرها لأول وهلة حمرة الخجل التي علت وجهه عندما طلبوا منه أن يقول شعرًا، ثم قال أشعارًا حزينة عن الوحدة في شوارع بغداد، لا تدري لماذا لم تعارضه، لعل الشعر مس الجرح الذي جاهدت في إخفائه، وانتصف الليل، وأصبح القمر محاقًا، فسمعته يتمتم في صوت خافت: «هذا القمر، يتركنا، ويموت».

التفتت إليه في فزع، علت حمرة الخجل وجهه، بدأت تراقبه باهتمام، لحيته السوداء الصغيرة، وأنفه المفلطح بعض الشيء، هذه الكلمات الحمقاء التي تفوه بها، ماذا تعني؟ أخذت تسخر منه فجأة، تردد الأشعار الموحية، وتترصد له، وانطوى هو على نفسه، وضج المجلس بالضحكات، والجواري يزقزقن من خلف الستر، وحسنويه خلع عمامته، ونسي بخله التقليدي، وانفرطت كؤوس الشراب، وبالغت هي في قسوتها عليه، وظل القمر محاقًا.

لم يأتِ في الليلة الثانية، ولا الثالثة، وبحثت عنه، وأدهشها أنها تبحث، ومال تاجر أغنام على حسنويه يعرض فيها مبلغًا كبيرًا، لكنها رفضت، فرفض هو أيضًا، وتقدم أمير جيوش الخليفة، وكان قادمًا من بلاد الهند والسند بعد أن قتل عددًا لا يُحصى من الناس والأفيال، ورفضته أيضًا، وتطلعت في مرارة إلى المجلس الخالي إلا من أنصاف الرجال، وفي الليلة الرابعة رأته واقفًا وهي تقول شعرًا:

وهل لي نَصيبٌ في فُؤادِكِ ثابتٌ كما لك عندي في الفُؤادِ نَصيبُ

كان حسنويه نائمًا على ظهره، وأمير الجيوش يلمع سيفه، واقترب ابن حميد منها، كان هناك قمر مشقوق، وسوسنة، وظبي وحيد، و«فضل» تسري في داخلها رعدة غامضة، قالت:

ـ أين أنت يا ابن حميد؟ لقد افتقدناك.

ثم صمتت، حاول أن يبتسم، ابتسامته الخجلى، قال بعد تردد:

ـ ربما، لأنني أحبك أكثر.

لحظة وجيزة كخطف البرق، وأفاق السكارى، واعتدل حسنويه وقال:

ـ هي جاريتي، حتى الحب، له ثمنه المناسب.

انعقد المزاد فجأة على غير توقُّع، التفت إليه ابن حميد، وسأله:
ـ كم تريد فيها؟
هتف حسنويه:
ـ عشرة آلاف دينار.
وتمنت «فضل» لو أنه عرض ثمنًا أقل، وقال ابن حميد:
ـ قد قبلت.
وأضاف حسنويه:
ـ أمامك ثلاثة أيام، وإلا سوف يتضاعف المبلغ.
وخيَّم الصمت، ونهضت «فضل»، أغلقت باب حجرتها، كانت مسرورة، اكتشفت في هذه اللحظة ماذا يعني اسمها، «فضل العبدية»، لا نسب، ولا رأي، ولا مصير. وحين أقبل حسنويه صرخت فيه:
ـ لماذا فعلت ذلك؟!
قال في صفاقة:
ـ ومن قال إن العشق بلا ثمن؟!
أصبح للنجوم لون الملح، ووقف ابن حميد أمامها فقيرًا، فقر كل شعراء العالم، بسيطًا وصريحًا مثلهم، لكن حسنويه كان على حق، الحب كالأحلام باهظ الثمن، كم مرة تضاعفت هذه الخمسة عشر دينارًا الحقيرة منذ أن أصبحت «فضل» عبدية؟ لم يحضر ابن حميد في الأيام التالية، بغداد ثقب إبرة، كل دينار ينفذ منها يحتاج إلى معجزة، وإلى تلال من القصائد، مدح أمير الجيوش، وشهبندر التجار، والوزراء، وتجار الحروب، ولصوص القوافل، استوهب ثمن عشقه من كل المتخمين، وتحول الشعر إلى أثمال بالية، ونامت «فضل»

تحت شمس الصحراء، ومد الإخوة أصابعهم ونزعوا قلبها، القوة في قبر الدم، وهتف حسنويه:

ـ وهل حسبت أني أبيعك إلى شاعر مفلس؟

لكن هذا العاشق الشاعر المفلس جاء في اليوم الخامس، وضع أمامه عشرة أكياس من الدنانير، وترقب «فضل» كعصفورة، واشرأبت بغداد كلها، وضحك حسنويه في سخرية:

ـ هذا هو اليوم الخامس، وهذا فقط نصف المبلغ، أمامك ثلاثة أيام أخرى.

وعاد ابن حميد يلهث وحيدًا، وعادت «فضل» إلى حجرتها فاكتشفت أن حسنويه قد وضع حرسًا على كل منافذ البيت، وكانت تحلم بابن حميد، يرشق الزهر في مفرق شعرها، وعلى وجهها وصدرها، يغطي جسدها كله بورق الزهر، حتى إذا نهضت تناثر حولها كالفراشات الملونة، ومدح ابن حميد الوزراء، والقادة، والسماسرة، ولم يعطوه شيئًا، ظلوا يلحون عليه أن يقص عليهم قصة غرامه الأبله، واستمع الخليفة إليه ضاحكًا، طلب منه أن يسمع أشعاره أولًا، فوضع ابن حميد قلبه بين يديه، تلوى مثل شهاب يحترق، وفجَّر في الكلمات كل الأمنيات المرتعدة، وأشار الخليفة إلى صاحب بيت المال أن يهبه عشرة آلاف دينار، ومرة أخرى حمل ابن حميد المال، واصطفت الأكياس تحت أقدام حسنويه، فهتفت به:

ـ ما أضعف إحساسك بالزمن، لقد تبددت المهلة الثانية كسحب الصيف!

كان الحرس متيقظين، حين حاولت الهرب قبضوا عليها،

وضحكت بغداد في خشونة، ونصحه أصدقاؤه، بهذا المال تستطيع شراء جيش من الجواري الروميات والحبشيات، لكنه يريد «فضل» ولا شيء سواها، وكان أبلهَ لدرجة كافية فذهب إلى الخليفة، وقف بين يديه يحكي عن حبه الذي تقتله أطماع حسنويه، فسأله:

ـ أي شيء تُشبه «فضل»، هذه التي أصابتك؟

قال ابن حميد:

ـ تشبه حلمًا غامضًا، وتشبه كل لحظات العذاب والشوق، وتشبه قطر الندى.

ووعد الخليفة وعدًا غامضًا، وفوجئ حسنويه بموكب الخليفة يدق بابه، وشعر بالراحة حين لم يجد ابن حميد في ركابه، وقال الخليفة في لهجة محددة:

ـ أخرج لنا «فضل» لنرى حاجة ابن حميد.

وأسرع يضع على وجهها اللمسات الأخيرة، وفكر: هذا الخليفة المجنون يريد أن يعطي هذه الدرة لشاعر مفلس؟! وعندما أقبلت «فضل» فوجئ الخليفة بذلك التألق الذي يشع منها، وازدادت تألقًا وهي تقول أشعارها الحزينة، كانت تحاول أن تستميل الخليفة، عله يرفع إصبعه الذي فيه شارة الحكم ويأمر بأن يتوقف هذا اللهاث، لكنه قال:

ـ أما سعيد بن حميد فسوف يكون عاملي على خراسان، وأما «فضل» فستكون زينة قصري.

وشهقت «فضل»، وقفز حسنويه فرحًا، وغارت الأقمار الملونة، لقد حققت الخمسة عشر دينارًا أقصى استثمار لها.

لا أحد يعرف أين ذهب ابن حميد، قالوا إلى خراسان، وقالوا بل طفت جثته فوق دجلة، وقالوا إنه في زنزانة مفردة في سجن «التنور»، لكن الشيء المؤكد أن «فضل» سيقت إلى قصر الخلافة، ورأت شقائق النعمان تملأ الحديقة كأنها جروح نازفة، وتطلعت إليها الجواري في حسد، كن جميعًا أجسادًا جميلة، وحناجر قوية، وأنوثة لا تقاوم، لكن «فضل» كانت عقلًا فريدًا، شاعرة حقيقية، وعاشقة بلا أمل، هتفوا بها:

ـ أسمعينا أشعارًا يا «فضل».

زاد شعورها بالغربة، للحرير ملمس الشوك، وللشراب طعم العلقم، ظلت صامتة أمام الخليفة، قادها إلى غرفته فكانت المعركة خاسرة، رفضته، ورفضت عرش الخلافة، ولو شاءت لصعدت وحكمت وأمرت بما تريد، كانت قد خُدعت، استولى عليها بغتة، فليحدث ما يحدث لابن حميد، ليقبل الولاية، أو يشتري جيشًا من الجواري، لكنها لن تُسلِّم نفسها، مهما هددها الخليفة، أو وضع اللآلئ تحت قدميها، مهما ازدادت درجة جنونه وولهه بها فسوف تبقى نائية، لعلها تحصل على سلامها الداخلي.

ويئس الخليفة منها فأعطاها للحرس، وقادها الحرس للسجن، وضعها السجان في قبو مظلم، وتداخل الليل والنهار والرطوبة وقرض الفئران ولدغات البراغيث، وألقوها على ظهرها وجزُّوا جدائلها الطويلة للمرة الثانية، ولم تكن تملك سوى أن تحلم، بسبع شموس ملونة، وبسبع زهرات من شقائق النعمان، وبسبعة آباء وأجداد تنتسب إليهم، ولم تحلم بابن حميد.

وظل الخليفة يتوقع أن تلين قليلًا، وعندما خشي أن تموت داخل

السجن أمر غلمانه فأخرجوها وأعادوها إلى القصر دون مطلب محدد، وأشركها في مجالس الشعراء والمغنين لعل شيئًا من مرح العالم يتسلل إليها، وهكذا، قُدِّر لها أن تراهم مرة أخرى.

الإخوة الخمسة، لم تتغير ملامحهم برغم كل هذه السنين، كما تطاردها في الكوابيس، كانوا أمام الخليفة، وأجسادهم العملاقة بدا عليها هزال غريب، ارتعدت، تخيلت أصابعهم وهي تمتد إليها وتعيدها إلى صحراء الكراهية، لتبيعها مرة أخرى، إلى نخاس آخر، وكان أكبرهم يتكلم:

ـ رحماك يا مولاي، خمس سنوات من الجدب والمجاعة، بلاد اليمامة قفر وكلنا في عوز وحاجة!

هيئتهم مثل كلماتهم رثة، حيوانات زاحفة تبحث عن شيء تلعقه، كانت بغداد كلها مليئة بأفواج القبائل الرثة الجائعة بعد أن لفظتهم الصحراء القاحلة، قال الخليفة:

ـ إذا كان الغد، تعالوا إلى مجلسي.

قبَّلوا الأرض تحت قدميه وارتدوا، و«فضل» لا تكف عن الارتعاد، نهضت، ثم سارت إلى جناح الخليفة، لقد جاءت لحظتها أخيرًا، وحين توجَّه هو إلى جناحه وجدها في أتم زينة، وعطرها حار كنداء الرغبة، ورق صوتها للمرة الأولى:

ـ أسعد الله يومك يا مولاي.

تطلع إليها في دهشة، ثم تساءل:

ـ ماذا حدث للظبية النافرة؟

ضحكت بصوت رائق وقالت:

ـ فلنقل إنها مَلَّت المطاردة.

قال الخليفة:

ـ قول غير مقنع!

ساد الصمت، وكل منهما يتحسس الطريق إلى الآخر، فتحت قنينة العطر ونثرت قطرة على وجهها وقطرة على لحيته، ثم قالت:

ـ وهل يقتنع مولاي إذا قلت إنني أريد أن أعقد صفقة بيننا؟

وصمت الخليفة، تلوى جسدها داخل ثيابها الشفافة، اقتربت بوجهها من وجهه وهمست:

ـ هؤلاء الخمسة من بلاد اليمامة، هم قُطاع الطرق الذين اختطفوني وباعوني إلى حسنويه، وأنا أطالبك بعقابهم.

ضحك بصوت جاف، ابتعد برأسه لعله يبتعد عن تأثير أنفاسها، قال:

ـ ذلك أمر مضى، لا دليل عليه ولا بينة.

قالت فضل:

ـ الدليل هو أنا، والبينة هي كلماتي، والجرح لا يندمل مهما مضى عليه!

تردد الخليفة:

ـ إنهم رجال من بني القيس، أنسابهم معروفة، وعاملي على اليمامة يعرفهم.

قالت في صوت خافت مبحوح:

ـ هذه صفقتي يا مولاي، دعهم يأخذون عقابهم في التنور، وانسَ أمرهم قليلًا، أكون لك، دون قيد أو شرط.

همهم الخليفة:

ـ دون قيد أو شرط؟

ثم هتف وهو ينهض مبتعدًا:

ـ كلا، ليس دون بينة، أو قاضٍ.

وتركت فراشه صامتة، تركت خلفها العطر والرغبة المحمومة في نفس الخليفة، وجاء المساء وقد غلفها الصمت البارد، ورمقها، فأدرك أنها لن تأبه به مرة أخرى، وفي الصباح جاء إليها غلامه وهو يقول:

ـ يطلب منك مولاي أن تحضري مجلسه.

توجهت إلى القاعة، رأت الإخوة الخمسة واقفين، كانت سافرة كعادتها، وتأملوها لبرهة ثم أحنوا رؤوسهم، هل تعرفوا عليها؟ سألهم الخليفة في غلظة:

ـ اذكروا أنسابكم.

أدهشهم السؤال المفاجئ، ثم ذكر كل واحد نسبه، هي الوحيدة التي نزعوا نسبها، وحولوها إلى سلعة رخيصة، وصرخ الخليفة:

ـ أنساب كاذبة، منتحلة، أنتم حفنة من قُطاع الطرق!

برقت عينا «فضل» في انتصار، دارت عيونهم في فزع، حطت عليها لبرهة وجيزة، هتفوا:

ـ ولكن يا مولاي، قومنا والجفاف!

وصرخ الخليفة:

ـ يا حُراس، خذوهم إلى التنور، لا أريد أن أسمع عنهم شيئًا بعد الآن!

وأحاط الحرس بهم، بأسمالهم ومخالبهم وكوابيسهم، نظروا مرة

أخرى، لعلهم كانوا يتساءلون عن هذه النظرة المنتشية على وجهها، اقتادوهم وهم يتأوهون كالحيوانات، يحاولون الدفاع عن أنفسهم بكلمات متقطعة، وأصبحت القاعة خالية فجأة، كانت «فضل» ما زالت تحلم، والخناجر تسبق حلمها: «تمت الصفقة يا مولاي، وعليَّ أن أدفع الثمن، والصفقة على أي حال خاسرة، خاسرة حتى الموت!».

٢٩

إسحاق الموصلي

مَن يبيعني روحًا ليست بذات جروح؟!

انحنى الخادم أمامه، ثم قال:

ـ سيدي، جاء الرجلان.

أمره إسحاق الموصلي أن يُدخِلهما فورًا، أطفأ المصابيح، وأسدل الستائر لأن النجوم كانت متألقة أكثر مما ينبغي، وجلس يرتعد، يسمع خطواتهما القادمة، حتى وقفا أمامه بلا حراك، ثم أخذ يسمع صوت أنفاسه الثقيلة، فتح الأبواب ونظر خلفها، فتح النوافذ والمشربيات، لم يكن هناك سوى إسحاق الموصلي؛ الآخر الموجود في داخله، والغريب عنه في نفس الوقت، والرجلان يقفان في توحد مع الصمت والظلمة، وفكر: يحسن بمن كان في مثل مركزي أن يتماسك قليلًا. لذلك صاح متظاهرًا بالمرح واللامبالاة:

ـ هل تريدان شرابًا أيها السيدان؟

ولم يردا عليه، فأوشك أن يصرخ، جرى وهو يحاول التماسك إلى صندوق النقود وأخرج كيسين كبيرين، ألقاهما تحت أقدامهما،

وأخيرًا تحرك أحدهما، وأخذ الكيسين ودسهما تحت عباءته، وقال الآخر بصوت حاد كحافة السكين:

ـ مَن هو؟

همس به إسحاق، بالاسم كأنما يحدث نفسه:

ـ زرياب.

ـ ما عمله؟ وأين نجده؟

هتف في دهشة:

ـ ألا يعرفه أحد منكما؟ إنه تلميذي.

وظلا صامتين، وأصبح عليه أن يواصل حديثه المضطرب وحده، لم يكن مضطربًا بالمعنى الدقيق للكلمة، كان فقط يحاول منع إسحاق الموصلي الآخر من أن يتحدث بكل هذا الحقد وهذه المرارة، والرجلان متوحدان داخل الظلمة، حتى إنه خشي للحظة أنهما غير موجودين، وأنه يتحدث مع نفسه، هتف فجأة:

ـ يا أصدقائي إنني لست خائفًا، المشكلة أنني أكره عدم الوفاء، لقد كان تلميذي ومريدي.

أزاح الستائر فرأى بغداد مثل أرملة وحيدة، سار إلى غرفة جاريته «دمن»، أحب جواريه إلى قلبه، كانت ساهرة، تحس بما يؤرقه، ألقى بنفسه جانبها وهو يهتف:

ـ قلبي مُثْقل الليْلة يا «دمن»!

مسحت بيدها البيضاء على جبهته، وابتسمت، رسمت على شفتيها قمرًا صغيرًا، وفكر: إن زريابًا سوف يتحلل جسده في التراب وهو وحده سوف يتحمل كل العذاب، سألها:

ـ هل تمنيت قتل أحد؟

هتفت دون تفكير:

ـ نعم، النخَّاس الذي باعني، وهل هناك غيره؟!

الآن يستل الرجلان خنجريهما، الآن يصرخ زرياب متألمًا، لعل صرخته تصل إلى هنا، قال في سرعة:

ـ غنِّي شيئًا يريح قلبي يا «دمن».

أمسكت العود، رددت الألحان التي علَّمها إياها، ألحانًا ماسخة، وكلمات ركيكة بلا معنى، ولكن صوتها يختلط بصوت غريب، بزرياب وهو ينادي عليه في الليل الساكن، فتسمع بغداد كلها النداء والصرخة، فعاد يهتف بها:

ـ كفى، لم أكن أعرف أن ألحاني بمثل هذا السخف!

تركت العود دون مناقشة، كأنها تزيح عبئًا، لم تبذل أي جهد من أجله، من أجل أن تنتشله من داخله، ورأى إسحاق الخناجر وهي تخترق جسد زرياب الأسود، فتخرج دماؤه سوداء تختلط بليل بغداد الأسود، وتذوب الجثة فتصبح ترابًا أسود، ويضيع الوزر، و«دمن» ترقبه في هدوء قاتل، قال لها:

ـ لاعبيني النرد.

أحضرت النرد، وأخذا يتبادلانه بينهما في صمت، ونهض إسحاق، خلع عباءته وفك حزامه، ولم تتبعه «دمن»، ظلت تحدق فيه، مدت يدها في حركة متوسلة وهمست:

ـ سيدي، أنا عاشقة، وأريد أن أصون جسدي من أجل عاشقي.

التفت مندهشًا، تأمل وجهها الذي كان مستكينًا وأصبح الآن رافضًا، خُيل إليه أنه لم يرها من قبل، همهم:

ـ ماذا؟ مَن؟

همست بآخر اسم كان يتوقعه:

ـ زرياب.

هل صرخ؟ هل سمع أحد الصرخة؟ هل استيقظت بغداد؟ أين غاص الخنجر؟ زرياب، أيها الطائر الأسود الضال، لماذا بنيت عشك على نافذتي، والتقطت حبك من دم شراييني، حين وقفت بوجهك الكئيب وثيابك الرثة، وركعت، ومرغت وجهك في عَرَق أقدامي، وتوسلت إليَّ: «مولاي، علمني».

لحظتها، اكتشفتك أيها الوغد الموهوب، جوهرة لا تخفى قيمتها حتى على مبتدئ، كان قدري أن ألتقطك، وأعلمك، وأخافك!

وسار إسحاق إلى مجلس الخليفة متأخرًا، اكتشف أن الجميع قد سبقوه في الدخول، لكنه تقدم صوب العرش دون أن يلتفت إلى أحد، كان مركزه يؤهله لهذا التقدم المباشر.

قال الرشيد:

ـ جئت في وقتك يا أمير الغناء، احكم بيننا على هذه الموهبة الجديدة.

ورفع إسحاق رأسه فرأى الأمراء، والقادة، ورجال الحاشية، والشعراء، وزريابًا، يراقبه وعلى وجهه ابتسامة مليئة بالتشفي، كيف وصل؟ كيف وقف أمام العرش؟ وسأله الرشيد:

ـ هل تعرفه؟

تلجلج إسحاق وهو يحاول الإجابة، وتقدَّم زرياب، ببرود قاطع:

ـ أنا تلميذه يا مولاي، وأنغامي كلها فضلٌ منه.

من أجل ذلك كان لا بد من قتله، لأنه أرغم إسحاق الذي في

داخله على أن يثني عليه أمام الخليفة، إنه يظهر التواضع والسماحة الزائفة، وأمره الرشيد أن يناوله العود، وأخرجه إسحاق من جرابه وأصابعه ترتعد، قدمه إلى زرياب لكنه لم يأبه به، ترك يده معلقة في الهواء، واستدار قائلًا:

- يا مولايِ، لي عود نحتُّه بيدي وأرهفته بإحكامي، لا أرتضي غيره.

وسأله الخليفة متعجبًا:

- ما منعك أن تستعمل عود أستاذك؟

- إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي.

وإسحاق واقف كالأبله، والطائر الأسود يغرس منقاره في لحمه، وأحضر العود فرأى الخليفة أنه لا يختلف، لكن إسحاق رآه، وعرف سر إصرار زرياب، واختفائه كل هذه المدة.

وضرب العود ضربة واحدة، نغمة واحدة، ثم غنى، تنقل بين الأصوات كأنه يسبح مع موج، يعلو وينخفض، يفتح كل جراحات القلب، وارتعدت أحجار القصر، وسكنت بغداد، وكفت الأسواق عن البيع والشراء، وكفت السُّحب عن السفر، زرياب يغني، وإسحاق يتضاءل، يتبدد، كيف صنع هذا العود؟ وأي شيطان ركَّب له أوتاره؟

وعندما توقف ظل الخليفة صامتًا، والمجلس محتبس الأنفاس، هتف الخليفة ينادي إسحاق فأدرك أنه سوف يأمر بقتله، لكنه قال:

- كان يجب أن أعاقبك لأنك لم تخبرني بأمر زرياب من قبل! اعتن به أكثر حتى أفرغ له، إن له معي شأنًا كبيرًا.

انحنى إسحاق، وابتسم زرياب، واحتضن عوده ومضى، بعد كل هذا كيف لا يقتله؟

دخل إسحاق ذات مرة إلى مجلس الخليفة، كان أبوه إبراهيم الموصلي عنده وفي مجلسه عشرون جارية، عشر عن يمينه وعشر عن يساره، وفور أن دخل سمع خطأ في اللحن، في عود ما، أو وتر ما، قال دون تردد:

ـ هناك خطأ يا مولاي.

ونظر الخليفة إلى إبراهيم فقال:

ـ لا يوجد خطأ.

وأصر إسحاق، حدد الخطأ في الجهة اليسرى، واستمع إبراهيم إلى عزف الجواري العشر، وأكد أنه لا خطأ، وأمر إسحاق الجواري العشر أن يمسكن وتضرب الثامنة، وأقر إبراهيم بالخطأ حين عزفت الثامنة وحدها، وقال الخليفة وهو يرمق إسحاق في إعجاب:

ـ يا إبراهيم، لا تجادل إسحاق بعد ذلك، إن رجلًا فهم الخطأ بين ثمانين وترًا، وعشرين حلقًا لجدير ألا تجادله.

كان هذا قبل أن يظهر الطائر الأسود، ويرفض عوده، ويبدد أصواته.

قالت «دمن» وهي تسترد النرد:

ـ لو شئت قتلتني يا مولاي.

تأوه إسحاق وهو يرتدي عباءته، ويربط حزامه:

ـ ما أكثر القتلى هذه الليلة!

خرج من غرفتها، انحنى الخادم أمامه، قال له:

ـ أحضر جوادي وجهزه للركوب.

وفكر في نفسه: سوف أذهب إلى الخليفة، وأعترف بكل شيء.

مات أبوه إبراهيم الموصلي، وفي عظامه برودة السجن، والخوف من التشرد في الأزقة، وحين أمسك إسحاق بعوده اتهموه بأنه يسرق ألحان أبيه. لم تسمع آذانهم الصماء إلا نشازات الوتر، فيا ويح قلبي، أين منها تلك النار التي تحرقني ولا تخبو؟ وذلك الجوع الذي يعضني؟ أغلقت أبوابي وأسدلت ستائري، أمرت الخدم ألا يُدخلوا عليَّ أي مخلوق، وما إن خلوت إلى نفسي حتى رأيت أمامي، ذلك الماخوري اللعين، شيخًا يتوكأ على عصا مطعمة بالفضة، على رأسه قلنسوة ملونة وفي قدميه خفان لهما نفس الألوان، تتداخل ملامحه في لحيته، وتتداخل لحيته في ثيابه وعباءته، طوح الكأس بضربة من عصاه وأمرني بالغناء، فأخذت أغني، أخرج كل عصارة قلبي، وكل أحزاني، ولم تفارق نظرة السخرية وجهه، هتف بي:

ـ يا لك من حيوان أعجم، أهذا غناء؟

وأخذ العود وغنى هو:

ولي كَبِدٌ مَقروحـةٌ مَن يَبيعني بها كَبِدًا ليسـتْ بِـذاتِ قُروح

فوجدت أن الجدران والأبواب والسقوف وكل من في البيت يتجاوب ويغني معه، بل إن أعضائي وثيابي وأنفاسي تجاوبت معه، إنني أتحلل وأبكي وأزحف على أربع، وأُقبِّل قدميه، وأعود، أفتح النوافذ، وأحس بخشونة الحبال حول عنقي، وبأيدٍ تجذبني إلى قاع دجلة البارد، وألقى الماخوري بالعود وأمرني بالغناء، فبكيت، قلت:

ـ ليتني أستطيع يا سيدي.

ضربني بعصاه، كان رأسي قد انفلق، أخذت أغني، وأغني، حتى تفتتت النجوم وتلونت الأقمار، وهتف بي:

ـ غنِّ يا إسحاق غناءً حقيقيًّا.

وضربني ضربة أشد، فغنيت حتى تواصل الليل النهار، تفتحت كل الزهور، ونضجت كل فتيات الأرض واشتقن للحب والجماع، وغنيت حتى فتحت الممالك دون سلاح، غنيت مرارتي وحرماني، فخرجت البرودة من عظام أبي، وانفك قيد الرق عن معصم أمي، غنيت «دمن» التي اشتريتها وعبدتها، وغنيت خوفي القاتل من زرياب، وهتف الرجل:

ـ لقد غنيت أخيرًا يا إسحاق غناءً حقيقيًّا، ولن تغني بعدها أبدًا.

وكاد يمضي، فهتفت أتوسل إليه أن يقول لي مَن هو. فابتسم وهمس لي:

ـ أبشر يا إسحاق، كان الشيطان نديمك هذه الليلة، لقد أخذت روحك وأعطيتك المجد.

فكيف خسرت الصفقة أيها الماخوزي، وسرق الطائر الأسود مجدي؟

انحنى الخادم أمامه وقال:

ـ الجواد مُعدٌّ يا مولاي.

وقبل أن يستعد للنهوض، رُفعت الستارة الموجودة على الباب، ودخل زرياب، ووقف أمامه لا غاضبًا لا مبتسمًا، قال في هدوء كأنما يقرر أمرًا واقعًا:

ـ لقد نجوت من القتل!

وقال إسحاق بصراحة مطلقة:

ـ هذا أمر يؤسف له!
قال زرياب:
ـ إن رجليك لم يخدعاك، لكن الحظ حالفني هذه المرة، هذا الحظ الذي نادرًا ما يحالفني.
وارتمى على إحدى الوسائد وهو يتنهد، ووقف إسحاق، وعندما ساد الصمت بدأ يرقبه، هتف:
ـ هذا يزيد الأمر تعقيدًا، لو تم القتل لمر كل شيء ببساطة متناهية، تذهب دون مشاكل وتُنسى دون أثر.
وتأوه زرياب وهو يهمس:
ـ إني خائف!
وصاح إسحاق كالمستغيث:
ـ أيها الوقح، كيف تأتي إليَّ وأنت تعرف أنني الذي حرضت على قتلك؟ ماذا تريد أن تفعل بي؟ تريد أن تجعلني أواجه نفسي؟ تريد أن تظهر السواد الذي في داخلي؟ إلى متى ستستمر في إيذائي؟
قال زرياب وهو يكاد يبكي:
ـ لست أدري، إنني خائف فقط، وخوفي مميت، كأنني أولد من جديد ولم يُقطع خلاصي بعد!
ونهض إسحاق جالسًا، وأخفى زرياب وجهه بين يديه، خُيِّل إلى إسحاق أن «دمن» قد دخلت وجلست عند قدمي زرياب، وغسلتهما بماء الورد، ثم حملت الإناء ومضت، وخُيِّل إليه أن زريابًا يبكي، تجاوز غيظه ونهض يهدده:
ـ لا أنكر أنني أكرهك، ولا حيلة لي في ذلك، لقد مكرت بي،

وأردت أن تعلوني، حتى العود تركته في يدي مثل بومة ميتة، حتى لو كنت ولدي، لكرهتك بنفس الدرجة، وليس أمامك وأمامي إلا حلان: إما أن تذهب عني في الأرض الواسعة لا أسمع لك خبرًا، وإما أن تقيم في بغداد على كرهي ورغمي، مستهدفًا لسهامي، فإني لا أُبقي عليك ولا أدع لاغتيالك سبيلًا.

وتساءل زرياب بهدوء:

ـ إلى أين تريدني أن أذهب؟

ـ بعيدًا، لا إلى الشام، ولا إلى مصر، ولا إلى أي بلد يظللها ملك بني العباس، اعبر البحر إلى الأندلس، غنِّ لبني أُمية، لآذانهم الصماء.

ونهض زرياب، وهو يهمهم:

ـ لا مفر. أريد أن أعيش وأُغني. سوف أرحل الليلة.

كان ضعيفًا، مهزومًا، منكسرًا دون أي مبرر، نهض مترنحًا، وسار خارجًا حتى غيَّبه الليل.

هل أشعلت بغداد أضواءها، أو أن هذا الصباح قد جاء أخيرًا؟ ليل أو نهار لا يهم، لقد أصبحت له وحده، فهل أنت يا إسحاق، إسحاق؟

أرغمتَ «دمن» وأخذت منها ما تريد، وغنيتَ للخليفة فوهب لك ضيعة وجوادًا وجارية، وحين سأل عن زرياب تحدثت عن غدر العبيد، وكيف يفرون إلى خرائب بني أُمية، وأخذت تصعد، وتواصل النبش في جحر الفأر المسمى بغداد، ويشرب الجميع طربًا لألحانك الناشزة، وأنت وحدك تعرف متى يغني زرياب، حين يتداخل البرق والرعد وتفيض الأنهار في الربيع وتهاجر العصافير،

لحظتها يغني زرياب، أنت وحدك تعرف، لأن الخليفة لا يسمع، والأمراء لا يسمعون.

قال إسحاق للخليفة المأمون:

ـ لا أريد أن أدخل مجلسك مع المغنين، أدخلني مع الشعراء.

فوافق الخليفة، وارتفع إسحاق درجة، ثم عاد يلح عليه:

ـ أدخلني مع القضاة.

فوافق الخليفة، وارتفع إسحاق درجتين، وألح أكثر وأكثر:

ـ أدخلني مع الفقهاء.

فوافق الخليفة، وارتفع إسحاق ثلاث درجات، وكان لا يزال جائعًا، فتوسل للخليفة أن يدعه يصلي خلفه في المقصورة، وزمجر الخليفة من الغيظ، وجعله يهبط كل الدرجات ويعاود الدخول مع المغنين.

وخرجت من عنده أهز كتفي، واختتمت ليلتي باغتصاب «دمن»، وفي الصباح وجدتها مُعلَّقة في حبل، والحبل يتدلى من السقف، وجهها أزرق، وجسدها بارد.

يقولون:

ـ يا إسحاق، لماذا أنت حزين هكذا؟

فأقول:

ـ لقد أضنيت نفسي من فرط الاشتهاء، وحملت روحي عبء طموحي، وغيَّبت «دمن» في بئر لا قرار لها، تمنى الخليفة الواثق أن يوليني قضاء بغداد لما عرف من عفة لساني وصدق نفسي، وها هي محكمة الموتى معقودة فوق قبر «دمن»، ودافعت عن

نفسي، إن زريابًا كان ضعيفًا أكثر مما ينبغي، منهزمًا قبل أن تبدأ المعركة، ومع ذلك حكموا بإدانتي.

وفي منتصف الليل طرق خادم الخليفة بابي، هتف بي:

ـ مولاي هارون الرشيد مؤرق، ويريدك على الفور.

أخذت عودي وسرت إلى القصر، وسمعته وهو يصيح مثل طفل مشاغب:

ـ أريد المغني، أريد الموصلي.

وارتميت على الأرض أمام سريره، وهتف الخليفة في توجع:

ـ غنِّ يا إسحاق، قل أغنيات الموتى التي تعرفها.

أمسكت عودي، لكن الريشة انقَصَفت، كل ما معي من ريش قد انقصف، وكل ما في بغداد من حمام قد ذُبح، توسلت إليه:

ـ لا أستطيع العزف يا مولاي، لا يوجد ريش!

وتناول الرشيد من منضدة بجانبه خنجرًا مرصعًا بالماس، صاح وهو يلقيه إليَّ:

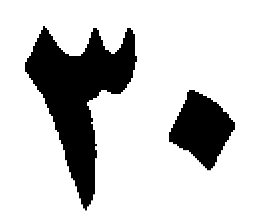
ـ اعزف بهذا.

ومررت بالخنجر على الأوتار، فتمزقت كلها، ونظر إليَّ الخليفة ببلاهة غاضبة، قلت:

ـ لم تبقَ إلا شراييني أصنع منها أوتارًا!

غرست الخنجر فسال دمي قانيًا كرغبة لا تشبع، وأخذت أغني، قطرة، فقطرة، والخليفة ينصت راضيًا، وعندما أوشك دمي على النفاد، هتف:

ـ هذا حسنٌ يا إسحاق، ولكنني الليلة، كنت أحلم بزرياب!



عبد اللّه بن المعتز
خليفة ليوم واحد

«أشقى الناس، جسم تعب ونفس خائفة».

كانت بغداد مثل سهم مسموم، لا يدري أحد من أطلقه، ولا إلى أين ينطلق. وابن المعتز يردد هذه الكلمات، وخلفه الأعوان، خليط متنافر من الشعراء والأفاقين والترك والديلم، كلهم يدفعونه دفعًا إلى قصر «المخرم» كأنهم يدفعونه إلى نهايته.

هذا هو العام السادس والتسعون بعد المائتين، واليوم هو الخميس التاسع من ربيع الأول، والموتى أكثر من عدد الأيام، والجميع متوجه إلى قصر «المخرم» بعد أن عجزوا عن اختراق قصر الحسن حيث تحصَّن الخليفة المقتدر، وجاريته «ظلوم»، ووزيره ابن الفرات.

استوى ابن المعتز على العرش أخيرًا، لم يكن عرشًا بالمعنى المفهوم، كان مجرد أريكة أحضروها من أحد أركان القصر المهجور، وأنزلوا ما عليها من أتربة، وظل ما في داخلها من حشرات صغيرة تزحف على جسد الخليفة وثيابه طوال مدة جلوسه لأخذ البيعة.

أسرع غلمان الترك وأحضروا قاضي بغداد أبا الشوارب، قادوه للقصر دون أن يبالوا بالرد على أسئلته، وعندما وصل إلى القصر تقدم منه ابن حمدان والسيف متدلٍّ من خاصرته، وأمره قائلًا:

ـ استعد لمراسم بيعة الخليفة الجديد.

تساءل الشيخ في بلاهة:

ـ وماذا حدث للخليفة المقتدر؟

وكان الجواب دفعة قوية في صدره، ونظرة حادة من عيني ابن حمدان، وكان الخليفة الجديد ابن المعتز جالسًا على الأريكة مرتبكًا كطفل، خائفًا كفأر مذعور وقع في مصيدة، وأخذ القاضي يسأله عن نسبه حتى وصل إلى الجد الأكبر العباس بن عبد المطلب، وانتهى من مراسيمه الابتدائية ليعلن أن النسب صحيح، والسند الشرعي متوفر، وحين رأى السيوف متحفزة صاح:

ـ إن خليفة الله في أرضه هو أبو العباس عبد الله بن المعتز، خليفة المسلمين وسليل العباسيين، وكنيته الخليفة الراضي بالله.

وهكذا أصبح على وجه الأرض خليفتان، فأيهما أحق بالبقاء وأيهما أحق بالموت؟ ووقف وجهاء المدينة كل واحد ينقض بيعته القديمة ويؤكد بيعته الجديدة للراضي، ونهر دجلة لا يتوقف برغم ما في جوفه من جثث، كذلك لا تقف الأرض بما عليها من مقابر، فيا أيها النجم البعيد كن شاهدًا عليَّ، إن الأتراك الذين قتلوا أبي وقتلوا جدي، يقفون الآن خلفي ليقتصوا بيعتي بسيوفهم.

تقدم ابن حمدان، القائد الأفاق، هذا السيف المعلق في خاصرته يبيعه لمن يدفع الثمن أكثر، حارب مع العباسيين ضد القرامطة،

وحارب مع الطولونيين ضد العباسيين، وها هو الآن ينكص عن بيعته للمقتدر ويهتف لابن المعتز:

ـ من أجل المسلمين، ومن أجل خليفة راشد، عاقل، أعطي بيعتي وأبرم عهدي.

وأعطاه ابن المعتز الثمن فورًا، عينه أميرًا للجيش، وتقدم ابن الجراح، لعله كان الصادق الوحيد، ولعل كل كلماته كانت هي الكلمات الصادقة الوحيدة، وعندما بايع واستدار لينصرف، أعطاه الوزارة، فبدت على وجهه علامات الدهشة الحقيقية، ثم تقدم «عمارويه»، جاسوس الوزير، وعين الترك في مجالس العلم والفقه في بغداد، بايع بكل الإخلاص، وظل واقفًا حتى انتزع ولاية الشرطة من فم ابن المعتز، وتوالت بيعة الجميع، وتفرقت مناصب الدولة، أثمانًا باهظة لبيعة بخسة وأريكة مليئة بالحشرات.

وأحس ابن المعتز أنه وحيد، يصرخ فلا يسمعه أحد، مثلما قال الشعر قديمًا وألَّف الكتب، وكانت النتيجة السخرية من هذا الأمير الذي فشل في لعبة السياسة فلجأ إلى القلم وظل يطوف ببصره في الموجودين ثم نهض صائحًا:

ـ أين ابن جرير الطبري؟

ونظروا إلى بعضهم في دهشة، وتقدم ابن حمدان وهو يقول:

ـ الطبري مجرد رجل من رجال العلم، وليس لبيعته أهمية تُذكر.

لكن الخليفة ضرب الأرض بقدميه:

ـ بل لها أهمية، هي أكثر أهمية من كل هذه البيعات مجتمعة.

ونهض جالسًا، فأوشكت الأريكة على التداعي، وصرخ في

داخله، اكتب بيعتي يا طبري، وهبني سطرًا من التاريخ، منذ أربعة أشهر عندما مات الخليفة المكتفي جاء الترك بالمقتدر وهو غلام لم يبلغ الثالثة عشرة، غالطوا في حساب عمره ليثبتوا أنه قد بلغ قبل البيعة، يومها ذهب ابن المعتز إلى الطبري، وسأله:

ـ هل كتبت هذه البيعة الجديدة؟

لحظتها ابتسم الطبري وترك ريشته في الدواة وهو يقول:

ـ إنما أكتب عن أحوال الزمان يا أمير، وخلفاء اليوم كريشة كتابتي سرعان ما تنقصف.

ـ فمتى تنقصف سني يا طبري؟

في السنة الرابعة من خلافة أبي المعتز اجتمع غلمانه الترك وقتلوه، وحين حملوا رأسه إليَّ لم يكن يشبهها وهو على العرش، واعتلى العرش عمي المعتمد فأصدر قراره بنفينا أنا وأمي وجدتي عن بغداد، وماتت أمي، وماتت جدتي وهي تقول:

ـ لا تنس أبدًا أنك خليفة.

حتى وأنا أستجدي يا جدتي؟ أمدح الخليفة فيأمر بالعطاء، ولكن الوزير يمنعه، أمدح الوزير حتى تزهق روحي، لكن كاتب الديوان يوقفه، فأمدح الكاتب، وأمدح الخادم، وأمدح الشرطي التركي، ويصلني عطائي في النهاية مثل عصفور مقصوص الجناحين، ثم سعيت إلى «سُر مَن رأى»، ثم إلى بغداد، واجتمع عندي شركائي في البؤس؛ الشعراء، والفقهاء، وكنت بينهم يا طبري، بعينيك البراقتين، وأذنيك اللتين تسمع بهما دبيب العصر الخفي.

كنت أميرًا، صغيرًا، مغضوبًا عليَّ، إذا شربت قطرة من خمر ثار

الخليفة، وإذا زارني فقيه عَلوي غضب الوزير، وإذا لم أذكر القِرامطة بسوء في كل مناسبة تلمظ الأتراك، كنت أميرًا، ضئيلًا، مات المعتمد فتولى المعتضد وأول ما فعله هو القبض عليَّ ووضعي في السجن، ولم يتركني إلا بعد أن أعطيته بيعتي، ومات المعتضد وجاء المكتفي فوُضعت في السجن نفسه، وبايعت البيعة نفسها، ولم أكن أريد العرش، كنت فقط أريد لحظة من الأمان، وأريد «خزامي»، جارية «الضبط» المغني، نهض ابن المعتز واقفًا، فنهض الجميع، سار وسط القاعة وفكر حائرًا:

ـ هذا الليل سرعان ما ينقضي، ماذا سنفعل في الصباح وفي بغداد خليفتان؟

تقدم ابن حمدان وأمسك سيفه في قوة:

ـ سوف نحاصر «الحسن» طوال الليل يا مولاي، ونقتحمه في الصباح ونأتيك برأس المقتدر، وظلوم وابن الفرات.

وهتف الآخرون في حماس، وأشار لهم أن ينصرفوا ليكون موعدهم في صلاة الصبح، وأخيرًا، أصبح وحيدًا فتذكر «خزامي»، هبطت على قلبه مثل قطرة الندى، لقد أصبح أخيرًا خليفة، أقوى رجل في بغداد أو هكذا يُخيل إليه، فهل يستطيع أن ينتزعها من سيدها «الضبط» المغني؟ هل يستطيع أن ينتزع قلبها؟ أول مرة رآها كانت تغني من أشعاره:

حَدِّثيني يا همَّ سُؤلي ونَفسي   مَن دَهاني في الحُبِّ أو مَن وَشَى بي

منذ ذلك الحين وهو يطلبها وهي تنأى بعيدًا، لا تعطيه صدًّا، ولا وصالًا، سار في جوانب القصر الخالية، رأى أوراقه وكتبه،

هذا أهم كتاب ألفه: «طبقات الشعراء»، سجل حافل لكل شعراء الدولة العباسية من أول ابن هرمة حتى الشيرازي، لم يدع أحدًا منهم إلا ابن الرومي، ذلك الشعوبي القذر الذي هجا أباه وشمت في قتله، سوف يبقى هذا الكتاب بعد أن يزول العرش، ولن يذكر أحد مدى المهانة التي عاناها وهو يؤلف كلماته ويطلب عطاءه فلا يُستجاب له.

وهذا كتابه الثاني: «البديع»، تأملات في أيام الحزن والمنفى، وضع فيه كل أشواقه وصباباته إلى «خزامي»، كانت الكلمات تجسدها أمامه، حين يختلط شوقه إليها بوهمه في لقائها، والكتاب الثالث: «الجامع في الغناء»، فيه كل خبراته في الموسيقى والشعر والأصوات، كأنه تحدٍّ خفي لـ«الضبط» المغني سيد «خزامي»، وكتابه الرابع: «فصول التماثيل»، عن الخمر فقط، من يصدق هذا؟ حين نهاه الخليفة عن الشراب، واندس الجواسيس في الحانات والأديرة، لم يجد سوى القلم كأسًا، وسوى الورق نديمًا.

ابتسم في حزن، القلب مثقل، والليل طويل، تطلع إلى الضفة الأخرى حيث قصر «الحسن»، مظلم أيضًا، كلا القصرين والخليفتين ينتظران الصباح، وقرر أن يترك القصر وأن يهبط إلى الشارع، ارتدى ثيابه وتسلل كأنه لص، وحين لمست قدماه الوحل في طرقات بغداد تمنى لو أن له القدرة على الطيران إلى بيوت أصدقائه، إلى «الصولي» ليلاعبه الشطرنج، وقدامة بن جعفر ليقرأ معه الشعر، والطبري ليسأله عن أخبار الزمان.

وأدرك أنه لم يهبط إلا ليذهب إلى الطبري، كان يقف بالفعل مثل طفل مذنب أمام بيته، فتقدم وطرق الباب، وسمعَ وقع خطواته، ثم

فتح الباب، وبدا الطبري بلحيته البيضاء التي تصل إلى منتصفه، وقف كلاهما مذهولًا أمام الآخر، وأُرتِجَ على الطبري فأشار إلى الداخل وهو يقول:

ـ تفضل، يا...

واحتار ماذا يدعوه: سيدي؟ أم أميري؟ أم مولاي؟ أم يفتح له أحضانه كالأيام الخوالي، وزاد هذا الموقف من ارتباكهما معًا، ودخل ابن المعتز صامتًا، شاهد الورق المتناثر والريش المقصوف المُلقى على الأرض، وجلس على إحدى الحشايا، وبلع ريقه في صعوبة ثم هتف بصوت خافت:

ـ لماذا لم تحضر بيعتي؟

وتخاذل الطبري فجأة، أدرك أن الصديق القديم قد أصبح خليفة له شرطة، وجواسيس، وسجون، وقاموس خاص لكلمات النفاق:

ـ يا مولاي، لست قائدًا، ولا أميرًا، أنا مجرد ورَّاق صغير.

وأوشك ابن المعتز أن يصرخ فيه، أمسك حزمة من الورق ونثرها بعرض الغرفة وهتف:

ـ أنت لم تكتب بيعتي في أوراقك، لم تسجل تاريخ خلافتي!

ولم يستطع الطبري أن يكذب أو ينافق، ظل واقفًا وابن المعتز يجلس في الركن وهو يرتعد:

ـ أنت أيضًا، تعرف أنني ريشة على وشك القصف.

هتف الطبري في حرارة:

ـ مولاي، لم أقل هذا.

ورنت كلمة «مولاي» غريبة في أذنه، اقترب الطبري ولمس كفه

بأصابعه الملوثة بالمداد، نظر كل منهما للآخر، توشجت بينهما فجأة كل الأواصر كالأيام الماضية، وقال الطبري في صدق:

ـ أنت رجل حقيقي، متقدم في معناك، عالٍ في رتبتك، ولكن الزمن مُدبِر، والدنيا مولية، وما أرى كل هذا إلا في اضمحلال.

وهمس ابن المعتز في خوف وحيرة:

ـ هل هي نهايتي؟

وصمت الطبري، فهمس ابن المعتز:

ـ لذلك لم تكتب.

فردد الطبري صدى صوته:

ـ لذلك لم أكتب.

وأوشك ابن المعتز أن يختنق بالبكاء، فنهض وأزاح الأوراق عن طريقه وهو يهتف بلوعة:

ـ عليك اللعنة يا طبري! سوف تكتب تاريخ موتي!

وانصرف من البيت لا يدري هل يعود إلى داره القديمة، أو يعود إلى قصر «المخرم»، ووصل إلى شاطئ النهر فصرخ بأعلى صوته:

ـ لم أكن أريد.

فردد الصدى: «لم أكن أريد».

برغم أنه عرشي، امتطاه ثلاثة خلفاء غيري، واقتنص كل واحد منهم قطعة من عمري، حين قادتني سيوف الترك في المرة الثالثة لأقف أمام المقتدر، الخليفة الغلام، وأسمع ضحكات الجارية ظلوم من وراء الستر، وهكذا قلت بيعة خوفي الثالثة، لكن القاضي المثنى نهض واقفًا وقال في مواجهة كل الأصوات المؤيدة:

ـ هو صبي، ولا تجوز المبايعة له.

شعرت أنني أرتعد، قال القاضي الكلمات التي خشيت أن أقولها، رفعت عيني فوجدت القاضي ينظر إليَّ، يطالبني بالكلام، هذه هي كلمتي، وهذا هو عرشي، ولكني رأيت سيوف الترك فتخاذلت، وتركتهم يقودونه للخارج ويذبحونه، وبرغم أن الأمور قد تفرقت، ودبت الخلافات بين الكتبة ورجال الحرس القديم، وأخذت الجارية ظلوم وأم الخليفة «شغب» تدبران شؤون الحكم، فقد ظللت صامتًا محايدًا، وأعلن ابن حمدان انشقاقه، والوزير أبو العباس وفاتك العضدي، ومؤنس التركي، وجاءوا إليَّ، يعرضون العرش والخلافة، ليتني ما قبلت، ليتني ما قبلت.

وجر أقدامه إلى قصر «المخرم»، ووجد الحرس نائمين، والقناديل مطفأة، وجاء الفجر أخيرًا، بدأ أول نهار من نهارات حكمه، واحتشد القصر بالناس كأن بغداد كلها قد استيقظت في لحظة واحدة، ووقف يصلي بالناس، وابتهل طويلًا، ثم التفت إليهم وهو يقول:

ـ قد آن للحق أن يتضح، وللباطل أن ينفضح.

وهلل الجميع، وركب ابن حمدان قائد الجيش، و«عمارويه» صاحب الشرطة، وخلفهما جنود الخليفة، توجه الجميع إلى قصر «الحسن» لحسم الأمر، وأخذ الخدم يجمعون أشياء الخليفة استعدادًا للانتقال إلى القصر الجديد.

ثم تعالت أصوات المعارك، وبدأت السهام والكرات الملتهبة تملأ سماء النهر والمدينة، نظر من النافذة فرأى العشرات وهم يجرون وفي أيديهم السيوف والرايات، ولم يعرف أي جانب يؤيدون، وامتلأ النهر

بالسفن والحراقات، وسأل عن الأخبار فلم يجبه أحد بشيء، واقتحم بعض الجنود القصر ليقولوا إن الأمور لم تحسم بعد، وانصرفوا على عجل كما جاءوا، وسأل عن ابن حمدان فلم يجبه أحد، وظل الحسن أمامه كأنه يسخر منه، وسار بعض العامة والدراويش والصوفية يضربون الصنوج ويهتفون:

ـ نصر الله الخليفة.

أي خليفة يعنون؟ لم يدرِ، ظل حائرًا، مضطربًا، يحاول أن يفتح القرآن، أو يمسك السيف، وحين رفع رأسه وجد «خزامي» أمامه، هل كان يحلم؟ هتف بحرقة:

ـ «خزامي» لقد أحببتك دائمًا!

انحنت أمامه، مدت ذراعيها كأنما تتعرض لشيء مجهول، وهتفت:

ـ مولاي، لقد مات ابن حمدان وفر جنوده!

وهتف في حيرة:

ـ ماذا؟ هل انهزم الخليفة، وانتصر الخليفة؟

قالت:

ـ عليك بالفرار سريعًا، إنهم يطلبون رأسك.

كانت السفن توجه مقدمتها نحوه، وجنود الترك يطوفون الحواري، وبغداد مثل امرأة توشك أن تلد سفاحًا، وهتف في يأس:

ـ ابن حمدان لم يمت، لقد انتصر على القرامطة، وحارب من أجل الطولونيين، لا يمكن أن يموت دون ثمن مناسب.

ولم تترك له وقتًا، جمعت ثيابه وأمواله فصرخ يريد الكتب، ولبس

عباءته وأرخى كل منهما على وجهه قناعًا كثيفًا، وخرجا حيث ربطت الجياد، وكانت الشوارع مليئة بالناس والسيوف والجثث والرايات، وابتعدا سريعًا دون أن يتعرف عليهما أحد، وسألته:

ـ والآن، أين يمكن أن نذهب؟

ها هي النهاية مثل كف مفتوح، مرسوم عليه الماضي والحاضر والمستقبل، مثل خط مستقيم، تُرى لماذا راهنت عليه «خزامي» بعد أن خسر كل شيء، أهي تعشقه، أم تعشق الموت في الهزيمة؟ امنحيني يدك يا «خزامي»، وهُبِّي كالريح واعصفي بقلبي، كان العرش قديمًا مليئًا بالعتة، وكان القلب هرمًا مليئًا بالجروح، توجها إلى دار ابن الجصاص، صديقه القديم، دق الباب في يأس، وانفتح على الفور ليرى ابن الجصاص خلفه مبهوتًا، أصفر الوجه، وهو يقول:

ـ كنت أعلم أنك ستأتي إليَّ.

تلفت في فزع ثم سمح لهما بالدخول دون ترحيب، وبعد أن أغلق الباب التفت إليه وقال في حدة:

ـ إنك لقاتلي، ولكن لا أملك طردك.

وابتسم الخادم ابتسامة صفراء وهو يهيئ لهما الغرفة، وحين أصبحا وحدهما أخيرًا، استطاعت «خزامي» أن تجيب عن السؤال الذي تأخرت إجابته طويلًا:

ـ وأنا أيضًا، لقد أحببتك دائمًا.

وأدرك أنه لم يفقد عرشه سُدى، حتى ابن حمدان نفسه لم يكن ليتقاضى مثل هذا الثمن، واستطاع أن يحلم بصوت مسموع.

ـ سوف نرحل بعيدًا، نطارد الشمس حتى نصطادها، ونعرف

من أين تهب الرياح الأربع، كان من الخطأ أنني فكرت في هذا العرش المليء بالعتة.

وبكت «خزامي» دون صوت، وقالت:

ـ أنت بائس، تعس يا حبيبي!

ولم يقل ابن الجصاص شيئًا لأحد، لم يَخنْهُ ولم يُجِرْه، كانت السيوف العمياء تحصد كل من تمسه شبهة، لذلك ركب جواده وهرب بعيدًا، لم يحتمل الخادم الأمر فأغلق عليهما الباب، وذهب إلى الترك.

ولم يسمعا ضجة الفرسان إلا وهم يقتحمون باب الغرفة، وهم يدمدمون كالحيوانات الغاضبة، وانكسر الباب، وبدا خمسة من الفرسان شاهري السيوف، وصرخ واحد:

ـ أين عدو الله؟

وألقت «خزامي» بنفسها عليه، وتقدَّم أحدهم وجذبها من شعرها وألقاها بعيدًا، وحمله الآخرون وهم ينهالون عليه بالضرب، وهتف ابن المعتز في ذهول:

ـ قُضي الأمر، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

لكن القائد لطمه على وجهه وهو يقول:

ـ معك امرأة ثم تذكُر اسم الله! سوف يُقام عليك حد الزنا يا عدو الله!

كانت هذه هي التهمة إذن، اقتادوه، وأشاعوها بين العامة، وعرضوا «خزامي» عارية الصدر بعد أن مزقوا ثيابها، وأركبوه حمارًا مقطوع الذيل، وجلس الخليفة الغلام، يسأله:

ـ أهذه نهايتك يا عدو الله؟

وأحنى رأسه قائلًا:

ـ قضاء الله على عبده.

جاء القاضي مُسرعًا، القاضي نفسه الذي أعلن خلافته، وأصدر فتوى عاجلة، يرجم الزاني حتى الموت، وطاف المنادي في الشوارع، وضعوه على الحمار مقطوع الذيل مرة أخرى، وحمل كل أنصار الأمس الحجارة، وعلت أصواتهم في زئير جائع، وهتف أحدهم:

ـ يا عدو الله!

وارتطم الحجر الأول بوجهه، وتداخل الناس والجنود والسيوف، أحس بشعور مهين، بالغ الحدة، وهبط على عينيه سائل لزج فتحول كل شيء إلى اللون الأحمر، جاء الحجر الثاني، خُيِّل إليه أنه يلمح الطبري يجمع أوراقه الملوثة بالمداد وينصرف، انهالت الأحجار، الحمار مقطوع الذيل توقف ونفضه من على ظهره، ألقاه على الأرض مُبتعدًا عنه، وتحولت المدينة إلى كائن خرافي مسعور، أخذت الأحجار تنهال عليه، والدم ينبثق من كل مكان من جسده، ومد يده عاليًا، وتقلصت أصابعه، بأنه يُشهد الجميع أن بيعته قد نقضت.

يُقدم لنا محمد المنسي قنديل في هذا الكتاب المُمتع شخصيات مختارة من موسوعة أبي فرج الأصفهاني الشهيرة «الأغاني». في هذه الصفحات يتراجع رجال السُّلطة قليلًا ليتقدم الشعراء... يخفض الفرسان سيوفهم حتى يعلو همس العشاق... يتوقف صليل السيوف حتى يتواصل إيقاع اللحن والغناء... عشاق معذبون يعيشون ما بين حرارة اللقيا ومرارة البين، وعندما يسمعون حداء القوافل يلفظون أنفاسهم الأخيرة...

يُقدم لنا محمد المنسي قنديل بأسلوبه العذب صفوة من الناس، رفعهم جهدهم العقلي عن طبقتهم العادية، بداخلهم بذرة من الطموح القلِق، يتأرجحون بين الأحلام التي يسطرونها في كلمات القصائد، وبين تقاليد الصحراء التي لا ترحم... أناس عبروا بكل صراحة عن مشاعر الهوى المستعر، والشهوة الصريحة، والرغبة في الحياة، فيُعيد لنا جمال أُنس الليالي الخوالي.

وتبقى شخصيات «الأغاني» - واقعية كانت أو خيالية - خليطًا من الحب والجنون والرغبة، تحلق عاليًا قبل أن يهبط بها مدار الوهم... ولعل هذا أحد أسرار إمتاع هذا الكتاب البديع.




9 789776 467224

